

ألــــون مونسلـــو

دراسة تفكيكية للتاريخ

ترجمة

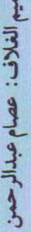
قاسم عبده قاسم

2583

القراءة التفكيكية للتاريخ والمصادر قد غيرت علم التاريخ بأسره. وفى هذه الطبعة الثانية من كتاب "قراءة تفكيكية للتاريخ" يدرس ألون مونسلو التاريخ فيما يصفه بأنه عصر ما بعد الحداثة. ويطرح مقدمة للمناقشات والموضوعات فى تاريخ ما بعد الحداثة، وهو أيضًا يقوم بمسح لآخر الأبحاث فى العلاقة بين الماضى والتاريخ والممارسة التاريخية، كما يطرح نظرياته التى تحمل التحدى.

فى هذه الطبعة الثانية التى تم تحديثها تمامًا:

- يناقش مونسلو أوجه القصور فى التفكير التاريخى والممارسة التاريخية التقليدية.
- يعيد تقييم مزاعم التاريخ بوصفه شكلاً من "التفسير الحقيقي".
- يبحث فى التاريخ التجريبى، ويعالج مضامينه بهدف إعادة التفكير فى العلم التاريخى بشكل راديكالى.
- كذلك يضع مونسلو خريطة للمجال الفلسفى، ويحدد الخطوط العريضة للمجادلات المتضمنة، كما أنه يقيم مدى جدارة الموقف التفكيكى الذى صار مألوفًا الآن.





دراسة تفكيكية للتاريخ

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2583
- دراسة تفكيكية للتاريخ
- ألون مونسلو
- قاسم عبده قاسم
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة كتاب:

Deconstructing History
Second Edition
By: Alun Munslow

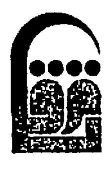
Authorised translation from the English language edition published by
Routledge, a member of the Taylor & Francis Group

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

دراسة تفكيكية للتاريخ

تأليف : ألون مونسلو

ترجمة : قاسم عبده قاسم



2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

مونسلو، ألون.
دراسة تفكيكية للتاريخ/ تأليف : ألون مونسلو
ترجمة : قاسم عبده قاسم.
القاهرة ، المركز القومي للترجمة ، ٢٠١٥
٣٠٨ ص: ٢٤سم
١ - التاريخ - فلسفة.
٢- التاريخ ٩٠١
٢ - قاسم، عبده قاسم (مترجم) .
(ب) العنوان

رقم الإيداع ٢٠١٤/٢٢٥٤١
الترقيم الدولي: 1- 965 - 718 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز .

المحتويات

كلمة المترجم

علم التاريخ قطع مسافة طويلة فى رحاب الزمان فى رحلة موازية لرحلة الإنسان نفسه، فمن مرحلة الأسطورة مضى علم التاريخ صوب المرحلة التى وصل إليها الآن. وفى أثناء هذه الرحلة الطويلة تطور التاريخ من الحكاية إلى التحليل، ومن رواية ما حدث فى الماضى إلى محاولة الوصول لفهم حقيقة الماضى، وتحليل المصادر، ومعرفة قصد المؤرخين الذين كتبوا هذه المصادر، ولم يعد التاريخ محصوراً فى نطاق الممارسة التقليدية التى تهتم بحكاية ما حدث فى الماضى، بل نشأت حول التاريخ ممارسات فكرية أخرى، مثل فلسفة التاريخ، وتاريخ التاريخ، كما ظهرت حول التاريخ نظريات تحاول تفسيره وفهمه واستخراج القوانين من أحداث الماضى، ومنذ القرن التاسع عشر ظهرت كثير من النظريات فى فلسفة التاريخ؛ كما ظهرت مناهج جديدة لمحاولة فهم الماضى.

وفى هذا الكتاب الذى نقدمه مترجمًا إلى اللغة العربية للمرة الأولى يتناول عدداً مهمًا من المناهج ومحاولات تفسير التاريخ ؛ بيد أن الموضوع الأهم فى هذا الكتاب يتمركز حول مسألة مدى محاكاة التاريخ لحقيقة الماضى، ومدى اقترابه منها أو ابتعاده عنها. ويتناول مؤلف الكتاب عدداً من الاتجاهات المنهجية ما بين محاولة إعادة الماضى «كما حدث بالفعل» ؛ مثلما يقول أتباع فون رانكه، والتفكيكية التى تنكر قدرة السرد واللغة على تقديم الماضى بصورة تقترب من حقيقة هذا الماضى. وفى خضم هذه المناقشات يتناول المؤلف موضوعات مهمة عن المعرفة، وأهمية الأدلة التاريخية، ودور السرد فى الكتابة التاريخية؛ وفى ذلك كله يتناول أهم ملامح المدرسة التى تسعى إلى بناء الماضى «كما كان بالفعل»، والمدرسة الإمبريقية المحافظة، كما يحلل موقف الاتجاه البنيوى الذى يتناول التاريخ من وجهة نظر حديثة تماماً، ثم يعرض بعد ذلك للدراسة

التفكيكية للتاريخ التى تبلورت كرد فعل تجاه المنهج البنيوى. وهنا نجد أهم المفكرين، على اختلاف توجهاتهم، من خلال عرض المؤلف لآرائهم، ومؤلفاتهم ورؤاهم فى التاريخ والماضى، ومدى اقتراب الكتابة التاريخية من الماضى أو عدم اقترابها؛ مع الاهتمام بإبراز أن التاريخ والماضى ليسا شيئًا واحداً، وإنما هما موضوعان مختلفان : فالماضى وجد ذات مرة ولكنه مضى إلى الأبد ولا يمكن استرداده أو استعادته ؛ والتاريخ يحاول وصف هذا الماضى وتقديمه، ولكنه ليس هو الماضى.

والكتاب حافل بالمعلومات الغزيرة فى مجال فلسفة التاريخ، ونظريات التفسير التاريخى، ومناهج التحليل التاريخى الرئيسية فى الفكر الغربى، كما أنه يقدم لنا عدداً كبيراً من أسماء فلاسفة التاريخ والمفكرين المهتمين بمجال الكتابة التاريخية والبحث التاريخى. وعلى الرغم من أن الكتاب الذى نقدمه فى ترجمته العربية مهم فى فهم التاريخ بوصفه علمًا، وممارسة، ونظامًا تعليميًا، فإن لغة المؤلف تتسم بقدر كبير من الصعوبة التى تمثلت فى عدم استقامة عباراته من ناحية، وميله إلى الجمل الطوال التى تكتظ بالعبارات الاعتراضية من ناحية أخرى. وعلى أية حال، فقد حاولت قدر الإمكان الموازنة بين المعانى التى قصدها المؤلف وسلاسة اللغة العربية التى تحمل هذه المعانى.

ومع هذا، فإن الكتاب إضافة مهمة للمكتبة العربية ؛ وإذا كنت أنا شخصياً قد أسهمت فى المجال الذى يتناوله هذا الكتاب الذى بين أيدينا من قبل : عن طريق التأليف والترجمة على السواء، فإننى أرى أن الكتب التى تتناول علم التاريخ، وليس أحداث التاريخ، نادرة فى المكتبة العربية بشكل يثير الانزعاج . وقد يكون من المهم تأهيل الباحثين العرب نظرياً فى مجال عملهم من خلال مثل هذه الكتب. وقد اخترت للكتاب عنوانًا قريبًا من عنوانه الأصلى على أساس أن موضوعه الرئيسى يدور حول المذهب التفكيكى فى دراسة التاريخ.

وعلى الرغم من الصغر النسبى لحجم هذا الكتاب، فإن فائدته كبيرة؛ فضلاً عن أن مؤلفه، وهو متخصص تدور كل كتاباته حول هذا الموضوع، قد أضاف إليه مسرداً بالمصطلحات التى استخدمها فى صفحات الكتاب، (وقد قمت بترجمة هذا المسرد إلى اللغة العربية ضمن ترجمة الكتاب)، كما أضاف دليلاً للقراءة فى الموضوعات التى تناولها المؤلف فى فصول الكتاب .

ومع أن الترجمة، عمومًا، عملية شاقة تستدعى حبس المترجم داخل عقل المؤلف،

وتتطلب نوعًا من التضحية من أجل طرف ثالث هو القارئ الذى يقرأ النص فى اللغة المترجم إليها؛ فإن الترجمة متعة بحد ذاتها، وقد عانيت مشقة كبيرة فى ترجمة هذا النص إلى اللغة العربية. ولكن النص العربى يجسِّد المتعة، ويمحو آثار المشقة؛ فإذا رأى القارئ الكريم أن النص المترجم مفيد ونافع اكتملت المتعة بالنسبة لى، واكتملت الفائدة بالنسبة لقراء العربية.

والله الموفق والمستعان

قاسم عبده قاسم

أول سبتمبر ٢٠١٢م

شكر وعرفان

هذا الكتاب نتاج فترة ممتدة من التدريس والتفكير فى الطرق التى يمكن بها كتابة الماضى. ومن ثم فإن كثيرا من الزملاء، ربما عن غير قصد غالبًا، قد جعلونى أعيد تقييم أفكارى باعتبارى مؤرخا. ولهم جميعا أدين بالامتنان والشكر. وكما هو الحال دائما أتوجه أخيرا بشكرى إلى جين التى كانت تعرف على الدوام أن التاريخ قصة.

(١)

مقدمة

مقاربة التاريخ

في نيتي أن أبحر في غمار الجدل المركزي الذي يدور الآن في أوساط المؤرخين عن المدى الذي يمكن للتاريخ، بوصفه علما، أن يسترد محتوى الماضي لكي يطرحه من جديد، وعلى نحو دقيق، من خلال الشكل السردي . ببساطة إلى أي مدى يكون السرد أو البناء الأدبي للنص التاريخي وسيلة مناسبة للتفسير التاريخي، وما المغزى الذي يمكن أن نخرج به من إجابتنا؟ من الشائع حاليا في أوساط المؤرخين وفلاسفة التاريخ وغيرهم ممن يهتمون بالسرد أن يزعموا أننا نعيش عصر ما بعد الحداثة، الذي باتت فيه يقينيات الحداثة القديمة عن الحقيقة التاريخية والموضوعية المنهجية، كما يطبقها المؤرخون العاديون، تواجه الكثير من التحديات. وثمة نفر قليل من المؤرخين سوف يجادلون بأننا نكتب «الحقيقة» عن الماضي ومن الملاحظ عموما أن التاريخ المكتوب معاصر، أو موجه نحو الحاضر، لدرجة أننا– معشر المؤرخين – لا نقف فوق منصة « هنا والآن» فقط، وإنما نتمسك أيضا بمواقف تتعلق بكيفية النظر إلى العلاقة بين الماضي وما بقي من آثاره من ناحية، والطريقة التي نستخرج بها المعنى من هذه الآثار من ناحية أخرى ومن ثم، فإن هناك أسبابا كثيرة تدعو للاعتقاد بأننا نعيش حقبة فكرية جديدة – تسمى عصر ما بعد الحداثة – وينبغي علينا أن نعيد النظر في طبيعة العلم التاريخي لتلبية ما تتطلبه معتقداتنا وظروفنا الفكرية المتغيرة. وفي الصفحات التالية من هذا الفصل التمهيدي سوف أطرح بعض الأسئلة الأساسية عن طبيعة التاريخ، أهمها السؤال عن طبيعة العلم الذي يواجه تحديا أساسيا بشأن كيفية فهمنا للماضي باعتباره كما معرفيا يمكن أن نستقي منه المعنى وكما سنرى، فإن هذا الموقف

من كيفية معرفة الماضى هو بالضبط الذى يؤثر مباشرة فى طبيعة المعنى الذى نفرضه على الماضى. ولا يمكن بعد ذلك أن ننظر إلى التاريخ ببساطة على أنه مجرد الكشف عن قصة الماضى، وأن التحقق من هذه القصة سوف ينبئنا بما تحمله من معنى وينتج هذا الاعتقاد الجدل الدائر حول طبيعة المعرفة، وهو الجدل الذى كان قد بدأ قبل أكثر من مائة سنة فى القرن التاسع عشر .

.. فما تلك الظروف المغايرة التى تبرر الزعم بأننا نعيش عصر ما بعد الحداثة ؟ أولا، أن هذا الزعم لا يعنى بالضرورة أن ما بعد الحداثة منظور جديد أو موقف مضاد لمواقف أخرى قديمة أو نظرات قديمة لكيفية اكتسابنا المعرفة عن الماضى الحقيقي (أو الحاضر) إن ما بعد الحداثة، بالأحرى، هى الحالة المتغيرة المعاصرة التى نكتسب المعرفة فى ظلها ومن بين المبادئ الرئيسية فى هذه الحالة الجديدة للمعرفة تلك الشكوك الواسعة التى توجد الآن بشأن الطرح الدقيق للحقيقة. والواقع أن ما بعد الحداثة ليست مسألة جديدة لا سيما إذا ما فكرنا فى السمة التأملية التى ميزت الفترة التى يفترض وجودها قبل هذه الفترة.

والواقع أن مصطلح « ما بعد الحداثة » مصطلح مضلل إلى حد ما بالفعل. وسوف تلاحظ أننى أستخدم المصطلح فى هذا الكتاب بدون أن أوضحه بالتفصيل. وبدلا من مصطلح «ما بعد الحداثة»، الذى يعنى غالبا الطريقة التى يوصف بها، فإننى أفضل أن أفكر فى عصرنا الحالى، لا باعتباره فترة جاءت بعد الحداثة، وإنما باعتباره تحولا نحو الحداثة. وغالبا ما كان مصطلح «ما بعد الحداثة» يستخدم بمعنى وجود مجموعة جديدة من الظروف لمعرفة متى يبدو مناسبا أكثر القول بأن الحداثة قد صارت الآن واعية بقدرتها على نقد المعرفة. وهكذا، وكما سنرى، فإن كثيرا مما نشير إليه على أنه ما بعد الحداثة (دون توضيح تفصيلي) ليس بالفعل سوى إعادة تقييم للحداثة من حيث مبادئهاخاصة فى السنوات الثلاثين الأخيرة تقريبا.

لقد تمثلت إحدى النقاط الرئيسية بشأن حداثة عصر التنوير فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وفى أثناء القرنين التاسع عشر والعشرين، فى وعيها الذاتى بطرح الأسئلة حول كيفية معرفتنا بما نعرفه. ويعنى هذا بصفة خاصة أن الحداثة ربما كانت تمضى دائما بحيث ينتهى بها الأمر إلى نقد نفسها فى الأساس. فهل يحتمل أن ما

بعد الحداثة هي النتيجة الحتمية للحداثة ؟ وسوف نرى خلال بقية هذا الكتاب كيف تؤثر على دراسة الماضي، ولكن من المهم بداية أن نعترف أن التاريخ كان يمضي دائما لكي يكون في مقدمة ترحيب الحداثة بالنقد الذاتي. ونتيجة هذا الشرط ما بعد الحداثي للمعرفة كان التاريخ باعتباره علما عرضة للجدل حول طبيعته .

وعنوان هذا الكتاب « تفكيك التاريخ » ؛لأن جوهره في اعتقادي أنه يجب تقييم أساس التاريخ . فلا يكفي أن ننقد المنهج التاريخي فحسب ولكن لا بد من التساؤل هل يمكن الاعتماد على المؤرخين المحترفين لإعادة بناء الماضي وشرحه بطريقة موضوعية عن طريق استنتاج «الحقائق» أو استنباطها من الأدلة، عندما يكتبون بعد البحث المضني عما توصلوا إليه بطريقة لا تمثل مشكلة للقراء ؟

وربما يجادل كثيرون بأنه حتى لو لم يكن التاريخ أبداً، أو الآن، عملية بحثية منضبطة، أو أنه بمثابة مشروع أدبي عفوي حسبما يستشف من ذلك الوصف، فإن التأكيد التطبيقي في عملية إعادة البناء الفجة التي ترى أن المؤرخ مراقب محايد ينقل «الحقائق» في نوع من النموذج أو المثال (الذي يعرف بأنه مجموعة معتقدات حول كيفية اكتساب المعرفة) يحجب السمة الحقيقية للتاريخ باعتباره ممارسة أدبية. وسوف أجادل بأنه لا يمكن فهم طبيعة التاريخ الأصلية برؤيتها على أنها مجرد ممارسة تجريبية اصطبغت بالموضوعية، وإنما باعتبارها خلق المؤرخين لشكل سردي معين عن الماضي وفرضه : وهي عملية تؤثر بشكل مباشر على المشروع كله وليس على مرحلة الكتابة وحدها. هذه العملية سوف أسميها الوعي التفكيكي على سبيل المواءمة . ولا ينبغي أن يختلط هذا الاستخدام للمصطلح باستخدامه الأصلي على يد المنظر الثقافي الفرنسي «جاك دريدا »، الذي استخدمه على نطاق ضيق بحيث يعني العملية التي نستوعب بها معنى النصوص دون الإشارة إلى أية حقيقة تاريخية تنشأ عن ذلك. و يقوم الوعي التفكيكي فقط بتعريف التاريخ بأنه على ما هو عليه من شكل واضح، أي أنه سرد كتوب، (النص الذي ينتجه المؤرخون) ولكنه بالإضافة إلى هذا، وعلى نحو أكثر جذرية، يشي بأن السرد بوصفه شكلا حكائيا للقصة قد يطرح أيضا نموذجا نصيا للماضي نفسه . ولا تعني إعادة تنظيم البعد الأدبي للتاريخ باعتباره علما أننا لا يمكن أن نسأل أنفسنا هل تجربتنا المعاشة فقط التي يعاد حكيها على سبيل السرد

بواسطة المؤرخين، أو نجرب السرد بوصفنا فاعلين تاريخيين - مثلما كان الناس يفعلون فى الماضى ؟ وبعبارة أخرى، هل يزيح الدليل النقاب عن الحياة فى الماضى بحيث تتخذ شكل القصة، وهل يمكن لنا معشر المؤرخين أن نعيد حكاية السرد كما حدث بالفعل، أو هل نفرض دائما قصصنا الخاصة على الأدلة التى تبرهن على الماضى ؟

أيا كان ما نقرره، فإنه ينتج عنه أن التاريخ لا يمكن أن يوجد بالنسبة للمؤرخ حتى يكتبه المؤرخ فى شكله المفروض : أى السرد . فما الذى أعنيه بالسرد ؟ عندما نشرع فى كتابة التاريخ فإننا نضع محتوياته باعتبارها حوادث تجرى فى نظام تتابعي، وهى عملية توصف عادة بأنها حكاية قصة . ولا يهم مدى كثافة الأدوات التحليلية المستعارة من العلوم الاجتماعية لكي تتكئ على الماضى، إذ إن قدرة التاريخ على الشرح تكمن فى شكله السردي الأساسي . ومثلما قال فيلسوف التاريخ الذى يحبذ السرد « لويس مينك Louis Mink» فى أوائل ستينيات القرن العشرين « بينما يلاحظ العلماء ... نتائج كل منهم الآخر، يقرأ المؤرخون كتب كل منهم الآخر»[١]. وفيما يخص هذا الكتاب، فإن «حقيقة» الماضى تتمثل فى التقرير المكتوب، وليست هى الماضى كما كان بالفعل . وسوف أجادل بأن التاريخ ليس دراسة التغير على مدى الزمان بحد ذاتها، وإنما دراسة المعلومات التى ينتجها المؤرخون عندما يضطلعون بهذه المهمة. وفى هذا الكتاب أحاول إلقاء الضوء على الطبيعة الأدبية الجوهرية للمعرفة التاريخية وأهمية الشكل السردي فى تكوين مثل هذه المعرفة . وفى عالمنا المعاصر ما بعد الحداثي، يفهم التاريخ على أنه منهج بحث تجريبي يقوم على أساس أن الإيمان بالتواصل الدقيق إلى حد ما بين الماضى، من حيث تفسيره وطرحه السردي، لم يعد مفهوما عن مهمة المؤرخ يمكن الدفاع عنه . وبدلا من البدء بالماضى ينبغى علينا أن نبدأ بتقديمه؛ لأننا بهذا فقط نتحدى الاعتقاد بأن هناك حقيقة لا يمكن الكشف عنها تمثل صدق حقيقة الماضى بشكل مضبوط .

بعض الأسئلة الأساسية عن طبيعة التاريخ

هناك أربعة أسئلة محددة حول طبيعة التاريخ تنبع من الاعتقاد بأن التاريخ فى شكله المعاش والمكتوب قد بني إلى حد كبير على غرار بنيته التى يكوِّنها محتواه . وعلى الرغم من أننا يمكن أن نميز بين هذه الأسئلة لكي نضع قائمة بها، فإن الفصل بينها

فى الممارسة الفعلية أمر بالغ الصعوبة :

* هل يمكن للتجريبية أن تشكل التاريخ بوصفه معرفة منفصلة وعلى نحو مشروع ؟

* ما سمة الدليل التاريخي وما وظيفته ؟

* ما دور المؤرخ، وما استخدامه للنظرية الاجتماعية، وبناء الأطر التفسيرية فى الفهم التاريخي؟

* ما مدى أهمية الشكل السردي فى الشرح التاريخي ؟

هذه الأسئلة دفعت كتابة هذا الكتاب قدما كما أنها تكمن فى قلب الأزمة القائمة فى مواجهة التاريخ اليوم .

المعرفة

السؤال الأول يتناول الموضوع الأساسي عن التاريخ بوصفه شكلا من أشكال المعرفة :هل يوجد شيء خاص فى مناهج المؤرخين لدراسة الماضى ينتج معرفة موضوعية ذات خصوصية يمكن الاعتداد بها، وهل يمكن المجادلة بأن هناك علما تاريخيا ؟ ذلك أن المعرفة التاريخية تستمد من خلال منهج - عادة ما يسميه من يؤمنون بإمكانية الفهم الدقيق للماضى الممارسة - وتنبع من أساليبه فى تناول آثار الماضى . إن الوظيفة الجوهرية للتاريخ أن يفهم، وأن يشرح فى صيغة مكتوبة تلك الروابط التى تربط بين الحوادث والقصد الإنساني أو الوساطة الإنسانية فى الماضى . وبعبارة أخرى، على المؤرخ أن يصنع نوعا من المنهج أو الوسيلة التى يمكن بها أن يضع يده على العلاقة بين المعرفة وشرحها من أجل العثور على أساس الحقيقة إذا كان موجودا .

ويتمثل أحد المناهج فى تقليد العلوم الطبيعية، وعلى الرغم من أنه كانت هناك أقلية يعتد بها بين المؤرخين (خاصة أولئك الذين يتمتعون بتعليم إيجابي فى العلوم الاجتماعية) يتبعون هذه الغواية، فإن هذا المنهج لم يحرز أبدا مكان الصدارة؛ إذ إنه لا يمكن للتاريخ أن يزعم أنه علم خالص بالمعنى الذى نفهمه عن العلوم الطبيعية؛ لأنه لا

يشترك معها في ترتيب اختبار الفرض العلمي، ولا يستخدم التعليل الاستنباطي، كما أنه ليس عملية تجريبية وموضوعية تنتج عنها حقائق لا تقبل الجدل . علاوة على ذلك، فإننا مهما بذلنا أحسن ما في وسعنا لا نضمن الاقتراب من الحقيقة بدرجة أكبر . والمنهج العلمي لا يعمل على افتراض أن المعلومات مرتبطة بتفسير كوني، بحيث يختار العالم معلوماته بناء على هذا الافتراض . وعلى كل حال، فإن المؤرخ يختار معلوماته بسبب اهتمامه بحادثة مفردة، أو تصرف فردي قصد به أن يكون استجابة للظروف . ويتم اختبار الأدلة بسبب ما يمكن أن تنبئنا عن تلك الحادثة المنفردة أو التصرف الفريد، وليس أي حدث وكل حدث داخل فئة عامة يجرى شرحها .

فما النتائج التى تنتج عن هذا بالنسبة للتاريخ بوصفه معرفة، أو شكلا خاصا من أشكال المعرفة ؟[٢] هل يمكننا أن نفوز بأوصاف تاريخية أصلية و «صادقة » بمجرد متابعة السرد الأدبي الذى يقدمه المؤرخ – أي التاريخ الذى يكتبه ؟ هذا بالتأكيد رأي عدد من الشارحين؛ إذ يعتبر المنظر البريطاني فى التاريخ ليمون M.C. Lemon أن «المنطق الحق» للتاريخ باعتباره علما إنما يدور حول « عقلانية البنية السردية »[٣] . وبالنظر إلى ما يشكل التفسير التاريخي بصفة خاصة، يجادل ليمون بأن جوهره يكمن فى الطريقة التى يعتمد بها المؤرخون «على وقوع الحدث بمصطلحات الأسباب التى كانت تدفع الأفراد فى سلوكهم » . وبعبارة أخرى، يمكن تعريف التاريخ بحق أنه التفسير والتفسير السردي لعمل الإنسان ومقاصده[٤] إن السمة الخاصة للسرد والتى تجعله على هذا القدر من الفائدة بالنسبة للمؤرخين، حسبما يشير ليمون، تتمثل فى جوهر التغير التاريخي . إنها عملية التشبع بتجربتنا المعاشة . وبعبارة أخرى، يوجد الماضى وسيظل موجودا على حين تنتقل المعرفة إلينا وفقا لمبادئ أساسية من الشكل السردي .

فماذا، إذن، يمكن أن تكون العلاقة بين التاريخ وأقرب جيرانه، أي الأدب ؟ يبدو السطر الأخير وكأنه سطر من المرجعية . وأعنى بهذا الدقة والصدق اللذين يحكى بهما السرد ما حدث فى الماضى بالفعل . وكما يجادل ليمون، فبينما لا يخلو الأدب من المرجعية تماما، فإنه ليس مرجعيا بالطريقة نفسها التى يتسم بها النص التاريخي[٥] وبناء على هذا، لايكون الماضى والتاريخ المكتوب شيئا واحدا ؟[٦]. وعدم الاعتراف بهذا

يتيح لنا أن ننسى الصعوبات التى تنطوى عليها عملية إعادة خلق الماضى – وهو أمر لا ينفصل عن القليل من آثار الماضى وسرد المؤرخين . ولأننا لا يمكننا أن نواجه الماضى مباشرة، سواء كان حركة سياسية، أو عملية اقتصادية، أو حدثا، فإننا نستخدم السرد للقيام بإنجازات ذات وظيفة مزدوجة، تعتبر كل من شقيها وكيلا عن الماضى ووسيطا فى انشغالنا النشيط بهذا الماضى .

والافتراض الأساسي فى كتابي مؤداه أنه لا يمكن تحويل الماضى سوى عندما يقدم المؤرخون هذا الماضى فى شكله السردي، وأنه لا ينبغى للتفسير التاريخي أن يغفل معانى الماضي ليتابع ما يجب أن يبقى « حقيقة » مصطنعة فى أفضل الأحوال . والواقع أننا يجب أن نكون أكثر انفتاحا على إمكانية انعدام السمة التنقيحية فى تقديم الماضى . وعلى الرغم من أن غالبية الإمبريقيين قد يماحكون فى هذا، فإننى سأجادل بأنه لا يمكن أن يكون هناك أي تواصل بين اللغة والعالم بوصفه واقعا يُمكن استكشافه وبطبيعة الحال، وحتى لو كان ذلك كذلك، فإن هذا لا يوقفنا عن طرح السؤال على الرغم من أننا لا نستطيع أن نقدم إجابة محددة، فهل يمكن أن يكون الماضى مفتوحا مثل نوع خاص من السرد لأول مرة، وهل بوسعنا استعادته متماسكا على نحو أو آخر، أم أننا نختار فقط ونفرض عليه خط قصة مستمد من حاضرنا ؟ هل عاشت القصص فى الماضى أم أنها قد حكيت فى الحاضر فقط ؟ هل نشرح حياتنا فى رحاب الزمن مثلما نفصح عن قصة ما ؟ إن السؤال الأكثر أهمية، إذن، ليس السؤال الحداثي الذى يتغافل عما إذا كان التاريخ علما بالمعنى المضبوط، وإنما هو السؤال ما بعد الحداثي عن كيف ولماذا نضع الماضى فى شكل سردي بعينه عندما نكتب عنه . وفضلا عن ذلك، مامدى صلابة القوة المعرفية فى السرد ؟ وما مدى قدرته على تفسير الماضى بطريقة مقبولة ؟

ومثلما يستحيل أن يكون لدينا سرد بدون وجود من يرويه، لا يمكن أن يكون لدينا تاريخ بدون مؤرخ . فما دور التاريخ فى إعادة خلق الماضى ؟ إن كلمة « تاريخ » تنطوى على أفكار أو نظريات عن طبيعة التغير أو الاستمرارية حسبما يراها المؤرخون – بعضها صريح وواضح والبعض الآخر مدفون فى الأعماق، وبعضها صيغ صياغة متهافتة . إن نظريات التاريخ التى حشدها المؤرخون تؤثر على فهمنا للماضى ؛ سواء

كانت واضحة صريحة أم لم تكن . وإلى المدى الذى يكون تفسير التاريخ فيه تفسيرا سرديا مبنيا إلى حد ما على النظريات الاجتماعية أو المواقف الإيديولوجية التى يخترعها المؤرخون لتفسير الماضى، كما يمكن تعريف التاريخ بأنه عملية اصطناعية قائمة على أساس اللغة يكون فيها التفسير التاريخى المكتوب من نتاج عمل المؤرخين. وعلى حد تعبير فيلسوف التاريخ الذى يحبذ السرد آرثر دانتو Arthur Danto» أنه لكي يحكى ما حدث ... ولكي يشرح لماذا ... فإنه يفعل الشيء نفسه » (٧) أو كما يقول ليمون إن المؤرخ يواجه بانتظام أسئلة عن « الاختيار، والصلة الوثيقة، والأهمية، والموضوعية » فى وصفه للأحداث (٨). ومن ثم فإننى سوف أقترح أن أفضل نظرة إلى التاريخ من الناحية المعرفية أن تراه شكلا من أشكال الأدب ينتج المعرفة بواسطة بنيته السردية أو الجمالية بقدر ما ينتج عن أية معايير أخرى .وعلاوة على هذا، فبينما نعترف بالسمة الأدبية والاصطناعية فى التاريخ، فإننى سوف أتناول الماضى أيضا باعتباره سردا، كما أننى سوف أفسره بطريقة سردية .

الأدلـــــة

السؤال الثانى الذى يتعلق بالمادة الخام فى عملية صناعة التاريخ - أي الآثار أو الأدلة التي وصلتنا من الماضى . وينبغى أن نبدأ الآن فى رؤية أن الدور المركزى الذى تلعبه اللغة فى تكوين المعرفة التاريخية أو الفهم التاريخي إنما هو نتاج للسؤال الذى يبدأ بـ « كيف» والسؤال الذى يبدأ بـ « لماذا » نكتب، ولهذا فإن ما يسمى « الحقائق » الخام فى التاريخ تُقدم إلينا فى شكل أدبي مكتوب كليا أو فى جزء كبير منها . بل إن الإحصائيات الخام يجب أن يتم تفسيرها فى صيغة سردية . فإذا سئلت بوصفك دارسا للتاريخ أن تعطى مثالا لـ « حقيقة تاريخية»، فإن الاستجابة الطبيعية ستكون إيراد حدث لا جدال بشأنه، أو وصف يتفق عليه الجميع . ومن الواضح أن كون الرق السبب النهائي فى اندلاع الحرب الأهلية الأمريكية ليس « حقيقة » من هذا النوع إنه تفسير مركب يقوم على أساس سرد أحداث منفصلة، ومعلومات إحصائية، كما أن الأحداث والمقاصد البشرية التى تم تفسيرها على أنها أفعال تنطوى على النتائج التى نتجت عنها. ولكننا إذا قلنا فى مصطلحات حقيقية باردة إن الرئيس الأمريكي جيمس

ماديسون كان « ضئيل البنية (خمسة أقدام، وأربع بوصات ؛ ١٦٤ سم)، خفيف الوزن (حوالي مائة رطل ؛ خمسة وأربعون كيلو جرام)، أصلع الرأس، ضعيف الصوت» ؛ فإن هذا القول سيبدو خاليا من المشكلات - سواء كان ماديسون بهذا الطول أو لم يكن، وسواء كان نحيلا أم لا، أصلع الرأس أم لم يكن كذلك، وكان صوته واهنا أم لم يكن . إن النقطة المهمة، على أية حال، تكمن فيما تنتجه هذه الحقائق عن ماديسون فى ذهن القارئ، أكثر مما تكمن فى صحة الحقائق نفسها .

فهل يدفعنا كونه قصيرا، نحيفا، أصلع الرأس وصوته مثل الصرير الحاد، فى اتجاه تفسير يقول إنه كان ضعيفا، ومن ثم لم يستطع أن يلم شمل وزارته، وصار فى النهاية نسخة من نابليون ؟(٩) . ويدور التاريخ حول عملية ترجمة الأدلة إلى حقائق . وأنت وأنا نفعل هذا بوصفنا مؤرخين . وحتى نأخذ الأدلة مباشرة من دور الحفظ (الأرشيفات)المتربة، فإن الأدلة موجودة سلفا داخل البنى السردية محملة بالمعاني الثقافية - فمن ذا الذى وضع محفوظات دور الحفظ ورتبها سويا، وما الذى تتضمنه أو تستبعده، ولماذا ؟ إن « الحقائق » تكون بلا معنى حرفي وهى فى حالتها الخام باعتبارها تقريرا بسيطا يقوم على الأدلة ولم تتم معالجته بعد . إن الأدلة تتحول إلى «حقائق » من خلال تفسيرات المؤرخين، بيد أن الحقائق عادة ما يكون لها رواتها فعلا، ومن ثم تكتسب معناها الإضافى عندما يرتبها المؤرخون على أنها خيوط فى قصة تنتج عنها علاقة خاصة لها جاذبيتها ويمكن متابعتها، فضلا عن أنها قصة مقنعة . والتفسير التاريخي هو التفسير المكتوب لهذه العلاقة المفهومة .

وهكذا، لا تكون « الحقائق » بريئة أبدا لمجرد أنها عندما يستخدمها المؤرخ تكون أدلة حقيقية اكتسبت معناها عندما ارتبطت بالسياق ووضعت داخله، وكانت تستدعى أحيانا عملية الجمع، والترتيب، والصياغة، التى تقود المؤرخ عندئذ إلى توليد الحقائق (١٠). كانت هذه العملية التى يتم فيها وضع السياق، تتم تقليديا على يدي المؤرخ باعتبارها جزءا من عملية التفسير الذى يوصل المعلومات التى تبدو غير متصلة ببعضها بعضًا فى منظور ينتج المعنى لها . وتتم عملية البرهنة على الماضى من خلال الاستنتاج، ويستخلص المؤرخ المعنى باستخدام فئات من التحليل من المفترض أنه قد تم تقسيمها حسب طبيعة الأدلة . وهكذا ترى آثار الماضى تقليديا باعتبارها أمورا إمبريقية يمكن

استخراج «المعنى» منها، أو باعتبارها مصادر يمكن منها بناء نظريات اجتماعية فى التفسير .

وعلى أية حال، فإن وضع الأدلة أو تنظيمها على هذا النحو بالنظر إلى الأمثلة الأخرى – وهى عملية أسميها عملية التشكيل – عادة ما يكون حيث تبرز آراء المؤرخ وموقفه الثقافي الخاص. وفى كتابة التاريخ يستحيل إبعاد المؤرخ عن تكوين المعنى من خلال خلق سياق ما، حتى وإن كان المعنى يبدو فى ظاهره مستمدا من الحقائق بشكل برىء . عند هذه النقطة يفرض المؤرخ نفسه على الماضى بشكل حتمي، سواء كان ذلك من خلال الممارسة الكلية ظاهريا لاستخراج الأدلة سعيا وراء المعنى الحقيقي للماضى، أو من خلال خلق النظريات الاجتماعية واستخدامها، ولكن الأهم فى رأيى أن المؤرخ يفرض نفسه بسبب تشكيل القصة أو خطها (البناء السردى) الذى يستخدم لتسهيل التفسير التاريخي . ولسوف أفحص مغزى الدور الذى تلعبه الأدلة فى كتابة التاريخ وطريقة عرضنا له . إذ إن الأدلة موجودة هناك من أجل أن نستخلص منها المعنى وبهذا نخلق المعرفة التاريخية . وعلى أية حال، فإن استنباط المعنى يبرز عندما ننظم المعلومات، ونرتبها ونشكلها . وفى رأيى أنها لا تتحول ببساطة أو تشير إلى نفسها باعتبارها الاستنتاج الوحيد أو الأرجح الذى نخرج به .

نظريات التاريخ : بناء الماضى

يأتى السؤال الثالث فى هذه المجادلة من اعتقاد بعض الإمبريقيين المتشددين بأن التاريخ ممارسة قامت على أساس إعادة بناء الحقائق بشكل موضوعي يمكن من خلاله أن نقترب مما حدث فى الماضى بالفعل . هذا ما أسماه فيلسوف التاريخ الإنجليزي كولينجوود R. G .Collingwood «الواقعية الساذجة »، ويقوم على أساس فكرة أن الخبرة يمكن أن تكون هدف المعرفة التاريخية(١١). ولكي يمكن الحفاظ على هذا الموقف، ينكر مثل هؤلاء الإمبريقيين أنه يجب على المؤرخين التدخل فى الماضى أو فرض شىء عليه، وذلك بقولهم إنه لايجب على المؤرخين أن يكونوا محايدين وموضوعيين فحسب فى تناولهم للأدلة، وإنما يجب عليهم أيضا رفض نماذج النظرية الاجتماعية فى تفسير الماضى. وهم يرون فى هذه العملية الأخيرة بناء فجا للماضى أو اختراعا له .

وعلى أية حال، فإن التاريخ الاجتماعي والتاريخ الثقافي اكتسبا منذ عشرينيات القرن العشرين شعبية واسعة لأنهما يتطلبان بنا التفسيرات عن كيف صار مجتمع ما بعد التصنيع فى وقت لاحق قادرا أو غير قادر على التوافق مع التغيرات الاجتماعية الهائلة التى جرت فى سياق التصنيع الرأسمالي . هذه العملية التحديثية لم يكن من الممكن تفسيرها بدون اللجوء إلى نمط جديد ونفعي من التاريخ يلعب المؤرخون دورا نشيطا فى بنائه . وهم يلعبون هذا الدور بإعادة التفكير فى أفكار الناس فى الماضى من خلال التقمص العاطفي لها للتأكيد على مقاصدهم، أو ببناء تفسيرات نظرية اجتماعية بدلا من مجرد الانتظار حتى تطرح نفسها . ويعتنق مثل هؤلاء الإمبريقيين المتشددين (الذين يصمهم كولينجوود بأنهم الواقعيون السذج) اليوم فكرة أنه لايجب على المؤرخين أن يستسلموا لهذه الدعوة السيرانية* التوأم لتبرير التفسيرات التاريخية بتخيل أدوار الفاعلين التاريخيين فى الماضى أو تقمصها، ولا بناء نظريات تفسيرية شاملة (توصف اليوم عادة بأنها ما وراء السرديات) يمكن أن تفسر الماضى . مثل هذا الرفض الإمبريقي لقبول الخاصية المتغيرة للفكر المعاصر، وليس رفضا مطلقا لما صار الآن محل جدل شائع بين غالبية المؤرخين، إنما هو قول بأن المعرفة التاريخية ليست موضوعية ولكنها تحمل بصمات من يقومون بتفسيرها .

وبينما جرَّب المجتمع الغربي فى القرن العشرين الحرب الشاملة، والثورات الاجتماعية والسياسية والبيئية، وجرَّب التكنولوجيا الجديدة، كانت الحاجة المتزايدة قد باتت ترنو إلى جعل الماضى مفهوما للحاضر، وهو ما يعنى أن يتأمل المؤرخون فى أسباب التغير، وطبيعة الاستمرارية، والإمكانيات اللامتناهية الكامنة فى الماضى . مثل هذه التأملات لا يمكن أن تعتمد ببساطة على التقمص أو النزعة التاريخية التى تخلق العلاقة مع الماضى – أي رؤية الماضى فى سياقه ومصطلحاته الخاصة . وعلى الرغم

---

* نسبة إلى الكائنات الخرافية التى تسمى السيرانيات فى الأساطير الإغريقية القديمة؛ وهى كائنات أسطورية لها رءوس وأجساد طيور، كانت تسحر البحارة فى السفن العابرة بغنائهن وتوردهم موارد التهلكة إذا ما انجذبوا إلى مصدر الغناء. ويريد المؤلف القول إن دعوات الإمبريقيين خطيرة ومهلكة. (المترجم).

من أن أكثر الأمثلة وضوحا فى بنيوية القرن العشرين تتجسد فى المدرسة الماركسية التى تؤكد على النظرية الاجتماعية فى استغلال الطبقات باعتبارها نموذج التغير التاريخي، فإن ظهور مدرسة «الحوليات Annales» فى فرنسا فى عشرينيات القرن العشرين فى مجال التدوين التاريخي، قد نتج عنه أيضا تاريخ بنيوى موازٍ يستلهم العلوم الاجتماعية ليقترح نظريات سكانية وسلوكية بديلة . ومنذ سبعينيات القرن العشرين برز تيار فيى التاريخ الاجتماعي يدين بالكثير للأنثروبولوجيا ليتحدى الطبقات باعتبارها البناء الأكبر فى التفسير التاريخي ويسير فى اتجاه اتخاذ أحداث منفردة وتفكيكها للكشف عن أهميتها ومغزاها الثقافي الأوسع . وفضلا عن هذا، ركزت المدرسة الحداثية على فوائد عمل نموذج للتاريخ المقارن. كما أن التاريخ الاقتصادى الجديد فى الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين أكد على الاتجاه الكمي . وهكذا صارت البنيوية خاضعة لمقاييس « الموضة » أو الاتجاهات الرائجة .

والبنيوية الاجتماعية أو الأنثروبولوجية أحد المصادر الرئيسية لما بات معروفا باسم التاريخ الثقافي الجديد والذى سوف أسميه التاريخ التفكيكي . وباعتباره أحد تنويعات البنيوية، يعمل التاريخ الثقافي الجديد على مبادئ ليست مستمدة من الأنثربولوجيا، وإنما من حركة فكرية أوسع نطاقا تتعلق بما بعد البنيوية وبرزت هى نفسها من غمار نظرية نقدية أدبية ظهرت فى سبعينيات القرن العشرين . ويعتبر التاريخ التفكيكى فى تناول الماضى بمثابة خطاب سردي مركب ومعقد، ولكنه خطاب يقبل بأن التقدم ليس حالة شفافة من التواصل يمكن أن تحمل الفهم الحقيقي أو تولد المعنى الحقيقي على نحو كاف، على حد تعبير الناقد الثقافي والمؤرخ الفرنسي ميشيل فوكو Michel Foucault إن التاريخ التفكيكي جزء من التحدى الأكبر الذى يواجه مفهوم التجريبية الحديثة القائل بأن الفهم يتأتى من الموضوع المنفرد الذى يرتكز على المعرفة المستقلة ويحمل تعريفات متنوعة للإنسان، أو البشرية، أو المؤلف، أو الدليل . وكما لاحظنا بالفعل، كان الشرط الذى وضعناه للمعرفة فيما بعد الحداثة يعنى أن علم التاريخ يجادل فى طبيعته بقدر ما يناقش الماضى . وتمثلت أحدث التطورات فى ظهور « تجريبية (إمبريقية) جديدة » اعترفت بالنقد ما بعد الحداثي، وخاصة فى البنية الاستطرادية للتاريخ (١٢). وكان جزء من هذا الاعتراف يتمثل فى التأكيد على أن

المذهب التجريبي لم يقبل بشكل ساذج أبدا ولكن حسبما يوحي مصطلح «جديد» هناك أيضا اعتراف بالتحول الاستطرادي أو اللغوي الذى يشير إلى درجة من التحرر من الوهم مع نظرة واقعية إلى اللغة وطريقة عرض الموضوع . ومع هذا تبقى الرغبة فى الإبقاء على الإمبريقية، وإن يكن ذلك فى شكل معدل على نحو ما، بوصفه الأساس الذى ينبنى عليه التاريخ . وبعبارة أخرى، توجد فى أوساط الإمبريقيين رغبة فى المماحكة بأن نظرية التواصل فى المعرفة ما تزال صالحة، على الرغم من أنها الآن منفتحة على المعانى التى يحتمل أنها كانت موجودة فى الماضى . وليس هناك أحد من أنصار الإمبريقية الجديدة ضد الواقعية، على الرغم من أن المؤرخة كارلا هسى Carla Hesse وصفت الإمبريقية الجديدة بتلك المصطلحات(١٣). إنهم بالفعل واقعيون يرون المذهب التجريبي على أنه لا ينطوى على معنى ضروري أو محدد . هذا هو المفهوم الأساسى الكامن وراء عبارة « التاريخ الثقافي الجديد» .

يتحرك « المؤرخون الثقافيون الجدد » بشكل متزايد صوب هذه التجربة الجديدة . وهم ليسوا شكاكين من الناحية المعرفية ولكنهم واعون لأنفسهم معرفيا . ويوضح هذا الموقف نفسه بنفسه فى عدد من ردود الأفعال المختلفة تجاه التاريخ الحداثي؛ ذاك أن المؤرخين الثقافيين الجدد - اعتمادا على الميول الشخصية للفرد - يجنحون إلى اتخاذ موقف مناوئ للطرح السردي، ويكونون سعداء بقبول التفسيرات الغائية فى حال تمسكهم بمزيد من الاعتبارات الخلقية المعينة (مثل استعادة النوع أو العرق من رحاب الماضى)(١٤) . وهذا ما يشكل ظهور ما يسمى التحول الخلقي الذى ازدادت أهميته فى غضون العقد الأخير تقريبا . وهناك استعداد لمواجهة مفاهيم الزمن التى يعتبرها الحداثيون مفاهيم طولية بشكل مؤكد وحاسم ؛ إذ إنهم يقبلون أن يعملوا داخل مفهوم الصناع ويمكنهم القيام بذلك أكثر من اكتشاف المعنى . وغالبا ما يكون أمثال هؤلاء المؤرخين على استعداد للعمل بفكرة أن التاريخ علم ينتج الحقيقة أكثر منه علم يمتلك الحقيقة . وهم يعترفون بضيق الحدود بين الحقيقة والخيال . وبوسعهم أن يكونوا «إمبريقين » . وسوف يستشفون العلاقات المضطربة بين الشكل والمضمون ولسوف يكونون على استعداد للعمل بعلم تاريخي مبنى لغويا ويعترفون أيضا بأن الماضى مرتبط بالحاضر ارتباطا لا ينفصم فضلا عن أن خصوصيته لم تكن تجريبية ساذجة بأي حال .

وتعانى التجريبية الحداثية من أزمة بسبب الاعتراض القائل: إن المعنى يتولد بواسطة ممارسات مشفرة اجتماعيا واستطرادية بنيوية تتوسط بين الحقيقة والتاريخ بالشكل الذى يغلق بالفعل سبل الوصول المباشر إليها . هذا الموقف يتشكل عندما يُنظر إلى اللغة على أنها ليست وسيطا نقيا لتقديم الحقيقة . هل ما يزال من الممكن أن نكتب التاريخ عندما لا ننظر إليه فقط من خلال فئات التحليل التى بنيناها – الجنس، الطبقة، النوع – على حين أن الوسيط السردي نفسه يدحض الاعتماد التجريبي والواقعي على ما أسماه أحد المعلقين « مستوى كاف من التواصل بين الأشكال التى يقدم بها الماضى، والماضى نفسه » كما كان موجودا بالفعل ذات مرة ؟(١٥) .

ويبقى الممارس البارز للرواية السردية أو البلاغية فى البنيوية، فيلسوف التاريخ الأمريكي هايدن هوايت Hayden White الذى يصر على أن التاريخ يخفق إذا كان قصده هو القصد الحداثي من إعادة بناء الماضى بناء موضوعيا وبشكل بسيط وفقا للأدلة . ويخفق التاريخ لأن العملية المتضمنة إنما هى العملية الأدبية التى تنطوى على السرد التفسيري، وليست التجريبية الموضوعية أو التنظير الاجتماعي أو كليهما . وهو ما يعنى أن كتابة التاريخ تتطلب تصوير الماضى، ليس من خلال ترتيب الأدلة، وإنما أيضا مع الأخذ فى الحسبان الإستراتيجيات البلاغية، والمجازية، والإيديولوجية التى يستخدمها المؤرخون فى التفسير . وتتلخص دراسة البلاغة باعتبارها وسيلة للتفسير التاريخي فى الزعم بأن التاريخ حرفة أدبية، كما يقول هوايت، وأنه مخترع بقدر ما هو موجود(١٦) .

التاريخ سردًا

لأن التاريخ يكتبه المؤرخون، فإنه يفهم على أحسن وجه باعتباره نتاجا ثقافيا موجودا «داخل» المجتمع، وباعتباره جزءا من العملية التاريخية، أكثر من كونه منهجا موضوعيا وشرحا يوجد « خارج » المجتمع . ويقودنا هذا إلى السؤال الرابع – الذى طرحه هوايت مع كولينجوود، ثم طرحه بعد ذلك لويس مينك Louis Mink وآرثر دانتو Arthur Danto - ما أهمية السرد فى توليد المعرفة التاريخية، وما علاقته بالأسئلة

السابقة ؟ وقبل كل شيء ما الذى نعنيه عندما نتحدث عن السرد التاريخي؟ إن منهج التاريخ الإمبريقى الذى وصلنا من القرن التاسع عشر يتطلب، ويفترض، تفسيرا تاريخيا يبرز من غمار طراز طبيعي من المعلومات المحفوظة فى الأرشيف، ويقدم معناه بوصفه تفسيرا فى شكل قصة تتم حكايتها بصورة واضحة وبشكل غير شخصي وبشفافية، وبدون اللجوء إلى أي من الوسائل التى يستخدمها كتاب السرديات الأدبية؛ أي اللغة التخيلية أو التصويرية . ويتم شطب الأسلوب عمدا باعتباره مسألة، أو يتم تخفيضه إلى مشكلة صغرى فى تقديم القصة . هذه الرؤية للتاريخ بوصفه ممارسة أدبية تفشل فى التعرف على صعوبات قراءة السرد الموجود سلفا، والذى تم تكوينه بوصفه دليلا من الماضى أو مشكلة كتابة الماضى .

ونحن المؤرخين نستخدم السرد وسيلة لتوصيل رواياتنا، ولكننا نتجاهل عادة أن ندرسه باعتباره جزءا مهما مما نفعله . وبالنسبة لمعظم فلاسفة التاريخ من أتباع منهج التحليل يكون جوهر الفهم التاريخي هو قدرة التعرف على السرد، وبنائه، واتباعه، أي بناء قصة على أساس ما هو متاح من الأدلة . والسرد التاريخي عبارة عن خطاب يضع يضع الحوداث المتفرقة فى نظام يمكن فهمه: وعلى حد تعبير ليمون « حدث هذا، ثم حدث ذلك بعده » . ومثل هذا السرد عبارة عن تتابع يمكن استيعابه من الروايات المنفردة عن حوادث الماضى وتجارب الناس أو أفعالهم فى الماضى، كما يمكن للقارئ أن يتابعه على حين يسحبه المؤلف عبر الزمن للوصول إلى الخاتمة . وكل ما شابه هذا من سرديات إنما تحول الأحداث وتفسر لماذا حدثت، بيد أنها محمَّلة بالافتراضات التى يتمسك بها المؤرخون عن القوى التى تؤثر فى طبيعة السببية . وهذه ربما تتضمن أيضا عناصر مفردة أو مركبة مثل الجنس، والنوع، والطبقة، والثقافة، والمناخ، والصدفة، والجغرافيا، والإقليم، والسياسيين المتخبطين، وهكذا دواليك . وبينما يمكن أن تكون الروايات المنفردة صادقة أو زائفة، يكون السرد باعتباره تجميعا لها أكثر من مجرد المجموع الكلي لها . ويصير السرد ممارسة تفسيرية مركبة وليست حقيقية تماما كما أنها ليست زائفة تماما .

لقد وصف الفيلسوف جاللى W.B.Gallie الصيغة المقبولة من أنصار إعادة بناء التاريخ الدور الجوهري للسرديات وصفا جيدا بقوله : «إن الفهم التاريخى هو ممارسة

القدرة على متابعة قصة ما، حيث يكون معروفا أن القصة مبنية على أساس الأدلة وتقدم بوصفها جهدا مخلصا للحصول على القصة ...» (١٧) .

وفى رأي جاللى أن الأحداث الفعلية التى حدثت فعلا فى قصة الماضى تتشابه على نحو مذهل مع شكل السرد الذى ينتجه المؤرخ فى نهاية الأمر - إذ إن المؤرخ يجد السرد (يكتشفه) فى الأحداث نفسها، ثم يعيد إنتاجه .وهنا يكون السرد مرجعية . وبينما يعتقد فلاسفة التاريخ مثل كيث جنكينز Keith Jenkins ولويس مينك، وهايدن هوايت أننا لا نعيش القصص ولكننا فقط نحكى تجربتنا المعيشة فى شكل قصصي، ويؤيد فيلسوف التاريخ الأمريكي دافيد كار David Carr جاللى وفيلسوف التاريخ الفرنسي بول ريكور Paul Ricoeur فى التمسك بأن هناك استمرارية أساسية أو تواصلاً بين التاريخ كما كان يعاش (الماضى) والتاريخ كما هو مكتوب (السردي) (١٨). فهل لدينا مبرر للزعم بأنه بسبب أن حياتنا اتخذت صيغة السرد، وبسبب أن التاريخ نص مكتوب، فمن المؤكد أن الماضى نفسه يقف فى مواجهة بنية السرد؟ يعكس هوايت المجادلة - السرد غير سابق فى الوجود ولكنه من اختراع المؤرخ الذى يقدمه . وبالتالى ثمة قصص كثيرة متنوعة يمكن حكايتها عن الأحداث نفسها، أي عن الماضى نفسه. وما يزال هوايت مقيدا بما حدث فعلا (فالمؤرخون لا يخترعون الأحداث، ولا الناس، ولا العمليات) وكما يقترح المؤرخ الفرنسي بول ريكور، يتأتى معنى التاريخ باعتباره قصة ذات حبكة يتم فرضها، أو يتم اختراعها، كما يصر هايدن هوايت، على أيدى المؤرخين (١٩).

وتقوم المجادلة على أساس أنه مثلما لا توجد أرضية يقوم عليها الاعتقاد بأن المنهج التجريبي يمكن أن يضمن لنا فهم الماضى كما حدث بالضبط، كذلك لا يوجد «تصور » أصيل للماضى تم اكتشافه، وعلى أية حال، فإن المؤرخ الفاهم الواعى قد يجادل بأن من الممكن طرح تفسير مقبول، على الرغم من عدم الادعاء أنه السرد الحقيقى، ومن ثم يمكن أن نستنبط منه، أما مدى تصوير المؤرخين للناس فى الماضى، مع اتساع مداه بسبب احتمالات المزج والتركيب التى يحملها هذا التصوير، فإنه مدى محدود فى نطاق أنواع الحكي الأربعة الرئيسية - الرواية، المأساة، السخرية والفكاهة وهنا لا يختلف المؤرخ عن الرواة الآخرين فى مجال الرواية الخيالية . إن الوصف أو الأسلوب التجسيدي يكتسى القدر نفسه من الأهمية الذى يحمله التصوير السردي.

ورواية القصة التاريخية تستخدم الوسائل التجسيدية الأربع المعروفة باسم المجازات الأربعة؛ شأنها فى ذلك شأن كل الأنواع الأخرى من القصص، وفضلا عن ذلك، هناك ما يعرف باسم أشكال الكلام الأربعة : المجاز، والكناية، والصور البلاغية، والسخرية، التى يشكل استخدامها جميعا ما يسمى العملية البلاغية . ويعنى استخدام المجاز توجيه وصف شيء ما، أو حدث، أو شخص، بعيدا عن الحصار فى معنى واحد محدد بحيث نستخرج من الوصف المزيد من المعانى المتنوعة بل والمتعددة. وعندما نستخدم هذه المجازات الرئيسية الأربعة، فإننا نصف الأشياء، والأحداث، والأشخاص والمقاصد بمصطلحات أشياء وأحداث وأشخاص ومقاصد أخرى، وفقا لتشابهاتها أو اختلافاتها بأن نضع أجزاءها التى تتكون منها محل الكل - مثلما نضع الأيدى للدلالة على العمال، أي نضع عنصرا واحدا، أو جانبا واحدا، كناية عن جوهر الكل (على سبيل المجاز المرسل)، أو الأشرعة للدلالة على السفن، حيث نجد الجانب الواحد مرة أخرى موجودا فى علاقة الجزء بالكل (إذا ما قرئت العبارة على أنها مجاز مرسل) . وعلى أية حال، فإن المجاز هو أكثر أنواع البلاغة أهمية، ثم تأتى أنواع المجاز المرسل والصور اللفظية والبلاغة والسخرية لتكون أنواعا ثانوية . ذلك أن المجاز يشير إلى نوع واحد من خلال الإشارة إلى شيء آخر بشكل يوحى بأنهما مشتركان فى خاصية تجمعهما . وإنكار المعنى الحرفى معناه استخدام السخرية . كذلك فإن استخدام المجاز فى الكتابة التاريخية أمر حاسم يساوى فى أهميته استخدام المجاز فى أشكال الأدب الأخرى لأنه يسمح لنا بخلق معان مختلفة عن تلك المعانى التى يستخدمها الزملاء، وتمزيق توقعات القراء من تلك المعانى .

وسوف أدرس فيما بعد التصوير اللفظى والمجاز فى نموذج هوايت الشكلى ومجادلته بأنه لا توجد استمرارية بين التجربة المعيشة والتقديم السردي، وأن السرد بوصفه شكلا من أشكال التفسير التاريخي غير كاف فى النهاية، كما أن كتابة التاريخ فعل إيديولوجي لا يمكن تفاديه أيضا . وفى العادة ينتشر السرد من ثم ليس دفاعا عن نظرية المذهب التجريبي فى التواصل بقدر ما يستخدم باعتباره وسيلة هذه النظرية للوصول إلى قصة - ولكن على حساب خلاصة التاريخ دائما . وبهذا يعنى هوايت الاحتفاء بما هو غير قابل للكشف، واحتمال انعدام المعنى، وطبيعة الماضى غير المحددة

وحالة انعدام المعنى هذه هى الزعم الوحيد الذى يمكن به للمجموعات المتعارضة المتنازعة من المؤرخين أن تتحدى التاريخ التأكيدي (الفاشستي) . ذلك أنهم، ونحن، نقوى أنفسنا عندما نتمكن من إيجاد أي يقين موضوعي فى الماضى - بمعنى التواصل الصحيح بين الأدلة والحقيقة - يمكن استخدامه لتعزيز سلطان أولئك الذين يحكموننا(٢٠). ومن وجهة نظر فلسفية صارمة فإن وجود حقيقة الماضى لا يحقق بحد ذاته نظرية التواصل، لأن ذلك لا يعنى أن حقيقة حوادث الماضى يمكن أن توجد فى أي تشابه بين الكلمة والعالم باعتبار أن الكلمة تحكى عن حقيقة الماضى . ومن المتناقضات أن معظم المؤرخين، حتى اليساريين منهم، يفضلون الاعتقاد أن هذا ما يحدث .

ويتحدى ميشيل فوكو وجهة النظر هذه بالمجادلة بأن فكرة الإنسان (الإنسان = المؤرخ، بالنسبة لغرضنا) عاجز عن الوقوف خارج المجتمع والتاريخ ومن هنا يولِّد معرفة صادقة وموضوعية. وهو يستنتج (مثلما يفعل هوايت) أن اللغة وسيط تشويه الإيديولوجيا، وما يمكن أن تفعله إنما يعتمد على نوعية استخدام اللغة، وعلى طبيعة المقاصد الاجتماعية والسياسية - عادة للحفاظ على نظم السلطة أو تحديها، ورؤية ما هو صواب أو خطأ، وما هو مسموح أو محظور . كما يقول: إن الحقيقة ينبغى أن تفُهم بوصفها نظاما من الإجراءات المرتبة لكي تنتج الصياغات، وتنظمها، وتوزعها وتنشرها وتفعلّها . وترتبط «الحقيقة » بالإشارة إلى تصريحات السلطة التى تنتجها وتحافظ عليها(٢١). وهنا يشير فوكو إلى كيفية أن يصبح الفاعلون التاريخيون - أنت وأنا - متحدين فى هويتنا بدلا من أن نصبح مجرد ضحايا . ومن خلال عمل اللغة لا نستطيع أن نتجنب وضعنا فى أوضاع ذاتية حيث يثبتنا جميعا كبت الكلمة - مثل الفراشات المثبتة بالدبابيس على لوحة أحد الهواة الذين يجمعون الفراشات . وبهذا المعنى، تقوم الدراسة المنتظمة للماضى (أي التاريخ بوصفه علما يتضمن معنييه : بوصفه مهنة، وبوصفه تجميعا للممارسات المنهجية) باعتبارها سردا يقوم على أساس توزيع السلطة فى المجتمع المعاصر . . أما كيف نكتب التاريخ، فهو أمر يتوقف على استخدام السلطة أو إساءة استخدامها ؛ شأنه فى ذلك شأن أي سرد آخر .

والتاريخ المكتوب يكون دائما أكثر من مجرد حكاية قصة بريئة، والسبب فى هذا بالضبط أنه الوسيلة الأولى لتوزيع السلطة واستخدامها . ذلك أن فعل تنظيم المعلومات

التاريخية فى السرد بحد ذاته لا يشكل انحرافا عن الحقيقة « الصادقة »، ولكن إضفاء دقة غير مشروعة على الماضى يمكن أن يكون آلية ممارسة السلطة فى المجتمع المعاصر . وكما يقترح هوايت، أننا حتى حين نعترف بعبثية الماضى ونصفها بكون فعل السرد نفسه هو الذى يفرض « استمرارية، وكلية، وانغلاق، وفردية، يرغب كل مجتمع متحضر أن يرى نفسه تجسيدا لها » [٢٢] وبهذا يكون كل سرد تاريخي عرضة لمطالب الإيديولوجيا المعقدة المتحذلقة، وهى التى تضفى عليه الفاعلية بدورها .

إن النظر إلى التاريخ باعتباره حرفة أدبية اعتراف بأهمية المشروع السردى فى حياتنا بقدر ما كان مهما فى الماضى، وينبغى أن يتحرر المؤرخون ونحن نحاول سرد الانقطاع والفوضى التى مزقت الماضى فى هذا الحاضر، ومن أجل هذا الحاضر . هذه الرغبة فى حد ذاتها نتاج لانشغال عصرنا بفهم طبيعة حياتنا التى تبدو فوضوية . ونظرية الفوضى، مثلا، وهى تجديد منهجي من تسعينيات القرن العشرين، مساعدة جديدة لفهمنا التاريخي . ومما يثير الاهتمام أن واحدا من المروجين الرئيسيين لنظرية الفوضى يتمسك بأن استخدامها لا يزال يتطلب سردا لشرح الماضى[٢٣]. ويبين هذا كيف يكون التاريخ نفسه تاريخيا، بمعنى أن منهجه ومفاهيمه نتاج للفترات التاريخية مثلما كانت المجادلات حول طبيعته . وفى تسعينيات القرن التاسع عشر تحول التاريخ الأمريكي صوب تفسير الأصول الأمريكية المتعلقة بتاريخ الأمة، وفى خمسينيات القرن العشرين أنتجت قيود الحرب الباردة بين الولايات المتحدة وروسيا اتفاقا بين المؤرخين على التماسك الإيديولوجى للتاريخ الأمريكي فى مواجهة عدو ما قد يكون سببا فى الخلاف والانشقاق . لقد كان الاكتشاف الألفي المتجدد لأهمية السرد باعتباره سبيلنا للاطلاع على الماضى، ناتجا إلى حد كبير من الحاضر، مثله مثل كافة أنماط الفهم التاريخى، ومن المفترض أن يتلاشى مع مرور الزمن . وهذا الكتاب، والموضوعات التى أثيرها فى صفحاته، إنما هو نتاج زماننا إلى حد كبير فى واقع الأمر .

السرديات ما بعد الحداثية والتاريخ

تنتج الرؤية التفكيكية للتاريخ – بوصفه سردا مؤلفا أكثر منه تقريرا عن إنجاز

تجريبي موضوعي – عن السياق الفكرى ما بعد الحداثى فى نهاية القرن . السياق الذى وصفه الناقد الثقافي الفرنسي جان – فرانسوا ليوتار Jean-Francois Loytard فى كتابه القيم The Postmodern Condition الذى صدر سنة ١٩٤٨ م، بأنه يرتكز على العلاقة الممتدة بين ما أسماه « المعرفة العلمية والسرد الوظيفي » . وفى تعريفه للسرد قال ليوتار إنه السمة المميزة والجوهرية للتكوين الثقافي ونشره (٢٥) . ويتفق ليوتار مع فوكو فى رأيه أن السرد يتعلق بممارسة السلطة . وهو بالنسبة لليوتار نوع من الشرعية الذاتية حيث يحدث إذا تم بناؤه وفقا لمجموعة معينة من القواعد والممارسات المقبولة اجتماعيا تأسيس سلطة المتحدث أو الكاتب داخل هذا المجتمع، ويعمل بوصفه تعزيزا متبادلا للهوية الذاتية فى ذلك المجتمع،(٢٦). والتاريخ باعتباره ممارسة ثقافية غربية قد واجه التحدى بسبب فقداننا لهويتنا الذاتية . وفى الوقت نفسه، يظل المؤرخون المتمسكون بمعتقداتهم الواقعية عن النموذج الإمبريقى الذى يستلهم العلم، فى الإدراك العام، متعودين على ما يرون أنه مجرد « تشوشات » فى متابعة المعرفة التاريخية الحقة (حتى لو أدركوا أن المشكلات الفنية المتعلقة بالأدلة، أو الانحياز البسيط قد يحول دون تحقيق ذلك).

كان العلم، منذ القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين، قد اعتمد على سرديات قوية، مبنية اجتماعيا، لدعمه وحمايته وإضفاء الشرعية عليه – وهو ما يسميه ليوتار « ما وراء السرديات » . وفى التراتبية المعرفية كانت ما وراء السرديات، أو المفتاح الأكبر، متمثلة فى حركة التنوير فى القرن الثامن عشر (كما تمركزت فى اندلاع الثورة الفرنسية) الواعدة بالحرية الإنسانية بالتحرر من ربقة الاستبداد الملكي والإقطاعي، لكي يعقبها السرد الذى ظهر فى القرن التاسع عشر منبئا عن الوعي الإنساني، الذى أدى إلى نوع من المستقبل الذى يمكن أن يتحقق فيه الكمال (كما تجلى بشكل واسع فى فلسفة هيجل) . ومن ثم يزعم ليوتار أنه لا يمكن وصف حقيقة المعرفة العلمية بدون اللجوء إلى هاتين السرديتين الأخريين مما وراء السرديات المتعلقتين بالتحرر والوعى الذاتي . والعلم ينكر أن السرد معرفة مشروعة (بمعنى أنه ليس علما) على حين يعتمد على السرد بسبب القبول الذى يحظى به اجتماعيا وبسبب شرعيته الفكرية والثقافية .

ولو كان التاريخ،ضمنيا، يواجه التحدى اليوم مثل العلم، فمن المفترض أن يكون

ذلك راجعا جزئيا إلى الأحداث المضطربة التي شهدها القرن العشرون وكان معناها فقدان الثقة فى قدرتنا على حكاية الماضى أو على حد وصف جنكينز : « الإخفاق العام ... لتلك التجربة فى العيش الاجتماعي التى نسميها الحداثة » (٢٧) . ويواجه ما وراء السرد فى الموضوعية العلمية وكشف التقدم من خلال استيعابنا للماضى التحدى حاليا . ذلك أن ظهور الفاشية، والحربين العالميتين، وانحسار الاستعمار، والتغير التكنولوجي المزلزل، والكارثة البيئية والإيكولوجية، وانفجار ثورة المعلومات، ونمو الرأسمالية العالمية المستغلة غير المحدود، مع تحويل العمل إلى سلعة فى الغرب « المتطور »، مع تفاقم سوء أحوال الجماهير الكادحة عبر العالم النامى - كل هذا أدى إلى تدمير ما وراء السرديات التى أضفت الشرعية على كل من العلم والتاريخ باعتبارهما أسس ما كان يعد اتجاها عنيدا صوب الحرية الفردية وتحسن الوعي الذاتي فى الوضع الإنساني .

ونتيجة لهذا كله، مع بزوغ فجر القرن الحادى والعشرين، كانت السرديات الكبيرة منها والصغيرة على السواء، والمعتقدات، والمواقف، والقيم، والأنظمة التعليمية، والمجتمعات، والمعنى نفسه، يبدو ممزقا متفسخا . إذ إن المستقبل يكتسى ثوب الشك الكئيب . والآن يبدو من الأمور التى لا يصدقها أحد أنه كان بوسع أي شخص أن يؤمن بتراتبية والسرديات الحاكمة مثل الليبرالية، والعلم، والماركسية، والاشتراكية، أو يؤمن بنظرة إلى التاريخ تؤكد على اكتشاف الماضى كما كان بالفعل، أو حتى حتمية التقدم . ومن ثم فإن ما يصفه ليوتار بأنه حال ما بعد الحداثة يميل إلى الشك إزاء ما وراء السرديات . وقد خسرنا الإحساس الحداثي القديم بالتاريخ على أنه ينبوع الحكمة أو معلم اليقين الخلقي أو الفكري . ومعنى هذا أن أية دراسة لأي تاريخ لا يمكن أن تكون خارج سياقها الاجتماعي والثقافي . والتاريخ، بوصفه شكلا من الأدب، مثل الموسيقى، والدراما، والشعر، ممارسة ثقافية . والتاريخ بوصفه نصا أو سلسلة من النصوص (أي الأدلة وتفسيراتها) لا يمكن فهمه سوى حين يوضع « داخل حضارة اليوم بأسرها »، على حد تعبير فيلسوف التاريخ فى أواخر ثمانينيات القرن العشرين آنكرسميث F.R.Ankersmit(28) ويعنى هذا بالنسبة لمقاصدنا دراسة محتوى الماضى وتفسيره فى شكله السردي . وباعتبارى مؤرخا فإننى أُعرِّف التاريخ المكتوب بأنه طرح

سردي مكون اجتماعيا يعترف بالفشل النهائي لهذا الشكل السردي فى طرح الموضوع بدقة أو موضوعية . ويمكننا أن ندرس الماضى فقط إذا ما فحصنا طبيعة التاريخ باعتباره نظاما دراسيا .

خـــاتـــمة

إن تعريف التاريخ، بوصفه ممارسة أدبية ثقافية، يضعه داخل السياق الحالي لما بعد الحداثة . ومن هذا المنظور سوف يستمر التوسع فى التاريخ المكتوب وسوف يستمر فى ملء الفراغ المتاح له، شأنه في ذلك شأن أشكال التاريخ الكثيرة الأخرى . ويكشف التدوين التاريخي هذا الانفجار فى معرفتنا بالماضى، كما يوضح ازدياد اقتحامنا له . وليس هناك المزيد من التاريخ فحسب ولكن المؤرخين الذين يتفقون عليه أقل عددا(٢٩)، ورسالة الموقف التفكيكي مؤداها أن الماضي غير ثابت قط : سواء من حيث المصطلحات المعرفية أو من حيث تناول الأدلة، أو بنية التفسيرات، أو الطبيعة الدقيقة لشكل شرحنا التفسيري . ويتحدى هذا التاريخ ما بعد الحداثي أو التفكيكي النموذج التقليدي عند كل منعطف – ومن ثم يتحدى وصفه المتنوع بأنه تحول تفكيكي، أو لغوي . والتاريخ التفكيكي يتعامل مع الماضى باعتباره نصا ينبغى فحصه بحثا عن احتمالات ما قد يحمله من معان، وقد يكشف فوق هذا وذاك عن الأهداف المنهجية العليا، كما أن فروض المؤرخين الحداثيين تميل بهم فى اتجاه أن هناك قابلية فى نهاية الأمر لاستمرار العلاقة بين الأدلة والتفسير، وهو ما ينتج المزيد من الشفافية فى الطرح بحيث يمكن تحقيق أهدافها فى التجرد الخلقي، والنزاهة، والموضوعية، والأصالة (ناهيك عن الصدق المطلق) والتكوين الموضوعي للحقائق التاريخية – بما يتيح للمصادر التاريخية أن تتحدث عن نفسها . ولأننا اليوم نشك فى هذه المفاهيم التجريبية عن اليقين والصدق، والموقف المستقل اجتماعيا وأخلاقيا، فلم يعد هناك تاريخ بالمعنى الحقيقي التقليدي، وإنما هناك فقط أطروحات سردية احتمالية عما كان فى الماضى وعن الماضى، ولا يمكن لأحد أن يزعم أنه يعرف الماضى كما كان بالفعل . وأتحول الآن صوب هذا الزعم بتناول الأسئلة الأربعة الرئيسية بمزيد من التفصيل .

(٢)

الماضى حاضر متغير

تقديم

لم يحدث من قبل أن كان هناك مثل هذا العدد الهائل من المناهج المتاحة لدراسة الماضى، ومثل هذا المدى من الموضوعات وهذه التنويعة من الجمهور، وهى أمور تفهم كلها فى نطاق معنى واسع من السخرية التى يبدو أنها تحتوى الثقافة الغربية اليوم(١). ولم يحدث من قبل قط أن كان هناك أيضا مثل هذا العدد من المؤرخين الذين تقبلوا أن التاريخ المكتوب ينشر نظاما من اللغة يحمل جزءا من الحقيقة التى وصفت – وهو طرح عبارة عن مركب ثقافي بحد ذاته مثلما هو نتاج لغوي. والحياة التى نحياها إنما تدور فى عصر غالبا ما نفهمه بمصطلحات الوعي الساخر، ومتأثر تماما بالغزارة والفوضى التى تتسم بها البنيوية، وما بعد البنيوية، والنماذج الرمزية والأنثروبولوجية عن العلاقة بين الشرح والنظرية، بل إن أقوى مؤيدى المثال التجريبي التقليدي يسألون بين الحين والحين كيف يمكن أن نعرف حقيقة الماضى – أو بتعبير أدق، ما مدى دقة تقديم حقيقة الماضى فى شكل سردي ؟ يتركز الجدل حول العلاقة بين ما بعد الحداثة والتاريخ على الرابطة بين المناهج الإمبريقية وغيرها من المناهج التى يستخدمها المؤرخون لفهم التاريخ (٢).

وبالتحديد، فإننا نرى تأثير ما بعد الحداثة على دراسة التاريخ متمثلا فى التأكيد الجديد على الجانب الأدبي والجمالي فيه، وهى دراسة ليست قاصرة على الجانب الأسلوبي وحده كما كان من قبل، وإنما تعتبر الآن حالة من التفسير لا تعتمد على النموذج التجريبي الراسخ بشكل أولي، حتى بيتر جاى Peter Gay الدافع القوي عن

الإمبريقية، لاحظ أن « الأسلوب ... تم استهلاكه فى نسيج ... التاريخ وبعيدا عن القليل من الحيل الفنية البلاغية، يرتبط الأسلوب بالمادة ارتباطا لا ينفصم ذلك أن الأسلوب يشكل المادة، كما تشكله المادة بدورها »(٢). ولا يجب رؤية هذا باعتباره شيئا هداما ولكن بوصفه تحريرا لكتابة الماضى . لقد كان تدهور المعايير العالمية القديمة التى قامت الحداثة على أساسها بوصفها مرحلة من مراحل التاريخ – أي العلم، والليبرالية، والماركسية – يعنى أن التاريخ، بينما لم يعد من الممكن أن يعتمد على المفاهيم التى لا نزاع عليها عن الحقيقة والموضوعية والصدق، يمكنه أن يتناول سؤالا جديدا بل أكثر تحديا عن كيفية اكتسابنا المعرفة عن الماضى .

ثلاث مقاربات للمعرفة التاريخية

فى التقديم، جادلت بأن المؤرخين اليوم يتناولون أربعة أسئلة أساسية عن منهج التاريخ، أو شكل التاريخ، وعن مادته، أو محتواه . وأول هذه الأسئلة المتمايزة وإن كانت متداخلة السؤال الكبير عن ما إذا كان التاريخ، أو لم يكن، نمطا معرفيا له قواعده الخاصة لاكتساب المعرفة واستخدامها . هل يوجد التاريخ بوصفه علما تجريبيا منفصلا، أم أنه فى أفضل الأحوال فرع من العلوم الاجتماعية البنيوية، أو يمكن أن يكون شكلا من أشكال الأدب ؟ أم أنه عمل فكري غامض بحيث يمكن أن يعتمد على اختيارات المؤرخ الفرد ؟ أما الإجابات على الأسئلة الثلاثة الأخرى، عن التعامل مع الدليل التاريخي، ودور النظرية الاجتماعية، والسرد بوصفه شكلا من أشكال التفسير التاريخي، فإنها تضفى الحياة على هذا السؤال الكبير . وفى خضم التاريخ العام اليوم نلاحظ ثلاث مقاربات رئيسية بالفعل وقد حددتها باختصار على أنها : إعادة بناء الماضى، والبنيوية، والتفكيكية . وتناول التاريخ بقصد إعادة بناء الماضى، أو كما تسمى أحيانا المقاربة السياقية، تشير إلى التوافق الراسخ أو «المعقول » فى المذهب الإمبريقي التقليدي الذى وصلنا من القرن التاسع عشر . وتتجلى تغطيته بالفعل لتنويعة من المذاهب التجريبية فى مؤلفات مائة من أنصار إعادة بناء الماضى من أمثال إلتون ، وجوردون وود، وتريفور، ولورنس ستون ، وجون توش، وجرترود هيملفاره، وآرثر

مارويك، وهكستر، وأوسكار هاندلين ؛ وفى مؤلفات أولئك الذين نسميهم الواقعيين العمليين مثل بيتر نوفيك، وجويس أبلبى، ولين هنت، ومرجريت جاكوب، وديفيد روبرتس، وجابرييل سبيجيل، وكارلا هسى . وقد تبنت كل من المجموعتين تفسيرات تاريخية حول الدليل مع الاحتفاظ بالعقيدة التأسيسية فى الإمبريقية والمعانى التاريخية المستمدة من التجربة بشكل نهائي كما نقلتها السرديات المبنية(٤). ومن أكثر المدافعين عن مقاربة «المحترف» الحداثي فى دراسة التاريخ إلتون، ومارويك ؛ إذ يتمسكان بأن التاريخ ما يزال يدور حول البحث الموضوعي المشروع فى المصادر، وإعادة بناء الماضى كما حدث بالفعل، وتحرر العملية كلها من التلوث الإيديولوجي، والصور البلاغية، والمجاز المطلق.

وتشير البنيوية إلى مدارس « النظرية الاجتماعية» التى تلجأ إلى القوانين العامة فى تفسير التاريخ كما تتجسد، مثلا، فى أتباع مدرسة «الحوليات Annalistes» الفرنسيين، وتحاول القيام بالتفسيرات الكلية الشاملة، وغيرها من حالات الدراسة التى تستلهم علم الاجتماع، والسير التى كتبها مؤرخون مثل نوبرت إلياس Nobrt Elias وروبرت دارنتون Robert Darnton ومارشال ساهلينز Marshal Sahlins وأنطونى جيدينز Antony Giddens(٥) ونظرية التحديث بدورها تنويعة أخرى فى البنيوية التى لقيت ترحيبا ولا سيما فى الولايات المتحدة فى أوائل ستينيات القرن العشرين . وتتطلع هذه النظرية إلى الماضى بحثا عن النماذج التى يمكن أن تطبق اليوم باعتبارها وسيلة لدراسة التطورات الجارية فى العالم الثالث . وأشهر المقاربات البنيوية بطبيعة الحال تتمثل فى المدرسة البنيوية /الماركسية الجديدة حسبما تتجسد فى أعمال كل من إيوجين جينوفيس Eugen Genovese وجورج روديه George Rude، وبيرى أندرسون Perry Anderson وثومبسون E.P. Thompson، بالإضافة إلى علماء السياسة الذين خاضوا غمار التاريخ مثل أليكس كاللينيكوس Alex Callinicos(٦) والسؤال الذى تطرحه كافة تنويعات البنيوية عادة هو كيف يمكن لمثل هذا التاريخ أن يقترب مما حدث فى الماضى، على حين أن كل ما فعله فى الواقع كان توليد تفسير يرتكز على أرضية من الممارسات الثقافية المعاصرة، ومن ثم يتخذ سمة إيديولوجية ؟ ولسوف يظل هذا السؤال مطروحا وينبغى على المؤرخين التفكيكيين أن يواجهوه .

أما المجموعة الأخيرة من المقاربات، التى تعرف بصورة فضفاضة بأنها مقاربة

تفكيكية، فإنها تستمد محورها من الفهم التاريخي ما بعد الحداثي فى مؤلفات عدد من المؤرخين وفلاسفة التاريخ مثل هايدن هوايت Hayden White، ودومينيك لاكابرا Dominic La Capra، وديفيد هارلان David Harlan، وألان ميجيل Allan Megill، وكيث جينكينز Keith Jenkins، وأنكر سميث F.R.Ankersmit، وفيليب كاراد Philippe Carrad، وجوان سكوت Joan W.Scott، وباتريك جويس Patrick Joyce، وروجر شارتييه Roger Chatier، وآخرين كثر من مؤرخي الموجة الجديدة الفكريين والثقافيين حيث يكون التركيز على التجريبية (الإمبريقية) التقليدية أو التنظير العلمي الاجتماعي الصريح، أقل منه على العلاقة بين الشكل والمضمون (المصادر والتفسيرات) والنسبية الحتمية للفهم التاريخي(٧). والوعي التفكيكي يقبل فكرة أن محتوى التاريخ، شأنه شأن محتوى الأدب، يتم تعريفه بطبيعة اللغة المستخدمة لوصف ذلك المحتوى وتفسيره بدرجة مساوية لتعريف البحث فى المصادر الوثائقية . ذلك أن المؤرخين التفكيكيين يميلون إلى رؤية التاريخ والماضى باعتبارهما سلسلة من النتاج الأدبي الذى يستمد تسلسل معانيه، أو أهميتها، من طبيعة البناء السردي (أو أشكال التقديم) بقدر ما يستمدها من عوامل أيديولوجية أخرى مطروحة ثقافيا . ولأننا معشر المؤرخين نختار كلماتنا بقدر كبير من الحرص، فإنه يبدو من الخطأ أن نتجاهلها لأنها جزء مهم من محاولتنا لتفسير الماضى . وسوف أحدد الآن المقاربات الثلاث جميعا بشىء من التفصيل قبل تقييم أهميتها لكتابة التاريخ.

التفكيكية

يقوم التراث الغربي فى كتابة التاريخ على نظرية التواصل الإمبريقية التى تضرب بجذورها فى الاعتقاد بأن المعنى الصادق يمكن أن ينتج مباشرة من المصادر الأولية . كما يقال: إن هذا كاف لبناء التاريخ بوصفه معرفة منفصلة ومستقلة (٨). ومن ثم، ترتكز التفكيكية على افتراض أنه كلما زاد حرصنا فى كتابة التاريخ، مثل الحرفيين المجربين، صار أكثر دقة، وكلما اقتربنا أكثر من تحقيق عبارة ليوبولد فون رانكه فى القرن التاسع عشر «التاريخ كما حدث بالفعل ». هذا الاعتقاد المركزي فى هذه التنويعة

من التجريبية المعززة فى الدراسات التاريخية إنما هى تعبير عن كراهية للنظريات إلى تحمل تفسيرات مسبقة . ومثل هؤلاء التجريبيين (الإمبريقيين) يمحصون معرفتهم بالماضى بالإصرار على أن تجريبهم العالم الحقيقي ينبغى أن يكون غير متأثر بنظرتهم قدر الإمكان - أي إنهم يظلون موضوعيين بعبارة أخرى . ويمكننا أن نحرز رؤية ثاقبة مفيدة فى قلب الإمبريقية المحافظ بقراءة كتاب إلتون الصادر سنة ١٩٩١م بعنوان Return to Essentials؛ إذ يصر إلتون على أن الجانب الاكثر قيمة فى عمل المؤرخين هو « التحقيق النزيه العقلاني المستقل للوثائق التى تتعلق بالماضى » [٩]. ويجادل بأن هذا الاعتماد على التجريبية المعقولة لا يشكل نظرية للمعرفة، ولكنه هو التاريخ كما ينبغى أن يُفهم على نحو صحيح، ويواصل مستبعدا النسبية فى التاريخ - نظريات أخرى فى المعرفة - باعتبارها « نظريات إيديولوجية ... مفروضة على إعادة بناء الماضى أكثر من كونها مستمدة منه » وعند إلتون أن الإيديولوجية أكبر عدو للإمبريقية .

ومن منطلق الرفض لوصمة الإيديولوجيا، والانحياز وتدخل المؤرخين، رفض إلتون بقوة أيضا مفهوم أن كتابة التاريخ قد تنطوى على إعادة « التشريع فى ذهن المؤرخ » وقد انتقص إلتون من شأن اثنين من الأكثر شهرة بين المؤرخين النسبيين، وهما بنديتو كروتشه وكولينجوود، اللذين كانا قد ذكرا فى النصف الأول من القرن العشرين أن المؤرخين يلعبون دورا نشطا فى بناء التاريخ بإعادة التفكير فى الماضى، وذلك بقوله إن « تاريخ الأفكار ... قد تحسن الآن فجأة وترقى من مكان غسيل الأطباق إلى غرفة الاستقبال »، وهو قول لا يبعد كثيرا عن الصواب [١٠] . ويشعر معظم المؤرخين اليوم أنهم لا يستطيعون كتابة التاريخ بدون التفكير فى دورهم فى عملية استقاء المعرفة التاريخية -وهم لا يشاطرون إلتون إيمانه بالإمبريقية . والواقع أن هناك جدلا متواصلا (يسمى أحيانا صراع المؤرخين) بين المؤرخين الحداثيين والمؤرخين ما بعد الحداثيين، حول ما إذا كنا نستطيع أن نحوز معرفة أصلية بالماضى الحقيقي على الإطلاق، وذلك فى ظل وجود الغباء واضطراب اللغة فى شكلها السردي والبعد الإيديولوجي فى التاريخ [١١].

ونخلص من موقف إلتون لإعادة بناء الماضى أن عدوى الإيديولوجي تفرز أخطر

الأمراض المتمثلة فى سقوط رحمة الموضوعية وفرض صوت المؤرخ النافذ المقتحم . ولايمكن لهذا سوى أن يؤدى إلى رؤية - تاريخ منحط يحمل وجهة نظر خاصة . إذ إن صوت المؤرخ لا ينبغى أن يعلو فوق صوت التاريخ . وعند إلتون يكون الخداع، سواء فى النظرية الاجتماعية أو الإيديولوجيا، خداعا « من أكثر الأضرار شيوعا فى التحليل المعاصر » (١٢). ويجب على كل جيل أن يتجنب كتابة التاريخ على شاكلته . ويصف إلتون، متمثلا فى ذهنه المؤرخات النسويات «ذوات الصوت الزاعق»، هذا « الفساد » بأنه غالبا ما يكون نتيجة « الفراغ المتعصب» (١٣). وعلى الرغم من نزعته القتالية يثير إلتون نقطة مهمة حول ما إذا كان على المؤرخين أن يقيسوا الماضى وفقا للمقاييس الحالية للمنهج والإبداع . ومن الواضح أن هذه مشكلة حقيقية إذا ما افترضنا أن التاريخ سعي موضوعي بحثا عن الحقيقة . وإجابته الثابتة أنه كذلك بالفعل وأننا نكتب التاريخ من أجل التاريخ وليس لتفسير الحياة اليوم .

والمؤرخون المحافظون الذين يؤمنون بإعادة بناء الماضى قلقون بشأن استيراد العلم الفلسفي (الذى يوصف عادة بأنه تاريخ الأفكار) وإدخاله فى عملهم . وبعضهم ببساطة معادون للنظرية فى أي شكل كانت (مثل إلتون)، على حين يعارض الغالبية النظرية أو فئات التحليل التى لا يوافقون عليها شخصيا . إذ لا يرفض إلتون، مثلا، «النظرية الإيديولوجية » (التى قال بها كروتشه وكولينجوود) فقط، والتى دافع عنها فى وقت أحدث المؤرخ البريطاني كار، ولكنه يرفض أيضا طائفة أخرى من النظريات المستمدة من العلوم الاجتماعية التى كانت، حسب زعمه «تميل إلى أن تصل لنتائجها بإرساء نموذج نظري، لدعم أو تفنيد التطبيق الإمبريقي للتفاصيل الحقيقية» (١٤). وفى رأي إلتون أن الماركسية ضارة على نحو خاص، ويسانده بقوة مؤرخ آخر من أنصار إعادة بناء الماضى، هو آرثر مارويك، ففى رأي مارويك أن التاريخ ليس علما اجتماعيا، ومن ثم فإنه ممارسة غير نظرية. وعلى الرغم من شكهما المشترك فى الفلسفة، فإن آراءهما تلقى الدعم والمساندة من عدد من فلاسفة التاريخ مثل كريس لورينزو Chris Lorenzo، وجيمس كلوبنبرج James Klobben-berg، وهيكستر J.H. Hexter، وبيهان ماكوللاج C.Behan McCullagh، وميخائيل ستانفورد Michael Stanford.

يجادل مارويك وإلتون بأن التاريخ والعلوم الاجتماعية مختلفان عن بعضهما بسبب مادة التاريخ، التى تكون فى شكل وثائق فريدة أو مفردة وأثار الماضى التى تعيق صياغة « البنى النظرية »، وإذا ما تمت هذه المحاولة « تكون هذه البنى ذات سمة تجريدية دائما وبقدر يفوق ما يكون المؤرخ مستعدا لقبوله» (١٥). وفى أوائل تسعينيات القرن العشرين اتخذ أحد أنصار إعادة بناء الماضى المعتدلين، وهو لورنس ستون Lawrence Stone، موقفا متشددا عندما أدان علنا « هجمات النسبيين المتطرفين من هايدن هوايت حتى دريدا ... الخبرة الحرفية المكتسبة من دراسة الأدلة فى القرن التاسع عشر» (١٦). ذلك أن التاريخ، عند ستون وإلتون ومارويك، يعالج الثوابت التاريخية الراسخة ولا يتعامل مع البنى التأملية لعلماء الاجتماع، أو حتى البنى التأملية لفلاسفة التاريخ وفلاسفة اللغة التفكيكيين . وفرض نماذج أو أمثلة لتفسير الأدلة يعنى أنه لايمكن التفكير فى الماضى بصورة عملية، لأن هذا الماضى وجد مستقلا عن المؤرخين الذين عملوا على فهمه . واستخدام النظرية معناه أننا، معشر المؤرخين، نفرض نماذج التفسير المستمد من العلوم الاجتماعية على الأدلة المأخوذة من الماضى، أو من نماذج أخرى مثل البنيوية وما بعد البنيوية، والأنثربولوجيا والنظرية الأدبية . وبهذا المعنى تكون التفكيكية، بالنسبة للتجريبيين، مجرد نوع آخر من الفرض البنيوي على الماضى والتاريخ الذى يعيد بناء الماضى تاريخ بالمعنى الصحيح، والتاريخ بالمعنى الصحيح ليست له نظرية اجتماعية أو محور فلسفي يطحنه .

البنيوية

البنيوية فى جوهرها نوع فرعي من إعادة بناء التاريخ . وقد نمت فى مسار القرن العشرين من غمار الضعف الذى حاق بالمثال التقليدي لإعادة بناء الماضى(٧). وينتج التعقيد الكبير والتنوع العظيم فى البنيوية اليوم من حقيقة أن معظم المؤرخين يرتبون أنفسهم حول النقطة المنهجية التى تتفرع عندها البنيوية عن إعادة بناء الماضى . وربما يكون المؤرخون اليوم أكثر انفتاحا على طرق البحث التاريخي الجديدة منهم فى أي وقت مضى . ويبدأ هذا التفرع مع الاعتراف بتهافت المذهب الإمبريقي . ولم يكن الممارسون الأوائل للتاريخ البنيوي فى القرن التاسع عشر – كارل ماركس، وأوجست

كونت، وهربرت سبنسر - راضين بالسرد الوصفي البسيط في إعادة بناء الأحداث الفردية والمنفصلة . ذلك أنه بالنسبة لهؤلاء الرواد الذين بشروا بالنظرية الاجتماعية في القرن التاسع عشر، ومن ثم بالنسبة لكثيرين في القرن العشرين، يمكن للتاريخ أن يفسر الماضى فقط عندما يوضع التاريخ داخل إطار تفسيري موجود سلفا يسمح بحساب القواعد العامة للفعل الإنساني . ويتم الكشف عن هذه القواعد العامة باعتبارها نماذج للسلوك، على حين ينظر إلى الأحداث الفردية على أنها جزء من نموذج منفصل. وكانت نقطة بداية هذا التاريخ البنيوي فى القرن العشرين متمثلة فى حركة التاريخ الجديد التى ظهرت فى عشرينيات القرن العشرين، مرتبطة بالمدرسة الفرنسية من المؤرخين الذين تجمعوا حول « الحوليات »، والمؤرخين الأمريكيين الجدد : فردريك جاكسون تيرنر Frederick Jackson Turner، وتشارلز بيرد Charles Beard، وجيمس هارفي روبنسون James Harvey Robinson، وفيرنون بارينجتون Vernon L. Parrington. ونتيجة لعملية التفريع شهدت الفترة الأخيرة من القرن العشرين تنوعا أكثر من أي وقت مضى فى الطرق التى يمكن أن تمتزج بها نزعة إعادة بناء الماضى (التاريخ السردي للحادثة المفردة) والبنيوية فى النظرية الاجتماعية ويمكن أن نرى ثراء التاريخ البنيوي من خلال تطوره فى مدرسة الحوليات الفرنسية وصولا إلى فرناند بروديل، حتى إيمانويل لوروى لادورى Emmanuel Le Roy Laudrie، وروبرت دارنتون Robert Darnton اليوم، وفى الأعمال المستلهمة من الأنثروبولوجيا عند مؤرخين مثل ناتالى زيمون ديفيز Natalie Zemon Davis. وما يسمى أحيانا الماركسية الثقافية مثال آخر على تطور الإمبريقية السردية فى صورة بنيوية تتجلى بصورة جيدة فى أعمال المؤرخ الماركسي ثومبسون . وبالنسبة لهؤلاء المارسين وأمثالهم ليس القصد من بناء النموذج البنيوي قولبة الأحداث بالضرورة فى نموذج معد سلفا . فعند هؤلاء المؤرخين جميعا، شأنهم فى ذلك شأن مؤرخى المدرسة الحداثية، لا يلغى فرض الإطار التفسيري دور الإنسان، أو مقاصده، أو الاختيار من الماضى، وإنما يثرى فهمنا للماضى .

ومثل النظرة الحداثية للتاريخ لمتتفرع البنيوية ومذهب إعادة بناء الماضى عن اعتقادهما المشترك بالوجود المنفصل للمعرفة الحقة المأخوذة عن الأدلة التى تمت

ملاحظتها، وإنما تتفرع من الزعم الإمبريقي بأنه يمكن بناء نظام راق وتفسير مبرر بشكل جيد على الدليل الفردي الذى يمكن ملاحظته فقط . لقد تحدت البنيوية الاصطناعية اعتقاد مذهب إعادة بناء الماضى ضمنا بأن التحقيق التاريخى يمكن أن يحل المسائل التاريخية عن طريق تقييم الأحداث التاريخية الفردية مثل اختبار ورقة عباد الشمس فى مجال المعرفة (١٨). وهناك نفر قليل للغاية من المؤرخين الذين يرون إمكانية إعادة بناء الماضى يؤيدون رأي إلتون ومارويك المحافظ الجامد فى التاريخ باعتباره يقوم بشكل خالص على الأدلة وليس ممارسة فلسفية ولا نظرية . فالتاريخ لا يمكن أن يكتب كما لو كان قد أزيح تماما عن تجربة الحاضر، أو حياتنا اليومية أو الأفكار السائدة داخل حدود الجماعة الفكرية . ولا يمكن أيضا أن يستطيع تجنب الأطر التفسيرية التى لابد أن تكون أكبر أو أقل فى تمثيلها الثقافي .

وكثير من المؤرخين يجمعون على قبول فروع الدراسة التاريخية بقصدإعادة بناء الماضى، وهى نقطة تتوسط ما بين حقيقة الماضى من خلال مزيج من الميثاق المهني، إن لم يكن الاجتماعي، وفئات التحليل وإضفاء المفاهيم، ناهيك عن وضعه فى موقف إيديولوجي فعلي . وقد كتب المؤرخون الثقافيون والاجتماعيون الذين يتمتعون بوعى إيديولوجي أعلى فى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، قد كتبوا التاريخ باعتباره ممارسة يحق لهم التدخل فيها بالمعارضة والرفض . ويتضح هذا خاصة فى تفسيرات المؤرخين من النشطاء - اليساريين مثل تومبسون، وفيليب فونر، وكريستوفر هيل، وجون سافيل، ومايك ديفيز، وجورج رودى، وديفيد رويدجر، وفيكتور كييرنان، وهربرت جوتمان، ورفائيل صمويل - وهم مجرد أقلية بين كثيرين . وعلى الرغم من أن إلتون يرفض بشدة، فإن التنويعات الحالية فى التاريخ الاجتماعي إن هي إلا دليل على أن التاريخ يكتب بشكل مطرد على أنه شكل من أشكال الالتزام السياسي إزاء الجماعات المهمشة - عرقيا، وإثنوجرافيا، ونوعا، وطبقة، وجنسا وإقليما. والكثير من الكتابات التاريخية الآن فى التاريخ الاجتماعي والثقافي تفترض أنه لا يمكن حذف معتقدات المؤرخين والتزاماتهم الشخصية، بيد أن هذا لا يلغى قيمة فهمنا التاريخي. كما أن هناك بعدا آخر فى كتابة التاريخ يلقى المزيد من القبول على نطاق واسع، بالإضافة إلى هذا - ألا وهو شكل هذه الكتابة . وبغض النظر عن مزاعم البعض فى

معسكر «الحوليات » بعكس هذا، فإن الكتابة التاريخية الأكثر وضعية فى التاريخ البنيوي ينبغى أن تكتب بوصفها سردا . وتكمن النقطة الرئيسية فى التاريخ التفكيكي فى اعترافه بأن الوظيفة الأولى للمؤرخين، سواء كانوا من أتباع مذهب إعادة بناء الماضى أو من البنيويين، أن يحكوا قصة تقوم على أساس فهم السرديات الأخرى وتفسيراتها الموجودة سلفا .

هذا الاعتراف أشار إليه لورنس ستون للمرة الأولى سنة ١٩٧٩ م، ومرة أخرى سنة ١٩٩١ / ١٩٩٢ م فى مقالة عنوانها « إحياء السرد» . وقد زعم ستون أنه تحقق من نهاية التاريخ النظري (البنيوي)، وكما يوحى عنوان المقالة، العودة إلى نوع أسبق من الكتابة التاريخية القائمة على أساس السرد (إعادة بناء الماضى)(١٩). وقد أدت التطورات التى جرت فى غضون العقد التالى إلى قيامه بشن غزوة ثانية سنة ١٩٩١ / ١٩٩٢ م شخَّص فيها العلاقة بين «التاريخ وما بعد الحداثة » بحسب عنوان المقالة، على أنها تنتج ثلاثة تهديدات جديدة للتاريخ - من اللغويات، والأنثروبولوجيا، والتاريخ الجديد (٢٠). وعلى الرغم من الاستجابات التى دافعت عن التحولات التاريخية الجديدة فى التاريخ الاجتماعي والثقافي التى لاحظت أنه يمكن تمييز كل أحداث الماضى عن الأشكال التى تتمثل فى تقديمها من خلال الوثائق والخطاب التاريخي الذى بناها، فقد ظل ستون مقتنعا بأن التاريخ فى خطر من أن يفقد الرؤية فى سمته الجوهرية التجريبية بسبب «الموقف المتطرف القائل بأنه ليست هناك حقيقة خارج اللغة » على حد قوله (٢١) .

وقد زعم أحد خصوم ستون، وهو المؤرخ الاجتماعي البريطاني باتريك جويس، أن هناك أزمة فى المهنة التاريخية ارتكزت على اعتبار ذى مكونات ثلاثة : أولها أن اللغة تشكل المعنى فى العالم الاجتماعي ؛ وثانيها أن الهدف من الدراسة التاريخية يخلقه المؤرخون دائما ؛ وآخرها أن وصولنا إلى الماضى لا يكون دائما إلا من خلال نص - النص باعتباره التفسير الذى كتبه المؤرخ، أو باعتباره دليلا وثائقيا : يوميات، أو قوانين، أو شواهد قبور، أو وصايا، أو أفلام، أو ما شابه ذلك . ونتيجة لهذا يتناول التاريخ دائما العلاقة بين مثل هذه النصوص وحياتنا الاجتماعية فى الماضى والحاضر حسبما تطرح من خلال اللغة . ومنذ أواخر سبعينيات القرن العشرين فرضت النظرية

الأدبية سطوتها على المؤرخين كما كانت لها تأثيراتها على قوم آخرين ممن يعملون فى مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية . ونحن المؤرخين، ندرك بصورة متزايدة، مثلا، قواعد اللغة التى تحكم إنتاج نصوصنا وطبيعة التقديم السردي التاريخي . ويخلص المؤرخ الفرنسي البارز روجر كارتييه إلى أن كل النصوص (سواء كانت أدبية أو تاريخية، دليل أو تفسير) يمكن النظر إليها على نحو أفضل باعتبارها نتيجة المحصلة البنيوية والقراءة التى قام بها المؤرخ . أنها تقديم للماضى أكثر من كونها وصولا موضوعيا إلى «حقيقة الماضى» (٢٢) . وبينما يستهلك المؤرخ الأدلة عن الماضى، فإنه ينتج أيضا معنى هذا الماضى . أما كيفية تنظيمنا للأدلة فهو الذى يخلق الماضى لنا ولقرائنا . هذا الفهم يحتل مكان القلب فى الكتابة التفكيكية للتاريخ .

التفكيكية : السرد والتاريخ

يعى المؤرخون التفكيكيون أو اللغويون، مثل غيرهم ممن يدركون السمة الوسطية لمجتمع ما بعد الحداثة وطبيعة المرجعية الذاتية للطرح، أن السرد التاريخي المكتوب هو إعادة الطرح الشكلي للمحتوى التاريخي(٢٣). وقد برز هذا الوعي فى الربع الأخير من القرن العشرين ليدفع بكل المؤرخين إلى التفكير بوعي فى الكيفية التى نستخدم بها اللغة – لكي يعوا بصفة خاصة السمة المجازية الرمزية فى السرد الذى نقدمه بوصفه الوسيلة التى نحكى بها عن الماضى والتاريخ المكتوب . ويعنى هذا المزيد من استكشاف فكرة أن لغتنا المبهمة تشكل وتقدم ما هو أكثر من تواصلها مع الحقيقة بشفافية وأنه لاتوجد حقيقة تاريخية نهائية يمكن معرفتها، وأن معرفتنا عن الماضى معرفة اجتماعية ومن منظور معين، وأن التاريخ المكتوب موجود داخل بنى قوة محسومة ثقافيا . وحسبما جادل كارتييه، ليس هناك نص، حتى « أكثر النصوص توثيقا من الناحية الظاهرية، وحتى أكثرها موضوعية » يمكن أن يحافظ على علاقة شفافة مع الحقيقة التى يحملها » (٢٤).

وقد صك الفيلسوف والناقد الفرنسي جاك دريدا مصطلح التفكيكية -Decon struction ليتحدى به الفلسفة الأنجلو-أمريكية والأوروبية ومذهب إعادة بناء الماضى :

أي فكرة أن هناك حقيقة راسخة يمكن معرفتها ويمكن الوصول إليها بصورة دقيقة. وعلى مثل هذا الاعتقاد ترسخت الاستقطابات الرئيسية مثل : حقيقي - غير حقيقي، حقيقة - خيال، حقيقة - زيف، ذاتي - موضوعي، العقل - المعرفة فى ثقافتنا(٢٥). لقد كان اندفاع التفكيكية الأدبية - القول: إنه ليس هناك يقين فى معنى النصوص المبنية على أساس اللغة؛ لأن هناك دائما ما يواجهها باعتبارها نصوصا بنيت بشكل اجتماعي - قد استفز مشاعر الحنق فيما بين الفلاسفة التجريبيين (الإمبريقيين) والمؤرخين الذين يأخذون بسياق المعنى العام . وتعنى فكرة أننا نتدخل باستمرار فى العالم الواقعي من خلال اللغة أننا لا يمكن أن نقدم الحقيقة بشكل مباشر، وأن تنهار نظرية التواصل المعرفي .

وبينما قد يبدو واضحا عند أحد المستويات أننا نعرف عالمنا من خلال اللغة وحدها، وأن استخدام اللغة يجعل المعرفة ممكنة، لا يعترف دعاة إعادة بناء الماضى المتمرسون أبدا أن اللغة مركزية لكتابة التاريخ، أو إذا غفل عدد قليل عن هذا، يكون ذلك مجرد قيد آخر من بين قيود كثيرة .

وما إن نعترف أن التاريخ المكتوب مفتوح فى معناه أكثر من كونه منغلقا، كما يحدث مثلا عندما يكتب تاريخ الإمبريالية - من منظور غير أوروبى - لم يتم الاعتراف بهذا المنظور فى الغرب أبدا حتى النصف الثانى من القرن العشرين وبداية نهاية عصر الاستعمار - حتى نقترب من معنى التاريخ ما بعد الحداثي : أى الاعتراف بنسبية المعنى، التى يحسمها موقف المرء وتتم تصفية اليقين المستمد من المصادر فى التقديم التاريخي . بيد أن معظم المؤرخين الذين يتجمعون حول محور إعادة بناء الماضى والبنيويين لا يزالون يصرون على البحث عن الماضى باعتباره القطب المضاد للتاريخ الممكن . ويقبلون الدليل كما حدث فى الماضى، معللين ذلك بأن المصدر إذا درس بشكل صحيح - فى سياقه وتطبيق النماذج المناسبة للشرح - لابد أن يكشف عن الحقيقة الكامنة خلفه . ومن ناحية أخرى، يصر المؤرخ التفكيكي على أن الدليل وحده الذى يخبرنا عن الحقائق والتفسيرات الممكنة، لأنه لابد للسياقات جميعا أن تتخذ شكل النص أو السرد، أو النصوص الموجودة داخل الدليل . وعندما نفسر نحن المؤرخين الماضى، فإننا نكتب نصوصا تحمل أفكارا قيمة، لكي نمحص الدليل ونصنفه، ومن ثم

نفرض بصورة حتمية أولية على الماضى شكلا سرديا أو نصيا . ودلالات هذا الفرض النصي جوهرية. فإذا كان المؤرخون التفكيكيون على حق، والتاريخ بوصفه معرفة لم يتم اكتشافه، وإنما تم إنتاجه فى اللغة ومن خلالها - بوصفه نصا - فمن الممكن إذن ألا تكون هناك حقيقة تخلو من الفرض مسبقا، ومجردة من التشكيل التفسيري الذى يقوم به المؤرخون [٢٦] . وليس هذا خلافا حول الموضوعية التاريخية، وإنما هو بالأحرى خلاف حول كيف يمكن للفكر نفسه أن يستوعب ما يفترض مسبقا أنه العالم الحقيقي أو العالم الواقعي القابع «هناك » من خلال الاعتراف بـ «تنويعات الحقائق »، أو حتى الاعتراف بطبيعة عدمية المعنى النهائية في التاريخ، ومن ثم الاعتراف بأنه مفتوح أمام المعاني كلها.

البـــنيـــوية

هذا التحدى الأساسي للإمبريقية، خاصة من حيث إيمانها بقوة التفسير من خلال نظرية التواصل، كانت له أصوله فـي بداية القرن العشرين، من خلال المشروع الثقافي العريض الذى عرف بالبنيوية . وما قد نسميه البنيوية الأرثوذكسية (المتشددة) تصر على أننا نستوعب العالم الحقيقي ونفسره من خلال شبكة ذهنية موجودة سلفا. هذه الشبكة تعمل على مستوى عميق من الوعي الإنسانى تتجلى فى العالم الحقيقي بطرق كثيرة، مثل بناء القواعد النحوية، والعلاقات بين الأقارب، والأساطير، بل فى أساليب استهلاك الغذاء . ويعنى هذا أن أي شكل من المعلومات، مثل المعلومات التاريخية، لا يمكن فهمها سوى من خلال بنى عقلية جينية أو موجودة سلفا فى ذهن المؤرخ . ذلك أن الفهم لا يأتى منعزلا عن المعلومات، كما أن المعلومات ليست حقائق تجريبية يمكن اكتشافها من داخلها، أو صلات مباشرة بدون وسيط مع الحقيقة . والمهم هنا أن البنيوية تؤكد على الخصائص الشكلية لنظام عقلي داخلي موجود من قبل للفهم، وليست قوة مستقلة عن عوامل الحسم الخارجية . وكما أشار الناقد الثقافي البريطاني الماركسي ريمون ويليامز Raymond Williams، أنه على الرغم من وجود استخدامات متنوعة لمصطلح البنيوية، فإن « التأكيد الأولي يكون على البنى العميقة

الدائمة وتكون الأشكال هي التنويعات التي نلاحظها في اللغات » . والنتيجة الحتمية، حسبما لاحظ « الرفض المتزايد للفروض التاريخية والتطورية » حول كيفية حصولنا على المعرفة في العلوم الإنسانية والاجتماعية (٢٧). هذه النظرة البنيوية هي التي استخدمها ما بعد الحداثيون من أمثال ميشيل فوكو وهايدن هوايت نقطة انطلاق لتحليلاتهم .

لقد كان للبنيوية تأثير عميق وشامل على طريقة تفكيرنا في الماضي باعتباره تاريخا تماما مثل حاضرنا ومستقبلنا أيضا . وقد وضعت البنيوية، بوصفها نظرية عن كيفية حصولنا على المعرفة، مفهوم الموضوعية العلمية تحت ضغط كبير، على حين برزت الأسس النسبية للمعرفة، وهو ما نتجت عنه أحدث التطورات المركزية بعد البنيوية والنزعة التاريخية الجديدة . والآن تتجاوز تشعباتها جميع المجالات المعرفية - العلوم الطبيعية، والقانون، والأنثروبولوجيا، والكوزمولوجيا، والاجتماع، والفلسفة، والأدب، والتاريخ . وساعدت البنيوية، كما سنرى، وما بعد البنيوية خاصة، بانطلاقهما سويا في النزعة التاريخية الجديدة، على تكوين اعتراضات تفكيكية على التاريخ التقليدي في النهاية .

كانت بداية البنيوية في الدراسات اللغوية . وفيما بين سنة ١٩٠٧ وسنة ١٩١١م، ألقى أستاذ اللغويات بجامعة جنيف، فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure سلسلة من المحاضرات في ثلاثة مقررات دراسية . وعند موته في سن مبكرة نسبيا وهو في السادسة والخمسين سنة ١٩١٣ م، نشر بعض أصدقائه وزملائه مجموعة من محاضراته وملاحظاته في كتاب The Course of General Linguistic (٢٨) في هذا الكتاب فصل سوسير أفكاره عن العلاقة بين الكلمات ومعناها الاجتماعي . وبهذا أنتج مجادلتين صارتا مركز دراسة اللغويات وفهمنا لدورها في خلق جميع المعارف، لا المعرفة التاريخية وحدها .

المجادلة الأولى مؤداها أن اللغة تعمل وفق قواعدها الخاصة في عالم «حقيقي» منفصل تماما في الماضي وفي الحاضر على السواء . ويشرح سوسير هذه الفكرة التي تبدو غريبة من خلال تعريف للغة Langue والكلام - parole فاللغة هي بنية اللغة والكلام هو الأمثلة الفعلية لنظام اللغة أثناء عمله، وهو عادة مايكون نطقا أو تعبيرا

ولايرى سوسير اللغة على أنها مجرد تجميع ضخم من الصور التى تعكس حقيقة الأشياء – على سبيل المثال تتعلق حقيقة كينونة الحصان بشكل طبيعي بكلمة «حصان» وفى رأي سوسير أن الكلمات لا تتصل بشكل سلس بالأشياء التى تشير إليها – أي مرجعياتها . وبعبارة أخرى، يبدو أنه يزعم عدم وجود علاقة طبيعية بين الكلمة والعالم. وبالتالى، فإن العلاقة بين الكلمات وما تعنيه علاقة اعتباطية . وأي إشارة مرجعية نفترضها فى اللغة هى الحقيقة التى أثبتها العرف الاجتماعي .

وتأتى مجادلة سوسير الثانية من افتقاده التواصل الطبيعي بين الكلمة والعالم . فالكلمات إن هى إلا «علامات » تحددت فى الواقع من اختلافها مع الكلمات الأخرى فى جملة ما . والعلاقات مبنية من عنصرين – المعبِّر عن المعنى (الكلمة) والمعبرً عنه (المفهوم الذى تمثله الكلمة) . وتهتم وجهة النظر البنيوية فى اللغة فقط ببنية الروابط الاعتباطية بين الكلمات بدلا من التحديق فيما وراء اللغة على أساس أنه المعبَّر عنه . والنقطة المهمة فى العلاقات بين الكلمات وما تعبر عنه تتمثل فى أن إنتاج اللغة يتم اجتماعيا . وعلى الرغم من أننا نميل إلى استخدام الكلمات كما لو كانت دقيقة مرجعيا، فإنها بطبيعة الحال قائمة على أساس معان اصطلاحية اجتماعية أو مقبولة عموما على أنها من القيم الاجتماعية . وإصرار سوسير المبدئي على اللغة يعنى رفض البعد التاريخي، أو الزمني للغة، لصالح البعد البنيوي أو الزمني كما يسميه هو . وبهذا كله خلق سوسير علم العلامات الجديد Semiology، Semiotics. ولا يمكن المبالغة فى التأثير الناجم عن كتابه فى مجال الإنسانيات، وبشكل أوسع تأثيره فى إنتاج الاستجابة الفكرية الأولية تجاهه والتى نخصص لها مزيدا من المناقشة فيما يلى، أي مابعد البنيوية . وكما أشار المؤرخ وليم بنكاك William Pencak، فإن دراسة الماضى تدور حول جمع العلامات واختيارها لكي نبنى قصة ونبنى تفسيرات من علامات الأحداث الحقيقية [٢٩]. ومن الناحية الجدلية تجلى هذا فى صعود جهد تجريبي جديد للتوفيق بين فهم «الحقيقي» والوسيط الوحيد الذى لدينا لمثل هذا النشاط – أي اللغة.

ونحن بحاجة لفهم مغزى هذا بالنسبة للتاريخ . ولأن أهمية العلامات تكمن فى هذه الرابطة الاعتباطية بين الكلمة وما تعبر عنه، وعاقبة ذلك أن تكون اللغة التعبير المركب الذى يحدد تجربتنا فى الحياة وفى الوجود . إذ إننا نعيش فى عالم اجتماعي

من اللغة، ومن ثم تكون اللغة محملة دائما بالمعنى الاجتماعي، وهى فى هذا متشابهة مع علاقات القوة التى تخلق البناء الاجتماعي على ما يشير فوكو، ويتبع ذلك أن اللغة، فى وصفها للتجربة تكون ذات منحى لا يمكن تجنبه. وربما يكون تعريف الإيديولوجيا بأنها حالة من التفكير تتصل بتراتيبيات المجتمع على نحو أو آخر، وتوزيع القوة فى داخله . ومن ثم لا تكون اللغة بريئة أبدا . ودائما ما يكون تعريف الكلمات / المفاهيم ومعناها مرتبطا باستخدام القوة فى مجتمعنا . وسوف نعود إلى هذه المسألة بالغة الأهمية مرة أخرى عندما أناقش بمزيد من التفصيل إسهام ميشيل فوكو الخاص فى الوعي التفكيكي .

ويعنى مفهوم البنيوية عن النص باعتباره نظاما مغلقا مكتفيا بذاته أن النقاد الأدبيين الذين تلهمهم البنيوية يحللون مصادرهم- النصوص التخيلية - عندما يدرسونها فى سياقها فى الحياة الحقيقية . ويحاول الناقد البنيوي أن يفهمها بعزلها عن سياقها، محاولا الوصول إلى كيفية تجسيد النص وفقا لبنية نحوية ما أو لتركيبية عميقة ما . هذا الشكل الملغز من النقد الأدبي غير جذاب بالنسبة لمعظم النقاد الأدبيين الذين يفضلون ربط نصوصهم بالعالم الحقيقي حتى يستوعبوا معناها . وتصر البنيوية فى شكلها الخالص على أننا يجب أن ننفصل عن هذا الارتباط، ولكن هذا ليس ممكنا بالنسبة للمؤرخين الذين يتعاملون مع المجتمع . والمغزى الوحيد فى هذا الاهتمام البنيوي بطبيعة اللغة أن الأهمية الحاسمة بالنسبة للمؤرخين تتمثل فى الطبيعة الاعتباطية للعلامات التى تؤكد الطبيعة الإشكالية للغة باعتبارها وسيطا فعالا للتعبير والفهم . وإذا كانت البنيوية تعترف بأهمية اللغة، فإن ما بعد البنيوية تعترف بقصورها وسيلة للفهم . وقبول الطبيعة المراوغة يغص بالفجوات، حالات الصمت وعدم اليقين فى الماضى - أى المحددات غير الثابتة والمتدفقة - كل هذا يوحى بأن التفسيرات التاريخية للنصوص، مثل النقد الأدبي، يجب أن تكون غير حاسمة، وجميع قراءاتها غير كافية على نحو أو آخر . وهذا لا يعنى بطبيعة الحال أن أي تفسير جيد شأنه شأن أي تفسير آخر ؛ بل يعنى ببساطة أنه ليس هناك تفسير محدد[٣٠] . وبطبيعة الحال، لا يوقف الناس (بما فيهم المؤرخين) عن إضفاء المعنى على الحياة اليومية، حتى مع كون العلامات اعتباطية . والحقيقة لأن العلامات محسومة ثقافيا فإننا نتعلم بسرعة ما التغيرات التى حدثت ونعيد قراءتها بسرعة .

ما بعـــد البـــنيـــوية

هذه الرؤية التى ترى اللغة مصدرا لا متناهيا للتعبيرات المتدفقة بحرية وليس لها نقطة أصل يمكن معرفتها ومن ثم فهى غير راسخة، وليست لها نهاية أكيدة، كانت مركز اهتمام جاك دريدا. ولكي يستكشف دريدا هذه السلاسل اللامتناهية من التعبيرات عن المعانى يستخدم المفهوم البنيوي عن الاختلاف، حيث يُعرِّف به الكلمات من خلال اختلافها عن كلمات أخرى، بيد أن المعنى يختلف دائما لأن كل كلمة تؤدي إلى كلمة أخرى فى نظام التعبير . وقد التقط الناقد والمنظر الفرنسي رولاند بارثيس Roland Barthes هذه الفكرة ما بعد البنيوية عن السلسلة اللامتناهية للتعبير أواخر ستينيات القرن العشرين وفى سبعينيات القرن نفسه، مجادلا بأنه لا بد أنه كان هناك الكثير من المعانى والتعريفات من الدرجة الثانية فى المعرفة الناتجة عن هذا[٣١]. وما لدينا إذن هو تحد أساسي لنظرية التواصل أو المرجعية أو المعنى .

وما يبعث القلق فى نفوس التيار الرئيسي من المؤرخين من أنصار إعادة بناء الماضى، والبنيويين، إذا لم تكن اللغة مؤكدة، فإن المعرفة التى نكتسبها من خلالها يجب أن تكون غير حاسمة بالقدر نفسه . ويعنى هذا أنه من المستحيل بناء سرد صادق ليكون تفسيراً تاريخيا. وعلى الرغم من مجادلة دريدا وبارثيس أن المعنى مجرد مسار من التعبيرات التعريفية، فإن معظم المؤرخين يصرون على قراءة النصوص (المصادر والسرديات التاريخية) لتحديد مكان الحقيقة. وهم يفعلون ذلك لأنهم لا يزالون يؤمنون بالمفهوم المقبول بإعادة بناء الماضى والقائل إن هناك مرجعية لكل كلمة ومن ثم هناك بعض الحضور الخارجي للنص باعتباره دليلا «يمكن التأكد منه». ولا يزال مؤرخون كثيرون يواصلون البحث عن الماضى التاريخي «الحقيقي» كما وجد ذات مرة والذى يعتقدون أنه يمكن استعادته حقا، مثل الكنز الذى يستخرج من قاع البحر أو النار التى تتأجج ثانية من تحت الرماد .

والسؤال هو : ماالذى يمكن للمؤرخين فعله عندما تواجههم هذه الموضوعات ؟ معظمهم ببساطة لا يفكرون فيها . ذلك أن الانشغال بالشكوك حول حقيقة اللغة يؤدى إلى عملية نقدية تستدعى حل لغز الأسلوب والأبعاد الرمزية للنصوص. والغالبية

العظمى من المؤرخين لا يهتمون بهذا العمل . وهم يجادلون بأنهم لايرغبون فى دراسة الشكل الأدبي لخطابهم - أي الكتب التى يكتبونها . وهذا الرأي ينطبق على الألماني فرانك آنكرسميث Frank R.Ankersmit الذى كان يواجه سلسلة من النصوص المؤثرة طوال السنوات الخمس والعشرين الماضية (٣٢). وإذا سلمنا بأن الدليل على ما حدث فى الماضى لا يمكن تحديده بدون حسم مشكلات معنى الماضى، مع أن لغة المؤرخ أساسية فى عملية خلق المعنى، فالواضح أن التاريخ الذى نخلقه ينبغى أن يكون خاضعا لقرارات اللغة التى يتخذها المؤرخون . ولا يعنى هذا أن نتوقف عن أن نكون مؤرخين إمبريقيين أو عقلانيين، ولكن ما يعنيه حقا أننا نحتاج ألا نكون مدركين فقط للاتجاه اللغوي ثم نحاول مراوغته كما يحاول الإمبريقيون الجدد أن يفعلوا.

وفى رأيى أنه من غير المقبول للمؤرخين أن يتخيلوا أن بوسعهم الهرب من السرد إلى الماضى. ولكن أن تكون مؤرخا ضد الاتجاه السردي أو من التيار التفكيكي لا يعنى أن تكون ضد الحقيقة. ذلك أن موقف التفكيكية مختلف . فنحن عندما نكتب التاريخ، أي عندما نكتب السرديات، نظل على اتصال بحقيقة الماضى، ولكن كما يشير آنكرسميث، يكون ذلك خارج الرواية الوحيدة التى تبرر تصديقه . ويشير ميل آنكر سميث للتقديم إلى أن ما يهم حقا فى التاريخ حالته المعرفية بوصفه نمطا من الأدب . وعندما تبقى مادة الماضى أو محتواه نقطتنا المرجعية، أما كيف نجمع ما نفسر به معناه أو نصوغ به شكله، فهو أمر يتعلق بالكتابة بقدر كونه إمبريقية وتحليلا .

على أية حال، لم يلبث موضوع ربط المحتوى بالسياق أن صار جزءا من الحركة التاريخية التى برزت فى السنوات العشرين الأخيرة من القرن العشرين (٣٣). وإذ لم تكن الأولوية للنزعة التاريخية عند المؤرخين، فقد ظهرت باعتبارها نمطا من النقد الأدبي فى الولايات المتحدة فى بداية الثمانينيات من القرن العشرين(٣٤). ولما كانت النزعة التاريخية الجديدة قد أخذت مفاتيحها الفكرية من تنويعة من نقاد الأدب، مابعد البنيويين والمفكرين ما بعد الحداثيين، فقد تحدت الحدود العلمية الراسخة للأدب على حين كانت تبدد المزيد من الشكوك حول اللغة وسيطا شفافا يقدر على توليد المعنى بالتواصل مع العالم الاجتماعي : الماضى والحاضر - وهو الجدل الذى توازى مع الشكوك حول القوة التقديمية للتاريخ وزاد منها .

النزعة التاريخية الجديدة

مع بواكير القرن الحادى والعشرين كانت النزعة التاريخية الجديدة قد تخطت النقد الأدبي لتفترض نسب تحليل ثقافي أوسع كثيرا . وكما أشار هايدن هوايت، كانت النزعة التاريخية الجديدة فى البداية تزيد قليلا عن «محاولة إعادة بناء بعد تاريخي لـ ... الدراسات الأدبية»(٣٥) لإعادة وضع الأعمال التاريخية داخل سياقها التاريخي - لفهم الأشعار، والروايات، والمسرحيات، والنصوص، ليس فقط في علاقة كل منها بالأخرى، وإنما أيضا فى ارتباطها بمؤسسات المجتمع والأحداث التاريخية التى ربما تكون قد أثرت فى إنتاجها ؛ أي العلاقة بين النص والسياق . وبوصف النزعة التاريخية الجديدة تحليلا ثقافيا، فإنها كانت مع هذا انعطافا آخر فى عملية الاستكشاف المتواصلة للعلاقة المبنية اجتماعيا بين العارف والمعروف، بين الدليل، والبرهان، والحقيقة . وبالنسبة للمؤرخين القلقين، مثل لورنس ستون، كانت النزعة التاريخية تهديدا للدراسة التقليدية للماضى لأنها تتناول الممارسات السياسية والاجتماعية باعتبارها نصوصا ثقافية،أو نظم لغة، أو أنساق لغة، مع تفريغ التاريخ من ارتباطه بحقيقة الماضى (٣٦).

ومن المهم بالنسبة للمؤرخين أن يفهموا ما تقوله النزعة التاريخية الجديدة لأنها، مثل التاريخ التفكيكي، مبنية على افتراضات تتحدى النموذج الإمبريقي مباشرة (٣٧). أولا، يمكن أن تكون الأوصاف التى نطلقها على الأحداث التاريخية الحقيقية، مثل الأحداث الخيالية، فى أحسن الأحوال مجرد تقديم، أو تكون أحداثا يجرى وصفها، لأنه ليست هناك طريقة مباشرة يمكن للمؤرخين أن يحصلوا بها على المعرفة التاريخية من مصادرها الأولية . ثانيا، أن التاريخ، بوصفه شكلا أدبيا يتعلق بالحدث الفريد والطارئ وبطبيعة السببية الحقة، ينبغى أن يبقى دائما غير جازم . ثالثا، على المؤرخين أن يعترفوا بتطابق الأحداث التاريخية وتفسيراتها - ليس مجرد أن التاريخ المكتوب لجيل ما يصير المصدر التاريخى للجيل التالى، ولكن النص التاريخي نفسه يوجد متداخلا فى البنى الاجتماعية والسياسية الأوسع لأية حقبة زمنية . وأخيرا، يشير الفكر التاريخي الجديد إلى أن الدليل الذى لدينا والخطاب المكتوب الذى ننتجه فى تفسير هذا الدليل محدد بحدود الزمان والمكان - فليست هناك حقائق تاريخية كلية ينبغى اكتشافها أو قيم متسامية يجب تعظيمها . هذه الافتراضات التى تبدو غير ضارة

تقوض دعائم المقاربتين الرئيسيتين لأنها تستبعد اعتقاد من يريدون إعادة بناء الماضى بوجود حقيقة واضحة «هناك» كما تستبعد الاعتقاد فى حقيقة أن بوسعنا التحقق من النظريات البنيوية فى التفسير من خلال الاختبار الإمبريقي .

وبناء على ذلك، يكون التمييز بين التاريخ الثقافي وغيره من العلوم الأدبية قد اختفى تحت التفكير التاريخي الجديد بشأن الاتفاقات التى تمثل أساس تقديم النصوص الحقيقية والنصوص الخيالية على السواء . وانفتاح التحليل التاريخي أمام التفسير البلاغي على هذا النحو يحتل مكان القلب من التاريخ التفكيكي الذى لا يعترف بأي تمييز عملي بين التاريخ بمعناه الصحيح وفلسفة التاريخ التى تتضمن الشكل الذى كتب به التاريخ . ومعنى هذا أن تحليل الشكل والأسلوب، الذى يطبق عادة على نطاق أوسع، أساسي أيضا لفهم كافة أنماط النصوص التاريخية بما فيها المصادر [٣٨]. والآن يستخدم الشكل السردي للتفسير بصفته من السمات المركزية للدراسة التاريخية، كما أن التمييز المفاهيمي بين اللغة التاريخية أخذ فى الاختفاء .

وقراءة التاريخ التفكيكي من مصادره تسمو بشكله فى البناء السردي واستخدام المجاز، والأسلوب، والشكل، وهلم جرا، إلى المستوى نفسه الذى يحتله المعنى التحليلي التفسيري من حيث المحتوى ونقل المعنى والمعرفة . وليس معنى هذا أن محتوى الماضى ثانوي أو غير مهم . وإنما يعنى حقا، حسبما يعلن الناقد الثقافي ريموند وليامز، أننا بحاجة إلى فحص أشكال المحتوى « وفحص محتوى الأشكال على أنها عمليات متكاملة» [٣٩]. ولأن التاريخ التفكيكي لم يعد يحدد الحدود بين النصوص الأدبية المختلفة كيفا وتصنيفا عن المصادر التاريخية أو التفسيرات، فلا حاجة إلى تراتيبية تميز بين الدراسة النقدية التى يقوم بها المؤرخ لمصادره والدور الذى تلعبه اللغة والسرد فى ترتيب المعلومات . ولم يعد تفكيك التاريخ يعنى كبت أهمية « كتابة » التاريخ، أو بصورة أكثر جذرية، رؤية الماضى على أنه يماثل تماما وجودنا فى الحاضر من حيث كونه نصوصا يجب قراءتها .

التاريخ التفكيكي : فوكو وهوايت

يرتكز نوع التاريخ عند التفكيكيين على طبيعة الدليل باعتباره مفتاح الاستعادة الدقيقة للماضى . وليست الإخفاقات التى منيت بها نظرية التواصل، وفرض البنى النظرية، وعدم حسم اللغة أو المجادلات بشأن طبيعة الحقيقة، هى هموم التفكيكيين الأولية . وهناك اثنان تحديا التيار السائد فى تناول هذه النظرات : أولهما الفيلسوف الفرنسي ومؤرخ الجنوسة ميشيل فوكو، والثانى هو مؤرخ عصر النهضة والفيلسوف الأمريكي هايدن هوايت . وقد تناول كل منهما وظيفة اللغة التقديمية فى إنتاج المعرفة التاريخية، ولاسيما العلاقة بين « الخطاب التاريخي » والتغير الثقافي فى الماضى والحاضر . وبالنسبة لمقاصدى الخاصة يكون الخطاب التاريخي محددا باعتباره استخداما مشتركا للغة حيث لا يستمد المعنى مباشرة من قصد المتحدث / الكاتب سواء كان فاعلا تاريخيا أو مؤرخا، وليس فقط فيما يتعلق بما يقال أو يكتب، وإنما يستمد من البناء الشكلي والسياق الذى يقدم به أو يوضع فيه المنطوق أو النص (٤٠). وإذ أخذ هذا التعريف مع تأكيده على السياق الاجتماعي فى الحسبان، أكد كل من فوكو وهوايت الطبيعة المتغيرة للخطاب التاريخي الناتج عن العلاقة الاعتباطية بين التعريف والمعرَف، وما ينتج عن ذلك من ثم من عالم اجتماعي غير مستقل فى الماضى والحاضر .

وقد اعترف فوكو على وجه خاص بعلامة الاستفهام التى وجدت فيما بعد البنيوية عن إخفاق السرد فى احتواء أية صلة حقيقية بالماضى، أو أي انعكاس لها . والبحث التقليدي السليم عن الأصول التاريخية ليس جزءا من مشروعه. فهو مؤرخ لا يؤمن بمفهوم السببية الإمبريقي . وبينما يلقى به هذا القصور إلى ما وراء مجرى التاريخ العام، فمما يزيد من خطئه أنه يضع المؤرخ الفرد فى مركز عملية تأسيس المعرفة التاريخية ، على حين يتساءل فى الوقت نفسه عن مركزية المؤلف لأنه هو الذى يصوغ المعنى . ويعتمد تعريف الحقيقة على الاتفاق بين المؤرخين حول ما يشكل الحقيقة تاريخيا – وهو ما يلخصه فوكو فى عبارة « إرادة المعرفة » . فبالنسبة لفوكو هناك تبادل داخلي فيما بين المعرفة والخطاب، ولأن كلا منهما يقوم على أرضية من الممارسات الثقافية فى المجتمع، فإنهما يرتبطان ارتباطا وثيقا بممارسة السلطة الفكرية والمادية على السواء. ويرفض فوكو الزعم المركزي لمذهب إعادة بناء الماضى

المحافظ –أن التاريخ الذى يكتبونه اكتشاف لحقيقة الماضى التى يمكن التحقق منها – باعتباره زعما ساذجا، بل الأسوأ من هذا أنه استمرار لأسطورة رهيبة .

وبافتراض أن التاريخ المكتوب شكل من أشكال الأدب فى أساسه، يتناول هايد هوايت أيضا موضوع التاريخ بوصفه معرفة تعتمد على التمييز الذى لوحظ بالفعل بين «الماضى»، و «التاريخ». ولأننا لا يمكن أبدا، بالنسبة لهوايت، أن نعرف قصة الماضى كما كان بالفعل، فإن معنى هذا أنه لايمكن أن يكون هنا ماض غير مشوب بشوائب التدوين التاريخي – فالماضى لايوجد سوى كما كتبه المؤرخون . ذلك أن التاريخ لا يوجد مسبقا فى أية مجموعة من الحقائق تتيح لنا الوصول المباشر إلى الماضى الحقيقي . والتاريخ، فى مواجهة الماضى، خلق أدبي لأنه يفسَر دائما من خلال بقايا نصية لا يمكن فهمها بحد ذاتها سوى من خلال طبقات من التفسير تعتبر حقائق بالنسبة للمؤرخ. ولأن الحقائق لا ترتب نفسها تلقائيا قط لكي تقدم المعنى، يشير هوايت إلى أن وظيفة المؤرخ أن يفرض معنى ما بواسطة المعلومات التى تتخذ صيغة سردية . وهو ما يتطلب استخدام المجاز والصور البلاغية . عند هذه النقطة يرفض مؤرخو التيار السائد ما يرونه عملية نزع طائشة يقوم بها هوايت للتاريخ من مرساه الحقيقي . ويزعمون أن هوايت يجعل التاريخ علما نسبيا فى ضوء اقتراحه الشهير حاليا، والمستلهم مما بعد البنيوية، والمعادى للسرد والإمبريقية، بقوله :

«السرديات التاريخية ... ليست أكثر من خيال لفظي، تم اختراع محتوياتها بدرجة كبيرة على النحو الذى وجدت به، وتشترك فى أشكالها مع نظيراتها فى مجال الأدب بقدر أكبر من اشتراكها مع نظيراتها فى مجال العلوم »[٤١] .

وبالنسبة لهوايت يعنى تفسير المؤرخ الاختيار بين الأدلة ذات المعنى والأهمية، اللتين تنتجان عند ضمهما سويا شرحا ذا معنى، أو تصويرا بلاغيا، كما يقول .

والآلية الفعلية للربط بين الدليل والسياق تتطلب منا أن نستخدم من حيث الشكل إستراتيجيات للتفسير تقوم على أساس المجاز (أشكال الكلام التى ذكرتها بالفعل : المجاز، والمجاز المرسل، والصور البلاغية، والسخرية) والصور الأربع الأولية (المتمثلة فى الرواية، والمأساة، والفكاهة، والهجاء)، وإستراتيجيات أخرى فى التفسير يسميها

مجادلات شكلية (تشكيلية، وألية، وتنظيمية، وسياقية) فضلا عن الشروح من خلال الالتزام الإيديولوجى من جانب المؤرخ (فوضوي، راديكالي، محافظ، ليبرالي) . وسأقوم بفحص جوانب التفسير التاريخي هذه بقدر أكبر من التفصيل عندمل أناقش نموذج هوايت فى التفسير التاريخي فى الفصل الثامن .أما النقطة المهمة الآن فهي أن عملية التفسير التاريخي عند فوكو وهوايت عملية ذات تأثير أدبي أكثر منها عملية ذات معنى أدبي . ذلك أن التفسير التاريخي يعتمد فى النهاية على استخدام المجاز الذى نستخدمه جميعا للتعبير من خلال علاقات الكل بالجزء (والعكس صحيح)، وهو ما بينت بالفعل أنه عملية مجازية . وحسبما زعم المؤرخ الفرنسي فيليب كاراد Philippe Carrad، يستطيع المؤرخون أن يحاولوا استئصال مثل هذه الأدوات الأدبية، بيد أن الكتابة «بدون التحول إلى المجاز ليست مهمة بسيطة،حتى بالنسبة للباحثين الذين تم تدريبهم على فعل هذا من خلال مثل هذه التمارين القاسية » [٤٢]. وكما سنرى، فإن البلاغة، والمجاز المؤسس، وكذلك تهذيباته المتتابعة فى شكل المجاز المرسل، والصور البلاغية، أساسية لتكوين التفسيرات السردية والعملية الإنسانية فى الفهم واكتساب الخبرة وتفسير التغير الاجتماعي . ونحن معشر المؤرخين، مثل الناس فى الماضى (وفى الحاضر والمستقبل) لا يمكننا الهرب من التصوير المجازي فى السرد لأن علينا أن نفهم طبيعة السمة الحكائية فيه .

خاتمة

فى بداية هذا الفصل طرحت السؤال : لماذا يستمر التاريخ فى التغير ؟ وينبغى الآن أن تكون الإجابة التفكيكية أكثر وضوحا . يتغير التاريخ لسببين . السبب الأول هو الحال الذى نعيش فيها فيما بعد الحداثة والتى تواجه حاليا عدم كفاية المنهج الإمبريقي الحداثي ؛ وينبع السبب الثانى من هذا مباشرة وهو التحقق من أن التاريخ خطاب سردي مؤسس كتبه المؤرخ « الآن وهنا » . ودائما ما يأتى التاريخ إلينا وقد ابتعد كثيرا عن الحقيقة الفعلية التى يزعم أنه يقدمها . وكل تفسير تاريخي إن هو إلا إعادة كتابة الأحداث نفسها، مع كل وصف يكون نتاجا لما يفرضه المؤرخ على مستوى

المجاز، والتصوير البلاغي، والمناقشة، والإيديولوجيا . وليس هناك قدر من التدريب على المهارات الجدلية في تحليل المصادر يمكن أن تستأصل هذه العملية التي يكون فيها العمل التاريخي مخترعا بقدر ما هو موجود . فالتاريخ ليس عملية منفصلة، ولكنه شكل من التفسير يتخذ سمتًا أدبيا مقبولا . وحقيقة أن السرد التاريخي تصويري دائما تدحض الإصرار الإمبريقي على اعتبار التاريخ إعادة بناء حقيقية للماضي أو تقديما لما حدث من خلال التواصل مع الحقائق. وبينما يكون هذا في مركز التاريخ التفكيكي، يبقى غير مقبول بالنسبة للأقلية المحافظة من المؤرخين الذين يريدون إعادة بناء الماضي، بل أيضا بالنسبة لكل مؤرخي التيار السائد الذين يرفضون أن تنزلق بهم مرساة الإمبريقية . وهكذا يكون من الضروري أن نفحص رؤيتهم للتجربة التاريخية قبل أن ننتقل إلى نقد مضامين الوعي التفكيكي بكتابة التاريخ .

(٣)

التاريخ إعادة بناء و بناء

مقدمة

كما حاولت أن أوضح، على الرغم من أن معظم المؤرخين فى أي من الاتجاهين الرئيسيين يتفقون على أن التاريخ يقدم باعتباره وصفا سرديا تفسيريا مكتوبا، فإنهم يفترضون أنه يتصل بما حدث بالفعل بسبب البحث الدقيق فى المصادر . ويقومون بالبحث انطلاقا من اعتقادهم فى الموضوعية المثالية ويحاولون إنتاج تفسيرات من خلال منهج استدلالى أو استنباطي، ليصلوا فى النهاية إلى تفسيرات تاريخية مقنعة بالنسبة لهم. وعموما، فإن تفسيراتهم ذات مرجعية وتتصل بالحقيقة وما يوحد غالبية المؤرخين فى هذا الالتزام بالمنهجية القائمة على أساس الدليل، والتى تتبع القواعد الأساسية لـ « الأدلة المرجعية »، افتراض أنها تنتج تفسيرات محددة تتيح إعادة بناء الماضى / أو بناءه بصورة قريبة من الحقيقة . وسأراجع الآن هذه المنهجية المركبة للحصول على المعرفة التاريخية قبل فحص الموضوعات المثارة عن التاريخ التفكيكى.

المعرفة

تعتمد إعادة بناء التاريخ، والتاريخ البنيوي المشتق منها. على الاعتقاد المشترك بالطبيعة المعرفية فى الإمبريقية، ووجود حقيقة الماضى «هناك » بحيث يمكن استردادها ويزعم أحد الباحثين المحدثين، باعتباره مؤرخا يتبنى « الموقف الحقيقي » القائل إنه

يمكن باللجوء إلى «الخطاب التاريخي الذى يحمله الدليل » والذى تمت تجربته واختباره (نظريا وبرهنة)، إعادة بناء الماضى بصورة صادقة[١]. ويعتقد مؤرخو إعادة بناء الماضى أن بوسعهم، باتباع منهج إمبريقي محايد (يشبه المنهج الوضعي أو العلمي)، أن بوسعهم حقا تفسير الماضى بدقة وصدق . كما يقدم فيلسوف التاريخ الذى يؤمن بإعادة البناء، بيهان ماكولاج C.Behan McCullagh مجادلة استثنائية حول أهداف من يريدون إعادة بناء الماضى مصرا على أن الأغلبية يحاولون إعادة بناء ما حدث فى الماضى فعلا، وهو يشرح :

«لماذا يولون هذا القدر من الانتباه لدقة ملاحظاتهم عن الأدلة وكفاية استنباطاتهممنها، ولماذا يرفضون تمرير أي أوصاف للماضى لا توجد عليها أدلة جيدة وإذا تم التخلى عن السعي وراء الحقيقة، باعتبارها هدف الدراسة التاريخية، فسوف يختفى الإصرار على معايير النقد التاريخي الحالية» [٢].

ويستنتج ماكولاج أن :

«على الرغم من أنه لا يمكن البرهنة على أن الأوصاف التاريخية حقيقية بدون أي احتمال للخطأ، فإنه يمكن غالبا البرهنة على احتمال صدقها، مع أخذ الفروض الإمبريقية فى الحسبان. ومع افتراض أن مفاهيم مؤرخ ما أو معلوماته دقيقة بشكل مرجح تماما، وأن معلوماته العامة ومعتقداته الأخرى صحيحة على ما يرجح، فإن المرء يمكن أن يستنبط الحقيقة المحتملة من أوصاف تاريخية عديدة بشكل عقلاني» [٣].

وبدون هذا الاعتقاد فى إمكانية الاعتماد على وصف تاريخي نستنبطه من المصادر المتاحة، لن يكون بوسعنا أبدا أن نزعم أن التاريخ موجود باعتباره معرفة متمايزة . وبقدر ما نصدق الاستنباط والاستدلال، فإننا نصدق حقيقة المعرفة التاريخية. وبالنسبة لماكولاج، الذى يسمى تفسير نص صحيح « أن تقول: إنه سيكون مقبولا على أنه معنى النص من جانب غالبية المتحدثين باللغة التى كتب بها » وسوف يدرك هؤلاء المتحدثون المتعلمون، بطبيعة الحال، « السياقات الأدبية والتاريخية المتعلقة بموضوعه ومقاصد كاتبه »[٤] ويخلص إلى أن الأساس الفلسفي لموقف التيار الرئيسي «فى متابعة الأوصاف التاريخية التى يعول عليها يعنى متابعة الأوصاف الحقيقية »[٥]

ولا توجد الأرضية الوحيدة التى يقوم عليها الشك فى هذا المنطق سوى بإنكار الطبيعة الجوهرية الإمبريقية، أو إذا كانت « أشكال الاستنباط التى يتوصل إليهاالمؤرخ مشوبة بالخطأ بطريقة ما » . وأن الفهم « يمكن تبريره بطريقة عقلانية »، وأن ما يشتق بهذه الطريقة يجب أن يكون مقبولا على أنه معنى صحيح(٦).

على مدى معظم سنوات القرن العشرين كانت طريقة الحصول على المعرفة هذا قد شكلت اتفاقا قائما على أساس المبادئ الإمبريقية الرئيسية :

× الماضى (مثل الحاضر) حقيقي و «الحقيقة» تتصل بتلك الحقيقة من خلال آلية المرجعية والاستنباط – اكتشاف الحقائق الموجودة فى الدليل .

× بالنسبة لأنصار إعادة بناء الماضى، من الطبيعي أن تسبق الحقائق التفسيرات، على الرغم من أن البنيويين يجادلون بأن التعليل الاستهلالى لايمكن أن يعمل بشكل مستقل عن الاستنباط فى التفسيرات التعميمية.

× هناك تقسيم واضح بين الحقيقة والقيمة.

× التاريخ والخيال ليسا شيئا واحدا.

× هناك تقسيم بين العارف والمعرَف.

× الحقيقة ليست وفقا للمنظور(٧).

وتكمن الخاصية الجوهرية للحقيقة التاريخية بالنسبة للتيار الإمبريقي الرئيسي كله فى المبدأ الأول : أن وصفا تاريخيا مفردا، فى مواجهة تفسير قائم على أساس عدة أوصاف متصلة، ربما يعتبر حقيقيا طالما أنه يتصل، أو يشبه شرطا أو أكثر من شروط الحقيقة . ويعنى هذا أنه يمكننا أن نصدق وصفا تاريخيا على أنه حقيقي إذا ما كان يتوافق بصورة مفضلة مع عدة معايير معروفة أو فى أسوأ الأحوال مع معيار مفرد للتواصل أو المرجعية . وعادة ما توجد معايير التواصل من خلال المقا رنة بين القطع التى تحمل الأدلة الأولية، أو بصورة أقل إقناعا، أوصاف المؤرخين الآخرين التى تشكل أدلتنا الثانوية . وربما تؤخذ الأوصاف التاريخية الصادقة لكي تعتمد على نوع واحد أو أكثر من ثلاثة أنواع من الاستدلال : أولا، معظم ما يفضله المؤرخون البنيويون/ ومن

يريدون إعادة بناء الماضي وما سوف أسميه منهج الفرض – الاستنباط – المعلومات – الاستهلال، أو حبك التفسير والدليل ؛ ثانيا، الاحتمالية الإحصائية ؛ وأخيرا، المفهوم التفكيكي للتبريرات التاريخية المستمدة من سردياتنا والمتضمنة فيها .

كان هم ماكولاج الرئيسي منصبًا الدقة التى يمكن بها للمؤرخين استعادة الماضى وتقديمه، قد تمت صياغته من جديد على أيدى مجموعة من المؤرخين الواقعيين مثل: جويس أبلبى Joyce Appleby ولين هنت Lynn Hunt ومرجريت جاكوب Margaret Jacob فى كتابهم المشترك الذى يحمل عنوانا مستفزا Telling the Truth about History الذى صدر سنة ١٩٩٤ م، وفيه يطورون نظرية التواصل فى التفسير التاريخي ويدافعون عنها مثل ماكولاج . وفى غمار رأيهم الجماعي يأتى الجدل حول العلاقة بين مابعد الحداثة والتاريخ ليصل إلى كيفية سد الفجوة بين سجلات الماضى من ناحية، وتفسير المؤرخين السردي لها من ناحية أخرى . ولأنهم معتدلون فى هذا الجدل، يعترفون طوعا بحقيقة أن « الماضى يتصل على نحو مبهم فقط بما يقوله المؤرخون عنه». وبينما يتقبلون عقيدة إعادة بناء الماضى الجوهرية القائلة إن هناك حقيقة تاريخية «هناك» يمكن اكتشافهافإنهم، بوصفهم واقعيين عمليين، يسلمون بـ « بعدم اكتمال روايات المؤرخين ونقصها » . وبطبيعة الحال، يتطلب التزامهم بنظرية التواصل الإصرار على أن هذا « لا يتسبب فى أن يستسلموا ويكفوا عن التطلع إلى الدقة والكمال والحكم على الروايات التاريخية على أساس تلك المعايير ». وهم يضعون نموذجهم على النقيض من نموذج « ضد الواقعيين » أو النسبيين « الذى يشيرون إلى أنهم يعتقدون » أنه يستحيل وجود أي نوع من التواصل « بين الأدلة والتفسير السردي المكتوب[٨].

وإذ صار كل من أبلبى، وهنت، وجاكوب الأكثر انتشارا بين من يمثلون الجناح المعتدل لإعادة بناء الماضى، فإننا يجب أن ننظر بجدية إلى انجذابهم نحو« إعادة بناء ما يرد على الذهن عندما يفكر فى الماضى . ومن المناسب أن نعزل المبادئ الستة الرئيسية التى قامت عليها رؤية البنيوية ونظرة إعادة بناء الماضى – وهو ما تصفه أبلبى، وهنت، وجاكوب بأنها ترجمة الكلمات « من الوثائق إلى قصة تسعى إلى أن تكون مخلصة للماضى » والتى تشكل « نضال المؤرخين مع الحقيقة»[٩].

هذا المنهج الكلاسيكي سداسي النقاط يفترض أن التقدم فى الأساليب المستخدمة لدراسة الاستنتاجات والاستنباطات من الأدلة سوف يولد التفسيرات التاريخية الصادقة . ويلخص أرثر مارويك هذا الفرض بزعمه أن «أكتاف أسلافنا اللامعين القوية موجودة لكي نقف فوقها»، ونتيجة لهذا هناك تقدم مطلق فى نوعية التاريخ و «مصداقيته» [١٠]. وماروبك مقتنع أن التاريخ يدور أولا حول اكتشاف الأمور، وحل المشكلات، بدلا من نسج السرديات أو حكاية القصص . « وهو يصر على أن التاريخ نشاط بشري يقوم به عدد منظم من البشر المعرضين للخطأ ويتصرفون وفقا للمبادئ والمبادئ الصارمة، ولديهم سلطة اختيار اللغة التي يستخدموها ... هم الذين يعرفون باسم المؤرخين » [١١]. ويرفض مارويك، مثل إلتون وفوكو، أن يكون حتما أن يفرض المؤرخون أنفسهم على النص . وعلى الرغم من أن مارويك يقبل مفهوم التاريخ نظاما تعليميا بالمعنى المهني، فإنه لن يوافق على أن المهنة تنظمها علاقات القوة ليقول ويفعل أشياء بعينها . ومن المؤكد أنه لا يوافق على رأي هوايت أن التاريخ قد تم تدجينه بالإيديولوجية من كل نوع منذ القرن التاسع عشر فصاعدا، وأن التفكيك بعث نشاطا جديدا فى الماضى من خلال الاعتراف باحتمالاته أكثر من حقائقه التى تم كشفها .بيد أنه سيكون من الظلم أن نشير إلى إلتون وماروبك باعتبارهما الوحيدين الموجودين من أنصار إعادة بناء الماضى . وبينما تتمثل السمة الأهم لمذهب إعادة بناء الماضى فى الإصرار على أولوية المراجع على ما عداها، هناك كثير من المؤرخين الآخرين يؤكدون أيضا على هذا لدرجة أنهم يستبعدون كل شيء آخر فعلا . وفى وقت قريب تناول جنكينز ومونسلو افتراضات هذه المجموعة من المؤرخين بتوسع [١٢]. وهم يشيرون، مثلا، إلى المؤرخ الاجتماعي البريطاني إدوارد رويل Edward Royle وكتابه الذى يحمل عنوان Modern Britain : a Social History 1750-1996 باعتباره شعارا يرمز إلى ما يشيرون إلى أنه نوع التاريخ الذى يعيد بناء الماضى[١٣]. ويتكشف الفرض المعرفي فيما قصد به يناسب الباحث فى بناء النص . وهو نص كرنولوجى فى داخل الموضوعات التى يتضمنها. كما أن الاستيعاب الكامل يمثل خاصية رئيسية مع افتراض أن هذا ما كان حقا عليه تاريخ بريطانيا الاجتماعى إبان هذه القرون . ويقدم رويل، شأنه شأن جميع مؤرخى إعادة بناء الماضى، التفسير أولا ثم ما يدعمه من أدلة بشكل ينشر نغمة السلطة العلمية خلال النص كله . ذلك أن رويل يخبر القارئ ببساطة

بما حدث . وهو بذلك يكشف قصة التاريخ الاجتماعي البريطاني . والرابطة التى تجمع بين المرجع والتفسير، والمعنى، والحقيقة، ليست إشكالية من الناحية المعرفية. ومع أن هناك اتفاقا على أن المرء حين يشق طريقه فى أضابير الأرشيف إنما يقوم بنشاط معقد للغاية، بيد أن هذا لا يدفع إلى حقيقة التاريخ بطبيعة الحال . إنه يتيح لنا فهم ما حدث بصورة دقيقة . ولكن نحويل مرجعية ما حدث إلى تاريخ ليس عملا مرجعيا لإعادة بناء الماضى .كما أن التاريخ بوصفه تقديما نصيا للماضى قريب الصلة تماما بكافة أنوا ع الأفعال والقرارات الأدبية المركبة . وليس هناك معنى لهذا يبرز من طيات تاريخ إعادة بناء الماضى .

على أية حال، سيكون من الخطأ تماما ومن الظلم افتراض أن من يحاولون إعادة بناء الماضى لايعون أن التاريخ يدور حول المجادلات بشأن المعنى . وبينما يبدو واضحا أن معرفة ما حدث، حسبما يعتقدون، سوف تعطينا القصة، فإن التاريخ يدور حول التفسير دائما مع هذا، كما يعتقدون . ويتمثل هذا فى كتاب ميخائيل جريفز Michael A.R.Graves فى كتابه Elizabithan Parliament 1559-1601 [١٤] وهو يلاحظ عدة مدارس للتفسير فيما يخص معنى السياسات الوطنية أواخر القرن السادس عشر . ولكنه، باعتباره واحدا ممن يسعون إلى إعادة بناء الماضى، يبقى مربوطا بمفهوم أن الدليل الجديد وحده سوف يبقى فى النهاية الحكم على أي تفسير «صحيح»، ومعنى هذا، التفسير المسنود على أحسن وجه بالدليل المتاح. ولا شيء من هذا يلقى الشك على إمكانية معرفة معنى الدليل وإمكانية ترجمته إلى تاريخ .

يبدأ معظم مؤرخى التيار الرئيسي برفض ما يرون أنه نظرة نسبية للمعرفة التاريخية. وهم يتفقون على أن الماضى قد وجد ذات مرة وأن العقل البشرى قادر تماما على صياغة بيانات عنه قريبة للغاية من الحقيقة فيما يتعلق بأكثر الأغراض واقعية. ويكمن خلف هذه المقاربة العملية الواقعية التجريبية اعتقاد بأن الحقيقة التى كانت موجودة ذات مرة يمكن اكتشافها الآن ؛لأن الأحداث والأفعال التى جرت متصلة بالدليل. ومن ثم يمكننا أن نجد لأنفسنا المبرر الكافى لصياغة بيانات واقعية لوصف هذه الصلة، وأية صفة مؤقتة للتفسير التاريخى تعنى ببساطة أن كل تفسير ليس سوى محاولة إضافية للاقتراب من الحقيقة – أي الوقوف على كتفي مارويك . وأسس المعرفة

التاريخية هى الأحداث والأفعال باعتبارها حقائق إمبريقية . هذا الرأي يرفض الموقف التفكيكي القائل بأن الحقائق نصوص اتخذت الشكل السردي، ومن ثم تكون دائما غامضة غائمة لا يمكن سبر غورها فى نهاية الأمر .

ويتمثل المذهب الإمبريقي فى افتراض أن المؤرخين، مثل العلماء، يبحثون عن الحقيقة . وهذا بالنسبة للمؤرخين افتراض المرجعية أكثر من كونه تأثير الحقيقة . واليوم يبقى ميراث المؤرخ الإنجليزي مؤسس المنهج العلمي فى بواكير القرن السابع عشر، فرنسي بيكون، ماثلا فى تطويره الأولى للمنهج التاريخى - الاستنباط الاستقرائي . ويستمد هذا المنهج معناه التاريخي برسم استدلالات محايدة من الأدلة التفصيلية المأخوذة من الأمثلة الفردية . وقد وصلت النزعة الاستقرائية المستلهمة من بيكون ذروتها فى السنوات ما بين خمسينيات القرن العشرين حتى ثمانينيات القرن نفسه فى مؤلفات المؤرخين الإنجليز هيو تريفور- روبير Hugh Trevor-Roper فى كتابه Religion، The Reformation and Social Change ، 1967 وإلتون فى كتابه Eng-land، 1200-164 الذى صدر سنة ١٩٦٩م، والمؤرخين الأمريكيين أوسكار هاندلين Os-car Handlin فى كتابه Boston's Immigrants، 1955 وجيرترود هيملفارب فى كتابه The Idea of Poverty : England in the Early Industrial Age، I 1984 وهيكستر H.J. Hexterفى كتاب Reappraisals in Histort، 1969، وكذلك فلاسفة التاريخ من أمثال كوينتين سكينر Quentin Skinner فى كتابه Machiavelli، 1981. وقد تقبلوا جميعا مرجعية اللغة المعقول عموما، ورفضوا بشدة المفاهيم التى يتم الوصول إليها بالاستدلال.

وعلى خلاف علماء الاجتماع، لا يقترح مؤرخو إعادة بناء الماضى نظريات عامة، أو يضعون فروضا صالحة يسعون «للبرهنة» عليها عن طريق استقاء الحقائق من خلال البحث الإمبريقي.ذلك أن الاستدلال الأستنباطي أن تظهر نظريات التفسير من اكتشاف الأدلة التى تترجم إلى حقائق تكتسب المعنى بعد وضعها فى سياقها التاريخي . وإذا قلنا هذا، كما يشير أليكس كاالليميكوس Alex Callimicos، فإن النظريات الاستدلالية تستخدم فى التفسير التاريخي اليوم بصورة ثابتة، عن وعي أو

عن غير وعى . ومن المستحيل، حتى بالنسبة لأكثر مؤرخى إعادة البناء صلابة، أن يتناول الأدلة وهو متجرد تماما من الافتراض المسبق، وبما أنه يمكن أن تكون الفروض المسبقة فى انتظار النفي أو الإثبات من خلال البحث، سواء كان ذلك إراديا أو لا إرادي – فإن أمثلة الأسبقية لا تروق أبدا لكل من إلتون وماروبك . وفى الممارسة يظهر الاستنباط والاستقراء، على حين تترجم عملية إعادة بناء الماضى فى بطء إلى عملية بناء، وهكذا دواليك . وكلما صرنا أكثر وعيا بذواتنا من الناحية المعرفية من حيث الإمكانيات الكامنة فى النظريات التي نستخدمها، وفلسفة التاريخ التى نتبعها بها، كلما ساعد ذلك على شرح لماذا صار تاريخنا البنيوى أكثر تعقيدا مما كان عليه فى السنوات العشرين الأخيرة .

وكما أوضحت أبلبى، وهنت، وجاكوب فإن هناك اليوم قلة من المؤرخين يستخدمون شكلا خالصًا من التحليل الاستقرائي الذى يعتمد فقط على تفسير معقول للأحداث يفترض فيه استخدام وسيط سردي شفاف غير إشكالي . ومع هذا، يستمر معظم مؤرخى إعادة بناء الماضى فى الإصرار على أنهم يبررون استقراءهم الاستلالي– ومن ثم يساندون السلامة المعرفية للعلم – من خلال الملاحظة المباشرة للأدلة على الماضى . والمعلومات التى تتم ملاحظتها / أو اكتشافها على هذا النحو يحسم التفسير الاستقرائي، بغض النظر عما إذا كان ذلك التفسير يختلف عن التفسير الذى ربما يكون سائدا فى الوقت الحالي . ويتسق مع هذا أن التماسك والتواصل مع الحقائق التى يمكن ملاحظتها يبقى هو كلمة السر لتاريخ إعادة بناء الماضى الآن مثلما كان فى القرن الماضى

الـــدليـــــــل

فى دفاعه عن الاستقراء بوصفه « المنهج التاريخي »، يصرُ إلتون على أنه « يجب عدم اعتبار التاريخ مجرد شكل من نشاط فكري آخر، ذلك أن له قواعد العمل الخاصة به، ووظيفته المستقلة وإسهامه الخاص فى حياة البشر الفكرية والاجتماعية [١٥]. وواصل إلتون ليقول إن المعرفة التاريخية الاستقرائية، تستمد من سلطة المصادر

المتاحة والصالحة . ولكن على حد قول المؤرخ البريطاني جون توش John Tosh «لا يمكن لتفسير الدليل أن يولد المعنى حرفيا بدون التمكن من النص التاريخي » الذى سوف يكشف عما يتعلق به الدليل (١٦). ولايستطيع مؤرخو إعادة بناء الماضى أن يفهموا الماضى باللجوء إلى الدليل النصي فقط . إذ ينبغى عليهم أن يضعوه داخل الإطار الأوسع الذى يعونه، والسياق، لكي يعيدوا بناء الماضى كما كان بالفعل . ووضع السياق ليس التشكيل أو الرسم نفسه، لأنهما يكونان من إنتاج المؤرخ، بعكس السياق الذى يفترض مؤرخو إعادة البناء أنه مجرد إعداد المشهد، أي أنه نتاج قطع الأدلة المتجاورة التى توضع بجوار القطع الأخرى مثل تلك التى التى ينتجها منشار الأركيت.

والاهتمام المدقق بالدليل هو الأساس الذى تستند إليه المبادئ الستة . ونحن يمكن أن نفعل ما هو أسوأ من الأخذ بمشورة إلتون عن أهمية هذه المبادئ فى تناول التاريخ بالنسبة لمؤرخ إعادة البناء، إذ يقول :

«إننا نبحث عن طريقة لوضع إعادة بناء الماضى فى شيء ما يوفر معيارا للضمان المستقلمستقل عن المؤرخ، ومستقل عن هموم يومه، ومستقل عن الظروف الاجتماعية والسياسية المفروضة عليه . والاستجابة الواضحة لهذا المطلب، كما كانت دائما وكما يجب أن تستمر، تكمن فى المصادر المتاحة لديه . وبالنسبة للمؤرخ توجد الحقيقة – نعم الحقيقة – أي حقيقة الماضى موجودة فى المادة على اختلاف أنواعها، وهى منتجات أنتجها الماضى وقت حدثت وظلت موجودة تحمل شهادتها . فالدليل التاريخي لم يخلقه المؤرخ، إنه ببساطة وديعة الأحداث الماضية التى ما تزال موجودة لكي ننظر فيها(١٧).

هكذا يلخص إلتون الافتراضات الأساسية التقليدية التى يتم على أساسها معالجة الدليل وتفسيره . ولا يمكن القيام بهذا سوى على يدي المؤرخ المدرب تدريبا مهنيا أى: المؤرخ ذو العقلية المستقلة القادر على الحكم . وهذا التدريب خليط من مهارات اللغة، ومعرفة واسعة بالسياق، وعلم عميق بالتفسيرات الباقية داخل المجال، وفهم واضح لطبيعة المصادر الأولية التى تتيح المقارنة والتحقيق . بيد أن إلتون يعمل على توضيح أن فهم الدليل لا يماثل القول «إنه يمر من خلال عقل المؤرخ شخصيا». ويجب على المؤرخين جميعا، بالأحرى، أن يطرحوا الأسئلة نفسها حول الدليل – من الذى خلقه، ولأي غرض، وكيف خلقوه ؟ وهو ما يعنى القول إن مثل هذه الأسئلة

الأساسية التى نطرحها عن الدليل مستقلة عن هموم الذين خلقوا الدليل أصلا»[١٨].
والنقطة هنا تتمثل فى فصل المؤرخ عن الماضى - ليس من أجل التخلص من الفهم المتأخر فقط، وإنما لكي نتجنب كتابة التاريخ من منظور الحاضر . ذلك أنه يجب تجنب تفضيلات المؤرخ الشخصية سواء اتخذت شكل الانحياز فى المقاربة، أو الإيديولوجيا (أو كليهما) .

ولأن إلتون ثابت فى إيمانه بالمنهج التاريخي فى الاستدلال الاستقرائي، فإنه يصر على أن المنهج « يخضع لكل نموذج للتساؤل الشكي فى ضوء التفاصيل التى يمكن الكشف عنها » وبخلاف الأدب، مثلا، ليست للمؤرخين الحرية فى طرح التفسيرات التى لا يحدها سوى الخيال. فنحن المؤرخين لا نستطيع أن نخترع التفاصيل لمجرد أن نجعل قصتنا أكثر إقناعا . وبالنسبة لإلتون فإن التاريخ الذى يسعى لإعادة بناء الماضى ليس علما ولا فنا :

«لأنه ليس من المتوقع أن يصل إلى المعرفة التى يمكن أن تختبر عن طريق التزييف (سر العلوم) ولا يمكن للمؤرخ أن يتلاعب بمادة موضوعه بحيث ينتج النتائج المرضية أخلاقيا أو جماليا (وهذه من خصائص الفن) . باختصار، التاريخ دراسة تختلف عن أية دراسة أخرى تحكمها قواعدها الخاصة »[١٩].

إنها دراسة الدليل التى لا تجعل من التاريخ علما مستقلا من الناحية المعرفية فحسب، ولكن الأهم من هذا أنها تجعله قادرا على إعادة بناء الماضى كما حدث بالفعل، وبدون أي فرض من جانب المؤرخ .

ونتيجة لممارسة الاستلال الاستقرائى يكون هناك دائما ضوء فيما بين الحقيقة والقيمة الكامنة فى دراسة آثار الماضى . ويعنى هذا أننا لا نسد أبدا الفجوة بين العارف والمعروف عندما نطرح الأسئلة عن الدليل . إذ يجب فصل الأسئلة عن المعرفة المسبقة بحيث لا يمكن توجيه الدليل تجاه إجابات كامنة بالفعل فى ثنايا عقل المؤرخ. يبقى هذا خارج المنهج الاستقرائي الذى يدعو إلتون إليه . وليس هناك مكان لاستجداء السؤال أو استجداء الإجابة فى إعادة بناء الماضى . وفى عبارة مناسبة يلخص إلتون هذا على أنه يعنى أن « المرء يلح على إجابات الأسئلة من الدليل لأن من الخطأ أن تبدأ

الأسئلة وهى تحمل الإجابات فى ثناياها[٢٠] . وعلى سبيل المثال، سيكون من سوء الفهم تفسير التقدم الاقتصادى الأمريكى أواخر القرن التاسع عشر عبر المحيط الهادى على أنه إمبريالية اقتصادية فى المياه المالحة، على حين نسأل فى الوقت نفسه عما استفادته الطبقة أو الطبقات الاجتماعية . فهذا سؤال محمل بالقيمة يفترض وجود طبقات، ومن ثم يستجدى الإجابات . وسيكون من الأفضل أن نستفسر من الدليل عن التوسع الاقتصادى وماذا كانت سمته الخاصة مقارنة مع فترات أخرى من النمو الاقتصادى، وهل أفاد هذا النمو جماعة بعينها، إذا كانت قد أفادت أحدا على الإطلاق ؟ إن الأشكال المختلفة من الأسئلة تنتج إجابات مختلفة .

والاحتفاظ بعقل منفتح إزاء الماضى يفترض أن التاريخ والخيال الأدبى ليسا شيئا واحدا وأن الحقيقة لا تكون بحسب المنظور الذى ننظر منه . وسوف ينتج عن تطبيق المبادئ الأساسية للتحليل التاريخي لإعادة بناء الماضى استنتاجات حول الماضى، وعلى الرغم من أنها غالبا ما تكون ناقصة أو على سبيل المحاولة، فإنها سوف تفيد فى الحفاظ على الذاكرة الاجتماعية والسياسية، والاقتصادية الصحيحة . والسقوط فى هوة ما دون المستويات القياسية المضبوطة لإعادة بناء الماضى، حسبما يقول إلتون، يعنى أن تترك « مهمة الحكي عن الماضى لغير المؤهلين والجهلة إلى حد كبير – من يكتبون الخيال الأدبي، سواء جهرا أو خفية من صناع الأفلام، والصحفيين ومن يضاربون بالقلم» [٢١]. ويكمن التمييز بين التاريخ والخيال الأدبي فى احتراف المؤرخ بقدر ما يكمن فى التقيد بما حدث بالفعل، وليس اختراعه . وكما أشار ميخائيل ستانفورد: « إن الحقيقة التاريخية تتوافق مع حكم عن الماضى يجمع عليه المؤرخون » [٢٢]. ويشير ستانفورد إلى الفرق بين التفسيرات والحقائق – فالأولى لا تنتج أي اتفاق بين المؤرخين على حين أن الحقائق تفعل ذلك، وبدون هذا الاعتماد على الحقيقة لا يمكن أن يوجد التاريخ .

وعلى أية حال، شهدت السنوات القليلة الماضية سيطر اتفاق واقعي معتدل، أو عملي، على البحث التاريخي لإعادة بناء الماضى وعلى البحث التاريخي البنيوي. وقد لخص المؤرخ الأمريكي ديفيد هو للينجر David Hollinger هذا الاتفاق عندما جادل بأن مفاهيم المؤرخين المسبقة تكون غالبا هى التى تجعل التفسيرات التاريخية ممكنة [٢٣].

هذا الفكر الذى ظهر منذ ما يقرب من عشرين سنة مضت، لايزال صداه يتردد إلى اليوم . وليسا لقصد هنا منازعة الدليل وإنما الاعتراف بالمنعطف الدامس نحو حقائق (أي وضعه في سياق) لكي يمكن إنتاج تفسير منه . وعندما يحاول المؤرخون إعادة بناء الماضى بدراسة الأدليل – عملية هوللينجر (الفحص النقدي للمصادر الوثائقية) – لا يمكن للمؤرخ أن يكون معزولا عن عملية إعادة البناء مثل الإمبريقيين المحافظين الذين يسعون إلى إعادة بناء الماضى، كما يريد لنا إلتون أن نصدق .

وأوضح حالة لفرض تطبيق النظريات التفسيرية على تجربة الماضى – المنهج الاستنباطي كما يستخدمه المؤرخون البنيويون . ذلك أن التعليل الاستنباطي يفترض أن المعرفة مستمدة من فروض منطقية تم اختبارها عن طريق الملاحظة. والتأمل فى هذه العملية يسبب الهلع لمؤرخى إعادة البناء المتشددين أمثال إلتون. وما يسميه «النظرية التفسيرية والإيديولوجية» يبرز من الطموح « لتدمير حقيقة الماضى كما ظهرن من قبل بفضل دراسة آثار الماضى » (٢٤). ومن ثم، ينبغى علينا أن نفحص الآن دور النظرية فى كتابة الماضى .

نظريات التاريخ : بناء الماضى

تغطى البنيوية تنويعة من المقاربات الفرضية لدراسة الماضى، بيد أنها جميعا تشترك فى الاعتقاد السائد بين أنصار إعادة بناء الماضى بأن معرفتنا التاريخية تتصل بالحقيقة محل الدراسة. ويشك كل من الاتجاهين السائدين فيما يرونه على أنه مقاربة تفكيكية نمطية للتاريخ تمثلت فى كولينجوود، ولكنهم سعداء بقبول موقف كار الذى ينمِّط الحكم النسبي الذى يصر على أنها حقائق لأن المؤرخ اختارها للبحث، وهو ما يسميه كار حقائق المؤرخ . ويتبع ذلك، أنه من المستحيل الآن تحقيق الموضوعية، وهو الأمر الذى يضايق إلتون كثيرا . ويرى كار أن التاريخ يهتم بالعلاقة بين الفردي والعام، وبوصفه مؤرخا « لم يعد من الممكن الفصل بينهما أو نعطى أسبقية لأحدهما على الآخر، بأكثر مما نستطيع الفصل بين الحقيقة والتفسير» (٢٥). وبالنسبة لكار، الذى يردد قول كولينجوود عن الموقف العام :

«إن حقائق التاريخ لا تصلنا «نقية» أبدا، لأنها لا توجد ولا يمكن أن توجد فى صورة نقية : ذلك أنه يتم تحسينها فى عقل من يسجلها، وينتج عن ذلك أننا عندما نأخذ عملا من التاريخ يجب ألا يكون شاغلنا الأول الحقائق التى يحتويها، وإنما المؤرخ الذى كتب هذا المصدر»(٢٦) .

هذا الموقف له جاذبية قوية عند المؤرخين البنيويين . ويزعم كاللينيكوس، فى غمار دفاعه عن المؤرخ البنيوي، أنه ينطلق فى عمله باستقراء النتائج من السؤال الذى يطرحه على الدليل وليس من المصادر التى لا يمكنها أن تتحدث عن نفسها . وربما يبدو هذا كافيا الآن بدرجة معقولة، ولكن كاللينيكوس ينتهى أخيرا إلى موقف شبيه بموقف إلتون لأن كلا منهما يفترض أن يستخرج الأسئلة، وليست الإجابات، من الدليل . ويتمثل الفرق بطبيعة الحال فى أن كاللينيكوس يصرُ على أن الحقائق تبرز من التحليل، ولا يبرز التحليل من الحقائق . ووفقا لإلتون، فإن الماركسية بوصفها أكثر شكل معروف من البنيوية، ترى الحقيقة منظمة بواسطة صيغة غير شرعية مما يسمى قانون التغطية . وقانون التغطية يضع السببية فى التاريخ وهو مأخوذ عن الاستقراء الاستنباطي. وتفسير أي حدث أو فعل معين يستنبط فى ضوء قانون ثابت للطبيعة الإنسانية أو السلوك البشري، ومن ثم فإن رفض إلتون لقوانين التغطية نابع من اعتقاده أن التفسير التاريخي يتطلب فهم الدوافع، والأهداف، والقيم، والمعلومات المتاحة للباحثين فى التاريخ، وكلها تشكل مقاصدهم الفردية ولا يمكن أن تكون مصنفة تحت التفسيرات الكلية للسلوك . وتكشف الآراء المختلفة لإلتون الذى يناصر إعادة بناء الماضى، مثلها مثل آراء المؤرخ البنيوى الماركسي أليكس كاللينيكوس، عن الهوة الموجودة فى ممارسة التاريخ غير التفكيكي فيما بين طرفي الوضعية والإمبريقية، ويسميهم بيتر بوركى المنظرين والمؤرخين (٢٧).

عندما يكتب مؤرخو النظرية الاجتماعية التاريخ فإنهم ينطلقون لإعادة سرد وإعادة حكاية قصص الحياة، والمقاصد، والأحداث التى جرت فى الماضى فى نماذج للشرح موجودة فى أذهانهم بالفعل - النوع، العرق، الطبقة، وما إلى ذلك . وعادة ما يؤكدون أنهم ليسوا عبيدا مسخرين لإثبات نظرية رئيسية عن الفعل الاجتماعي، أو فلسفة التاريخ، ما لم يكونوا ملتزمين صراحة بمنظور معين بحكم إخلاصهم له . وبدلا

من ذلك يتمسكون بأن نماذجهم ليست أكثر من «مفاهيم» - على الرغم من أنها غالبا ما تكون معقدة فى بنائها للغاية - تبرز من الدليل لتساعد على فهم الدليل . ومن ثم، يصرُ معظمهم على أن تفسيراتهم مستقلة تماما عن أية نظرية سائدة أو سرد كبير، وهو حكم يفسر الشعبية واسعة النطاق بين مؤرخى اليوم لمقاربة كار للتاريخ . ويكاد يكون عالميا بين المؤرخين الواقعيين العمليين - تلك الأغلبية الموجودة بين الطرفين - أن من المفترض أن وظيفة المؤرخ ليست فقط أن يرسى صدق الدليل ودقته، وإنما أن يجلب أيضا كافة الأدلة المعروفة والمتاحة فى بؤرة تفسيرية جيدة باستخدام بعض المفاهيم التنظيمية . فاليسار المتمرد، مثلا، يستخدم الطبقة، والعرق بطرق متنوعة . وعند مستوى النوع الأكثر تعقيدا، يراه على أنه فئة مركبة ثرية من التحليل الذى يستخدم على أفضل وجه عندما يعترف بالقوة التشكيلية التى تتساوى فى أهميتها مع الفئات الأخرى فى التجربة . والهدف النهائي لجميع المؤرخين الواقعيين العمليين، بغض النظر عن مدى تعقيد مناهجهم أو إذا ما كانوا منشقين إيديولوجيا أو متوافقين، هو استخدام الدليل لتوضيح أن المفاهيم التى يستخدمونها مفاهيم جوهرية للدليل .

هذا الموقف يشوش بصورة فعالة على أي تقسيم حاد بين مذهب إعادة بناء الماضى والبنيوية. فهو يعنى فى الممارسة أن المؤرخين لا يشرعون فى مهامهم على مرحلتين منفصلتين : البحث فى المصادر عن الحقائق، ثم التفسير مستخدمين مفاهيم متنوعة أو نماذج متنوعة فى التفسير. وبدلا من ذلك، يستمر المؤرخ على حد تعبير كار « اعتمادا على عدد قليل من المصادر الرئيسية فى تقديره »، ثم تتملكه بطريقة حتمية الرغبة فى الكتابة، وهو ما يقصد به تأليف تفسير « وبعد ذلك تستمر القراءة والكتابة فى الوقت نفسه » [٢٨]. ويعنى هذا بالنسبة لكار أنه كان يخشى الانقسام إلى فرعين «فى نظرية متهافتة ترى فى التاريخ تجميعا موضوعيا للحقائق ... ونظرية متهافتة أخرى بالقدر نفسه ترى التاريخ منتجا أنتجه عقل المؤرخ ذاتيا » وهى مشكلة أقل كثيرا من المشكلة التى قد يخشاها أنصار إعادة البناء المحافظون - سواء من اليمين أو من اليسار. ويعنى هذا بالنسبة لكار كيف يعمل الناس فى حياتهم اليومية « انعكاسا للطبيعة البشرية » حسبما يشير [٢٩].

وتجمع التيار الرئيسي حول موقف كار يتمثل فى الواقعية العملية المتحررة

أيديولوجيا التى يمثلها آبلبى، وهنت، وجاكوب لأنهم يخلصون إلى أن « الدليل الاستقرائي عن البنى والنماذج الخفية تتوفر بكثرة فى كتابة التاريخ اليوم» (٣٠). ولا غرابة فى أن الماركسى أليكس كالينيكوس يوافق على هذا عن اعتقاد بأنه يمكن الوصول إلى الحقائق التاريخية «استقرائيا بواسطة عملية تفسير المعلومات وفقًا لنظام معقد من القواعد والفروض (٣١) . وغالبا ما يتفرع المساران الرئيسيان فقط عندما تكون الإيديولوجيا حاكمة للإطار الذى تم اختياره لتفسير الحقائق . وعندما يجادل آبلبى، وهنت، وجاكوب من أجل أهمية «البنى والنماذج»، فإنهم يطرحون السؤال الدائم : ما طبيعة العلاقة بين الإرادة الحرة والحتمية فى تفسير الماضى ؟ وتميل الإجابات على هذا السؤال إلى أن ترتهن على التفضيلات الإيديولوجية . وهم يشيرون إلى أن القوى، والبنى، والنماذج الاجتماعية المؤثرة فى حياتنا نادرا ما تكون ملموسة، ولا يتم تبسيطها أو تخفيضها أبدا على النحو الذى يقترح التحليل الطبقي الماركسي الفج مثلا. وعلى حد مجادلتهم فإن « المطر المتساقط مرئي، ولكنه يتطلب من علماء الأرصاد شرح هذا التغير المناخي» (٣٢). وتؤخذ البنى الاجتماعية على أنها تشير إلى النماذج المتسقة التى يمكن أن توجد فى السلوك والمعتقدات التى تحسم الفعل الاجتماعي المقصود بدرجة ما، وبدون مفاهيم وتصنيفات مثل الطبقة، والنوع، والعرق، والأمة، والمدينة وما إلى ذلك، سيكون من المستحيل تفسير تعقيدات الماضى، وتبقى عند مستوى قوائم الأحداث والخرائط الزمنية.

وهناك دليل على أن اعضاء التيار السائد يتفرقون عند المستوى الإيديولوجى يتمثل فى رفض كالينيكوس قبول موقف الفيلسوف البراجماتي والليبرالي - النسبي الأمريكى ريتشارد رورتى Richard Rorty القائل إن المعنى التاريخي يكون مشروطا فى أحسن الأحوال، لأنه لا توجد حقا نظرية يمكن اكتشافها فى الدليل، ويرفض كالينيكوس موقف رورتى القائل إن المفاضلة بين النظريات التفسيرية قد تكون مفاضلة جمالية خالصة، وبهذه الطريقة يرفض كالينيكوس إعادة بناء الماضى البراجماتية المتحررة إيديولوجيا عند آلبى، وهنت، وجاكوب، والتى تتقبل فكرة أن التفسير التاريخي ربما لا يقاس بالإشارة إلى الحقيقة الموجودة فى الدليل والتى هندستها النظرية الاجتماعية، وإنما يقاس وفقا لمعايير إيديولوجية أخرى لا يوافق عليها . وبالنسبة

للماركسيين عموما فإن الحقيقة موجودة « هناك » حقا، وهي حقيقة ماركسية أكثر من كونها ليبرالية بورجوازية زائفة . بيد أنهم كانوا سيوافقون بوصفهم إمبريقيين،على أن طبيعة المادة، ولست طبيعة اللغة أو التقديم هي التي تجعل مزاعم المؤرخين حقيقية أو زائفة . وتحدد نظرية التواصل بالنسبة لغالبية المؤرخين، بغض النظر عن الإيديولوجيا، تحدد ما يحدث في العالم الحقيقي عندما تكون تصريحاتنا «تصورالطريقة التي يكون العالم عليها» (٣٣).

وتفترض العملية البنيوية - بغض النظر عن التفضيل الإيديولوجي - أنه يجب وضع الأطر التفسيرية التي يوحي بها الدليل في المصطلحات المقترحة التي يمكن التحقق من صحتها بمزيد من دراسة الدليل . واتخاذ التصنيف الاجتماعي للطبقة للتوضيح، يستدعي حشد التفسيرات التاريخية التي تستخدم نوعا من نموذج الطبقة، ويخلق المؤرخون المزيد من نظريات التفسير الطبقي لكي يستخدموها. وعادة ما يستعيرون من الزملاء نماذج موجودة (في التاريخ، والاجتماع، والأنثروبولوجيا، والنظرية الثقافية) ثم ينظرون إلى الأدلة لتنقيتها على أنها تفسيراتهم المفضلة، وكما لاحظنا في بداية هذا الفصل فإن البنيوية وصف فضفاض يغطي قطاعا من المقاربات الفرضية للماضي، ومن ثم، فإن الطبيعة الدقيقة لنموذج الطبقة الذى يستخدمه أي مؤرخ فرد يمليه التعقيد والقوة المفترضة للعلم الاجتماعي والنماذج الثقافية للسلوك الإنساني القائم على الطبقة التي التقطها . وسوف يلتزم المؤرخون الآخرون الذين يميلون صوب التيار السائد لمؤرخي إعادة البناء بالمنهج الإمبريقي الذى تعلموا في رحابه، تاركين البعد النظري الفرضي عند المستوى الدنيوي التفسيرات الفاعلة (ولكنه مايزال على استعداد للتعديل حسبما يمليه الدليل)، بدلا من السعي وراء بنيوية علم اجتماعي شديدة التعقيد .

والتوسل من أجل عمل النموذج المركب في التاريخ هو ما قام به جيمس هارفي روبنسون James Harvey في كتابه الذي يحمل عنوانا مناسبا The New History المنشور سنة ١٩١٢م، وجادل فيه من أجل دراسة تاريخ اجتماعي أوسع كثيرا، رافضا التمييز السائد أنذاك بين التاريخ باعتباره منهجًا يهتم بشرح الأحداث المنفردة، والعلوم الأخرى التي تسعى إلى تفسيرات عامة (٣٤). وقد مضى روبنسون بعيدا للغاية، على

أية حـال، خـوفـا من جـعل التـاريخ «سـجـينا» للفروض المسـبـقـة التى يمكن أن تنكر موضوعية المؤرخ (٣٥). وبالنسـبة لروبنسون وزمـلائه من مدرسـة «الحوليات» الفرنسـية، اعترفوا بتعقيدات العلاقة بين العارف والمعروف، أي التفسير والحدث . ويرى المؤرخون المحافظون الراغبون فى إعادة بناء الماضى أن «التاريخ الجديد» يحدد بداية الانزلاق فى النسبية . ومعظم مؤرخى القرن العشرين قد رفضوا بشكل عام الصوت السيريني * للنظرية الكبيرة أو أو الوضـعيـة الاستنباطية)، مـفضلين بدلا من ذلك التركـيز على مجموع الأدلة التفصيلية التى استطاعوا بناء عليها استخدام المنهج. وعلى أية حال، طورت مـدرسـة «الحـوليـات» فى فـرنسـا التـقليـد البنيـوي بالمزاوجـة بين الاسـتـدلال الاستقرائي من الأدلة الحقيقية من ناحية، والاستنباط القائم على أساس تعميمات اجتماعية مسبقة أكثر عمومية من البنى الاجتماعية - الاقتصادية، والسياسية- الثقافية، للمجتمع من ناحية أخرى . ويرى أتباع هذه المدرسة أن التطور قد أضاف كثيرا لقوة التاريخ التفسيرية .

وعلى الرغم من أنه ليس من السـهل التـعرف عليالنقطة التى رجع عندها مـذهب إعادة بناء الماضى إلى البنيوية، وتحديدها فى تأسيس مجلة الحوليات سنة ١٩٢٩م، فإنه يمكن أن تكون أية نقطة متمايزة هى نقطة التغيير أوالتبديل . وللمرة الأولى فى القرن العشرين، يكتب التاريخ من وجهة نظر نظرية اجتماعية افتراضية صريحة ومنذ بواكير القرن السابع عشر، وتقدم حركة التنوير، صـار العقل، والتجربة، والعلم هو الأعلى، وبنت أجيال من المؤرخين الأوربيين علم التاريخ على أساس البحث عن الحقيقة فالعلم، مثل الطبيعة، محايد، عقلاني، صادق، منطقي، غير عاطفي، متحرر من أحكام القيمـة، ويمكن حسابه، وهو فوق هذا وذاك علماني برئ من عقيدة الإنسـان ومذهبه الديني، أو فساده وعلى الرغم من أن تاريخ «الحوليات» قد تم تصميمه لكى يكون على هذه الشاكلة، فإن المساهمين الأوائل فيبفر، وبلوك اعترفوا بأنه لا يمكن أن تكون قائمة

---

* نسبة إلى السيرينيات، وهى كائنات أسطورية ذكرت الأساطير الإغريقية، أنها كانت تصدر أصواتا جميلة جذابة تدفع بحارة السفن المارة من الجزيرة التى كن يسكن فيها إلى الذهاب إليهن بحيث يسقطون فى الهلاك (المترجم)

أبدا على أساس التجربة المباشرة، والملاحظة أو التجربة، بما أنه لم يكن هناك تفاضل وتكامل، أو هندسة فى المعرفة التاريخية . وهكذا، عندما استمر العلم فى الاعتماد على التجريبية لغربلة فروضه (كما لا يزال يحدث حتى الآن)، فإنه إذا وسع نظرياته التفسيرية يمكنه أن يعتمد على أساليب أخرى رياضية وتجريبية أشد قوة، كما يعتمد على الملاحظة لتأكيد المعرفة الاستنباطية.

ومنذ تأسيس مدرسة « الحوليات »، استخدم جميع مؤرخي هذه المدرسة من أمثال فيرناند بروديل Fernand Braudel و إيمانويل لو روى لادوريس Emanuel Le Roy Ladaurise وفى زمن أحدث، روجر شارتييه Roger Chartier، قد استخدموا نظريات متحذلقة للغاية من أنواع مختلفة - اجتماعية، واقتصادية، وثقافية، وأنثروبولوجية، ونفسية، ولغوية[٣٦]. وتحليل «البنى» الكامنة تحت سطح الظواهر فى التاريخ، وبنية العلاقة بين القصد البشري، والفعل الإنساني، لم تكن بطبيعة الحال محدودة فى نطاق مدرسة «الحوليات» . لقد شكلت ما أسماه مؤرخ التدوين التاريخي كريستوفر للويد Christopher Lloyd «تراثا بنيويا عريضا لكتابة التاريخ البنيوي ... وهى بعيدة عن أن تكون مدرسة لها مقاربة منفردة متماسكة» [٣٧] «والتاريخ البنيوي بوصفه نتيجة يتسم اليوم بتعقيده الكبير غالبا وتركيبه، ولكنه يتسم أيضا برفضه الصريح لما يصفه فيليب كاراد بـ «تاريخ الأحداث» أو التفسيرات التى تعول فقط على الأحداث الفردية الدرامية وغير القابلة للتكرار» [٣٨] .

وقد وصل المد العالي للإمبريقية مداه سنة ١٩٤٢ م عندما نشر كارل هيمبل Carl Hempel مقالته ذات الاتجاه الوضعي The Function of General Laws in History التى زعم فيها أنه يجب على المؤرخ لتفسير أي حدث تاريخي أن يصنفه على أنه قانون عام أو قانون تغطية[٣٩]. وتقول نظرية قانون التغطية إن الحدث التاريخي ينبغى أن يكون قادرا على التنبؤ مع الأخذ فى الاعتبار تحديد شروط سياقية معينة . ومن ثم، فإن التاريخ، مثل العلم، يمكن أن يعمل قوانين عامة، أو قوانين تغطية تعمل وفقا لاستنباط معنى الحدث (التفسير) من بيانات تتألف من القانون العام والظروف المسبقة (العوامل المفسرة) . وقد اعترف هيمبل، على أية حال، أنه بسبب أن المؤرخين

لا يعملون حقا بالطريقة المضبوطة لصياغة القوانين العامة وتناولها بمهارة، فإن ما يفعلونه فى الواقع ليس سوى «إنتاج اسكتشات تفسيرية» تتطلب «التنقيح» لكى تصير القوانين الفاعلة فى السلوك البشريى متمايزة وواضحة [٤٠] . وبهذه العملية الاستنباطية الصارمة يمكن للتاريخ أن يزعم أنه يعيد بناء الماضى . ومع هذا رفض مؤرخو إعادة بناء الماضى ومؤيدوهم من الفلاسفة، مثل ماكولاج، نظرية هيمبل عن قانون التغطية باستمرار، ورأوا فيها حتمية بقدر كونها تشتيتا عن بحثهم الإمبريقي فى المصادر التاريخية لاستخراج الحقائق التاريخية الفريدة .

وعلى الرغم من أن الناس لا يتصرفون دائما بصورة عقلانية، فإن البنيويين لا يزالون يدرسون تعقيدات الماضى مستخدمين فى ذلك نماذج أكثر توسعا عن ذى قبل من المؤسسات الاجتماعية والثقافية، ويحاولون أن يأخذوا فى حسابهم التغيرات الإيكولوجية، وإعادة تعريف النوع، والعلاقات الطبقية، والعرق، والاستعمار، وتفكك الاستعمار، والتصنيع، والتكنولوجيا. وهذه كلها تتطلب من أدوات التحليل ما هو أكثر مما يقدمه الاستدلال الاستقرائي البسيط . وتضم قائمة المفكرين الذين يؤثرون الآن فى التاريخ البنيوي عالم الاجتماع أنتونى جيدينز Antony Giddens بنظريته عن أن الفاعل التاريخي والمؤسسات الاجتماعية إنما هى نتاج التراتيبيات المعقدة أو مستويات الممارسات الاجتماعية ؛ وعلماء الاجتماع من أتباع مدرسة ماكس فيبر: من أمثال إرنست جيللنر Ernest Gellner وتشارلز تللى Charles Tilly، وكليفورد جيرتز Clif-ford Geartz الذين طبقوا أفكار الأنثروبولوجيا الاجتماعية على التغير التاريخي ؛ والمنظور الإيكولوجي عند المؤرخ هوسكينز W.G.Hoskins والتاريخ الشامل عند مدرسة «الحوليات» : فرناند بروديل، وإيمانويل لو روي، وروبرت دارنتون، وروجر شارتييه، والاعتراف ببنى القوة فى المجتمع من جانب المؤرخين الاجتماعيين الماركسيين : هارى بريفمان Harry Breveman وهربرت جوتمان Herbert Gutman David Montgomery وجيمس وينشتين James Weinsteinوجابرييل كولكو Gabriel Kolko؛ والتاريخ الماركسي المتأثر بجرامشى عند إيريك هوبسباوم Eric Hobsbawm ويوجين جينوفيس Eugene Genovese؛ وكذلك التاريخ المكتوب من وجهة النظر الماركسية النسوية عند شيلا راوبوثام، Sheila Rawbotham، وكاترين هول Catherin Hall[٤١] وهذه مجرد

أمثلة قليلة على المدى الهائل من التفسيرات البنيوية المتاحة اليوم والتى تسعى إلى وضع البنى المؤثرة فى الأحداث الفريدة بشكل واضح .

كل هؤلاء المؤرخين المتجمعين حول محور إعادة بناء الماضى / البنيوي لا يزالون على إصرارهم على استجواب المصادر لتفسير كيف حدثت الأحداث بالشكل الذى حدثت به . وتمت مواجهة المعارضة الصلبة الإمبريقية لتحليل البنى تأسيسا على الأحداث بشكل ناجح بالإصرار على أن التاريخ بوصفه :إمبريقية والتاريخ الاجتماعي وبصفته اقتراحا لا يمكن أن يكون منفصلا عن الممارسة. وثمة شيء آخر يربط بين الكثير من هؤلاء المؤرخين يتمثل فى حقيقة أنهم بينمايقبلون أن تكون اللغة وسيلة نقل «المفاهيم» والنظريات الاجتماعية المستخدمة، يتفق معظمهم على أن التحديد الصريح والدقيق للمصطلحات، والمفاهيم والتصنيفات المستخدمة بشكل منتظم سوف يتغلب عادة على أي مشكلةانهيارمهمة، ويرفض معظمهم الأخذ بمفهوم أن تفسيراتهم قد يكون لها تأثير كبير على طبيعة الماضى الذى يسعون إلى اكتشافه . وكما يلاحظ إلتون، فإن الافتراض الذى يطرحه « بائعو النظريات الجوالون» بأن اللغة أرض خطرة مليئة بالمزالق التى يزال فيها الغافل ليس جديدا، وكل مؤرخ يستحق ما عرفه منهم، وقد تكلم عنهم سنوات عديدة – ولكن فى لغة تخلو من الرطانة بحيث يمكننا أن نفهمها ! ومن ثم، ما دور السرد الرئيسي فى التاريخ الذى يكمن وراء مجرد دور الراوي ؟

التـــاريخ ســـردا

تتركز وظيفة اللغة فى خلق الفهم التاريخي على طبيعة السرد واستخدامه . وبينما يتفق معظم المؤرخين على أن التاريخ جزء من العملية الأدبية إلى حد كبير، فإنهم يختلفون على سمة الأدب ودلالاته فى فى التاريخ، وبصفة خاصة على السؤال عما إذا كان الشكل الأدبي يخلق الماضى أو لا يخلقه كما هو. وكون التاريخ هو حقيقة الماضى المكتشفة كان الاعتقاد الرئيسي الكامن تحت الرفض العام، خاصة من جانب المحافظين من الذين يريدون إعادة بناء الماضى، للتاريخ البنيوي الذى يأخذ بالنظرية الاجتماعية، فإنه وفر التعليل العقلاني لعدم اعتبار السرد فى حد ذاته، وبحد ذاته،

شكلا من أشكال التفسير والفهم . ويميل البنيويون إلى رؤية السرد على أنه ليس علميا ولا تفسيريا بسبب طبيعته الغائية، وهو ما يعنى أنه تفسير موجه صوب الاستنتاج النهائي، الذى ربما كان معروفا بالفعل، وإن لم يكن مرغوبا . كذلك يأخذ البنيويون التاريخ السردي على أنه يركز حتما على الحدث الفريد على حساب اكتشاف النماذج، والاعتراف بها بسبب التركيز على دور الناس الأفراد فى الماضى بدلا من سلوك الجماعات وعملياتها .

على أية حال، كانت إعادة اكتشاف السرد سمة من سمات التطور الحديث فى الكتابة التاريخية . وبالتالى، يرى بعض المؤرخين باطراد السرد فى الفهم التاريخي على أنه يقوم بالتفسير بقدر ما يتسم بالتقليد من المحاكاة . وكما قال المؤرخ الأمريكي هيكستر، إن السرد يعرض « قدرة التاريخ على نقل معرفة الماضى كما كان بالفعل» . ويصرُّ هيكستر على أن الأكثر أهمية بالنسبة للمؤرخين البنيويين، أن السرد لا ينكر الموضوعية لأن البحث التاريخي، عندما يتم على الوجه الصحيح، يمكن أن ينتج عنه اقتراب لصيق من الحقيقة بشكل مضبوط من خلال اكتشاف النماذج فى أحداث الماضى. وحسبما يزعم، محاولا أيضا إرضاء من يريدون إعادة بناء الماضى، فإن وجود «روابط إعادة البناء بين ثنايا الأرشيف» [٤٢] يشير إلى أن التاريخ إعادة بناء سردي للماضى يمكن أن يكشف فى موضوعية عما حدث بالفعل . ويخلص إلى :

«أن وظيفة لغة المؤرخ ... ربما يكون أفضل وصف لها أنها «لغة ترجمة» ؛ فهى تهدف إلى مساعدة القارئ على ترجمة تجربته من سياق مقبول مألوف إلى سياق غريب وربما مكروه مبدئيًا . و «اتجاه الترجمة» له من الأهمية ما لفعاليتها[٤٣] . هذا الاعتراف بالطريقة التى يستخدم بها المؤرخون السرد لتوجيه المعنى، أو «ترجمته» ليس إشكاليًا بالنسبة لهيكستر لأنه جزء أساسي من تكوين التفسير التاريخي . هذا المؤرخ هو المرشد والراوى .

يوافق ليمون M.CLemon على أن المؤرخين يتواصلون أولا من خلال الشكل السردي المكتوب للغة، وعلى حد تعبيره فهم «يحولون» أفكارهم إلى لغة . وعلى أية حال فإن ترجمة التفكير إلى لغة لا يبرهن على صحة نظرية التواصل . وما تفعله حقا أنها تعزز المنهج التاريخي الأساسي فى الاستقراء الاستدلالي، وعلى حد تعبير ليمون، يجب

على القارئ أن يستدل « مما يقال على التفكير الذى يبرهن عليه . هذه وظيفة السرد»[٤٤] . وعلى القراء والمؤرخين معهم، لكي يؤسسوا التفكير فيما وراء الأدلة الأولية أو الثانوية، أن يفهموا اللغة المستخدمة أولا . هذا المنطق يتجسد فى مقاربة كولينجوود وكار التى لاحظناها بالفعل وتتمثل الصعوبة الرئيسية هنا فى السؤال عن مدى تشكيل اللغة للحقيقة بدلا من أن تكون انعكاسا لها . وهذه ليست مشكلة كبرى بالنسبة لمؤرخى التيار السائد من الواقعيين العمليين لأنهم يفترضون أن السرد ليس الآلية الأولية للتفسير التاريخي - إذ إن التفسير التاريخي يبرز بشكل استقرائي من دراسة المصادر واستخدام النماذج التحليلية فى التفسير، لا من التتابع الزمنى « حدث هذا، ثم حدث ذلك» وعلى الرغم من أن السرد يتوافق مع هذه البنية الأساسية للا غير على مر الزمن، فربما لا يكون هذا أساسا جيدا بالقدر الكافى لكي نزعم أنه جوهر التفسير التاريخي . ويؤخذ السرد على أنه الشكل الذى يبث فيه فيه التحليل التاريخى إلى قرائه، ولكن المبالغة فى هذا الزعم يثير المنازعة. وبينما يمكن أن تحمل السرديات على التفسيرات أو تحملها، فإن السرديات ليست تفسيرات بحد ذاتها[٤٥] . ويبقى الموضوع عما إذا كان المؤرخ يفكر أو لايفكر فى أن اللغة تعكس ببساطة الحقيقة أو أنها العنصر الرئيسي فى كيفية فهمها .

وعلى أية حال، فمنذ سبعينيات القرن العشرين، كانت اختيارات المؤرخين للأوصاف، والصور المجازية، والأساليب التصويرية، وبناء الحجج التفسيرية، وأي أحكام أخلاقية يرتبطون بها تمت منافشتها والاعتراف بها بشكل مطرد، تؤخذ على أنها من السمات المهمة للتفسير النقدي . وقد قرر الموقف الواقعي العملي فى التيار الرئيسي من المؤرخين بشكل واضح لورنس ستون Lawrence Stone فى مقالته التى نشرها سنة ١٩٧٩م . وبعد أن عرَف السرد ببساطة على أنه « تنظيم المادة فى نظام زمنى تتابعي وتركيز المحتوى فى قصة واحدة متماسكة». وهو يقول إن التاريخ السردي يختلف عن تاريخ النظرية الاجتماعية أو التاريخ البنيوي من حيث إن « ترتيبه وصفي أكثر منه تحليلي وأن بؤرته المركزية ترتكز على الإنسان وليس على الظروف. ومن ثم فهو يتعامل مع الخاص والمحدد بدلا من الجماعي والإحصائي» . وبالنسبة لستون، فإن الحتمية الاقتصادية، والبنيوية، والتاريخ الكمي، والتاريخ النفسي، كلها

بدائل فقيرة للإمبريقية السردية التي أنتجت فهما تاريخيا « يقوم على أساس الملاحظة، والتجربة، والحكم والحدس» (٤٦) .

وعلى الرغم من أن هدف دفاع ستون عن السرد تمثل في هجومه على « محاولة إنتاج تفسير علمي متماسك للتغير في الماضي» (٤٧) حسبما لاحظنا في الفصل الأول وكان وليم جاللي قد جادل في منتصف ستينيات القرن العشرين مدافعاعن مركزية السرد باعتباره الشكل المميز للفهم التاريخي، وكان قد أشار مثل هيكستر إلى أن السرد والبنيوية ليسا غير متوافقين . ويفهم المؤرخون الماضي بينما هم ينتجون قصة يمكن لهم ولقرائهم متابعتها، تقوم على أساس الأدلة المتصلة ببعضها بعضاً أحيانا في سياق واحد . وقد أشار جاللي إلى أن متابعة السرد التاريخي تتطلب بانتظام قبول التفسيرات التي تزيد من سرعة تصديق المرء (٤٨) . وما يقوله إنه لا يهم مدى عدم احتمال أن تكون القصة قصة سلسلة من الأحداث وعلاقاتها المتغيرة على مرِ الزمان، فإذا ما كانت مدعومة بشكل معقول بالأدلة المرتبطة ببعضها ارتباطا سببيا، فإنه يجب تصديقها . وعلى أية حال، يصرُ ليمون على أنه لا يهم أن تبدو غير محتملة الحدوث، لأن التاريخ السردي لا يسعى إلى تأسيس نمط بنيوي من العلاقات السببية بين الأحداث. وتبرز قوتها التفسيرية من قوتها الذاتية، أو قدرتها على متابعة آثار استجابات الأفراد الشخصية المقصودة إزاء السياق الذي يعيشون في رحابه . وتتحكم وظيفة التاريخ السردي في الكشف عن مقاصد الناس في الماضي من خلال السرد، بالشكل الذي يجعل من الممكن متابعة القصة وفهمها .

ومنذ زمن قريب علق المؤرخ فيليب كاراد على كيف أن التاريخ الجديد يستمر بشكل بالغ التعقيد في الاعتماد على السرد بوصفه وسيلته الأولية للتعبير والحكي. وهو يزعم أن « المؤرخين الجدد ... لا يزالون يعتمدون على حكاية القصة لكي يضفوا على العالم معنى ..ولا يزال هذا المكون التحليلي داخل إطار خطة، وهذه الخطة تحتفظ بوظائف معرفية جوهرية» (٤٩) ويصرُ كاراد، مثل وليم جاللي وأرثر دانتون، على أنه حتى التاريخ البنيوي يتطلب تصويرا مجازيا يحدد مقاصد الفاعل التاريخي كما يكون تفسير المصادر (يكشف كيف أن الناس في الماضي كانوا يتصرفون عن قصد) بالإضافة إلى اختبار الفرض (باستخدام بنى اجتماعية بنيوية مثل الطبقة) مترجمة إلى سرد مفهوم وتفسيري .

وكما سنرى فى الصفحات التاليات، تعتبر مؤلفات المؤرخ والمنظر التاريخي الهولندي فرانك آنكرسميث، مركز الجدل الدائر عن السمة السردية للتاريخ . ذلك أن رفضه لفكرة الأصولية لإعادة بناء الماضى والقائلة إن التاريخ محكوم دائما وأبدا «بما حدث» فقط، قد أوجد فضاء فكريا لفهم أكثر تعقيدا للتاريخ بوصفه نشاطا أدبيا خلاقا للمعنى . ويصر آنكرسميث،على أن فهم كيف أن الوصف والتقديم حاسم فى فهم كيفية عمل التاريخ . وهذا تبسيط مخل شائع، وهو ما يمثله أنصار إعادة بناء الماضى على وجه التحديد، وهو يتبلور فى الفرض القائل إن المعنى والحقيقة فى التاريخ إنما تستمدان من المادة الخام للأحداث . . وليس معنى هذا القول بأن الحقيقي قد نزل إلى مجرد نص . بدلا من ذلك يشير إلى أن معنى «حقيقة الماض» لا يمكن أن يفهم سوى من خلال النصوص التى نخلقها حول هذه الحقيقة . وحسبما يذكرنا آنكرسميث، فإن السرد التاريخي لحقيقة الماضى، ليس منعزلا عن حاضرنا ولا الطبيعة المعرفية لبنية هذا العصر(٥٠). والسرديات التاريخية، على وجه الدقة، إشارات إلى الماضى بلغة تحل محل الحقيقة . ولا يمكن أن تكون غير هذا . وإذا كانت هذه هى الحال، كما يشير آنكر شميت، فإنها تتطلب من المؤرخين أن يأخذوها فى حسابهم عندما يفكرون فى البناء المعرفي للسرديات التاريخية وقوتها . وبينما يبقى أنصار إعادة بناء الماضى على بنيانهم القديم فى رفضهم لهذا المفهوم، فإن غالبية المؤرخين بدأوا يعترفون بشكل مطرد بمنطق السرد فى التاريخ .

وتساند جويس آبلبى، ولين هنت، ومارجريت جاكوب اتفاق التيار الرئيسي فى ضرورة أن يمزج المؤرخون «. التماسك السردي، والتحليل السببي، ووضع السياق الاجتماعي» لخلق عملية يعتقدون أنها «متجسدة فى سردياتنا» (٥١) . وإذ امتلأت أذهانهم بمزاياهم الإمبريقية، فإنهم يرفضون « الأحكام السلبية أو الساخرة الجارية عن دور التاريخ» عند أنصار إعادة بناء الماضى ما بعد الحداثة، على حين يعترفون فى حذر بالاختيارات الجمالية أو الأدبية التى يجب على المؤرخين أن يقوموا بها عندما يكتبون التاريخ . وهم يلخصون الحكم الذى يضعه التيار السائد على السمة الأدبية للتاريخ عندما يحكمون على البعد الأدبي فيه بأنه ليس الاعتبار الأولي للتاريخ . ويعكس ترتيبهم الاختيارات الأولية بوصفهم مؤرخين سرديين «سياسية، واجتماعية، ومعرفية»

معتقداتهم عن دورهم فى مجتمع المؤرخين من ناحية، وطبيعة المجتمع الأمريكي من ناحية أخرى . وبينما يتفقون على أن « الحقائق عن الثقافة واللغة تقوض هذه الرؤية التراتبية ببيان أن كل الحقيقة الاجتماعية قد بنيت ثقافيا وجرى تأويلها خارج السياق للوهلة الأولى»، فإنهم لا يزالون يصرون على أيمانهم بإمكانية المعرفة العلمية بحقيقة الماضى . ومع قبول أن السرد « حالة كونية من تنظيم المعرفة السردية» وأن هناك فجوة بين «الحقيقة وسرد حكايتها» . ومع هذا يبقى السرد وسيلة غير مناسبة للتفسير التاريخي (٥٢) .

والنظر إلى السرد على أنه شكل من الحكاية أكثر منه معرفة هو الحكم الذى يصل إليه فيلسوف التاريخ ميخائيل ستانفورد . ومن رأيه أن « التاريخ ليس بحاجة إلى أن يكون تاريخا سرديا» (٥٣) وفى رأيه، أن الرأي القائل إن الحياة تحدث مثل قصة ليس سوى مناورة من جانب الكتّاب لا أكثر . فالأحداث، فى الحقيقة، لا تحدث فى شكل سردي مناسب . وهذا ما يقدمه المؤرخ فيما بعد، بيد أن المهم حقا، أن نلاحظ أن « معظم الأعمال الأكاديمية لم تكتب بالشكل السردي» (٥٤) والسبب الذى يقدمه ستانفورد لهذا فى معارضة جاللى هو أن الشكل السردي لا يمكن أن يتماشى مع تعقيدات الأحداث المرتبطة ببعضها البعض سرديا . وتداخل السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي معقد للغاية بحيث أن الوصف وحده لا يمكن أن يحل محل التحليل المفاهيمي من النمط البنيوي .

ونتيجة لذيوع هذا الرأي وشعبيته، فإن معظم التاريخ المكتوب اليوم يتم من خلال مقاربة موضوعات أو مشكلات بدلا من وصف الأحداث الفردية فى تتابع يفترض المؤرخ أنه سوف يفسر نفسه بنفسه فى الواقع (٥٥). وفى الأمثلة المأخوذة من فوق رف مكتبتى الخاصة تعيد فيلليس ديان Phyllis Deane فى كتابها عن التاريخ الاقتصادي البريطاني The First Industrial Revolution الذى أعدته لطلاب المرحلة الجامعية الصادر سنة ١٩٦٥ م،تعيد بناء عملية التصنيع البريطانية من خلال موضوعات مثل الثورة السكانية، وثورة النقل، وصناعة الحديد، ودور المصارف، ومستويات المعيشة . وهناك مثال ثان وجدته من التاريخ الاقتصادي الأوروبي فى كتاب كلايف-Clive Trebil cock تربلكوك بعنوان The Industrialization of the Conttinental Powers 1981 الذى

بنى حول نماذج من التصنيع المرتبط بالبلاد الأوربية المفردة. وثمة مثال آخر أخذ اعتباطا، ولكنه أخذ هذه المرة من الكتابات التاريخية الأنريكية المنشورة حديثا، وهو كتاب فيكى رويز Vicki L.Ruiz وإلن كارول دى بوا Ellen Carol DuBois بعنوان Unequal Sisters الذى صدر سنة ٢٠٠٠م، وهو قراءة متعددة الثقافة فى تاريخ النسوة الأمريكيات منذ أيام الرق الاستعمارية حتى تسعينيات القرن العشرين، وقد نظمت أيضا حول موضوعات متمايزة – العمل المنزلي، الطبقة العاملة المناهضة للحرب وحياتها، بنية الزواج عند النسوة الصينيات- الأمريكيات اللاتى تعلمن فى الإرساليات الدينية، صناعة مستحضرات التجميل، بنية النوع، النسوة الفيتناميات المهاجرات[٥٦]. وقد تمت معالجة الترتيب التتابعي للأحداث على مرِ الزمان على نحو مختلف فى كل هذه النصوص – ومع ذلك فإن أهمية هذا تبدو ثانوية فى الأطر التفسيرية البنيوية .

هكذا، على الرغم من طبيعة التاريخ السردي تبقى محل خلاف، فإن هناك اتجاهاً راسخا بين التيار السائد من المؤرخين . كما أن أنصار استعادة الماضى المحافظين على استعداد للدفاع عن السرد فقط بوصفه الوسيلة التى توصلهم إلى النتائج التى يستنبطونها من المصادر . أما الواقعيون العمليون، وربما كان معهم أغلب البنيويين، فإنهم يصرون على أن السرد يحمل المعنى ولكنه يبقى ثانويا فى عملية صياغة المفاهيم والنظريات الاجتماعية التفسيرية التى لديهم . وعلى أية حال، فلا أحد يقبل السرد باعتباره وسيلة لا تمثل مشكلة بالمرة، ولا باعتباره ذائبا فى المعنى بحيث يعجز عن نقل أية معرفة محددة . ولا يرى أنصار إعادة بناء الماضى والبنيويون سببا كافيا للاعتقاد أنه لمجرد أن السرد ليس هو الأداة الأولية لخلق المعرفة التاريخية فإنه آلية عديمة النفع فى نقل نتائج البحث التاريخي .

خاتمة

ما ناقشته فى هذا الفصل أن التيار الرئيسي من مقاربة أنصار إعادة بناء الماضى / ومن البنيويين تعتمد على مبادئ متنوعة تتصل ببعضها بعضاً . أولها قبول

منهج موضوعي المنحى، يوظف الأدلة، ويعزل المؤرخ بما يسمح بإعادة بناء الماضى بصورة دقيقة، ومستقلة وصادقة . وثانيها، ينتج عن هذا أن حقيقة التاريخ يمكن تمييزها عن الخيال الأدبي وحكم القيمة، مع كون التاريخ يدور حول اكتشاف ما كان قد حدث بالفعل . وعلى أية حال، فقد لاحظت التقسيمات الموجودة داخل التيار الرئيسي لإعادة بناء الماضى والبنيوي مع هجمات إلتون على جميع أشكال التاريخ الذى أنتجه « بائعو النظرية الجوالون» الذين شاع وجودهم وانتشر(٥٧) . وعلى النقيض من إلتون أشرت إلى موقف كالينيكوس القائل إن الحقائق تبرز من الدراسة التاريخية التى تستلهم النظرية، وكيف أنه فى وقت قريب تركز الجدل على ما إذا كان يمكن للسرد التاريخي أن يعتبر بحد ذاته شكلا من أشكال التفسير .

كان ينبغى الآن أن نكون فى موقف أفضل لفهم الفروض الأربعة الرئيسية للمدرسة التقليدية أو مدرسة إعادة بناء الماضى : أن التاريخ يمتلك معرفته الخاصة ؛ أن المنهج التاريخي يتكون من الفحص الدقيق للمصادر الأولية وفقا للقواعد الاستقرائية للأدلة (المقارنة، الجمع، التحقيق، والتفسير المحايد للأدلة)، رفض القوانين العامة بقدر ما تنطوى على مغزى أن التاريخ يمكن أن يكون أن يكون تنبؤيا ؛ وأخيرا، أن السرد باعتباره الوسيط لإعادة البناء التاريخي، وعلى الرغم من أنه ليس شكلا كافيا للتفسير، ليس عقبة فى طريق المشروع . وفى الفصلين التاليين سوف أقيم هاتين المقدمتين المنطقيتين للتيار الرئيسي من منظور الوعي التفكيكى .

(٤)

التاريخ بوصفه عملية تفكيكية

تقـــديـــم

إن مهنة التاريخ ليست منقسمة بشكل ساخر مابين التفكيكيين والتيار السائد، بين من يريدون إعادة بناء الماضى / والبنيويين، على الأقل بسبب وجود مجادلات نشيطة تتقاطع فى جميع المواقف، كما رأينا، ويفترض معظم المؤرخين سلفا استخدام السرد بوصفه الوسيلة لنقل المعرفة التاريخية على الأقل إن لم يكن من أجل خلقها . بيد أنه لا يزال هناك انقسام واسع بين أولئك الذين يفكرون بوعي ذاتي حول طبيعة السرد ودوره الخاص فى ممارسة المهنة، وهو ما عرفته بأنه الوعي التفكيكي من ناحية، وأولئك الذين يرون إعادة بناء الماضى على أنه انشغال بالأدلة ويظنون بالتالى أن هناك قليلا من النزاع حول شكله المكتوب تاريخا من ناحية أخرى . وكما أوضحت يركز هذا التقسيم على كيفية اتصال المحتوى بالشكل، وخاصة مدى كون المعرفة التاريخية والتفسير الوظيفة الأولية للأدلة السياقية أو جماليات الخطاب السردي وبنيانه .

ولا يقبل المؤرخون المحافظون من أنصار إعادة بناء الماضى الإمبريقية على أنها مجرد طريقة بين عدة طرق متنافسة لمعرفة الماضى . وهم يرفضون كل المناهج الأخرى للتفسير التاريخي، خاصة تلك التى تخرج من إيديولوجية لا تحظى برضاهم : الماركسية، المادية الثقافية، الهيجلية، أو الليبرالية البورجوازية، أو أيا ما كانت. ويفضل مؤرخو التيارات السائدة أن يروا التاريخ على أنه ممارسة أولا - مهنة التاريخ[١] وينظر إليه باعتباره أسلوبا للكشف غير الإيديولوجي[٢] . يتحدى الوعي التاريخي التفكيكي هنا هو الاعتقاد بأن البحث التاريخي يمكن أن يقدم اختبارا يشبه اختبار

ورقة عباد الشمس فى التاريخ الذى يتسم بخاصية معينة، مؤكدا بدلا من ذلك أنه لا يمكننا الوصول إلى الماضى سوى بوصفه تقديما نصيا - « الماضى» مترجما إلى «التاريخ». ومن منظور تفكيكي لأهمية اللغة والبناء السردي سوف أتناول الآن كلا من الأسئلة الأربعة بدوره.

المعرفة (الإيستمولوجى)

نتيجة التحدى الذى طرحته ما بعد البنيوية فى وجه الإمبريقية ونظرية تواصل المعنى، نواجه ما يبدو للوهلة الأولى أنه المفهوم غير المريح القائل إن الطريقة الوحيدة للوصول إلى المعرفة هى الخوض فى مياه اللغة المعتمة الخطيرة . ويرد المؤرخون جماعة على هذا برفض استكشاف مضامين اللغة ودلالاتها . وعلى الرغم من تحذيرات دريدا وبارثيس، يواصل المؤرخون الاعتماد على مفهوم الإدراك العام بأنهم سيضعون الوجود الظاهري للنص، والذى يمكن معرفته، فى السياق .هذا هو توظيف العلم فى المرجعية - إشارة مرجعية لكل كلمة، وبالتالى يكون هناك معنى يمكن اكتشافه. والمشكلة أن مثل هذا التثبيت يجعل من الصعب تماما أن نرى السرديات على ماهي عليه : ذلك أن التفسيرات التاريخية تحمل المعنى « بحد ذاتها» أكثر من كونها وسائل إيضاح يتم بها تفسير الماضى كما حدث بالفعل . ولكي نتابع هذا نحتاج إلى أن نعرف المزيد عن كيفية عمل السرد بالمصطلحات النعرفية .

وفتح التحليل التاريخي أمام أسئلة عن البلاغة على هذا النحو موجود فى مؤلفات هايدن هوايت وغيره من الفلاسفة والمؤرخين من أمثال آنكر سميث، وهانز كلنر، وجون روسين، وكيت جينكنز . ويشير الوعي التاريخي التفكيكي إلى أن التاريخ الذى يكتبه المؤرخون يجب أن يعترف صراحة، ويستكشف عندما يكون ذلك مناسبا، شكله الذى تم حبكه أو تصويره مسبقا. وما يدور الجدل بشأنه أن تحليل الأسلوب، والنوع، وبناء السرد، الذى يرتبط عادة بالإبداع الأدبي، إنما يطبق لفهم مصادر المؤرخ والتفسيرات المكتوبة . وعلى الرغم من أن هذه المقاربة تبرز من اهتمام البنيوية مبكرا بالطبيعة الاعتباطية للغة، فإن التاريخ الذى ينتج داخل الوعي التفكيكي له مدى أوسع كثيرا من

الاهتمامات . وعلى أية حال، يختار المؤرخون أنصار إعادة بناء الماضى الاحتفاظ بالبنيوية والتفكيكية التاريخية فى متناول أيديهم باعتبار أن الشكل المكتوب من الماضى لا يتصل بإعادة بناء الماضي وتفسيره كما كان بالفعلبصلة خاصة . وعلى الرغم من أنهم يستحسنون الدقة فى استخدام اللغة ويعترفون بجوانب القصور فيها، فإن أهمية استخدام اللغة فى أوسع معانيها التفسيرية يبقى أمرا ثانويا فى اكتشاف الأصول الحقيقية، والتحليل السببي، ووضع السياق .

وكما أشرت بالفعل، فقد بقي تراث الوضعية الذى تركه فرنسيس بيكون منذ أوائل القرن السابع عشر بمثابة المجاز المتحكم فى الدراسة التاريخية فى القرن العشرين حتى فى المركز الواقعي العملي . ولا يصبح التاريخ إشكاليا حقا سوى حين يستخرج المؤرخون استنتاجات استقرائية لا سند لها من المصادر، ليشكلوا التاريخ من أجل أغراضهم الإيديولوجية أو السياسية، أو ما هو أسوأ من ذلك بالنسبة لقلة منهم، هماالذين يعبثون فى عالم عمل الفروض الواطئ . يجب أن يكون التاريخ « مثال» من حيث أن العلم دراسة العالم الحقيقي الموجود «هناك»، وهو فعلي وليس تأمليا، وتجريبي وليس معروفا سلفا، وقابل للفحص والتحقيق، وضد الفروض النظرية، ومحايد إيديولوجيا، وهو فوق هذا وذاك غير مفروض وموضوعي . وبالتالى، فإن المغزى الأساسي لنظريات مابعد الحداثة عن التاريخ – أي موته كعلم مشروع – أمر غير مقبول .

وفى الحقيقة يجب ألا يكون التساؤل عن التاريخ بوصفه هدفا تجريبيا مشكلة بالنسبة للمؤرخين فإذا ما قبلنا أنه لا توجد سرديات كبرى – مثلما يفترض أن يكون التاريخ بمعناه الصحيح – فليس هناك مسار داخلي للحقيقة على ما يقول لويدز . ذلك أن التساؤل عن الأسس المعرفية للتاريخ، على كل حال، يحفر فى أذهان المؤرخين بعمق. وهو يهتم بالموضوعية التى يتعامل بها المؤرخ مع المصادر، ثم يكتب تفسيرا غير متحيز يتتبع الأصول والأسباب ويفسرها . وبينما لن يجادل معظم المؤرخين فى أن المنهج التاريخي منهج علمي، يبقى هناك ذلك الإحساس القوي بأنه عقلاني وموضوعي يتصل بماض حقيقي ربما يكون قابلا للفهم والتحليل السببي[٣] . والمجادلة بغير هذا تعنى ببساطة التوقف عن أن تكون مؤرخا .

والناقد الرئيسي لما قد نسميه بصورة فضفاضة « التاريخ التقليدي» هو ميشيل فوكو . ومع قبول رد فعل الفيلسوف الألماني فريدريش نيتشه ضد يقينية الإمبريقية فى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، يكون هجوم فوكو على التاريخ أقل ميلا إلى عدم حسم اللغة فيما بعد البنيوية، ولكنه موجه أكثر ضد الطريقة التى يؤمن بها المؤرخون باستعادة حقيقة الماضى (٤) . ويتحدى فوكو الاعتقاد بأن المؤرخين يمكنهم فعلا أن يخطوا خارج التاريخ، ليمسكوا بالسياق، ويكونوا موضوعيين - مجادلا بدلا من ذلك بأن التاريخ المكتوب كله عمل إبداعي يتم من خلال نزعة الفرض عند المؤرخ عندما يرتب المعلومات، وهذا الفعل هو النتاج الإيديولوجي للعصر الذى يعيش فيه المؤرخ بدرجة أو بأخرى .

ويوازى نقد فوكو للتاريخ كنظام تعليمي نقد الناقد الثقافي الفرنسي رولان بارثيس . وهو يبنى نقده على التمييز بين التاريخ histoire الذى هو أحداث تحكى عن نفسها بنفسها بدون تدخل من الراوى، والخطاب discourse الذى هو واع بذاته بشكل صريح وله سلطة، وذلك فى مقالته The Discourse of History، المنشورة سنة ١٩٦٧ م، ويدين بارثيس اعتماد التاريخ على التواصل بين الأدلة، وتعريف الحقائق التاريخية و «تأثير الحقيقة» فى التاريخ الموضوعي كما تم خلقه فى التفسير المكتوب الذى كتبه المؤرخ (٥). ويشير بارثيس إلى أن التاريخ المكتوب ليس سوى سرد آخر، وهو ما يؤدى بوضوح إلى تقويض القصة الخاصة بتمييز خطاب القصة (٦). وكما يعلق شارح بارثيس ستيفن بان Stephen Bann بقوله : « التحليل البلاغي للسرد التاريخي .... لايمكن أن يمنح التاريخ، مسبقا، وضع الأسطورة الذى يفرقه عن الإبداع الأدبي» (٧).

وفى دفاعه عن السرد فى «الخطاب» يضرب بارثيس فى وجود التاريخ نفسه كمعرفة . إذ إنه يلاحظ أن التاريخ عادة ما يكون « مبررا بمبادئ العرض العقلاني»، بيد أنه يسأل : «هل يختلف هذا الشكل من السرد حقا، وبطريقة محددة، وبشكل يقيني عن السرد الخيالي كما نجده فى الملحمة، والرواية، والدراما» ؟ (٨) . ويستمر فى كلامه ليتحدى سلطة المؤرخ القائمة على أساس اطلاعه على المصادر، مؤكداً على أن عمل المؤرخ الحقيقي يكمن فى ترجمة هذه المصادر (يصف بارثيس هذا بأنه التعبير) إلى سرد للتفسير التاريخي . ويتخذ التحدى الذى يطرحه بارثيس شكل النقد لبناء خطاب

المؤرخ . والأمثلة التى يقدمها تتضمن استخدام المؤرخ التقليدي لكثير من التفصيل وسط الأحداث . وفى تاريخ الفن يكون هذا هو مبدأ tromp l'oiel الذى يقصد بالتفاصيل الدقيقة فيه أن تخلق إحساسا بالحقيقة . وتمتد تحديات بارثيس أيضا إلى كيف يعقِّد المؤرخون التتابع الزمني بضغط الزمن فى صفحات قليلة، تتأرجح جيئة وذهابا فى رحاب الماضى، وعلاوة على ذلك يفحص بارثيس زعم المؤرخ غير المعلن بمعرفة كل العلوم – العملية التى بواسطتها يختفى المؤرخ نفسه من الخطاب ليخلق الانطباع بالواقعية من خلال الوصول المباشر إلى المرجع – حيث يصل منه على حد قول بارثيس :

« يوجد نتيجة لهذا قصور منهجي يخلو من أي شكل من علامات الإشارة إلى مرسل الرسالة التاريخية . ويبدو التاريخ وكأنه يحكى لنفسه كل شيء اعتمادا على نفسه . هذه الخاصية... تتصل فى الواقع بنمط الخطاب التاريخي الذى يعرَف بأنه موضوعي (لا يتدخل فيه المؤرخ إطلاقا) ... على مستوى موضوعية الخطاب – أو نقص إشارات صاحب التعبير – وهكذا يبدو وكأنه شكل مخصوص من الإسقاط الخيالي، نتاجا لما يمكن أن نسميه تضليلا مرجعيا، طالما أنه فى هذه الحال يزعم أنه يسمح للمرجع أن يتحدث عن نفسه» (٩) .

وبهذا يكون الوضع المعرفي للخطاب التاريخي قد تأكد وثبت تراثيا . وتتميز الحقيقة التاريخية بأنها موضوعة فى الوضع المخصص لادعاء المصداقية التى تضمنها لغة واضحة ومنهج بحث مستقل تسانده الهوامش والإشارات المرجعية – أي السقالات التى يقوم عليها المنهج التاريخي الصحيح . ويستمر بارثيس ليشير إلى أن هذا التواصل المضلل بين اللغة الواضحة، والأدلة التاريخية، والحقيقة التاريخية يمكن أن يوجد أيضا فى الروايات الواقعية التى تبدو موضوعية بالمثل لأنها أخفت العلامات التى تدل على المتحدث (أنا) فى سردها .

ويزعم بارثيس أن المؤرخين يلعبون حيلة ثقة بسبب الطريقة التى نستخدم بها الاستعارة المجازية للتعبير عن الحقيقة – منهج إلتون فى واقع الأمر – لكي نجبر المؤرخين على الخروج من التاريخ . ويشير بارثيس إلى أن التاريخ ينجز حيلة معرفية يضع من خلالها المرجع فى عالم ممتاز من الحقيقة متخطيا الدلالة الاعتباطية. وكما

يقول إن المؤرخ ليس جامعا للحقائق بقدر ما هو جامع لما يصل بين ما يعطى الدلالة، أي أنه ينظمها بقصد تأسيس معنى إيجابي» [١٠]. وبينما يتقبل معظم مؤرخى التيار السائد الدور التنظيمي للمؤرخ، فإنهم يرسمون خطا حول هذه الرؤية التفكيكية تتمسك بأنه لا يمكن أن تكون هناك موضوعية فى اختيار المادة، وأن كل الأحكام على ما تضمُّه أو نستبعده مبنية على أساس إيديولوجي، والبنى السردية المفضلة، وأوجه القصور فى علاقة الدال -المدلول - الإشارة . ونقطة مارثيس التفكيكية تتمثل فى أن المؤرخ يخلط عمدا بين المدلول والمرجع، مما ينتج صلة بين الدال - والمرجع، ومن ثم يحذر مارثيس من أنه فى «التاريخ الموضوعي» لايكون الحقيقي أبدا أكثر من مدلول لم تتم صياغته، يحتمى وراء المرجع كامل القوة . هذا الموقف يميز ما قد نسميه « تأثير الحقيقة» [١١] . وهذا مماثل لفكرة فوكو بأن جميع الخطابات تكون فى أفضل الأحوال نظرات تنتج « تأثيرات حقيقية» . وليس هذا موقفا مناهضا للمرجعية بقدر ما هو اعتراف بحدود المرجعية .

ويرفض معظم المؤرخين أن يروا الحقيقي على أنه أثر للحقيقة فحسب، مع الأخذ فى الحسبان توظيف المهنة المستمر لاستقلال العلم التاريخي والاعتقاد الغربي التقليدي فى العقل والعقلانية (Logocentrism). ويعمل هذا لا نعترف أن الوصف السردي للحقائق التاريخية مكون أساسي بالنسبة لبراهيننا على تلك الحقائق . ويعلق بارثيس قائلاً إنه بتكوين «السرد بوصفه الدال الممتاز على الحقيقي» تبرز الحقيقة التاريخية باعتبارها تأليفا مكونا من « الاهتمام الحذر بالسرد» و« التخلى ... عن التفاصيل الثابتة» . وهو يخلص من هذا إلى أن « البناء السردي الذى كان قد تطور فى الأصل داخل بوتقة الإبداع الأدبي (فى الأسطورة والملاحم الأولى) يصير فى التو علامة على الحقيقة وبرهانا عليها» [١٢] . هذه مشاغل سيطرت على هايدن هوايت، من بين آخرين، ودفعته إلى استكشاف البعد البلاغي فى كتابة التاريخ، ووضعت علامة استفهام حول البنية السردية والفروض التى تفرضها على كتابة التاريخ [١٣] وبغض النظر عن مجادلة بارثيس بأن التاريخ فى أفضل الأحوال إنجاز عبثي ولخبطة وأنه إيديولوجى حتما، فإن التيار السائد بين المؤرخين لا يزالون يصرون على أنهم يعملون فى نظام تعليمي يسعى إلى إحراز درجة عالية من التواصل مع الماضى كما كان

بالفعل، وأن السرد وسيلة للحكي أكثر منه الوسيط الأول للتفسير . وعلى أية حال، فإن المؤرخين التفكيكيين مساقون إلى السؤال عن نوع الحال المعرفية التى يمكن أن تكون عليها أنواع القصص التى يحكيها المؤرخون، وما الذى يحق لهم أن يزعموهمن فضل للشكل الذى يتخذه سردهم ؟

الـــدلـــيــــل

هناك سؤالان متصلان بأحدهما الآخر يثيرهما التاريخ التفكيكي عن الدليل التاريخي. كيف يمكننا أن نكتشف القصد فى العقل الكامن وراء المصدر، وما قدر الاعتماد على السياق الذى يضعه أنصار إعادة بناء الماضى للأحداث على اعتبار ذلك شكلا من أشكال التفسير ؟ هنا نجد المفهوم الذى يبدو غريبا عن موت المؤلف / الموضوع. بالنسبة لبارثيس، تتلاشى أهمية كاتب الدليل التاريخي بقدر ما يؤخذ على أنه ممثل للمزيد من النصوص والمواقف الإيديولوجية أكثر من كونه الواضع الأصلي للمعنى . ولا يشير الدليل إلى ماض يمكن استرداده ومعرفته على وجه الدقة ولكنه يمثل سلاسل من التفسيرات، وهو ما يعنى أنه ليس لدينا دال سائد أو دال فائق . وبوصفنا مؤرخين فإننا لايمكن أن نعرف ماذا كانت مقاصد كاتب المصدر، فإذا أشرنا إلى أننا ننظر إلى تلك المقاصد باعتبارها وسيلة لتفسير الدليل، فإن معنى هذا أننا ندعو إلى مزيد من تحقيق النص . ويتناقض هذا مع رؤية ليمون بأن قدرة السرد على التفسير تبرز من متابعته لمقاصد الفاعل التاريخي والاستجابة الواضحة لسياقه . ويستمر بارثيس فى القول :

«إن أسماء المؤلفين أو المذاهب ليست ذات قيمة كبيرة هنا، إذ إنها لا توضح الهويات ولا الأسباب . وسيكون من قبيل الرعونة أن نفكر فى أن ديسقراطيس، وليبنيز، وروسو، وهيجل ...إلخ، أسماء لمؤلفين : مؤلفى حركات أو إبدالات نعرفهم على هذا النحو . إن القيمة الكاشفة التى أنسبها إليهم إنما هى أولا اسم المشكلة» (١٥) .

والرفض الحتمي من جانب الإمبريقيين لهذا الموقف يقوم على أساس الاعتقاد بأن المؤرخ والدليل كيانان منفصلان – مزيد من إعادة تقرير التمييز التقليدي بين العارف والمعروف – وهذه الفجوة تسمح للمؤرخين بأن يتنحوا ويروا أصول المعنى فى الدليل.

يصف أنكر سميث ما يسميه فهم مؤرخي ما بعد الحداثة للدليل بأنه يشبه بلاطة لايجب اقتلاعها لرؤية ما تحتها، وإنما يدوس عليها المؤرخون ليتحركوا قدما فوق بلاطات أخرى : وذلك فى مسار أفقي وليس رأسيا (١٦) . وبالنسبة لهايدن هوايت، فإن هذا المنظور (الخطو من بلاظة إلى بلاطة أخرى) له مغزى أكبر فيما يتعلق بتكوين المعنى بسبب ما يقوله عن الإيديولوجيا (١٧). أما المشكلة الحقيقة مع الدليل التاريخي بالنسبة لهايدن هوايت فليست دوران بارثيس بلا نهاية بحثا عن المعانى، وإنما هى مشكلة البعد الإيديولوجي الحتمي فى تفسير الدليل .

وفكرة التفسير التاريخي المتأثر بالاعتبارات الإيديولوجية تبدو فكرة خاطئة فى عيون مؤرخى إعادة بناء الماضى . إذ إن إلتون، مثلا، يرفض أي فرض إيديولوجي من جانب المؤرخ من النوع الذى اعترف به هوايت لأنه « ينتج عدم اليقين حول الحقيقة التاريخية» . إن «الرؤية الحقيقية للماضى» تبرز من «جوانب القصور فى الدليل وما يطرحه من مشكلات، لا من التحول المزعوم للأحداث فى ذهن المؤرخ الذى ينظمها » (١٨). وعارض هوايت مجادلا :

« ليس هناك شيء اسمه رأي واحد صحيح فى أي شيء تحت الدراسة ولكن ... هناك آراء صحيحة كثيرة، يتطلب كل منها أسلوبا خاصا فى التقديم . ولأننا يجب أن نعترف بأن «ما يشكل الحقائق نفسها هى المشكلة المتمثلة فى أن المؤرخ، مثل الفنان، قد حاول أن يفكك باختياره الأسلوب المجازي الذى ينظم به عالمه فى الماضى، والحاضر، والمستقبل» (١٩) .

وتتم ملاحظة أي عبور للحدود الفاصلة بين الملاحظ وما يخضع للملاحظة من خلال اختيار التعبير المجازي، وهو ما يخل، على نحو واضح، بإحدى القواعد الأساسية الأكثر أهمية فى التحليل التاريخي التقليدي، لأنه يهدد نموذج إلتون عن تناول الدليل بشكل موضوعي . ولأن الموضوعية تعبير مجازي مركزي فى الإمبريقية، فإن التداخل بين المؤرخ ومصدره يمثل خطرا واضحا بالانزلاق نحو الذاتية وفساد الكتابة التاريخية فى نهاية الأمر . بل إن منهج كولينجوود التاريخي الذى يرى فى تدخل المؤرخ « أنه ينبغى على المؤرخ أن يعيد تنظيم الماضى فى ذهنه»، إنما يفترض سلفا وجود الحد الأدنى من الموضوعية . وقد بينت بالفعل كيف يطور هذا المجادلة

القائلة إنه بمعرفة الحقائق معرفة شاملة يرفض من يعيدون بناء الماضى حماقة تطبيق نموذج العلم الاجتماعي على التاريخ، لاسيما استخدام النظرية الاجتماعية والتوسل بقوانين التغطية [٢٠]. وبينما توجد مسألة الذاتية فى تناول الدليل فى قلب التنافس بين قوانين التغطية فى التاريخ، يمثل هذا حجة مهمة بالنسبة للموقف التفكيكى . ويزيد هذا من توسيع الأساس المعرفي للسرد باعتباره نمطا مشروعا من التفسير يختلف عن التنظير الاجتماعي الصريح، ضمن أمور أخرى.

نظريات التاريخ "بناء الماضى"

فى رده على السؤال الذى طرحه « ممَّ يمكن أن توجد معرفة تاريخية ؟» يقول كولينجوود إن المعرفة التاريخية يمكن أن توجد من ذلك الذى ربما يكون قد استعاد وجوده فى ذهن المؤرخ»، وهو رد يمثل مشكلة كبيرة لدى كثير من مؤرخى إعادة بناء الماضى لأن هذا لا يقوم على أساس منهجهم فى التحليل التاريخي [٢١] . ويسهب كولينجوود فى رده « ولا يمكن أن يوجد التاريخ من ذلك الذى ليست له تجربة ولكنه مجرد شيء من هذه التجربة » [٢٢] . ولكي يتغلب المؤرخون أتبا ع كوليجوود، مثل كار، على نقص التجربة فى التفسير التاريخي، فإنهم غمسوا أنفسهم فى الأدلة بقصد تجربة الماضى بكل ما فى وسعهم – إعادة التفكير فيه . وعلى الرغم من أن الإمبريقيين الوقحين من أمثال جودفرى إلتون يعتقدون أن هذا منهج خاطئ تماما – ويتمسكون بدلا من ذلك بالحفاظ على التمايز بين العارف والمعروف – فإن المؤرخين يجب أن يتجنبوا الخطأ الأفدح الذى يتمثل فى اللجوء إلى نظرية اجتماعية عالمية تكون فى العادة ستارا وهميا فقط للانحياز الشخصي أو الانسداد المنهجي فى قانون التغطية فى المذهب الوضعي . إن تأطير القوانين فى شكل تقديم يشير إلى السبب فى حدوث حدث ما لكي نستخرج روابط سببية لا يؤخذ على أنه تاريخ [٢٣] . ولكن كما يشير كاللينيكوس، من موقعه البنيوي الماركسي، فإن دراسة الكيفية التى يرتبط بها البشر بالسياق الذى يعيشون فيه يتطلب بالضرورة وجود نظرية اجتماعية . وبالنسبة لكاللينيكوس، يجب أن يحاول كل التاريخ اكتشاف نموذج ما فى تحول المجتمع الإنساني .

وكما لاحظنا بالفعل، فإن نظرية قانون التغطية ليست شائعة بين أولئك الذين يحكمون بأن هذا القانون قائم على أساس نموذج من التفسير التاريخي مأخوذ من العلم. وبالنسبة لآخرين فإن عدم شعبيته راجعة إلى أنه يحول قوة السرد لتفسير الماضي . ومن ثم، فإن قلة من المؤرخين استخدموا ما عرَّفه هيمبل فى أوائل أربعينيات القرن العشرين على أنه نظرية قانون التغطية . وقبل ذلك بنحو خمسين سنة، كان مؤلف أحد أكثر كتب التاريخ تأثيراً - كتاب فردريك جاكسون تيرنر عن دور الحدود فى التاريخ الأمريكي - يوضح تأثير الوضعية . وبينما ينكر تيرنر وجود قوانين عامة فى التاريخ، كان هو وحده الذى أسرف فى استخدامها فى الممارسة . ولأنه استعار من العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية، فقد صار أحد المؤرخين البارزين فى جيله فى محاولة استقراء قانون عام يطبق على التجربة التاريخية الأمريكية مباشرة (٢٤) . وقد جادل فى محاضرته الشهيرة التى ألقاها قبل اجتماع الجمعية التاريخية الأمريكية فى شيكاغو سنة ١٨٩٣ م أن « وجود أي مساحة من الأرض الحرة، وانحسارها المستمر مع تقدم الاستيطان الأمريكى باتجاه الغرب يفسر التطور الأمريكي » (٢٥) .

هذا القانون عن الحركة صوب الغرب هو الذى يفسر التاريخ الأمريكي فى رأي تيرنر . وعلى أي حال، فقد برز رد الفعل إزاء الوضعية فى التفسير التاريخي فى سنوات ما بين الحرب بقيادة اثنين من المؤرخين الأمريكيين: كارل بيكر Carl Becker وتشارلز بيرد Charles Beard وهو موقف مستمد من موقف نيتشه ، ولكنه متأثر بشكل خاص بالمؤرخ الإيطالي بنديتو كروتشه، وقد تحدى بيكر وبيرد أي تاريخ يري أنه يعلو على اهتمامات الحاضر (٢٦) . ولما كان الاثنان قد صادقا على هذا الاتجاه النسبي فقد أعلن بيكر أن « التفكير التاريخي ... أداة اجتماعية تساعد فى جعل أعمال العالم أكثر فعالية » (٢٧) . وقد تقبل معظم المؤرخين اليوم النسبية على الأقل بالشكل الذى يجعلهم يواصلون رفض قوانين التغطية المطلقة، بيد أنهم لا يزالون يرفضون قبول فكرة أنه ربما هناك من الخيال قد أكبر مما سيعترف به الوضعيون (٢٨) .

أما بالنسبة للمؤرخين التفكيكيين فإن ترديد مثل هذه المجادلات من أجل البنيوية، أو ضدها، ممارسة بلا معنى إذا ما ساورت المرء الشكوك بشأن قيمة الحقيقة فى الدليل النصي والتفسير الذى بني عليها . والمجادلة بشأن قانون التغطية تكون غير

ذات موضوع إذا كان النموذج الإمبريقي كله فى الاستقراء والاستلال معيبا، لأن الحقائق لا تقيس ولا تنتج نوع المعرفة التاريخية التى يدعيها مؤرخو التيار السائد . ذلك أن معظم مؤرخى التيار السائد يتجاهلون مايحمله هذا الرأي من مضامين، ويفضلون بدلا من ذلك أن يركزوا على المصادر، وبذلك يصادقون على وصف كولينجوود للمنهج التاريخي بأنه التحليل الموضوعي للمصادر فى الأجزاء التى تكونها لتمييز ما ها هو أكثر جدارة بالثقة من غيره . وعلى أي حال، اعترف كولينجوود أيضا بدور المؤرخ فى بناء الروايات التاريخية . وفى رأيه أن المؤرخين يعرفون كيف يقومون بعملهم بطرقهم الخاصة ولا ينبغى لهم بعد الآن أن يخاطروا بأن تضلهم محاولة استيعاب المنهج العلمي فى التاريخ (٣٠) . والرفض الذى يكاد يكون كليا للبنيوية الوضعية يرتكز على الشك الذى يساور معظم المؤرخين بأن التفسير التاريخي تفسير موضوعي حقا تمت صياغته بشكل سردي وتتمسك المجادلة التفكيكية بأن مصادرنا ليست متسامية على الإطلاق فى معناها لأن بها حالة تاريخية تم تصويرها سلفا قد حكيت بالفعل فى المؤرخات، واليوميات، والأساطير، والمذكرات، والتفسيرات، حتى قبل أن يشتغل بها جيل آخر من المؤرخين مرة أخرى .

ويطرح النقد التفكيكي للتقديم الإمبريقي ومرجعيته سؤالا فعالا: هل تبرز المعرفة من خلال الوجود الاجتماعي أو استخدام اللغة ؟ على الرغم من أن السرد بوصفه شكلا من أشكال التقديم يخفق دائما فى اختبار التواصل، فإنه يبقى ذا أهمية حاسمة فى إعادة بناء / وبناء الماضى. ومن الجدير بالاعتبار فى هذه النقطة أن الجهد المبذول لاكتشاف الحقيقة فى الماضى ربما كان أقل فيما يتعلق بقواعد الدليل، وربما كانت قوانين التغطية بل السرد نفسه، بغرض الرغبة فى كسب القوة . ويرى فوكو أن هناك فجوة أساسية بين اللغة والحقيقة . وتوجد الحقيقة الوحيدة عندما تنتج اللغة المعنى . إننا نستخدم اللغة ولكن اللغة تستخدمنا أيضا (٣٠) . وبالتالى، فإن السرد خطاب وسريانه قوة . وقد تستخدم هذه القوة أيضا لخلق ماض يمكن أن تستخدمه أمة من الأمم وتستغله . ومن ثم يمكن النظر إلى السرد باعتباره تكوينا بلا سياق يوجد فى الحاضر وليس مجرد إشارة بسيطة ساذجة إلى الماضى (٣١) . وغالبا ما تكون زيادة المعرفة التاريخية – معرفة الماضى – تبريرا للحاضر، أو صيغة مفضلة منه . هذه هى

القوة الدافعة التى تحفز المؤرخ المحترف وبناء على هذا، يجادل فوكو أننا نحن المؤرخين جميعا، لأننا مرتبطون بمهنة ونظام تعليمي، فإن لنا مصلحة خاصة - عادة ما تكون فى إطار أيديولوجي - فى الحفاظ على أهمية أسطورة البحث الموضوعي عن الحقيقة، سواء كنا من أنصار استعادة الماضى أو من البنيويين . وفى نظر فوكو أن أسوأ المعتدين هم البورجوازيون الليبراليون من الإمبريقيين الذين يعتقدون أنهم يسيطرون على أيديولوجيتهم بما يسمح لهم بالاتصال الموضوعي بجوهر الماضى . ويتمثل موقف التاريخ التفكيكي فى التحدى الذى تطرحه فى مواجهة هذه الفكرة، والتى تصل ذروة تعبيرها فى البنيوية الصارمة، خاصة من النوع الإحصائي، بيد أن «هناك» نماذج جوهرية (حقيقية) فى الماضى ينبغى اكتشافها .

ويفترض الموقف التفكيكي أن تناول الأدلة فى السرد التاريخي يهتم أساسا بالمحاكاة والتماسك أكثر مما يتناول التفسير التاريخي . وليس معنى هذا أننا جميعا نسبيون متطرفون . ذلك أن هوايت، مثلا، يرفض الشك المتطرف فى القيمة المعرفية للسرد، ويضعه بالفعل فى مركز وظيفة التاريخ . « وإذ تم تصويره على هذا النحو، فإن محتوى الخطاب يتألف من شكله بقدر ما يتألف من المعلومات التى يمكن استخراجها من قراءته » (٣٢) . ويخلص هوايت إلى أن أي خطاب يجب اعتباره « جهازا لإنتاج المعنى أكثر منه وسيلة لنقل المعلومات عن مرجعية طارئة» (٣٣) . وفى اعترافه بأهمية السرد المعرفية لا يشير هوايت إلى أنه من الممكن استعادة الماضى كما كان بالفعل بشكل يختلف كثيرا عن الوضعية . وشكوك التاريخ التفكيكي حول المرجعية والتقديم، فى قراءة المصادر وكتابة التاريخ، والشكوك بشأن استعادة مقاصد الكاتب، والتنظير البنيوي، وأجندة القوة المخفية غالبا - كل هذا لايعنى فقط التساؤل عن مزاعم التيار السائد، ولكنه يشهد أيضا على الحاجة إلى أن تتم معالجة جوانب القصور وإمكانات السرد التاريخى كوسيلة للتفسير بصورة أكثر كمالا .

التـــاريخ ســـردا

لا يعنى تأثير الموقف التفكيكي فقط التساؤل عن التفسير التاريخي باعتباره

طريقا موضوعيا يوصلنا إلى الماضى كما كان بالفعل، ولكنه ينطوى أيضا على استكشاف القوة التفسيرية، أو قوة الحكي، فى السرد . وقد أوضحت هذا إيمى إلياس Amy J. Elias عندما قالت إن التاريخ على مدى السنوات الثلاثين الماضية قد جادل مدافعا عن نفسه، وحاولت التجريبية الجديدة (وهى لاتستخدم هذا المصطلح بالضبط) فى الوقت الراهن أن تزاوج بين فكرتين غير متوافقتين: الحقيقة الإمبريقية، ونظرية اللغة ما بعد البنيوية(٣٤) . وقد تولد عن هذا طبيعة براجماتية غير جوهرية فى التاريخ ربما لم تكن مرضية لجميع الاتجاهات . ولو أن الكتابة التاريخية تحليل لسلاسل التفسير المركبة الموجودة سلفا، حيث لا تضمن المعنى الذى قصده المؤلف ولا تخلق الدالات سوى المزيد من الدالات، فإن مناقشة التاريخ ينبغى أن تبدأ بالفهم اللغوي والقصصي فيه . ويزداد المؤرخون إقداما على التفكير فى بحث الماضى وكيفية التعبير عن البحث والقيام به أيضا . ولسوف يجعلنا التفكير بشأن الشكل نفكر أيضا فى كيفية التعامل مع المحتوى . ترى إلى أي مدى يكون شكل التاريخ المكتوب حاملا للمعنى الذى يحمله محتواه الحقيقي نفسه ؟

لخص دراي W.H.Dray مختلف المواقف التى يمكن اتخاذها بشأن أهمية السرد بالنسبة للتفسير التاريخي على وجه التحديد :

«التاريخ ببساطة سردي، أو أنه سرد فى جوهره، أو أن التاريخ يجب أن يحتوى على بعض العناصر السردية ؛ أو أن شكلا واحدا من التاريخ يحكى ما حدث بأي معيار، وربما يكون المعيار الأهم . وقد قيل أيضا إنه من خلال السرد يحصل المؤرخون على ما هو تاريخي على نحو خاص حول المعرفة التاريخية ؛ أو أن التفسيرات التاريخية تحصل على بنيانها المتميز بسبب وقوعها فى مسار السرديات التاريخية . بل قيل إن السرديات نفسها يمكن أن تكون سردية بشكل خاص ؛ أو أن السرد بحد ذاته شكل من أشكال التفسير إن لم يكن مفسرا لنفسه فى واقع الأمر» (٣٥).

هكذا، يمثل وظيفة السرد معضلة للمؤرخين . إذ إن السرد يزعم أنه يقدم الماضى بتعقيداته وحقائقه، ولكن لأنه يتخذ شكل القصة فيجب أن يكون من خلق خيال المؤرخ . فهل يمكن له، إذن، أن يدعى أنه تمثيل حقيقي لما حدث بالفعل ؟ يشير لويس مينك إلى أن السرد نتاج « بناء خيالي لا يمكن أن يدافع عن زعمه أنه يقدم الحقيقة بأي إجراء

مقبول من الجدل أو التأصيل»(٣٦). ويعني هذا أن المؤرخين يفرضون أنفسهم على الماضى حتما عندما يخترعون السرديات وهم يحاولون تفسير ما كان عليه الماضى حقا، وما الذى يقوله النص فى المصدر حقا، وماذا كانت مقاصد مؤلف النص المصدري «حقا»؟

والسرد، كما نعرف، يمثل شكل التاريخ الذى يتفق عليه معظم المؤرخين . وعلى الرغم من أن عددا من فلاسفة التاريخ جادلوا أن السرد هو السمة الجوهرية المميزة التاريخ، لا يستطيع معظم المؤرخين إدراك مغزاه المنهجي العملي، ولا يزالون يعتبرونه مجرد خاصية أسلوبية طارئة تتسم بها بعضالأبحاث على حين يفتقر إليها البعض الآخر . والسرد مثل معظم الأشياء يعتمد على كيفية تعريفنا له سواء كان تفسيريا أو لا . وقد أنتج الجدل حول كونه شكلا مشروعا للتفسير التاريخي مجموعة من المعادين للسرد، منهم فيلسوف التاريخ موريس ماندلهاوم، وليون جولد شتاين، اللذان يزعمان أنه على الرغم من أن السرد عنصر من عناصر الدراسة التاريخية،فلا يجب وضع كل الكتابات التاريخية فى الشكل السردي، وأن لدراسة التاريخ مزاعم منهجية أخرى أسبق وأهم . وهناك مناصرون للسرد من أمثال الفلاسفة فردريك أولافسون Frederick Olafson، وديفيد كار، ووليم جاللى، وآرثر دانتو، ولوش A.R.Louch الذين يصرون على أن هناك صلة قوية بين الماضى كما كان الناس يعيشونه، والتاريخ كما هو مكتوب (٣٨). ثم هناك صلة قوية بين الذين يناصرون السرد ولكنهم ضد التفكيكية بشكل حاسم مثل هيكستر، ولورنس ستون، اللذين لا يقبلان أن اللغة يجب دائما أن تفشل فى اختبار التواصل . وأخيرا، هناك أولئك الذين لهم دور محدد بصورة فضفاضة مثل هايدن هوايت، ودومينيك لاكابرا، وآنكرسميث، وهانز كيللنر، وديفيد هارلان، الذين يرون السرد على أنه السمة الجوهرية، الذى أسيء فهمه كثيرا، فى التفسير التاريخي – وهو سوء فهم يسمح للتاريخ، بين أشياء أخرى كثيرة، أن يدعى لنفسه شرعية معرفية فائقة من خلال مجازه المفضل عن الموضوعية .

ويشير موريس ماندلهاوم، فى ملاحظة عن علاقة السرد ببعضه بعضًا عمومًا، إلى أن المؤرخين يكتبون و «عيونهم على أشياء أسمى» – مكافأة الحقيقة التاريخية (٣٩) . ولايستطيع فيلسوف التاريخ ليون جولدشتين، شأنه شأن آرثر ماَرويك، أن يفهم

الصخب الدائر حول الشكل السردي للتاريخ الذى يسميه البناء الفوقي للتاريخ. إن عمله الحقيقي هو البحث فى المصادرالموجودة فى الأرشيفات أو البناء التحتي . وبالنسبة لجولد شتين، فإن التاريخ « علم تقني» يستخدم المناهج الخاصة به : « التاريخ طريقة للمعرفة، وليس حالة خطاب » (٤٠) . ويخلص إلى أن « ما نعرفه عن الماضى التاريخي لا نعرفه سوى من خلال تكوينه فى البحث التاريخي » (٤١) . ويواجه التحول التفكيكي هذا الموقف بإعلان أن الماضى يوجد بصفته تاريخا فقط لأن المؤرخ فرض بناء سرديا أو قصصيا على الأدلة .

ولأن النص التاريخي يتكون من السرد الذى يصف حقيقة الماضى وتقييمها، فإن المسألة تدور حول شرح السرد الذى يتخذ شكل القصة . وكما رأينا، فإن النظرية البنيوية الأدبية قد طرحت سؤالا صريحا حول كيفية استخدام المؤرخين للسرد باعتباره طريقة لتثبيت المعرفة التاريخية على أنها طريقة فريدة فى حد ذاتها، ومن ثم فإن السرد يفصل المعرفة التاريخية عن غيرها من أنواع الكتابة(٤٢) . ولكي يساند ليمون موقف أنصار السرد فإنه يجادل أن السرد يحاكى منطق الحياة. وعلى حد قوله، فإن الدرس الذى نخرج به أن «هناك» وسيط من الافتراضية النهائية لحدوث قصص حقيقية يمكن حكايتها بصدق ويجب أن يتسق حكيها مع منطق التفسير السردي(٤٣). ويشترك مع ليمون فى رأيه كل من دومينيك لاكابرا، وهايدن هوايت، وبول ريكور، الذين يصرون على أنه لا يمكن تصنيف التاريخ، بسبب شكله السردي الجوهري، سوى على أنه نوع من الأدب، بيد أن هذا لا يقلل من أهمية قوته التفسيرية . وينتج عن هذا إعادة صياغة سمته ووظيفته . وعلى حد تعبير بول ريكور، يجب أن تكون للتاريخ « سمة سردية لا يمكن التقليل منها» تماما مثل الوجود الإنساني (٤٤) . ووظيفة التاريخ أن يصف الطريقة التى يفسر الناس بها أنفسهم وثقافتهم من خلال إنتاج اللغة . هذا التأكيد على القيمة المعرفية للغة لا يعنى طبعا أنه صار لدينا الآن فجأة وسيلة للوصول إلى الماضى كما كان بالفعل – لدينا فقط صيغة قصصية عنه . يمكن للحكى أن يفسر الماضى، ولكنه لايضمن أن تكون التفسيرات صادقة .

ويتناول المؤرخون التفكيكيون هذه المسألة من خلال التفكير على النحو التالى . لا يمكن أن يتوافق الماضى كما كان بالفعل مع الروايات التاريخية المفردة عنه ونؤلف

حكايته بالضبط. والمشكلة أننا لانستطيع أن نتحقق من الماضى بواسطة الأدلة . ذلك أن الدليل ليس حقيقة ماضية لأن توصلنا إليه لا بد أن يكون عبر الكثير من الوسائط - الغياب، والفجوات، وصمت المصادر، وطبيعة الأرشيفات المراوغة، فضلا عن بنية حجة المؤرخ السردية التى يفرضها بدهاء. وربما يكون من الأفضل أن ننظر إلى السرديات التاريخية على أنها اقتراحات بشأن تقديم الماضى، أي صلات محتملة وليست صلات قائمة . ويصادق هايدن هوايت على رؤية الفيلسوف أرثر دانتو للحقائق التاريخية على أنها ليست فى حقيقتها سوى أحداث موصوفة (٤٥) . ومن ثم، فإن هذه المقترحات السردية، بوصفها أحداثا موصوفة، جاءت نتيجة تفسيرات من مؤرخين أفراد يتنافسون فى سبيل القبول بتلك المصطلحات . ولا ينتج التاريخ من الجدل حول طبيعة الأحداث الماضية ومعانيها المحتملة . وبطبيعة الحال، فإذا ما حقق أي وصف سردي قبولا عاما على أي مستوى (مثل «الحرب الباردة» أو « الثورة الصناعية») يترسخ هذا الوصف المقترح باعتباره حقيقة الماضى. ذلك أنه لم يعد وصفا سرديا مقترحا، ولكنه صار «الماضى» . هذا ما يجعل من المستحيل بالفعل التمييز بين استخدام اللغة وحقيقة الماضى . عند هذه النقطة تحقق الإمبريقية نجاحا آخر .

وما لايمكن إنكاره أن المؤرخين هم الذين يبنون الحكايات التى يتم من خلالها إحراز المعرفة التاريخية ونشرها . فكيف لنا أن نميز بين المقترحات السردية الوصفية من جانب مختلف المؤرخين، وبين تلك المقترحات التى قد تكون صحيحة والمقترحات الخاطئة ؟ وكيف لنا أن نميز التاريخ الجيد من التاريخ الردئ ؟ هذا ليس صعبا على أنصار إعادة بناء الماضى . إذ إنهم يحكمون بناء على مدى افتقار السرد إلى البنية، والوحدة والتماسك فى تطابقه مع مصادره أو صلته بها . وأكثر المؤرخين إقناعا هم الذين يكتبون سرديات تتسم بهذا تماما . وتوجد الوحدة والتماسك فى العلاقة المفهومة والمعقولة بين الروايات الفردية والمصادر التاريخية، ولكن الأهم أن السرد ككل يتسم ببناء معرفي من الجدل - فالمقالة، أو المادة المكتوبة، أو الكتاب، ليست هشة ولا هي تتخبط بلا هدف . وفى التاريخ «الجيد » تنطوى المجادلة السردية التعريفية على رواية واضحة عما كان عليه الماضى بالفعل - تماسك الشكل الذى يتأتى من النظرية الاجتماعية السائدة التى استخدمت، أو من حقيقة أن هذه الكتابات حصلت على القصة أو النظرية مباشرة وفقا للأدلة المتاحة .

فما التاريخ «الجيد» أو التاريخ «الرديء» بالنسبة للمؤرخ التفكيكي ؟ من المأمول في مقالة تفكيكية أن السرد سيكون متماسكا وحساسا ولكنه لن يكون مؤكداً من الناحية المعرفية . يبرز هذا الافتقار إلى اليقين بسبب الشكوك الموجودة بشأن الصلات . كيف يمكننا أن نميز بصورة فعالة بين إمكانية القبول بتأثير الحقيقة وبين الحقيقة ؟ وكيف يتسنى لنا أن نفك الاشتباك بين مجادلات النظرية الاجتماعية والأوصاف التى تنخفض عن مستوى الأحداث ؟ وكيف لنا أن نفك الارتباط بين الثغرات التى سببتها الأيديولوجيا وحالات الصمت أو حلُ عقدة الإشارة المرجعية المنهارة ؟ وبالنسبة لكل تاريخ يهدف إلى الوصول للماضى كما حدث بالفعل، هناك دائما صيغة أخرى قد تكون رواية خيالية أخرى، شأنها شأن الصيغة الأولى . أما ما يشكل التاريخ الجيد، فهو ما يحاسب نفسه بحيث يعترف بجوانب القصور فيه ويدرك على نحو خاص أن كتابة التاريخ مرهونة بالظروف التى تتم فيها، كما أنها تأملية بقدر أكبر كثيرا مما يعترف به الإمبريقيون عادة . ويتقبل التاريخ التفكيكي صراحة الدور المعارض للمؤرخ باعتباره واحدا يجب أن يتحدى المفاهيم الراسخة عن السلطة داخل المجتمع المعاصرعن طريق رفض «ترتيب» الماضى بأن ينسب أصولا وأسبابًا تعزز الزعم بوجود حقيقة تشهد عليها الأدلة. فما الذى يعنيه هذا بمصطلحات أكثر عملية، وما دلالاته بالنسبة للتاريخ باعتباره سردا؟

لقد توصلنا الآن إلى استنتاجين عن التاريخ : أولهما، أن كل ما تم تأليفه وكتابته من السرديات المدعومة بالفلسفة أو الإيديولوجيا غالبا ما يكون مدفونا فى العمق بحيث لايمكن لأي قدر من الإدراك التاريخي الواعي أن يقضى عليه ؛ وثانيهما، أن التاريخ التفكيكي ليس سردا خياليا لأنه يحكى قصصا عن أحداث ماضية حقيقية موجودة فى الأدلة. ولكن بوصف السرد التاريخي شكلا من أشكال التقديم، تشكلت إشاراته كلها من خلال الأعراف البلاغية، واستخدامات اللغة، والجدل، وقيود ثقافية أخرى، مادية وأيديولوجية على السواء . هذه العلاقة بين الشكل السردي والمحتوى التاريخي استكشفها هايدن هوايت فى دراسته للتفسير التاريخي، الذى يدين بالكثير لتحقيقات اللغة والتقديم التى قام بها رولاند بارثيس، وبول ريكور، وميشيل فوكو[٤٦]. أما بالنسبة لهوايت المعادى للسرد، فإن جوهر التاريخ عنده أنه نظام أدبي، ونحن «نعرف

الماضى» من خلال شكل السرد الذى نفرضه عليه، والذى « يمتلك جوهره الخاص»، وهو ما يوافق عليه آنكر سميث (٤٧) . وفى رأي كل من هوايت وآنكرسميث أنه قبل أن يتمكن المؤرخون من الإمساك بالسمة الحقيقية للتفسير التاريخي من خلال السرد التصويري، يجب عليهم التحول نحو فهم أكثر ثراء يمكن تحقيقه من خلال تقييم كتابة التاريخ على أنها نوع من الأدب . وقد جادل هوايت فى كتاب Metahistory الصدر سنة ١٩٧٣ م أن كل كتابة التاريخ فى جوهرها فعل شعري ولغوي . ذلك أن الحقائق ليست مكتشفة، وإنما هى بالفعل مصادر تم تفسيرها وفقا لمعايير أدبية ومعايير أخرى. وبالتالى، فإننا إذا تناولنا التاريخ على أنه أدب، أمكننا أن نكتب تاريخا أفضل، على حين نستخدم مجالا إضافيا من الوسائل لنقد الأدلة الواردة فى السياق . وإذا ما اعترفنا بالشكل الأدبي للكتابة التاريخية، فلسنا مجبرين على تقديمه مثلما كان التيار السائد سيقدمه.

بينما يواصل الإمبريقيون الجدد الجدل بشأن كيفية التوفيق بين « ما حدث » والتاريخ بوصفه تقديما لشيء لم يعد موجودا، فإن هناك «مؤرخين إمبريقيين» يرحبون باستكشاف نوع مختلف من التاريخ – « تاريخ غير تقليدي » (٤٨) . ومنذ ظهور «الاتجاه الجمالى»، من منتصف تسعينيات القرن العشرين وحتى نهايتها، قام أمثال هؤلاء المؤرخين بالخروج على المنهج التحليلي الإمبريقي الكلاسيكي فى « حكاية التاريخ كما كان فى الواقع »، وانحازوا إلى مقاربة مختلفة للتاريخ . والمسألة كلها بالنسبة للتاريخ غير الإمبريقي أو « التاريخ الصحيح » تتمثل فى عدم طرح أي شكوك معرفية حول حقيقة الماضى كما يتم تقديمه فى النص التاريخي . بيد أن بريان فاي Brian Fay فى تقديمه لموضوع كتاب Unconventional History فى الإصدار الأول لحولية History and Theory سنة ٢٠٠٢ مقال إن السبب الجيد لفحص التاريخ التقليدي هو أن يصير أكثر وضوحا مما يبدو عليه . وبدلا من ذلك، فربما يفتح عمل التاريخ غير التقليدي الطريق أمام وسائل جديدة يمكننا أن نفهم الماضى بها على أنه عملية صنع التاريخ . ومن الطبيعي أن يتطلب القيام بذلك القيام بخطوة شجاعة تتجاوز ما هو تقليدي .

ويعنى هذا إعادة التفكير فى طبيعة تقديم التاريخ وأشكاله . والواقع أن مجلة Re-thinking History : The Journal of Theory and Practice التى بدأت النشر فى

منتصف تسعينيات القرن العشرين كانت قد أنشئت لمواجهة المقاربة المعرفية للتاريخ والممارسات التاريخية التقليدية. وتبقى هذه المجلة فريدة فى هذا الخصوص . وقد قوبلت هذه المجلة ومفهوم التاريخ التجريبي بصفة خاصة بردود متنوعة مختلفة، كانت كل منها تختلف عن غيرها وفقا للتفضيلات المعرفية والتأثير العاطفي على المؤرخين فرادى . ومن المفهوم أنه إذا كنا لا نستطيع استعادة قصة الماضى، ومن ثم غير قادرين على « التجريب» مع قصص مختلفة، فإن هذا ما يزعج كل المؤرخين الساعين إلى إعادة بناء الماضى، كما يثير فزع الغالبية الساحقة من المؤرخين البنيويين، ولكنه محل ترحيب المؤرخين التفكيكيين . ويبدو رد الفعل إزاء التاريخ التجريبي فى تناسب عكسي مع التبجيل الذى يبديه المؤرخ الفرد للإمبريقية . وربما فى مقدار تقييمهم لمكانهم فى التراتبية الأكاديمية ولا سيما فى بريطانيا . ويواجه مفهوم التاريخ التجريبي سوء التفسير من التاريخ ما بعد الحداثي وما بعد البنيوى الذى يرى أنه لا يمكن كتابة شيء ذى قيمة عن الماضى (٤٩) . والواقع أن المنطق هو العكس تماما . وربما تكون الأشياء الأكثر قيمة التى يمكن أن نكتبها عن الماضى هى تلك التى تبرر من الاعتراف بجوانب ضعفه فى التقديم وفى الشكوك المعرفية (٥٠) .

إذا قبلنا أن السمة المميزة فى ما بعد الحداثة هو الشك المعرفي، فمن نافلة القول حقا إن التاريخ «موضوع»، وإنه لايمكن أن يعكس صورة الماضى « كما كان بالفعل» . ومعرفة «ما حدث» يربط آليا بين «الماضى» و«التاريخ»، عن طريق آلية ثالثة . وبالنسبة للتاريخ، تنزل مسألة حقيقة معنى الماضى إلى كيف «نقدم» محتوى الماضى – وكيف يفرض علينا شكل هذا التقديم ما نشعر أنه يبرر تصديق ما يعنيه الدليل . هذا الموقف يجعل فكرة الحقيقة أشد تعقيداً . وهكذا، فإن فكرة أن الماضى لايزال موجودا فى المصادر حقا ويتم إعادة تفسيره فقط من خلالهاعلى أنها مصدر جديدة «تم اكتشافها» فحسب، ولكن مثل هذا الاعتقاد لا يوصد تفكيرنا حول أفعالنا الأنطولوجية فى التفكير / وإعادة التفكير والكتابة / وإعادة الكتابة .

ويمكن رؤية هذا بشكل حيوي فى أشكال التاريخ الجديدة المتاحة اليوم . وتميل التجارب مع التاريخ إلى التركيز على أشكال التعبير التى يوضع فيها . وعادة ما تختلف هذه الأشكال بقوة عن نماذج التعبير العادية التى تحظى بالموافقة والمصادقة

المهنية. هـذه الأشكال تدفعهـا معــرفة واقعيــة فيهـا يعرف «الماضى» نفسه على أنه «التـاريخ» . ومـعنـى هذه العـلاقـة بين الدال والمدلول هـى المادة التى نقـدمـها على أنهـا محاضـرة فى التاريخ، أو كتاب تاريخ، أو مقالة تاريخية، بعد اجتياز أحد طقوس المرور عند أهل المهنة، أي الدكـتـوراه فـى التـاريـخ . ومن ثم، تـعكس هذه الأشكال المقـبـولة الافتراض المعرفي-بأن المؤرخ يحصل على الحقائق مـباشرة عند أحد المسـتويات ثم يكتـشف التـاريخ عند مـستوى آخـر . ونتـيجـة لهـذا فـإن أشكال التـعبـيـر التى تتيح الانحراف الإمبريقي والتحليلي ينظر إليها على أنها أقل قدرا وغير مهنية . وتتضـمن الأمثلة الدالة على هذا: النص، والنص المفرط، والتاريخ التليفزيوني، والرواية المصورة، وقصص شرائط مسلسلات المجلات . أمـا الأشكال التى تبدو نماذج غريبة تشذ عن التعبير، مثل الرقص، وإعادة تمثيل التاريخ، فإنها لا تكفى من الناحية المعرفية وتتجاوز نطـاق التـاريـخ . وثمــة إشــارة إلى أن مــثل هـذه الأشكال لا يمكن أن تكون تاريخـا «مناسبا » لأنها استـعراضـية وغير مقبولة من الناحيـة الإمبريقية والتحليلية . ونحن مواجهون الآن بمسـألة جديدة تمامـا . وهـي مسـألة كيف يربط المؤرخ بوصـفه مؤلفا بين محتوى ما حدث فى الماضى والشكل الذى يعطيه لهذا الذى حدث بوصفه تاريخـا . هذه هـى المسألة المركزية فى العمل التاريخي اليوم . وهكذا، يكون التاريخ التجريبي تاريخا يدرك ذاته ويعى منطقه السردي حسبـمـا جـادل هايدن هوايت طويـلا . وهـو لا يعـتـرف بنفسـه فقط باعتباره موضـعا تحت البناء، وإنما يفـحص بناءه على أنه السمـة الجوهرية للمعنى الذى يحمله .

ولأن التاريخ المكتوب صنعة أدبية، يزعم هـوايت أن المؤرخين يشـتـركـون فـى البنى السردية نفسـها التى يسـتـخدمـها كتاب أدب القصـة الواقعية التى تقوم على أسـاس الفـئـات الرئيسـيـة للغـة التـصـويرية – المجـاز – الذى يسمـيه هـوايت التـصـوير المجازي المسبق . ويسـتـخـدم هوايت نفسـهشيـئـا مـثل مـجاز البنـاء الفوقي الأسـاسـي لكي يشـرح كيـف يـعمل هـذا . ويبنى المؤرخـون السرديات (القصص) لإنتاج التفسيرات مستـخدمين فى هذا ثلاث استراتيجيات للبناء الفوقي للتفسير: التفسير بالصـور المجازية، والتفسير بالجدل الشكلي، والتفسير بالاستقراء الإيديولوجي . واستراتيجيات التفسير هذه تمثل البناء الفوقي للوعي (وتعمل عند مـستوى المجاز) الذى يحسم فى النهـاية كيف يخـتـار

المؤرخون شرح الحقائق التى اكتشفوها فى سردياتهم . وإذ يمد هوايت مجاز البناء الفوقي الأساسي، يجادل بأن اللغة يجب ألا توضع فى الأساس الاقتصادي للمجتمع، ولا فى البناء الفوقي الاجتماعي، ولكنها تسبق الاثنين .

ويتبع ذلك أن يستمر هوايت لينقل التحليل من مستوى البلاغي إلى مستوى التاريخي باستعارة مفهوم ميشيل فوكو عن المعرفة – طريقة لوصف كيف تحوز ثقافة ما معرفتها فى كل عصر وتستخدمها كما وضعت فى لغة تصويرية مجازية . ويشير هوايت إلى أنه يمكن للمؤرخين أن يفسروا الثقافة فى أي فترة تاريخية بالإشارة إلى تصويرها المجازي المسبق (٥١) . كما يشير هوايت إلى أن المجاز ينظم البنى العميقة للفكر الإنساني بالمعنى الذى يقصده دى سوسر من خلال معارضة مزدوجة – فكرة المغايرة، أو الاختلاف فى أي فترة تاريخية – فالمجاز يكمن فى قلب الخيال التاريخي لكل مجتمع وكل مؤرخ (٥٢) . وبينما يستكشف النظرية الأدبية فى المجاز باعتبارها طريقة للتمييز بين نماذج الخيال التاريخي التى كانت سائدة فى أوروبا القرن التاسع عشر، فإن نموذجه إذا امتد إلى المستوى الثقافي يتيح تعريف البنى العميقة والسطحية فى الخيال التاريخي .

وسوف استكشف أهمية هذه النظرة بمزيد من التفصيل فى الفصلين السابع والثامن، ولكن من المهم فى اللحظة الراهنة أن نلاحظ أن مفتاح هذا النموذج السردي من التغير الثقافي يكمن فى حدس هوايت أن الأيديولوجية وممارسة السلطة تستقر فى النهاية بواسطة النص الجوهري، بيد أنه يعمل فى عالم العلاقات الاجتماعية الواقعي(٥٣) . وفى التحرك من المستوى البلاغي إلى مستوى السياق المادي، يصف هوايت كتابة التاريخ بأنها تفاعل مع النص وفعل مادي، مع التاريخ سواء باعتباره صوتا موافقا أو صوتا معارضا . وهذا ما يحاول أن يوضحه فى تحليله لكتاب ثومبسون الذى يحمل عنوان Making of the English Working Class زاعما أنه مصطنع بالضرورة مثل كل التاريخ بسبب اعتماده الحتمي على النموذج المجازي للتفسير التاريخي .و تومبسون مشغول بـ «اصطناع» الطبقة العاملة الإنجليزية لأسباب أيديولوجية واضحة حسبما يرى هوايت لأن « النموذج الذى ميزه تومبسون فى تاريخ الطبقة العاملة الإنجليزية ووعيها ربما كان مفروضا على معلوماته بقدر ما كان موجودا

بها» ولكن هوايت يستمر فى موقفه ليوضح ما يقصده أكثر : « الموضوع هنا بالتأكيد لا يتعلق بما إذا كان هناك نموذج ما قد تم فرضه، وإنما بالكياسة التى أبداها تومبسون فى اختيار النموذج المستخدم لكي ينظم العملية التى يقدمها»و على حد قول هوايت، فإن النموذج البلاغى «المخطط أو الحدسي » الذى اختاره تومبسون للطبقة العاملة الإنجليزية يمثل الانتقال من « فهم ساذج (مجازي) إلى نقد ذاتي (ساخر) للذات» (٥٤). وما يحمل الدلالة والمغزى فى رأي المؤرخين حول تحليل هوايت للتاريخ هو السؤال الذى يطرحه عن العلاقة بين المجاز والممارسة الاجتماعية والثقافية . كما أن رولاند بارثيس، فى كتابه Mythologies يرى أن اللغة جمعتها مجموعة اجتماعية لكي تستهلكها مجموعة اجتماعية أخرى باعتبارها أيديولوجية (٥٥). لقد كان هوايت، وآخرون مثل عالم الأنثروبولوجيا كليفورد جيرتز، والناقد الثقافي ميشيل فوكو، يراجع باستمرار الوضع النقدي والأيديولوجي للمجاز فى تشكيل المؤسسات الاجتماعية للقوة والوعي (٥٦) .

ويدرك هوايت تماما أن هناك مشكلة مركزية أخرى ظهرت بسبب المقاربة البلاغية فى دراسة التاريخ، وهي مشكلة الخوف من النسبية التفسيرية المتطرفة. إذيمكن لهذه المشكلة أن تهدد «حرية الحركة» فى الفنتازيا التفسيرية التى قد تأخذنا مسافة أبعد، بدلا من أن تقربنا من أصل الدليل وموضوعه . ويتقبل هوايت فكرة وجود قسم من المؤرخين الذين يريدون « إعادة بناء » الماضى أو « تفسيره »، وقسم يرغب فى تفسيره على أنه « الفرصة المواتية لتأملاته الخاصة فى الحاضر والمستقبل»(٥٧) . واتباعا لمنطق فوكو عن العلاقة بين النص والسياق يرسم هوايت بالفعل خطا عند مجادلة جاك دريدا القائلة «إن هناك تصويرا مجازيا واحدا للغة ومن ثم لايوجد معنى فى اللغة ومن خلالها » (٥٨). والمؤرخ التفكيكى ليس بحاجة إلى الانزلاق فى فخ التعقيد البائس أو النسبية البلاغية. ويتفق هوايت مع فوكو فى الاعتقاد أننا يمكن بالفعل أن نعرف الكثير من الأمور عن العالم الحقيقي على الرغم من جوانب القصور فى اللغة . ولكنه يحذر أيضا من قوة اللغة :

«إن استخدام اللغة الفنية أو منهج محدد فى التحليل، مثل المعايير الاقتصادية أو التحليل النفسي، لا يحرر المؤرخ من الحتمية اللغوية التى يظل المؤرخ السردي عبدا لها .

بل العكس، فإن الالتزام بمنهج معين ... سوف يغلق المجال أمام منظورات كثيرة في أي مجال تاريخي محدد»(٥٩).

إن تهمة النسبية البلاغية، بانزلاقها في مهاوى التدهور الخلقي، وغرقها في الأيديولوجيا، تقابلها مزاعم هوايت بأن اللغات جميعا- سواء لغة التاريخ الموضوعي المفترض، أو لغة الشاعر- نسبية بقدر متساو، كما أنها محدودة بقدر متساو بحدود اللغة المختارة « التى يخطط فيها الكاتب ما يمكن أن يقوله عن الموضوع الذى يدرسه»(٦٠) . وعندما يفسر المؤرخ الماضى فإنه لا يخترعه، أو ينتج نسخة خيالية تتلاعب بالأحداث والحياة الحقيقية في الماضى. وإنما يفرض المؤرخ بناء سرديا يتسم بالتماسك والوحدة، ويسبغ على الماضى «تجربة الزمن مع المعنى»(٦١) . والاعتراف بأن الماضى تم التدخل فيه عندما صوره المؤرخ، أو على حد تعبير ريكور « فن السرد الذى يربط بشكل مميز بين قصة ما وواحد من الرواة » (٦٢)، أمر بعيد تماما عن الانزلاق فى مهاوى النسبية البلاغية. وما يقوله هوايت إن وظيفة المؤرخ أن يستكشف الصور المجازية التى ربما وجدت فى الماضى بالفعل :

« إن معنى الحياة البشرية الحقيقية ... هو معنى الحبكات القصصية ... التى يسبغ بها على الأحداث التى تضمنتها تلك الحياة جانبا من القصص التى لها بداية ووسط ونهاية يمكن التمييز بينها . والحياة ذات المعنى هي الحياة التى ترنو إلى تماسك قصة لها حبكة . ويتصور الفاعلون التاريخيون حياتهم سلفا على أنها قصص ذات حبكة» (٦٣) .

هذه الرؤية الجسورة للمشروع التاريخي تتطلب، أكثر مما تنكر، نوع الانتباه إلى الدليل الذى لابد أن يقبله الإمبريقيون وأنصار السياق جميعا . ومنطق هذه المجادلة أننا نحن المؤرخين، مع أننا نحكى قصصا، ليس لنا سوى القليل من حرية التخيلالتى يتمتع بها كتاب الروايات الخيالية لأننا مشغولون بالتصوير الاستردادي للأحداث والسرديات التاريخية . ومع أن الرواية التاريخية ممارسة تصويرية بمعنى أنها نتاج للخيال الأدبي فإن النسبية فيها محدودة فى حدود الأدلة .

خاتمة

يثير الموقف التفكيكي عدة أسئلة أساسية بشأن سمة التاريخ الذى يعرَف بأنه إعادة بناء الماضى وفقا للمصادر المتاحة، ويفرض بناء الماضى أطرا تفسيرية. والمجادلة الإمبريقية أن معرفتنا عن الماضى مأخوذة من خلال الدراسة الشاقة وتفسير الأدلة الجزئية الموجودة على شكل شذرات، وأن الحرفية الواضحة للمؤرخ سوف تتغلب على مشكلة الانحياز، والأيديولوجيا، والعقبات الكثيرة الأخرى التى تحول دون الفهم التاريخي، هذه المجادلة يقابلها اقتراح بأن التاريخ اعتراف بالعلاقة الحميمة بين المحتوى والشكل . وبعبارة أخرى، نذكِر أنفسنا أن التاريخ لايتعلق بغربلة الأدلة وبناء الحقائق فحسب، وأن التفسير نفسه فعل من الإبدا ع اللغوي والأدبي .

تشى مقاربة التحليل التاريخي بأن ما نسميه « التاريخي» لا يمكن فهمه تماما بواسطة منطق «مسبق»، أو الوضعية أو بواسطة التحليل الذى يسعى لإعادة بناء الحقائق وتأسيسها فقط. وبدلا من ذلك، فإننا قد نحصل على المزيد من ثراء التحليل التاريخي بأن ندخل الطبيعة الداخلية لنص الخطاب التاريخي فى دراسة الماضى . والحقيقة الموجودة فى التواريخ، كما يشير هوايت، «لا تكمن فى إخلاصها للحقائق الموجودة فى الحياة الفردية أو الاجتماعية فحسب ... ولكن الأهم أنها تكمن فى إيمانه بتلك الرؤية للحياة البشرية التى هي مصدر معرفة المشاعر»(٦٤). إنه بالاعتراف بالمضمون التصويري والتعبيري للسرد التاريخي «المحتوى الذى يضمه الشكل» يسم المؤرخ فى فهمنا للماضى(٦٥) . ولا يعنى هذا أننا نحن المؤرخين نفحص فقط المستوى البلاغي والمجازي الخالص من خطاب التاريخ، ولكننا نتدخل فى الماضى بأن ننتقل بصورة نشيطة من المستوى الأدبي إلى المستوى الرمزي فى الفهم، أي من الماضى إلى الحاضر .

وربما تتمثل النقطة المركزية بشأن الاتجاه التفكيكي فى الاعتراف بأن السرد يخل بالتوازن المفترض بين اللغة والحقيقة . فاللغة التاريخية (اقتراح آنكر سميث السردي) تصبح الوسيلة الأولى للفهم . ويجب أن نتخلى عن المعرفة الإمبريقية التقليدية لصالح مقاربة معرفية جذرية جديدة أو مقاربة تفسيرية لتوليد معرفة الماضى . وسوف

استرسل فى هذا الاقتراح المهم فيما بعد فى دراستى الأكثر تفصيلا عن فوكو، وهوايت. أما الآن فإنى سأكرر أننا يجب أن نفحص الاستخدام التصويري الذى يضع فيه المؤرخ المعنى الأدبي الذى يفترض أنه اكتشفه فى بحثه. ولا ينطبق هذا فقط على تفسريات المؤرخين وإنما ينطبق أيضا على مصادرنا . وبالتالى يكون كل تاريخ دائما شيئا أكثر من مجرد الحوادث التى يصفها . فالمؤرخ يقدم الماضى بدلا من أن يعيد تقديمه كما كان فى الواقع . إنه الشك العميق الذى تولد عن هذا التأكيد على السرد والتقديم، الذى يحرك النقد الإمبريقي للموقف التفكيكي . وهناك زعم بأن التفكيكيين ينسون المصادر، ومشكلات البحث، ويفترضون أن الأيديولوجيا تلون أوصافنا التاريخية حتما . وسوف أتحول الآن إلى هذا النقد الموجه إلى التاريخ التفكيكي.

(٥)
ما وجه الخطأ فى التاريخ التفكيكى؟

تقــديم

إن فكرة أن المعنى موضوع فى نموذج سردي أو تقديم للتفسير التاريخي، من وجهة نظر المؤرخين التقليديين أنصار إعادة بناء الماضى، فرض من النمط البنيوي بقدر ما هي تفسير من خلال النظرية الاجتماعية . بيد أن من يرفض ما يسمى تاريخ ما بعد الحداثة ليس مجرد مؤرخ واحد صعب المراس من أنصار إعادة بناء الماضى : ذلك أن هناك مجموعة كبيرة من الواقعيين العمليين المحبذين للسرد من أمثال فرديريك أو لافسون، وجيمس كلوينبرج، وجيمس وين، وجيمس ماكميلان، وجويس آبلبى، ولين هنت، ومارجريت جاكوب «يشكون أيضا بجدية فى نوع التاريخ الذي طوره الموقف التفكيكي . وفى تلخيص لموقفهم يصرُ أولافسون على أنه «ليس من الممكن التخلى عن كافة مزاعم الحقيقة ... من أجل التفسيرات التاريخية» (١) . وكما حاولت أن أبين، فإن التاريخ التفكيكي يواجه المبادئ الستة للمعارف الإمبريقية تحت كل من العناوين الأربعة للمعرفة والدليل، والنظرية الاجتماعية، والشكل السردي على السواء . ورسالة الموقف التفكيكي - أن التيار السائد لايزال يسعى وراء حقيقة الماضى من خلال افتراض وجود دراسة موضوعية للمصادر - مرفوضة من جانب أولئك الذين يجادلون بأن هذه الصورة لما يفعله المؤرخون اليوم إنما هي تبسيط مخل كثيراً لطبيعة التاريخ التقليدي . وهكذا، يأتى السؤال من المنظور الراسخ، ماوجه الخطأ فى التاريخ التفكيكي ؟

فى نظر المؤرخ البـــريطاني جـــون توش أن هناك فى طرف من أطراف المهنة التاريخية أولئك الذين مثل إلتون « يتمسكون بأن التواضع فى مواجهة الأدلة والتدريب على أساليب البحث قد زاد بشكل ثابت من مخزون معرفة تاريخية من نوع ما»(٢) . ولكن أن تكون مؤرخا من الناحية المنهجية يعنى فى نهاية الأمر أن معظم هؤلاء المؤرخينيميلون إلى موقف إلتون . أما أولئك الذين لا يميلون إلى ذلك الاتجاه مثل ثيودور زيلدين Theodore Zeldin الذى يصر على أنه لايوجد مؤرخ يمكنه أن يقدم ما هو أكثر من نظرة شخصية على الماضى، فمن المؤكد أنهم ليسوا داخلين فى الاتجاهين الرئيسيين للممارسة المقبولة .

وبوصفهن من المعتدلين ترى كل من آبلبى، وهنت، وجاكوب أن نزول الحقيقة المستقلة عن عرشها المفهوم على أنه حقيقة تاريخية موضوعية كان بمثابة عملية صعبة لاكتشاف أن « قدمي العلم من الصلصال» (٣) . وبوصفهن مؤرخات نوات مقاصد طيبة تصفن أنفسهن بالواقعية العملية تشرن إلى أن الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة التى أعقبتها قد أنتجتا سويا شكا قويا بشأن تأكيدات العلم وما يشكل الحقيقة كما أن عصرنا الحالي الذي يتسم بالشك كان أيضا مثيرًا للجدل الذي دار بين كوهين وبوبر فى منتصف القرن العشرين حول كيفية وصول العلم إلى الحقيقة. وقد بدا توماس كوهين وهو يجادل مدافعا عما يسمى تحولات النموذج حيث يواجه العلم فجأة التحدى ويحول بناء النظرية السائدة، بدا وكأنه يبيح البرهنة العلمية لتأثير القوى الاجتماعية(٤). هذه النهاية الواضحة للعلم الموضوعي أنكرها كارل بوبر Karl Popper الذى جادل أنه لم يكن وضعيا لأن الحقيقة فى العلم لايمكن إدراكها سوى من خلال عمليات منطقيةلا يمكن تزييفها ويمكن أن تنتج قوانين التغطية فى البنيوية التاريخية بدلا من فوضى الإمبريقية . وهى لا تعنى بالنسبة لبوبر فجاجة نظرية الصلة . ولا يعنى القبول المتزايد من جانب آبلبى، وهنت، وجاكوب لأن المعرفة التاريخية قد تكون مبنية اجتماعيا، بطبيعة الحال، قبول أن كل الحقيقة نسبية أو أنها محملة بأحكام القيمة، ولا أن الكتابة عن الماضى فى الحاضر (النزعة التاريخية) تجعل النسبية أمرا محتوما . والحقيقة فى نظر آبلبى، وهنت، وجاكوب، وكذلك القراءة الاجتماعية للمعرفة، لها قيمة

معرفية مميزة فى البحث عن الحقيقة التاريخية . ويعلنون فى حذر أن الموضوعية التاريخية يمكن أن تظهر بالفعل من «صدام المصالح الاجتماعية والأيديولوجيات والأعراف الاجتماعية داخل إطار البحث المنظم والموجه». أما بالنسبة لهم، فإن الحقيقة التى تم اكتسابها بمشقة واللغة « مهما عفا عليها الزمن لا تزال حقيقة فى المجتمع الديموقراطي» (٥) . وعادة ما يكون هناك زعم أن موضوع الحقيقة كامن فى قلب طبيعة التاريخ . ويدون فهم التاريخ على أنه أداة معرفية إمبريقية، فإنه يمكن أن يكون كتابة خيالية . وعلى أي حال، فالإمبريقية هى الشيئ الوحيد الذي يمكن أن تميز التاريخ عن التأليف الخيالي . وينبغى على المؤرخين أن يعتمدوا على معرفة ما حدث بأكبر قدر ممكن من الدقة. هذه مرساتهم المعرفية . ومن سوء الحظ أن الموضوع ليس مباشرا إلى هذا الحد. وتتمثل أوضح معاني المجادلة التفكيكية فى فكرة مؤداها أن معرفة ما حدث لا تدلك على معناه . ذلك أن شرط معرفة معنى الماضى يتطلب آلية أكثر تعقيدا بكثير من «عرض القصة مباشرة» ببساطة . وعلى سبيل البداية، هل توجد «القصة» التى نحصل عليها مباشرة ؟ إن مفهوم أن «القصة موجودة هناك تنتظر أن يكتشفها أحد» يستدعى عددا هائلا من الافتراضات، كثير منها مريب للغاية . ومن الطبيعي أنه يجب أن نذكر أنه ليست هناك مجادلة تفكيكية يمكن أن تزعم (مثل أي مجادلة أخرى) أنها موضع ثقة . وبعبارة أخرى، فإن تحليل الحقيقة فى التاريخ من منظور تفكيكي لا يدعى أنه «الحقيقة» حول الحقيقة أكثر من أي تحليل آخر .

لقد صدر التذكير الضروري، الافتراض الأولي الذي وضعه الإمبريقيون مؤداه أن الدليل قادر بطبيعته على أن يكون معروفا بسبب «ما يعنيه حقا» وثمة مبدأ مركزي فى هذا الاعتقاد {بأنه يمكن معرفته بسبب ما يعنيه }يعتمد على افتراض أن المؤرخ يمكن أن يعرف مقاصد الناس فى الماضى . وقد كان هناك جدل شديد حول هذا على مر السنين . وفى زمن أحدث أفصح النزا ع – بين طرفي الموضوعية والنسبية فى الواقع – عن نفسه فى نوع من التراشق بين مارك بيفير Mark Bevir وفرانك آنكرسميث (٦) . ويبدو معقولا أن نعمل من مبدأ أننا يمكن أن نعرف ما يعنيه أحد النصوص إذا افترضنا أن النص يعنى ما قصد المؤلف أن يعنيه . ومن سوء الحظ، كما أشار آنكرسميث وآخرون، أن السياق وأعراف اللغة المستخدمة فى النص، بدلا من قصد

المؤلف البسيط، تحكم النص عادة . ويشير هذا إلى أن المعنى لا يتوافق دائما مع القصد. إذ يمكن للمؤلفين أن يقولوا شيئا ويعنون شيئا آخر . فهل المقاصد تسبب المعانى ؟ حقا، أين نضع مقاصد الكاتب ؟ إننا لا نستطيع . السبب أن هناك عددا قليلا من الكتاب، لو كان هناك أحد على الإطلاق فى الماضى (أو فى الحاضر ؟) يقدمون تعليقات تشرح ما كانوا يريدون قوله . ولكن حتى لو فعلوا هذا، فمن الواضح أن هذا لايحل المشكلة الأساسية . إذ إن شروح عبارات المؤلف لا تتركنا فى وضع أفضل . ولن تتبخر قط مشكلة إمكانية قصد المؤلف .

والافتراض الثانى حول الحقيقة مؤداه أن الحقيقة فى التاريخ هى مسألة التوفيق بين « حقيقة الماضى» و «التاريخ» وهذا، حسبما أشرت، اعتقاد مريب للغاية . وبدلا من ذلك علينا أن نقارن، كما يشير أنكرسميث وبيتر، بين الطروح التاريخية المختلفة . وبما أنه لا يمكننا «أن نرجع» إلى الماضى لكي نحكم عليه فى مقابل التاريخ الذى لدينا، فإن ما يمكننا فعله فقط أن نقيس التاريخ فى مواجهة التاريخ . وكوننا نملك مرجعا فى التاريخ أمر لاعلاقة له بالموضوع البتة. هناك هوامش كثيرة (على الرغم من أنها مرغوبة دائما لأسباب أخرى غير ضمان المعنى) غير مادية بالمرة إلى جانب موضوع عدم القدرة على مقارنة التاريخ بالماضى . ونحن مثل المحامين فى هذا الصدد، لا يمكن لنا إلا أن نقارن بين الروايات عما حدث فى سبيل الوصول إلى اتفاق أساسي على أن أحدا لا يخترع ما حدث . بيد أنه ما إن يتم تحقيق هذا المطلب المهم، وإن كان معتادا، فإننا نبقى فى الوضع غير الأفضل بسبب ما يعنيه هذا كله . وربما كان الأمر مختلفا، إذا كنا نستطيع بالفعل أن نعيد تجربة الحياة فى الماضى . ولكن حتى فى ذلك الحين، فإننا لابد أن نواجه مشكلات أخرى، مثل الذاكرة المخفقة أو غير المؤكدة . وسوف يكون علينا طبعا أن نواجه بداية المشكلة بشكل مباشر مرة أخرى . وقد يواجه الإمبريقيون سوء الحظ إذا رغبوا فى قدر أكبر من اليقين عن الماضى، بيد أن ذلك ليس الموقف السعيد الذي يعيش المؤرخون فيه .

هكذا تكون فترة ما بعد الحداثة، الذى تعتبر التفكيكية من خصائصها، محور الحديث بسبب السخرية من عدم وجود يقين المعرفة الموضوعية التى ترى فى العلوم ممارسات ثقافية تاريخية (ما وراء السرديات)، أو قوانين لم يقصد بها أن تولد

الحقيقة والمعرفة غير المنحازة . ومن منظور ما بعد الحداثة أو المنظور التفكيكي لا يكون العلم الموضوعي موضوعيا، ولا هو غير طائفي، أو عالمي، أو متسام، ولكنه يضفى الشرعية على الأشكال السائدة حاليا من الحضارة الغربية . وقد جادل كل من ليونارد، وفوكو، وبارثيس، ودريدا أننا عاجزون عن تقديم الحقيقة بصورة دقيقة فى اللغة، كما أننا لا نستطيع بالتالى تحقيق الموضوعية، ويجب علينا ألا نقبل نظرية التواصل فى المعرفة أو وضعية بوبر المنطقية . ويتبع ذلك أن مفهوم الفرد باعتباره مستقلا وكائنا غير أيديولوجي، مفهوم معيب أيضا، والمعرفة التى ينتجها مثل هذا المخلوق تكون اصطناعا بالضرورة، أو اختراعا تم تجميعه ليخفى إرادة القوة، ومن ثم يصل إسفين النسبية والشك إلى مداه فيما بعد الحداثة .

مثل هذا الكون المستوحى من نيتشه والذى لا حقيقة فيه، والذى يقبل إخفاق التقديم السردي، ويقبل بالتالى النسبية بعايير خلقية، يرفضه التاريخ التقليدي . كما أن موقف فوكو مرفوض بالمثل لأنه يعنى القبول بمذهب ضد المذهب الإنساني يرفض بدوره فعالية الإنسان(7). وبالمعيار نفسه، يرى المثال التقليدي أن التاريخ قادر تماما على الاعتراف «بالآخر»، الهامشي، والمقهور، وسيطرة الأيديولوجية البورجوازية التى تصادق وتوافق على الاستعمار واستغلال العالم الثالث . ومن ثم، كيف يكون ممكنا أن نضع المنهج التاريخي على أساس الاعتقاد بأنه ليست هناك إمكانية وصول مباشر للمعرفة المستقلة، لأنه ليس هناك فصل واضح بين الموضوعية والذاتية، الحقيقة والقيمة، التاريخ، والخيال، ولا يمكن أبدا أن تكون الحقيقة أكثر من منظور؟ تلخص أبلبى، وهنت، وجاكوب النظرة التفكيكية على افتراض أن :

«لا ينفصل البشر عن الموضوعات التى يدرسونها : إنهم ببساطة يسبغون عليها قيمهم الخاصة . وهكذا على امتداد التاريخ الحديث، كانت فكرة أن الكائن البشري مستعد دائما بشكل ذاتي مستقل، وفاعل عقلاني، مسألة محل التساؤل» (8) .

ومايتم التساؤل بشأنه من جانب أبلبى وهنت وجاكوب فى تفسيراتهن التقليدية هو النتيجة الحتمية لموقف سوسر القائل إن اللغة مبنية على العلاقة الاعتباطية بين الدال والمدلول، وينبغى أن نشك فى نظرية التواصل مع الحقيقة وننكر مفهوم أن الحقيقة « موجودة هناك» . وعلى الرغم من أن التيار الواقعي العملي السائد يمكن أن يقبل، مع

المؤرخين التفكيكيين، أن حقيقة الماضى تصل دائما عبر البنى السردية المتأثرة ثقافيا، وأن اللغة ليست مقياسا ساميًا للحقيقة، وكما استنتجت مؤرخة أمريكية أخرى، هي ليندا جوردون Linda Gordon أن الموضوعية « بالتأكيد موضوع» فإن النسبية التفكيكية ليست الرد الوحيد (٩) .

ولا شك فى أن تفنيد الاتجاه التفكيكي الأكثر شمولا جاء من جانب المؤرخ البريطانى جيوفرى إلتون . فقد مزج إلتون بشكل مذهل بين معارضته الطويلة للبنيوية ومايراه على أنه شك منْ جانب كار، مع الرفض الفظ النشيط للتحليل التاريخي . وإذ يقتبس إلتون من نظرية التواصل، فإنه يصرُ على أن الحقيقة التاريخية نتاج للعلاقة المستقلة بين العارف والمعروف، وأن المؤرخين يتطلعون للوصول إليها، ولكن أي إخفاق فى تحقيق ذلك من جانبهم « لا يلغى حقيقة الحدث الماضى» (١٠). وبالنظر إلى المؤرخ الباحث عن الحقيقة، يردد فيلسوف التاريخ ميخائيل ستانفورد الذى يزعم أن المؤرخ مسموح له بموقف واحد فقط – موقف المراقب غير المنحاز الذى لا يحركه الإعجاب أو الكراهية، وليس من المفترض أن يملى على القارئ استجابته، إنه ببساطة يحكى الحقائق (١١).

ويساند آرثر مارويك موقف إلتون بهجومه على هايدن هوايت «النسبي مابعد الحداثي» . ويتمسك مارويك بمفهوم التاريخ على أنه معرفة متمايزة بإنكارها «تفرقة هوايت المتخيلة بين ما يكتشفه المؤرخ ... وتدوين هذه الاكتشافات» . ووفقا لمارويك، فإن هوايت « يخرج الأرنب من القبعة» حين يزعم أن كل التاريخ المكتوب يجب أن «يطيع قوانين السرد والخطاب»، ومن ثم لا يمكن أن يعرض بشكل منطقي أبدا. ومارويك ثابت على موقفه فى الجدل بأن التاريخ يوجد مستقلا عن المؤرخ وهو بالتأكيد ليس مكتوبا وفقا لبناء هوايت الشكلي أو شبكة المجاز والتصوير البلاغى المرتبطة به . ويبقى مارويك مقتنعا بأن المؤرخ ليس محكوما ببنية اللغة إلى حد أنه لا يمكن معرفة الحقيقة التاريخية أبدا، ليخلص إلى أن « التفكيكية وتحليل الخطاب ... لا تفيد المؤرخين المحدثين بتقديم إجابات دقيقة وفريدة بأي معنى على أسئلة محددة» (١٢) .

و دفاع إلتون – ستانفورد مارويك الشرس عن المعرفة، المأخوذة من إعادة بناء الماضى، يجد التعبير عن نفسه فى أصوات التيار السائد التى تمثلها آبلبى، وهنت،

وجاكوب فى إنكارهن المدقق للقيمة المعرفية لشكل التاريخ المكتوب . ففى البداية يطرحن السؤال التفكيكي الأصولي عن « كيف يبنى المؤرخ نصه بوصفه مؤلفا، وكيف يكون إنتاج وهم الأصالة، وما الذى يضفى معنى الصدق على الحقائق ويضمن اقترابها من حقيقة الماضى (أوتأثير الحقيقة «كما يسمى أحيانا ؟) . إن إجابتهن مؤداها أن التاريخ نظام معرفي مستقل بشكل لايمكن أن تخطئه العين وليس مجرد نوع أدبي محاكى أو بديل يعتمد فى قدرته على التفسير على مبدأ trompe l'oeil. ويعتبر أبلبى وهنت وجاكوب أن المجادلة التفكيكية لا تنتج النسبية فقط، ولكنها تنتج نسبية يمكن أن تكون ملونة بالسخرية أو الغطرسة التى تحط من قدر جهود الناس فى الماضى والذين كانوا هم أنفسهم يعتقدون أنهم كانوا يسعون وراء الحقيقة . وأخيرا فإنهم يقولون إنه بدون القدرة على « تقديم الحقيقة بأي طريقة صادقة وبشكل موضوعي» لايمكننا أن نتوقع تفسير شيء على الإطلاق (١٣) .

وثمة دفاع آخر عن الإمبريقية باعتبارها أساس التأويلات التقليدية قدمه المؤرخون الأمريكيون من أمثال جيمس دين، وليندا جوردون وجيمس كلوبنبرج على وجه الخصوص (١٤) . والنسبية، أو« الفوضى الفكرية والأخلاقية» كما وصفها بيتر نويك، ليست البديل الوحيد للموضوعية. ويقوى جيمس كلوبنبرج، مثل أبلبى وهنت وجاكوب، مذهب إعادة بناء الماضى باستفزاز مجادلات معينة من الفلاسفة البراجماتيين المعاصرين ريتشارد رورتى وريتشارد بيرنشتين (١٥). وبدلا من قبول المبادئ الستة الرئيسية للإمبريقية مثل الثنائية الحتمية، يحاول كلوبنبرج أن يعدل استبداد النسبية الإمبريقية وشموليتها. وهو يفعل هذا بالإشارة إلى أن التاريخ يمكن اعتباره قابلا للحياة معرفيا من خلال « نظرية براجماتية للحقيقة تحل محل التجريب الاجتماعي المستمر من أجل اليقين مصحوبة بالحساسية التاريخية التى تحمل المعرفة كلها «بوصفها ذات معنى ومتجذرة فى العمليات الثقافية التى لا يمكن سوى من خلال التفسير» . هذا الدفاع عن الإمبريقية يبعد عن إصرار دريدا المتطرف على النسبية باعتبارها نتيجة حتمية لانهيار الموضوعية . وبالتالى، يبقى التاريخ معرفة مشروعة بسبب استنباطها الإمبريقي الأصولي – المنهج الاستقرائي . وكما يقول كلوبنبرج موضحا موقف التيار المنهجي السائد :

« إن الفرضية – مثل التفسير التاريخي – يمكن التحقق منها فى مواجهة كل الأدلة المتاحة وإخضاعها لأقوى الاختبارات التى يمكن أن تصممها جماعة المؤرخين . فإذا ما كان تحقيقها إيجابيا، بقيت . وإذا لم تتم البرهنة عليها، يجب تقديم تفسيرات جديدة وإخضاعها لاختبار مماثل . والعملية ليست كاملة بيد أنها ليست عشوائية ؛ ودائما ما تكون النتائج تجريبية ولكنها لا تخلو من القيمة» (١٦).

ومن هذا المنظور المشتق من المبدأين الأولين من المبادئ الستة الأساسية، تفقد الازدواجيــة التى يفترضها المؤرخون التفكيكيون بوصفهم موضوعيين (واقعيين سذج) أو نسبيين (ساخرين متحذلقين) تفقد فعاليتها . وردود كلوبنبرج ليست جديدة . وقد جادل المؤرخ الأمريكي تشارلز بيرد (مع كارل بيكر) فى ثلاثينيات القرن العشرين أن التاريخ يكون فى ذلك الحين عملية مركبة من «التأويلات والاختبار البراجماتي للحقيقة الذى تكون فيه المعرفة مأخوذة من نسج الحقائق سويا وتفسيرها لكي تخلق القصص [الأساطير كما يسميها بيك] التى يجب أن نعتبر دقتها مسألة انتقالية دائما» (١٧). وكان هناك خوف من قبول مبدأ أنه يمكن الحصول على الحقائق بشكل موضوعي باعتبار ذلك أمرا لايقبل النقض، ولكن بيرد اعترف أن الحقيقة المطلقة كتعميم تاريخي يزعم أنه يفسر تلك الحقائق هدف لا يمكن تحقيقه . وكما كان يقول فى أغلب الأحيان : «إننا نرى ما وراء عيوننا» (١٨) .

أما مؤرخو إعادة بناء الماضي، بداية من إلتون، وستانفورد، ومارويك، وهيميلفارب، حتى المؤرخين الذين يمثلون التيار السائد من أمثال كلوبنبرج، وأبلبى وهنت وجاكوب، فإنهم يتفقون على الدفاع عن التاريخ باعتباره معرفة متمايزة . ولكنهم ينقسمون حول استخدام المؤرخ للنماذج، والمنهج الاستقرائي، واستخدام السرد. ويدافع المتشددون عن مناهج العلم التاريخي الاستقرائية على أرضية قدمها ليون جولد شتين مؤداها أن الاستنباط « ليس له دور على الإطلاق فى ... الطريق إلى الحقيقة التاريخية» (١٩). على حين أن الواقعيين العمليين سوف ينضمون إلى المحافظين فى معارضتهم للتفكيكيين بسبب اعتقادهم المشترك فى الوجود النهائي للحقيقة «هناك» كامنة فى الدليل يمكن معرفتها، ويمكن لأولئك الذين يميلون إلى هذا الاتجاه أن يحققوا فيها من خلال التنظير الاجتماعي . وينتج عن ذلك أن الأمر يتعلق بكيفية تعاملنا مع الدليل الذى يحسم إلى حد كبير الرد على الموقف التفكيكي .

الـــدلـــيـل

فى الفصل السابق أشرت إلى أن التفكيكيين يتساءلون عن سلطة المصدر بعدة طرق : التمسك بأن قصد مؤلف الدليل يجب أن يبقى دائما مجهولا على الدوام (موت المؤلف، باعتبار أن فهم الدليل من خلال وضعه فى سياق إجراء تحيط به الشكوك، وبواسطة إلقاء الشك حول القوة التفسيرية للنقد). ويمكن وصف معظم المؤرخين اليوم بأنهم واقعيون عمليون يعترفون بأن واقعية الماضى تتم مواجهتها دائما بشكل غير مكتمل، سواء من خلال النظرية الاجتماعية أو الإيهام السردي . ويروق لهؤلاء الواقعيين العمليين فى اتجاهات التيار السائد أن يجادلوا أنه اليوم فقط أحس المؤرخون التفكيكيون بوطأة السلاسل التى لا تنتهى من إضفاء المعنى والحقيقة التى تتغير وتتبدل باستمرار، مع الأخذ فى الاعتبار الشكل السردي . وهم يجادلون أن زملاءهم التفكيكيين قد أقاموا «خيال مآتة من القش فى مبالغتهم فى موضوع الإمبريقية الفجة» وكما أشار مارويك «أن نقاد ما بعد الحداثة ... يخطئون تماما فى فهم الطريقة التى يباشر المؤرخون عملهم بها»[٢٠]. ويتم الآن الاعتراف بمشكلة عدم حسم المعنى صراحة . وتكمن الصعوبةالوحيدة فى رفض التفكيكيين أن يفهموا أن معظم المؤرخين الواقعيين العمليين اليوم يتقبلون دورهم على أنه دور جوهري فى تفسير الأدلة المكتوبة، بدلا من إظهار جوانب إخفاق الإمبريقية . ووجهة نظر كار، تتمثل فيما قاله منذ أربعين سنة مضت تقريبا عن أن الحقائق تبرز باعتبارها حقائق تاريخية عندما تمر من خلال عقل المؤرخ فقط . ذلك أن المؤرخين على وجه التحديد مفسرون للمعنى ولا يقتصر دورهم على تسهيله فحسب .

والسماح للمجادلات التفكيكية القائلة إن اللغة تلقى سحابات الغموض على المعنى بدلا من توضيحه، وأن هناك كثرة من المعانى فى نصوص مصادرنا وأن المؤلف الذى كتب المصدر هو خالق الخطابات الثقافية المتعددة والمعانى الكثيرة لا يعنى أن الثقافة والأيديولوجيا يكتبان التاريخ . وحتى لو سلمنا بهذه القيود، فإن مؤرخى إعادة بناء الماضى سوف يجادلون أنه لا المؤرخون، ولا المصادر، تعوم مع التيار على بحر من المعاني ولا هي خاضعة بالضرورة لموجات مد النسبية الثقافية والأيديولوجيا . وليس هناك مؤرخ معقول اليوم، أو يمكن أن يكون هناك مؤرخ على الإطلاق، قد زعم أن

الإمبريقيـة نظام يضـمن الكشف الموضـوعي عن الحقيقة، أو إنه يمكن أن يكون هناك إطلاقا مانع تأويلي يحول بين العارف والمعروف . وعلى حد قول جون توش، تبدأ عملية خلق المعرفة بالأسئلة التى « يحملها المؤرخ فى ذهنه عند بداية البحث»[٢١] وهذا أمر طبيعي، وعـادي، ولا يستحق أن نقلق بشـأنه . ويضـيف مارويك : «إن المهـارات الفنية للمؤرخ» تكمن فى تصنيف مشكلات المصادر، وحل« شفرات اللغة » التى يستخدمها [٢٢].

وقد تناول بيهان ماكولاج، وفردريك أولافسون طبيعة التوصل إلى ماض حقيقي ومستقل تقدمه الأدلة بشكل مكثف . ويتمسك ماكولاج بأن المقياس الأساسي بالنسبة للمؤرخين هو الإدراك السليم والافتراض الشائع أن مفاهيمهم «قد تسببت فيها حالات متشابهة إلى حد ما فى العالم – وهو افتراض نضعه نحن جميعا معظم الوقت بنجاح تام» [٢٣]. وتأسيسا على افتراض أن العالم موجود منفصلا عن معرفتنا به، فإن المؤرخين « لا يبنون حقيقة الماضى بمحاولة وصفه . وكل ما يبنونه هى معرفتنا به، ومعتقداتنا بشأنه» [٢٤]. ونتيجة لهذا لا يشكل المؤرخون حقيقة الأوصاف التاريخية من خلال المقارنة المباشرة مع الماضى فحسب، لأن هذا أمر لا يمكن تحقيقه كما يجمع الكل « وإنما يسـتنبطونه من الأدلة الموجـودة» [٢٥]. هكذا يفـترض أن التـفكيكيين يواصلون الحط من قيمة المنهج الاستقرائي. وهم يغفلون عن التعقيد والتركيب الأصلي التى تتسم بها الممارسة التاريخية اليوم . ويعلن أولافسون أن الأدلة على الماضى، كما توجد فى عبارات مؤلف الدليل، أدلة مرجعية بشكل مباشر بقدر ما تشير إلى الماضى. وعندما يتم تأويل الدليل على هذا النحو، فإنه يدل على حدث لغوي مرجعي . وهكذا يبقى الاستـقـراء – أي الاستـقـراء من المصـادر – خط الدفاع الأول ضـد المنظور التفكيكي. وبطبيعة الحال، يمكن أن يكون الاستقراء الاستنباطي خاطئا إذا ما قام على أساس دليل زائف، أو لا يمكن التحقق منه . وبالتالى، يميز المؤرخ المعقول دائما بين ما يعتقد أنه حقيقي عن الماضى، وما قد يكون حقيقيا بالفعل . ويقوم مثل هذا الاعتقاد بالضرورة على فكرة ما عما كان عليه العالم فى الماضى أو يشبهه، وكيف كان تنظيمه. هذا التفكير الأولي يمثل بداية عملية بناء الحقائق التاريخية .

هذه الرؤية هى الأكثر انتشارا عن استخدام الدليل فى الكتابة التاريخية، وهي مـأخـوذة عن كتـاب كـار ؟ What is History الذى صـدر سنة ١٩٦١م. وباتباع منطق

كولينجوود (وهو مؤرخ يلي ماروك وإلتون في نزعته النسبية)، ينطلق كار للإجابة على السؤال «ما الحقيقة التاريخية؟» . وقد جادل أن الحقائق التاريخية مأخوذة من خلال « قرار مسبق اتخذه المؤرخ». إنها طريقة المؤرخ في ترتيب الحقائق المستمدة من السياق، والتي تخلق المعنى التاريخي . وباستخدام تشبيه كار تكون الحقيقة مثل كيس، لا يقف ما لم تضع شيئا فيه [٢٦] . وهذا الشيء هو السؤال الذي يتناول الدليل . ومهما كان وصفنا للماضي، فإن المؤرخين يفرضون شكل الماضي بشكل مشروع تماما من خلال بحثهم القائم على أساس المعرفة . وكما يصرُ كار، ويتفق معه مؤرخو التيار السائد، فإن « الحقائق تتحدث فقط عندما يستدعيها المؤرخ : إنه هو الذى يقرر أي الحقائق سوف يعطيها المسرح، وبأي نظام، وفى أي سياق» [٢٧] . وقد أشار كولينجوود فى كتابه The Idea of History، وهى دراسته الباكرة عن خلق المعنى التاريخي، إلى أن المؤرخ يرتب المعلومات المتاحة عن الماضى فى ضوء السياق الذى يصفه بأنه « شبكة من البناء التخيلي»[٢٨] . وتتكون الحقائق عندما يتم تحقيقها بواسطة المقارنة ثم توضع فى علاقات ذات معنى بين كل منها الأخرى فى السياق التاريخي الكلي .

وحسب وصف كار للاشتقاق من الحقيقة التاريخية « إن وضعها... سوف يتحول إلى سؤال عن التفسير . ويدخل هذا العنصر التفسيري فى كل حقيقة من حقائق التاريخ» ويخلص إلى انزعاج إلتون من أن « المؤرخ انتقائي بالضرورة» . والاعتقاد بوجود جوهر صلب للحقائق التاريخية بشكل موضوعي ومستقل عن تفسير المؤرخ مغالطة منطقية فجة، «ولكنها مغالطة يصعب اجتثاثها تماما » [٢٩]. ومنذ ستينيات القرن العشرين كانت مجادلة كار تمثل النموذج السائد بالنسبة للمؤرخين المعتدلين الذين يريدون إعادة بناء الماضى لأنه تراجع عن هوة النسبية التى كان يعو إليها منطقه ومنطق كولينجوود . وفى النهاية يفند كار إصرار كولينجوود المفرط على الدور التعريفي للمؤرخ، ويضع بدلا منه صورة للمؤرخ الذي يعتقد أنه يمكن تحقيق نوع من الموضوعية لأنه يعترف بالحوار بين أحداث الماضى واتجاهات المستقبل . وليس هذا، إذن، بدء عملية إعادة بناء الماضى بشكلها الفج عند إلتون، وإنما هى موضوعية يمكن العمل بها أو موضوعية براجماتية قائمة على أساس من المراجعة الذاتية – وهو موقف يصادق عليه تماما كل من أبلبى، وهنت، وجاكوب [٣٠] .

ومن ثم تبقى الحقائق أرضا للمنافسة، وليس هذا بالشيء الجديد الذي اكتشفه التفكيكيون. وهناك، بطبيعة الحال، بعض الإمبريقيين المتشددين مثل بيتر جاي، كان عليهم أن ينكروا استنتاج كار النسبي على حين يقبلون أن فكرته عن « وضع المؤرخ العقلي أو عواطفه السرية» قد يقدم فعلا رؤية واضحة للماضى بدلا من إنتاج تفسيرات مشوشة [٣١]. وعلى حد قول جاي» «أن يساوي بين الدافع والتشويش ... أمر غير مشروع بالمرة»، لاسيما إذا كان الدافع يسوق « الباحث فى اتجاه الفهم الكامل للعالم الخارجي . وقد تظهر الحاجة التى تولد الاستفسار من عدم الانحياز . بل إن التقمص الوجداني، أي العاطفة التى يرتبط بها المؤرخ الحديث بشكل متواصل، لها مكونها الموضوعي» . ويخلص جاي، فى دعم لما يسميه نوفيك «الموقف المفرط فى الموضوعية» إلى أنه على الرغم من أن بلاغة التاريخ مختلفة عن بلاغة العلم، « فإن هذا لا يعنى طرد التاريخ من عائلة العلوم . إنه ببساطة يجعل علم المؤرخ علما له خصوصيته، له طريقته الخاصة فى قول الحقيقة» [٣٢] . وبهذا الأسلوب ربما يقدم جاي الإنكار النهائي للاتجاه التفكيكي - إن المؤرخين من أنصار التدخل فى النص التاريخي يمكنهم كتابة التاريخ الموضوعي .

ويوجد الدافع إلى عمل المؤرخ فى الأسئلة التى يطرحونها على الأدلة، وهذا الدافع لايرتبط تلقائيا بالتبرير الأيديولوجى على ما يرى التفكيكيون . ويهتم المؤرخ التفكيكي لأن الدافع والاستقراء من المصدر قوته ضعيفة طالما أن المؤرخين لا يضعون مسبقا تصورات لنماذج من التفسير ويرتبون الحقائق بحيث تناسب هذه التصورات المسبقة. وإذ يمكن للمؤرخين، كما يلاحظ ماكولاج، أن يضعوا أكثر من نموذج فى الدليل نفسه، فإن هذا لا يعنى أن تلك النماذج لا يمكن أن تمثل الحقيقة . وإذ يأخذ ماكولاج رأي هايدن هوايت المحدد بأن هناك الكثير من الآراء الصحيحة حول أي موضوع تجرى دراسته، فإن ماكولاج يرى هذه المجادلة على أنها بمثابة الأخبار القديمة، وأمرا لا يمثل مشكلة على الإطلاق، بحجة أنه فى كل حالة تكون أحداث الماضى « قادرة على تحمل عدة أوصاف مختلفة» [٣٣]. وماكولاج، شأنه شأن معظم الواقعيين العمليين، شغوف بأن يتحدى الاعتقاد التفكيكي بعدم قدرة المؤرخين على تدوين تقديم سردي صادق ومعقول عن الماضى . وهو يظن أنهم قادرون على هذا لأن سردياتهم قامت على أساس من الفحص الدقيق للأدلة .

ومن هنا لا ينكر المؤرخون أن عملية ترجمة الأدلة على الماضى إلى حقائق التاريخ تنطوى على اتخاذ قرارات تفسيرية مسبقة – وهو جزء من عملية الغربلة على حد تعبير كار [٣٤] . وهذا أمر صائب وكما ينبغي أن يكون . وعلى الرغم من أن التفكيكيين من أمثال دومينيك لاكابرا يمكنهم أن يتحسروا على صنم الحقيقة وينوحوا عليه، فإن هذه أخبار قديمة أيضا . ومنذ ما يقرب من نصف قرن مضى، وصف كار « النواح على الحقائق» بأنه من طراز القرن التاسع عشر، ولا ينبغى للمؤرخين المحدثين أن يشغلوا أنفسهم به . ذلك أن التفكيكية، مع اتجاه إلتون المحافظ لإعادة بناء الماضى، تحط من قدر الطبيعة المعقدة للتيار السائد الآن بين المؤرخين من حيث تناولهم للأدلة الموجودة فى السياق التاريخي، فهم « يسعون إلى إعادة بنائه، أو إعادة خلقه، لكي يبينوا كيف كانت تجربة الحياة وكيف يمكن فهمها – وهو ما يتطلب ارتباطًا تخيليًا مع عقلية الماضى والجو الذى كا سائدا فيه»، كما يقول جون توش. وعلاوة على ذلك «فإن تقييم المصادر يعتمد على إعادة بناء الفكر الكامن وراءها «وقبل أن يتمكن المؤرخ من تحقيق شيء آخر « يجب عليه أولا محاولة الدخول إلى العالم الذهني لأولئك الذين كتبوا المصادر» [٣٥] . ذلك أن مهمة المؤرخ أن يحوِل المصادر إلى تاريخ . ولا تكون المصادر مفيدة سوى عندما يتم التعامل معها معاملة المواد الخام فى الأدلة التى تتخلق منها الحقائق التاريخية .

ومثلما أشار كولينجوود، فإن الأدلة معرفة تاريخية موضوعة على الرفوف أو جاهزة يمكن للمؤرخين ببساطة ابتلاعها ثم تقيؤها . ولا تصير المادة الواردة فى المصادر مفيدة سوى حين يطبق المؤرخ عليها معيار المعرفة فى السياق الذى لديه بالفعل . وليس من حسن الفطن تماما الاعتماد على نظرية التواصل فى البرهان التاريخي على نحو ما يبدو للتفكيكيين أن المؤرخين يفعلونه . وعملية التفسير التاريخي القائمة على الأدلة أشد تعقيدا من الوصف البسيط للمصادر الذى يفترضه التفكيكيون. كما أن معظم المؤرخين لا يتقبلون نموذج بوبر العلمي فى التفسير بقدر رفضهم الوقوع فى فخاخ الأيديولوجيا . وانشغال النسبيين والتفكيكيين بجوانب فشل الإمبريقية والسمة المضللة للموضوعية، أمر ليست له صلة بالموضوع لأنه يتناول موضوعات كان المؤرخون على ألفة بها منذ زمن طويل، ومنها المنهج التاريخي

الاستقرائي الذى لو طبق بشكل صحيح بمعنى الواقعية العملية، فإنه يطرح القليل من المشكلات الحقيقية أو التى لا يمكن حلها .

ومما قلته حتى الآن ينبغى أن يكون واضحا كيف يعمل المؤرخون الواقعيون العمليون من أنصار إعادة بناء الماضى أو من المعتدلين : من خلال عملية استنباطية - استقرائية مركبة تعترف أن التاريخ نتاج الحوار بين المؤرخ والمصدر . ومن المفهوم عموما أن هذه العلاقة تنطوى على تأطير الفرض، إلى حد تأسيس تفسيرات أولية على الأقل، أو وضع مفاهيم قائمة على أساس معرفة السياق والألفة مع المصادر . هذه الأفكار الأولية هى الخطوة الجوهرية الأولى عند تناول مشكلة جديدة أو أدلة جديدة . وليس هذا تعريفا للبنيوية لأن مثل هذه الأفكار لم تصل إلى المستوى نفسه من النشاط الذى وصل إليه المنظرون الاجتماعيون الذين عرفهم إلتون بأنهم « أتباع النظرية الذين لا يسمحون للحقائق أن تزعجهم ،ولكنهم يحاولون بدلا من ذلك أن يسخروا من مفهوم أن هناك حقائق مستقلة عن التى يدرسونها » (٣٦) . ويرى مؤرخو التيار السائد أن عدوانية مثل هذا الموقف المحافظ تمنح مجادلات التفكيكيين مصداقية أكثر مما تستحقه وتنكر أهمية التاريخ البنيوي الذى يحظى بكثير من التقدير .وسوف يجادل معظم الواقعيين العمليين أن حجم التاريخ ومداه الآن شهادة على مدى الحيوية التى يتمتع بها، وأن «الاتجاه اللغوي وتأثير الفكر» ما بعد البنيوي، الذى تخشاه أقلية من المؤرخين باعتباره تهديدا للعلم، قد أعطته بدلا من ذلك دفعة جديدة للحياة باعتباره « التاريخ الثقافي الجديد» . ويبدو أن التاريخ يواجه قليلا من الخوف مما بعد الحداثة، وهو فى الحقيقة مجرد انحراف عن الأجندة الرئيسية .

نظريات التاريخ : بناء الماضى

يبدو واضحا أن الخط المرسوم بين المؤرخين الساعين إلى إعادة بناء الماضى والمؤرخين البنيويين من حيث استخدام منهج مسبق أو استقرائي، يبدو بالنسبة للواقعيين العمليين خطا رفيعا للغاية، ولكن الجدل حول مكان رسم هذا الخط له دلالات متمايزة بالنسبة للتاريخ التفكيكي . وفى خطبة مؤثرة بمناسبة رئاسته الجمعية

التاريخية سنة ١٩١٠م، حذر المؤرخ الأمريكي الاجتماعي فردريك جاكسون تيرنر مستمعيه أن :

«المؤرخ الاقتصادي في خطر من أن يجعل تحليله وروايته عن أحد القوانين على أساس الحالة الراهنة، ثم ينتقل إلى التاريخ لكي يقدم ملاحق تبريرية لنتائجه ... والمؤرخ ... قد يشك ... فيما إذا كان يجب أن يخدم الماضى بوصفه «توضيحا» فقط نؤكد بواسطته القانون المستنبط من التجربة العامة من خلال تعليل مسبق شهدت به الإحصائيات» (٣٧) .

ولأن جيوفرى إلتون انتبه إلى هذا النوع من التحذير، فإنه لم يطرح قوانين التغطية فقط ولكنه تخيل شيئا أكثر سوءا : اندماج متحمس بين الفلسفة التأملية والإمبريقية المتدرجة من أجل الدفاع عن السردية . ويعبر مؤرخو التيار السائد عامة أن هذه ليست الأرضية التى ينضمون عليها إلى المعركة ضد التفكيكيين .

وكما أشرت، فعلى الرغم من أن إلتون يرفض النظرية كلها، فإنه فى دعوته المحافظة إلى الحرب يحتفظ بأكثر انتقاداته قوة ضد التفكيكية، التى يصفها بأنها : «الاقتناع أنه طالما يجب أن يكتب التاريخ فإن النوع الوحيد الذى يستحق أن يكون لدينا يعمل فى إطار نظرية عامة للغة» . وهذه فكرة تقوض « مزاعم التحقيق المحايد، والمستقل، والعقلاني» (٣٨). وما يسميه «السعي لاستخدام النظرية الأدبية لتدمير حقيقة الماضى» لايمكن أن ينتج سوى الأذى الخطير بأول واجبات المؤرخ : أي إعادة بناء الماضى بأكبرقدر من الموضوعية والاستقلال (٣٩). وكل ما تفعله النظرية فى التاريخ، على حد تعبير إلتون، أنها تحول المؤرخ إلى عبد لها :

«توجه النظرية اختيار الأدلة وتضفى عليها معنى محدد مسبقا. وتوضع الأسئلة كلها فى أطر بحيث تنتج ما يدعم النظرية وبذلك تتحدد الإجابات كلها سلفا. وربما يقول المؤرخون الذين وقعوا أسرى النظرية إنهم اختبروا كتاباتهم بالبحث الإمبريقي، ولكنهم لا يفعلون شيئا من هذا القبيل ؛ إنهم يستخدمون البحث الإمبريقي للبرهنة على صحة الإطار، وليس أبدا للبرهنة على خطئه ... ولا يسمح أتباع النظرية للحقائق أن تزعجهم ولكنهم بدلا من هذا يحاولون السخرية من المفهوم القائل إن هناك حقائق مستقلة عن الباحث الذى يدرسها » (٤٠).

ويرفض الماركسيون، الذين تحالفوا لوقت قصير مع التفكيكيين، التركيز على الألفاظ فى النسخة البورجوازية المحافظة لإعادة بناء «حقيقة» الماضى . بيد أن الماركسيين لم يلبثوا أن صوبوا بنادقهم نحو التفكيكية لأنها لم تعترف بأن النصوص، مثلها مثل المعتقدات والأفكار، تُقرأ وتفهم فى العالم الحقيقي . وبالنسبة للماركسيين، يفشل المذهب التفكيكي لأنه يجرد الحقيقة من ماديتها . ويرى الماركسيون التفكيكية على أنها مجرد نسخة أخرى من المثالية التى تنتزع البشر من سياقهم الاقتصادي والاجتماعي . فالنصوص لها مؤلفون، وحتى التاريخ التفكيكي له مؤلفون، ويمكن أن نرى قصد أولئك المؤلفين فيما يفعلونه، ويقرأونه ويكتبونه فى العالم المادي الذي يضم البنية والنموذج الذى يمكن استرداده .

وهناك أصوليون آخرون من دعاة إعادة بناء الماضى غير إلتون يقلقهم التحدى البنيوي والتفكيكي الذى يواجه نمذج رانكه [إعادة بناء الماضى كما حدث بالضبط] وتعبر عن قلقهم بشكل جيد المؤرخة الاجتماعية الأمريكية جيرترود هيميلفارب :

«كل المؤرخين ، قديمهم وحديثهم،» لديهم ما يقلقون بشأنه - ليس فقط تحويل التاريخ إلى شذرات وإنما تفكيك التاريخ - وليس فقط من جانب التفكيكيين الذين يجاهرون بالقول، ولكن من جانب المؤرخين الاجتماعيين الذين يسهمون فى النتيجة نفسها عن غير وعي»(٤١).

وبالنسبة لهيميلفارب فإن التفكيكية ليست سوى نسخة من البنيوية أشد خبثا:

« على الرغم من أن التفكيكية، بوصفها فلسفة منظمة واعية، كانت الأكثر بروزا بين مؤرخي الفكر، فإن نموذج الفكر الذى تقدمه، بل ومفرداته المتمايزة، يتخلل كافة جوانب التاريخ البنيوي الجديد . ويستخدم المؤرخون اليوم بحرية كلمات من نوع « يخترع»، و «يتصور» و «يخلق» (وليس يعيد خلق)، و «يبنى» (ليس يعيد بناء) لوصف عملية التفسير التاريخي، ثم يمضون إلى تأييد تفسير جديد بسلسلة من كلمات مثل «ممكن»، و «ربما يكون قد حدث»، و «من المحتمل أن يكون حدث» (٤٢) .

وترى هيميلفارب أن التفكيكية والبنيوية وجهان لعملة واحدة هى النسبية، وتعلل أن «استخدام التاريخ الجديد المتزايد للمنهج الكمى، والنماذج، وغيرها من أساليب

العلم الاجتماعي» لم تنتج المزيد من الموضوعية، وإنما أنتجت « إحساسا زائدا بالنسبية والذاتية . والماركسية هنا هدف منظم، بيد أن أنواعا أخرى من التنظير الاجتماعي تهدد التاريخ أيضا :

« ليس التاريخ السياسي فقط الذى ينكره المؤرخون الجدد أو يقللون من شأنه، إنه العقل نفسه ... هذه العقلانية منكورة الآن بشكل واع أو يتم تقويضها بدون وعي بكل طريقة من جانب التاريخ الجديد ... ؛ بالتاريخ الأنثروبولوجي ... ؛ التاريخ النفسي التحليلي ... ؛ بالتاريخ الدموي ... ؛ بالتاريخ الجديد ومن كل وصف يطرح أسئلة عن الماضى لم يطرحها الماضى عن نفسه، ويندر وجود الأدلة عليها ولا يمكن الاعتماد عليها وتكون الإجابات عليها تأملية، وذاتية، ومبهمة بالضرورة» (٤٣) .

وقد أخذت مثل هذه التعليقات على أنها موجهة بشكل سيئ من جانب لورنس ستون الذى يشير إلى أن هيميلفارب لم يكن ينبغى لها أن تقسم عالم التيار التاريخي السائد فى وقت لم يكن فيه التهديد للعقلانية يأتى من قبل البنيوية التى يمثلها التاريخ الجديد، وإنما من قبل «الفلسفة، واللغويات، والعلاماتية، والتفكيكية» (٤٤).

وكان ستون قد أعلن بالفعل موقفه المعادي للبنيوية والتفكيكية فى سبعينيات القرن العشرين عندما زعم أنه حقق الأدلة على وجود « تيار تحتي يمتص الكثير من المؤرخين الجدد المرموقين» مرة أخرى فى شكل ما من أشكال السرد، وواصل القول:

«فى بعض البلاد والمؤسسات كان من غير الصحي أن « المؤرخين الجدد» كانت لديهم أشياء من لدنهم بدرجة كبيرة للغاية فى السنوات الثلاثين الماضية، وسيكون من غير الصحيح بالقدر نفسه أن يحرز التيار الجديد، إن كان تيارا، سيطرة مماثلة هنا وهناك» (٤٥) .

وبينما ينكر ستون أي محاولة لعمل أحكام قيمة على الاتجاهات الجديدة، فإنه استكشف طبيعة التاريخ العلمي « ... الذي ترجم على أنه البنيوية، والماركسية والحوليات، وغيرها من الشروح العلمية» للتغير التاريخي «الذي كان قد احتل مكان التفضيل على مدى فترة من الزمان، ثم عفا عليه الزمن» . وكان فى ذهن ستون البنيوية الفرنسية ووظيفية بارسون وبدلا من أن يفسر ستون الماضى، خلص إلى أن

كل ما فعلته هذه الاتجاهات أن بشرت « بمراجعة انتقامية للتاريخ» نتيجة تركيزها على أحـوال الجـمـاهير المادية» وإبعـاد الحركـات التاريخية المرتبطة بالنخبة. وعلى حد قوله: « فى هذا النموذج التاريخي الجديد اختفت ببساطة الحركات التى تمثل النهضة، والإصلاح الديني، والتنوير، وصعود الدولة الحديثة» . وانتهى بفكرة أن « هذا العمى الغريب كانتيجة اعتقاد راسخ بأن هذه المسائل كانت كلها أجزاء من ... بناء فوقي سطحي لا غير» . لقد كان إحياء السرد راجعا إلى « تنوير واسع المدى مع النموذج الاقتصادي الحاسم فى التفسير التاريخي»، وخاصة مع استبعاد أتباع «الحوليات»التطورات الاجتماعية والفكرية. وكان ستون يرى أن طريق عكس هذه العملية يكون من خلال السرد الذى سوف ينسج شبكة من المعنى (٤٦).

وتصف عبارة «إعادة إحياء السرد» جهد ستون لإبعاد المنهج التاريخي عما رأى أنه حتمية أحادية السبب اقتصادية بنيوية فرضتها مجموعات من المؤرخين الجدد لم يعد يلجمهم « منهج محدد، بنيوي، وجامع وإحصائي» . وكان ستون يشير بكلمة «سردي « إلى» مجموعة من التغيرات فى طبيعة الخطاب التاريخي» (٤٧) . التى شهدت فى سبعينيات القرن العشرين « نموا مفاجئا تماما فى الاهتمام بالمشاعر، والعواطف، ونماذج السلوك، والقيم، والحالات الذهنية». وفى سبيل هذه الغاية، دلل ستون على أعمال المنظرين الاجتماعيين الذين يستلهمون السرد ومنهم : إيفانز بريتشارد، ونوربرت إلياس، وكليفورد جيرتز، والمنظرين الساسيين مثل بوكوك، وكوينتين سكينر الذين استفاد من أفكارهم المؤرخون . وفى رأي ستون أن « هذا الانتقال إلى السرد من جانب «المؤرخين الجدد» قد أدى إلى نهاية محاولة « إنتاج تفسير علمي متماسك للتغير الذى جرى فى الماضى»(٤٨) . وعلى أي حال، يجب أن نشير إلى أنه بالنسبة لستون كان السرد بوصفه مصطلحا اختزالا سيئا لوصف ما كان فى الحقيقة، إعادة توجه ثقافي بين المؤرخين، خاصة أنه فى ثمانينيات القرن العشرين تطور موضوع البناء السرديمع التفكيكية الأكثر تحديدا .

فى العدد الصادر سنة ١٩٩١ م من مجلة Past and Present انتقد ستون أخر اتجاهات ما بعد الحداثة فى التاريخ التى «طرحت أسئلة جادة «عن موضوعها، وموضوعاتها، وآلياتها فى التفسير» (٤٩) وقد فصل ثلاثة تهديدات متمايزة من البنيوية،

والتفكيكية : «التهديد الأول يأتي من اللغويات، وقد تم بناؤها من سوسور إلى دريدا، ووصلت ذروتها فى التفكيكية ... والثانى ... من الأنثربولوجيا الثقافية والرمزية ... والثالث ... من النزعة التاريخية الجديدة»(٥٠). وتمسك ستون بأن هذه التهديدات الثلاثة قد تحدت مجتمعة المبادئ الإمبريقية الأساسية للتاريخ. وقد أسهب ستون فيما اعتبره جوهر التاريخ اليوم، بدلا من وضعية القرن التاسع عشر التى اعتقد التفكيكيون فى غمرة إعجابهم بها أنها لا تزال الممارسة السائدة، أسس ستون ما كان يمثل بالنسبة لهم المعتقدات الرئيسية فى التيار السائد : أن التاريخ ينبغى أن يكتب بـ « لغة إنجليزية واضحة تتجنب الرطانة غير المفهومة والبلبلة» ؛ وأن « الحقيقة التاريخية مستحيلة المنال، وأن استنتاجات ظرفية وافتراضية، يحتمل دائما أن تكون قد تحولت بواسطة معلومات جديدة أو نظريات أفضل» ؛ وأن علينا أن نقبل أن المؤرخين منحازين وسوف يؤدون عملهم على نحو جيد، مثل كار، إذا ما درسوا المؤرخ « قبل قراءة التاريخ» ؛ وأن الوثائق، بسبب قصورها الداخلي والصعوبات التى تواجهنا مع مقاصد المؤلفين، يجب فحصها بدقة وحرص، آخذين فى الحسبان... طبيعة الوثيقة، والسياق الذى كتبت فيه» ؛ وأخيرا أن المؤرخين يعرفون بالفعل أن « إدراك الحقيقة وطرق تقديمها تختلف غالبا اختلافا كبيرا عن الحقيقة نفسها، وفى بعض الأحيان يكون لها القدر نفسه من الأهمية»(٥١). وهنا مرة أخرى، يشير مؤرخ معتدل من أنصار إعادة بناء الماضى والسياق إلى كيف أن التفكيك يُسيء بالفعل طرح القضية الإمبريقية ويؤكد أن « النص مجرد وكيل سلبي فى يد مؤلفه . لأن البشر هم الذين يلعبون بالكلمات ؛ ولا تلعب الكلمات بنفسها » (٥٢) .

وقد تحدث ستون نيابة عن كثير من المؤرخين عندما قال إن عدم موافقته على تاريخ ما بعد الحداثة كانت عندما زعم هذا التاريخ :

«أنه لا يمكن معرفة الحقيقة ... وأنه ليست هناك حقيقة يمكن أن تكون من غير خلق المؤرخ؛ وبعبارة أخرى، فإن اللغة هي تخلق المعنى الذي يخلق بدوره الصورة التى لدينا عن الحقيقة . وهذا يدمر الفرق بين الحقيقة والخيال، ويجعل العمل الأرشيفي المضنى الذى يقوم به المؤرخ لاستخراج « الحقائق» من النصوص، عملا تافها . وعند هذه النقطة القصوى فقط يكون المؤرخون بحاجة للتعبير عن القلق . ولكن بما أن كل

واحد تقريبا ... يبدو متراجعا عن موقفه، فهناك الآن أخيرا منصة عامة يمكن لنا جميعا أن نتخذ من فوقها موقفنا دون مشقة كبيرة» (٥٣) .

وهنا يبدو ستون منطقيا لمعظم المؤرخين الذين يصرُ القليل منهم على أن النص مطلق . ولكن قبول فكرة النص المطلق تستدعى قراءة تاريخية للماضى أو دور إملائي ووسيط للمؤرخ، وهذا لايعنى الاستسلام أمام الهجوم التفكيكي . وتطرح المؤرخة الفرنسية «الإمبريقية الجديدة» البارزة جابرييل سبيجيل GabrielleM.Spiegel حلا وسطا مع النقد التفكيكي :

«إذا كانت إحدى الحركات الرئيسية فى فكر مابعد البنيوية تتمثل فى نقل المجاز السائد فى الدليل التاريخي من مجاز انعكاسي إلى مجاز وسيط (أي أنه كان تحولا من مفهوم أن النصوص والوثائق تعكس حقائق الماضى بشفافية، كما يعتقد الوضعيون، إلى مفهوم يكون الماضى فيه أسيرا فى شكل الوسيط الذى تحفظه لنا اللغة) ـ فإننا بحاجة إلى أن نفكر بحذر فى كيفية فهمنا للوساطة وكيف يؤثر هذا الفهم على ممارستنا (٥٤) .

وإذا كنا نعنى بالوساطة الاعتراف بالخلق التاريخي والاجتماعي لنص من النصوص كما نشعر بالحاجة إلى تقييمه «على أنه صنعة أدبية مؤلفة من اللغة» التى تتطلب «تحليلا أدبيا»، فإن أنصار إعادة بناء الماضى والبنيويين يمكنهم مع أن يمسكوا بحقيقة الماضى، ويقبلوا مرجعية اللغة، وفى الوقت نفسه يمكنهم رؤية النصوص بوصفها « تجسيدا ماديا لاستخدام اللغة بشكل مناسب» . وبعبارة أخرى، يمكن للمؤرخين أن يروا النصوص على أنها التجسيد المادي لمختلف استخدامات اللغة التى تعكس « عدم إمكانية الفصل بين الممارسات المادية التى لايجمعها سياق، والحاجة إلى حفظ المعنى، لأن الاثنين يعتمد كل منهما على الآخر فى إنتاج المعنى» . وتسمى سيجيل لهذا الحل الوسط بين الواقعيين العمليين والتفكيين « المنطق الاجتماعي للنص (٥٥) .

والأقل إحسانا إلى الموقف التفكيكي هو جون توش فى مساندته للمعتدلين الذين يحاولون التوفيق بين المقاربتين فى التيار السائد ، وهو يتمسك بأن التقدم المهم فى الفهم التاريخي :

«من الأرجح أن يتم تحقيقه عندما يضع أحد المؤرخين فرضا صيغ بوضوح ويمكن اختباره فى ضوء الأدلة . وربما لا تتعلق الإجابات بالفرض الذى يجب استبعاده أو تعديله عندئذ، ولكن ينبغى فقط طرح أسئلة جديدة وهو ما يؤثر بشكل مهم فى تنبيه المؤرخين إلى الجوانب غير المألوفة فى المشكلات المألوفة والمعلومات التى لايرقى إليها الشك فى المصادر التى درست جيدا»[٥٦] .

كل الدراسة التاريخية انتقائية على حد تعبير توش، «ومن ثم فإنها تضع فرضا أو نظرية، مهما يحتمل أن تكون غير متماسكة» . ولأن عملية صناعة الفرض هذه تتخطى الأدلة فمن المشروع أن يستخدم المؤرخون « وميضا من البصيرة، أو قفزة تخيلية، فغالبا ما يكون الأكثر جسارة هو الأفضل» [٥٧] . ولاشيء من هذا بطبيعة الحال، يعتبر مصادقة على التأكيد التفكيكي على الوظيفة المعرفية للسرد وبالنسبة للأغلبية السائدة من البنيويين فإن هذه المقاربة التى تنسب إلى كولينجوود - كار تقدم تعريفا للتاريخ أكثر تعاطفا من تعريف الوضعية، وهو تعريف يبدو ردا سريعا معقولا ومشروعا على التأكيد التفكيكي على الاتجاه اللغوي .

التـــاريخ ســـردا

فى بواكير القرن العشرين أشار تايلور إلى أننا نحن المؤرخين يجب ألا أن نخجل من الاعتراف أن التاريخ فى داخله مجرد شكل من أشكال الحكي القصصي ... وليس هناك مهرب من حقيقة أن المهمة الأصلية للمؤرخ أن يجيب على سؤال الطفل : «ماذا حدث بعد هذا ؟» [٥٨] وقد اعتقد تايلور أن المؤرخين يفرضون نوعا من النموذج العقلاني : كيف حدث ؟ ولماذا حدث ؟ . وليس هناك مؤرخ يبدأ بعقل فارغ كما يفترض أن يفعل القاضى. فهو لا يذهب إلى الوثائق أو دور الحفظ ببراءة الأطفال ... وينتظر فى صبر حتى تملى عليه الاستنتاجات، بل العكس تماما. إذ إن الصورة التى لدى المؤرخ، نسخة من الأحداث كانت قد تكونت قبل أن يبدأ الكتابة أو حتى البحث ... وعندما يكون هناك مؤرخ يعمل على موضوعه، فإن الأحداث أو المعلومات الإحصائية أو أيا كانت المعلومات التى يستخدمها، تتغير تحت يده طوال الوقت كما تتغير معها أفكاره عن هذه الأحداث[٥٩].

وعلى الرغم من أن تايلور تقبل بشكل واضح تدخل المؤرخ ونزوعه لفرض أفكاره، فإنه لم يتناول مباشرة موضوع البناء السردي باعتباره شكلا من أشكال الفهم التاريخي . لقد كان الأقرب لهذا زعمه أن التاريخ « ليس مثل الخيال التاريخي عندما يكون ممارسة فى الخيال الإبداعي» . وكان اتجاه تايلور، بطبيعة الحال، أننا نحن المؤرخين مقيدون «بفعل جوانب القصور فى معرفتنا» وبفعل المؤرخ الذى يدفع نفسه « متقهقرا فى رحاب الزمان»، أو تقمص الماضى . ومع هذا كان تايلور فطنا بالقدر الكافى لأن يعترف، مع كارل ماركس، أن المؤرخين عندما يكتبون التاريخ « فإن نسختنا التى توضع فى كلمات، تكون هي نفسها زائفة». وقد خلص إلى : « نحن نحاول أن نوقف شيئا لا يقف أبدا موقف الثبات، فما إن يكتب حتى تنتقل نسختنا نحن أيضا »[٦٠]. وما كان تايلور يشير إليه هي المراجعة المتواصلة فى التفسير التاريخي، بيد أنه كان يقترب من تركيب مفاصل العامل الرئيسي الذى يكبح المؤرخين الذين يحاولون فهم الماضى -تنظيمه بوصفه سردا، يتناسب على أفضل وجه مع حقيقة ماحدث بالفعل - وهو ما يسميه المؤرخ روبرت بركهوفير Robert Berkhofer «القصة العظيمة»[٦١]. وقد اعترف تايلور أن السرد هو الذى يردم الفجوة أو الثغرة المعرفية بين المؤرخين والأدلة - سواء كانوا من التيار السائد أو من التفكيكيين - وكلهم ببساطة يقدمون سردا عن الماضى، أو يكتشفون طبيعته التى اتخذت سمة السرد. وكما يقول بركهوفير، هل يمكن لنا أن نتجاوز ماوراء « قصة عظيمة» لنصل إلى الحقيقة نفسها ؟ - أي القصة الحقيقية ؟

إذا ما أعطينا الأولوية للغة وقدمناها على محتوى التاريخ، يبرز موضوع النسبية مع اختيارنا التصوير المجازي بدلا من الأمور الأيديولوجية . ففى سنة ١٩٩٥ م نشرت الجمعية التاريخية الأمريكية الطبعة الثالثة المعاصرة من كتابها الذى يحمل عنوان Guide to Historical Literature وفى أول قسم منه تناول ريتشارد فان Richard T.Vann النظرية والممارسة فى الدراسة التاريخية المعاصرة، ملاحظا أن الوعي الحديث بدور السرد فى تكوين المعنى التاريخى قد صار أكبر، وقد اعترف فان أن تركيز الاهتمام فى التاريخ « قد تحول بشكل كبير من الانشغال بالسببية، والتفسير، والحسم، والأحكام الخلقية، إلى اللغة التى يستخدمها المؤرخون والقصص التى يحكونها » [٦٢] .

قد تقبل أنه في السنوات الثلاثين الفائتة، كان كتاب هايدن هوايت Metahistory أكثر الكتب التى تتناول المنهج التاريخي تأثيرا ، ولكن من وجهة نظر فان أن هوايت قد افترض لسوء الحظ « أن يبين أن الأحداث التاريخية يمكن أن تساند أي عدد من السرديات - حتى السرديات التى تختلف أنواعها اختلافا بينا » . وبدلا من التعامل مع معلومات إمبريقية منظمة عبر النظرية الاجتماعية، يرى هوايت أن التاريخ قد خلق من خلال الشعر، والصور المجازية والقراءات الإيديولوجية والخلقية . وعلى حد قول فان، فهذا «رفع منظور النسبية بطريقة جديدة، مما أرغم المؤرخين على مواجهة مشكلة المقارنة بين السرديات المتاحة، والتى ربما كانت كل منها مؤلفة من عبارات حقيقية» ونتيجة لهذا فإن حرية السرد المكتشفة حديثا قد تحققت على حساب عدم القدرة بعد ذلك « على تجريد السرديات البديلة من صدقها عن طريق التوسل بالأدلة» . وهذا، فى رأي فان، ثمن لا يرحب معظم المؤرخين بدفعه، ومن ثم الكراهية الذى قوبلت بها معظم آراء هوايت التفكيكية السردية (٦٣) .

وبينما يتفق معظم المؤرخين مع كولينجوود على أنه، على الرغم من أننا لا نستطيع أن نعرف الحقيقة التاريخية، فإنه يسعدنا أن نقبل « الحقيقة الواضحة التى تقول إن بوسعنا أن نستبدل حكاية بأخرى، ولنفعل هذا حقا»، ومن الواضح أن هذا ليس قائما على أرضية تفكيكية أو نسبية يقدمها هايدن هوايت . ويقول كولينجوود إن هذا تم « ليس على أرضية من التفضيل الشخصي وإنما على أرضية موضوعية تماما، وهي أرضية لابد لأي واحد أن يعترف بقيمتها المعرفية إذا ما نظر فيها، على حين أنه لا يزال يدرك تماما أن سردنا الخاص ليس الحقيقة كلها وأنه من المؤكد أنه غير حقيقي من بعض الجوانب (٦٤) . ويتفق ماكولاج مع تايلور (ومع كولينجوود فى هذا المثال) على أن المؤرخين لا يمكنهم الابتعاد عن اللغة والكلمات :

« تكاد الأوصاف كلها التى تطلق على العالم تستخدم اللغة، ولكن هذا ... لا يمنع كونها صادقة أو زائفة . وفى حالة الوصف الأدبي، تكون الأوصاف صادقة إذا ما كان أحد أوضاعها الممكنة لشروط الحقيقة يتواصل مع ما حدث بالفعل، وعندما نقول إنها صادقة معناه أن نؤكد أن مثل هذه الصلة موجودة، أي أن العالم كان على الشكل الذى وصف به» (٦٥) .

هذا الموقف يرفض نموذج هوايت فى التفسير التاريخي القائم على أساس تصويات مجازية من نوع التجانس فى حبكة القصة، مجادلا أنه من غير المحتمل أن يكون ممكنا تفسير انتفاضة وارسو سنة ١٩٤٤ م، مثلا، بشكل مساو لتفسيرها لو كانت رواية خيالية، أو كوميديا، أو رواية مأساوية (٦٦) .

ويبدو أن معظم مؤرخى التيار السائد قد تبنوا هذا الموقف . وكما قال المؤرخ الأمريكي ديفيد كارول عن تأثير كتاب هايدن هوايت Metahistory : «سيكون من العدل القول إن مهنة التاريخ بأسرها قد رفضت أن تأخذ بجدية أي مقاربة للتاريخ تتخذ مظهرا أدبيا أو بلاغيا بأكثر مما ينبغى . وقد تجاهل معظم المؤرخين، أو رفضوا ببساطة، الإمكانيات النقدية التى انفتحت بكتاب هوايت ... والمتأثرة بالإستراتيجيات النقدية ما بعد البنيوية والنظريات التفكيكية عن الخطاب والنصية» (٦٧) .

ولكنه بعد أن قال ديفيد كارول هذا، يتفق مع المؤرخ الفرنسي فيليب كاراد على أن المزيد والمزيد من المؤرخين يدركون (أو يجب أن يكونوا مدركين) للبعد الأدبي أو الشعري باعتباره بعدا مهما أو مميزا لكتابة التاريخ . والدرس الأساسي الذى يعيه غالبية المؤرخين اليوم أن يفهموا أن « من المستحيل أن يتحقق هدف التاريخ الموضوعي فى اللغة» (٦٨) : فلا الإمبريقية الفجة، ولا الوضعية، هى الطرق التى يمكن اتباعها فى محاولة التغلب على السمة التصويرية والبلاغية للغة والنصوص وهذا الاعتراف، بالنسبة لكارول، ليس بيعا للتاريخ إلى التفكيكية، ولكنه اعتراف بسيط « بفروض التاريخ المعرفية والإيديولوجية وجوانب القصور فيه من ناحية، وشكله، وعملياته البلاغية، وتأثيراته، وتناقضاته، من ناحية أخرى»(٦٩) .

هذا الموقف المحبذ للسرد، وإن كان معاديًا للتفكيكية، يصادق عليه المؤرخون المعتدلون من أنصار إعادة كتابة الماضى من أمثال آبلبى، وهنت، وجاكوب الذين يفترضون « بنظريتهم الجديدة عن الموضوعية» أن الحقيقة تأتى من صراع الأفكار «بين مجموعات مختلفة من الباحثين عن الحقيقة». ويكون وصولنا النفعي إلى هذه الحقيقة عبر صلاحية كل إعادة بناء للحقيقة تعتمد على « دقة الملاحظات وكماله، وليس على ... البديهة والحدس» (٧٠) . وهم يجادلون أنه « بإنكار أن كتابة التاريخ الموضوعي حقا بسبب الجهد الخلاّق الجوهري من جانب المؤرخ تعنى أن تبقى مرتبطا بمفاهيم

القرن التاسع عشر لإنتاج المعرفة» . وبينما يرفض انهيار ما بعد الحداثة للذات والموضوع والوعي التفكيكي الكاريكاتوري للتاريخ كما لو كان قد ابتعد قليلا عن النزعة الوضعية فى القرن التاسع عشر، وهم يقبلون مع ماكولاج وكارول، وآبلبى، وهنت، وجاكوب تمام القبول أن قيود اللغة موجودة فى السعي وراء الحقيقة . وهم يعترفون بفقر التوافق بين ما حدث فى الماضى وإعادة بناء المؤرخ له بأسلوب سردي .

كيف يبدو هذا التوافق الفقير فى الممارسة ؟ إن المؤرخين، على نحو ما أشار آرث دانتو، يستخدمون الجمل السردية للإشارة إلى أحداث تجرى على مر الزمان(٧١) وتتطلب مثل هذه العملية استخدام السرد لشرح الروابط السببية بين الأحداث باعتبارها نهاية نتاج دراسة المصادر ووضعها فى سياق تفسيري . وفى نظر المؤرخين التفكيكيين مثل هوايت، أن مثل هذه العملية مشوبة بالنقائص لأن المؤرخ لا يستطيع الإمساك بالماضى سواء من خلال اللغة أو باعتبار الماضى حكاية سردية، وقد تخلى البحث عن الحقيقة عن مكانه لتأثير الحقيقة فى الوسائل السردية للتفسير مثل التصوير المجازي، والأسلوب، والبلاغة، والجدل، والرواية الأيديولوچية . وثمة فيلسوف تاريخ آخر، هو أندرو نورمان Andrew P.Norman، يرفض تحليل هوايت المعادي للسرد التاريخي، مشيرا بدلا من ذلك إلى أنه مع أن السرد الوسيلة التفسيرية الجوهرية بالنسبة للمؤرخين، فإن طبيعته التصويرية لا تعنى أنه لا يمكن أن يكون أدبيا فى الوقت نفسه، وزعم أنه « ليس هناك شيء متناقض فى هذا » (٧٢) . وبعبارة أخرى، فإن اللغة فى شكلها السردي ليست تضليلا يائسا، ولكنها على علاقة بحقيقة الماضى بما يكفى لجعل البحث عن الفهم التاريخي أمرا ذا جدوى .

وتقبل آبلبى، وهنت، وجاكوب هذا الرأي، وأن المؤرخ يختار باستمرار اختيارات أدبية لوصف الماضى وتقييمه « له تأثير قوي على الطريقة التى يتم بها تقديم الأدلة والمناقشات». وكما يقولون، يختار المؤرخون الشكل والأسلوب عمدا لتطبيق المجادلات وجعلها مقنعة . وكتابهن Telling The Truth About History كان حسبما يعترفن صراحة مكتوبا من موقف قصد به أن :

«يتعدى ما وراء الأحكام السلبية أو الساخرة الجارية حول دور التاريخ . ونحن بوصفنا مؤرخين ... قد حسمنا اختياراتنا الجمالية، تماما مثلما اختار آخرون الفكاهة

أو الرواية أو السخرية مجالات لكتاباتهم . ونحن نؤكد على الحاجة البشرية لفهم الذات من خلال حكاية سردية عن الماضى والحاجة إلى تفسيرات موضوعية يعترف بها جزئيا عن كيف كان الماضى يعمل . وبهذا المعنى، نكون قد تبرأنا من موقف ساخر»(٧٣).

فى تفنيد مفهوم هوايت عن الصبغة الأدبية الحتمية للتاريخ، تقدر هؤلاء الثلاث أن ما كتبنه يتطلب اختيارات جمالية أو أدبية لأنها تنطوى على طرق لتنظيم السرد «، بيد أنهن واثقات من أن « التاريخ أكثر من فرع من فروع الأدب بحيث يحكم عليه فى ضوء جدارته الأدبية فقط» فهن يفسرن تاريخهن، الذي كتب جزئيا على أنه نتيجة اختياراتهن الأدبية، بوصفه « تاريخا سياسيا، واجتماعيا، ومعرفيا» أكثر من كونه متسقا ليكون نمطا مجازيا أدبيا . وفى تلخيص لموقفهن الواقعي العملي المعتدل لإعادة بناء الماضى يخلصن إلى أن هذه الاختيارات الأدبية :

« سياسية واجتماعية لأنها تعكس نوعًا معينًا من جماعة المؤرخين ومجتمع الأمريكيين. وهي معرفية لأنها تعكس مواقف عما يمكن أن يكون معلوما وكيف يمكن أن يكون معلوما . ومع المثابرة وحسن الإيمان يمكن أن تكون أيضا روايات حقيقية، وبشكل معقول أحيانا ... عن الماضى» (٧٤) .

وباعتبارهن من المؤرخين الواقعيين العمليين، فإنهن يقبلن أن « الحقيقة الاجتماعية مبنية من الناحية الثقافية ومفسَرة خارج السياق فى المثال الأول»، كما أن « النماذج التى لا يربط بينها رابط والنماذج اللغوية تلقى بالأشكال التى وُجدت ذات مرة للشرح التاريخي التقليدي فى غياهب الشك»، وبهذه الطريق يفتحن الطريق أمام أشكال جديدة من البحث التاريخي، وتلاحظن أن عمل فوكو ربما يكون أفضل مثال معروف من هذا الشكل الجديد له علاقة تاريخية مباشرة»(٧٥). إن محاولتهن التقابل مع مؤرخى المذهب التفكيكي فى منتصف الطريق، إلى حد أنهن « لا تنفضن أياديهن من كل شيء ولكنهن يمضين قدما مع أنصار ما بعد الحداثة» وهى محاولة لها جوانب قصورها أيا كانت . فما بعد الحداثة لم تقنعهم، كما لم تقنع معظم المؤرخين، بصلاحية « الحسم اللغوي ... وتخفيض العالم الاجتماعي والطبيعي إلى اللغة والسياق للنص». وتستمر فى القول: «إذا تخلى المؤرخون عن تشابهات المستويات (مدرسة الحوليات) أو البناء الفوقي الأساسي (الماركسية) . فهل يجب عليهم أيضا أن يتخلوا عن النظرية الاجتماعية

واللغة العارضة أيضا؟(٧٦). وبعبارة أخرى، إنهن لا تقبلن فكرة أن التفكيكية قد ألقت شكا حقيقيا حول قوة السرد وقدرته على التفسير . هذا الدفاع عن التاريخ السردي الواقعي وحّد كلا من المؤرخين الواقعيين العمليين من أنصار إعادة بناء الماضى والبنيويين من حيث قبولهم لفرض المؤرخين تصوراتهم على السرد بوصفه بعدا مهما فى التحليل التاريخي .

وكثير من البنيويين لا يزالون، بطبيعة الحال، ينكرون أي قوة تفسيرية للسرد، مشيرين بدلا من ذلك إلى أن التاريخ اللاسردي هو التاريخ الحقيقي الوحيد . ذلك أن ستانفورد، على سبيل المثال، يصرُ على أن السرديات، التى تعرف بأنها وصف الأحداث فى تتابعها الزمني الأصلي أو الطبيعي، لا يمكن أن تكون تحليلية . وبغض النظر عما إذا كان كل سرده (سواء كان تاريخيا أو خياليا) يتطلب أبطالا وأن تتبع مسار التغير الذى جرى تصويره بلاغيا على مرِ الزمن، فإن كثيرا من البنيويين ظلوا أكثر اهتماما من الناحية البلاغية على مرِ الزمن بوضع خريطة الموضوعات والبنى التى يمكن أن تفتقر بشكل مشروع تماما إلى أي معنى، كما قال إيريك هوبساوم، عن « تغير موجه» (٧٧) . ومعظم البنيويين، بطبيعة الحال، لديهم بالفعل إحساس بالتغير على مدى الزمان، وكذلك يفضلون الأفكار عن الاتجاه الذى يأخذهم إليه وصفهم للأحداث وتقييمهم لها ومعهم قارئهم (لتاريخهم غائية ما) . وما يعنيه هذا هو أنهم يعتقدون فى الحقائق المأخوذة إمبريقيا، والحاجة إلى وصف سردي لمعناها، على حين لايقبلون أن لمثل هذا الوصف قوة معرفية. وثمة فيلسوف بنيوي ينتمى إلى ما بعد البنيوية هو السادير ماكنتاير Alasdair Macintyre قد جادل أنه لن يكون مفيدا أن نعفى القصص من معيار الحقيقة: «فإن من المهم للغاية أن تكون قصصنا صادقة» (٧٨).

وهكذا، بينما يقبل بعض الماركسيين السرد باعتباره وسيلة لحمل التحليل التاريخي فإنهم لا يوافقون على أنه يقدم المعنى الحقيقي للماضى . ويرفض الماركسي أليكس كاللينيكوس بناء على هذا رؤية هوايت لدور السرد فى التحليل التاريخي باعتباره مضاد للحقائق ومحمّل بالإيديولوجيا . وفهم التاريخ على أنه تقديم تاريخي يشوبه الخيال، حيث يأتى المعنى فى النهاية من كيفية كتابته وليس بناء على المرساة الحقيقية الفعلية للحقائق الواقعية التى يمكن كشفها ووصفها، يوحى إلى كاللينيكوس

أن هوايت له جدول من شمال الأطلنطي محمل بالشك والنسبية (وهو ينتمى لما بعد الحداثة) وليبرالي بورجوازي ! وبهذا يكون هوايت غير مستعد لأن يفرق بين الحقيقة والخيال، أو على حد تعبير كاالينيكوس، عاجز عن أن يبعد نفسه عن « الأساطير الوطنية التاريخية»، وهو ما يقصد به تناول هوايت لأحداث بعينها مثل الهولوكوست . وفى رأي كاالينيكوس، وغيره من النقاد غير الماركسيين، أن شكلانية هوايت ونسبيته يجعلانه غير قادر على التمييز بين الحقيقة والتفسير، والحقيقة والخيال (٧٩) .

على أي حال، لايزال غالبية البنيويين يميلون باتجاه الرأي الذى قال به كولينجوود عن السرد فى كتابه The Idea of History إنه ليس عملا جيدا أن « نقص ونلصق» الأدلة لكي تنتج روايات تاريخية من هذه العملية التجميعية (٨٠) . وبالنسبة لكولينجوود يكون هذا «الشكل على التاريخ» غير كاف لأنه لايسمح للمؤرخ أن يتحدى سلطة المصادر . والواقع أنه يخلق مؤرخين يمارسون فقط نوعا سلبيا من الاستقراء (يشبه الموقف الفظ لأنصار إعادة بناء الماضى). والمنهج الصحيح عبارة عن عملية سؤال وجواب، تحد واستفسار من خلال تطبيق الأدلة على نظرية يمكن اختبارها . وبعبارة أخرى، تبرز الحقائق التاريخية مما كان كار يزعم أنه حوار تفسيري ينطوى على شكل ما من التصنيفات الاجتماعية /السياسية فى التحليل، ويصير الدليلمصدرا للأسئلة وليس الإجابات، والتاريخ استفسار عن الماضى من خلال التصوير المجازي لأي نظرية اجتماعية مناسبة . والحقائق عبارة عن بنى شأنها فى ذلك شأن أي شيء آخر فى التاريخ . وفى رأي البنيويين، إذن، فإنه لا الإمبريقية المحافظة التى تفتقر إلى النظرية، ولا التفكيكية الراديكالية التى تنكر النظرية الاجتماعية ولكنها تعتمد على السرد المعيب، يمكن أن تكسب جائزة حقيقة الماضى .

خاتمة

يقبل المعتدلون فى التيار السائد بين البنيويين وأنصار إعادة بناء الماضى على السواء فكرة أن استخدام اللغة – سواء كانوا يكتبون قصة الماضى أو قصة من الماضى–تؤثر بشكل مباشر على الفهم التاريخي . بيد أن هذا لايعنى أن التاريخ مجرد

نوع آخر من الأدب الخيالي . وكان لابد أن يعنى هذا الموافقة على أن التاريخ من الناحية المعرفية لا يختلف عن الشعر، أو الدراما، أو مسلسلات التليفزيون . ويرفض الواقعيون العمليون ما يزعمه التفكيكيو نأن السرد القصصي يجب أن يملأ الثغرة الموجودة بين الحقائق وتفسيرها لأنه هو الذى يشكل المعنى التاريخي . وإذا واصل المؤرخون قبول أن مهنتهم عليها دراسة الأدلة الواردة فى السياق والاستخدام الجيد للنظرية الاجتماعية التى تسعى لتفسير الروابط بين الأحداث، ثم يزعم كما يفعل التفكيكيون، أن التاريخ شبيه بالتأليف الخيالي، فإن هذا يكون منطقًا سيئا وغير أمين فى آن معا . ومن ثم، فإن المؤرخ جيمس واين، السائر على درب تراث كولينجوود وكار، يتمسك بأن التفكيكيين والمؤرخين الجدد « يميلون إلى الإفراط فى ضرب الجياد الميتة» حينما يتهمون المؤرخين بالعمل على فروض تنطوى على الاعتقاد أن يمكن معرفة التاريخ، وأن الكلمات تعكس الحقيقة وأن المؤرخين يصرون على رؤية حقائق التاريخ بموضوعية . وقليل من مؤرخى التيار السائد اليوم يعملون انطلاقا من مبادئهم فى السعي وراء « الكأس المقدسة الوهمية للحقيقة الموضوعية» × ولكنهم يناضلون فقط لكي يضعوا « تفسيرا ذاتيا حتميا بني على أفضل تجميع ممكن للحقائق المادية»(٨١)

وما يمكننا أن نلخصه إذن على أنه رد معتدل على التفكيكيين، يستلهم كولينجوود وكار، لهو رد أكثر إفادة وعقلانية كثير من رد إلتون ومارويك اللذين يواصلان الصخب حول الإمبريقية ومبادئها الستة . واقتناع التفكيكية أن المصادر الأولية لايمكن أن توفر سبيل الوصول إلى الحقيقة التاريخية بسبب العجز الجوهري عن معرفة حقيقة الماضى أمر غير مقنع على الإطلاق، إذا أخذنا فى اعتبارنا أن جميع الأدلة المتاحة تبين العكس وكما قالت آبلبى، وهنت، وجاكوب :

---

* يشير المؤلف هنا إلى موضوع الكأس المقدسة الخرافية فى أساطير العصور الوسطى فى أوروبا التى يستحيل العثور عليها . والمقصود هنا أن الحقيقة الموضوعية فى التاريخ وهم يستحيل تحقيقه . (المترجم)

« إنه بافتراض التسامح فى سبيل درجة من عدم الحسم، يتشجع الباحثون الواقعيون العمليون على النهوض من الفراش صباحا، ويتوجهون مباشرة إلى دور حفظ الوثائق، لأنهم قادرون على كشف النقاب عن الأدلة، ولمس الحياة التى كانت منذ زمن طويل، ويرون نماذج فى الأحداث التى بقيت مستعصية على التفسير»(٨٢) .

ويعترف المؤرخون اليوم أن فعل وصف ملاحظة ما لا يلغى بالضرورة صدق هذا الوصف . وبالقدر نفسه، فإن المؤرخ ليس وكيلا حرا فى تشكيل الأدلة ، مثل المثال الذي يأخذ قطعة الصلصال ويشكلها كيفما شاء . وهذا كله يضيف إلى النسبية التاريخية الموجودة دائما، وقد أشار المؤرخون الذين كانوا على قيد الحياة قبل أن يسكن التفكيكيون فى جوارهم إلى أن هذه ممارسة غير مقبولة. ومن الضروري الآن لصالح الجماعة أن نفحص شكاوى أولئك التفكيكيين القادمين حديثا بقدر أكبر من التفصيل .

(٦)

ما وجه الخطأ في إعادة بناء الماضى والتاريخ البنيوي؟

تقديم

في السنوات الأربعين الأخيرة كان التفسير التاريخي في مثال وضعي مرفوضا لصالح التاريخ السردي (١) . وقد أشرت الآن، بعيدا عن التعصب والتطرف، إلى أن معظم المؤرخين من أنصار إعادة بناء الماضى، ومن البنيويين صاروا على وعي بهذا التطور . ومع أن معظم مؤرخى التيار السائد ربما لا يزالون يرفضون أن يكون السرد الشكل الخاص بالتفسير التاريخي – القصص المفروضة – وكلهم يقبلون باعتباره الشكل السائد من أشكال الرواية التاريخية، على حين يتمسكون بأن المبادئ الستة التى تشكل حجر الأساس في التأويلات الإمبريقية تبقى أساسا لدراسة الماضى. وبينما يعترف الواقعيون العمليون بطبيعة المعرفة المتوفرة ثقافيا، فإنهم لا يزالون يصرون على شرح المصدر (الدليل) في تقديم صلة كافية لما حدث في الماضى بالفعل. وبينما يقبلون أن التصوير المجازى موجود في تقديم المعرفة التاريخية، فإنهم لن ينكروا الشرعية النهائية للمعرفة الإمبريقية . وبالنسبة لمؤرخي الاتجاه التفكيكي فإن هذا يمثل الصدع الذى يعيب مجادلتهم . فالتاريخ أكثر من أن يكون إسقاطا لمحتوى الماضى، إنما هو إسقاط من الشكل الذي يتخذه . وفي هذا الفصل سوف أتناول دلالات هذا بالنسبة للمثال الإمبريقي الراسخ من خلال العناوين الأربعة للتاريخ بوصفه معرفة منفصلة، والدليل التاريخي، والمؤرخ، والتاريخ الاجتماعي، وأهمية السرد بالنسبة للتفسير التاريخي .

معظم المؤرخين اليوم يدركون على الأقل الشكوك التى تساور عددا من الزملاء حول كون التاريخ علما إمبريقيا متمايزا . ذلك أن جوان سكوت، مثلا، وهي تستنجد بفكر ميشيل فوكو، قد أشارت إلى أنها تعنى بالتاريخ :

«ليس ما حدث، وليست «الحقيقة» الكائنة هناك وماهيتها التى يجب كشفها ونقلها، ولكن ما نعرفه عن الماضى وما القواعد والأعراف التى تحكم إنتاج المعرفة، وما القواعد والأعراف التى تحكم إنتاج المعرفة التى نعرِفها بأنها التاريخ ونتقبلها على هذا الأساس» .

وتستمر قائلة : «التاريخ ليس مرجعيا خالصا، وإنما بناه المؤرخون » وبموضوعات مثل الاتجاه اللغوي واستكشاف النوع ذهنيا، تصرُ جوان سكوت على أن « مستويات التاريخ ومعاييره فى التضمين وفى الاستبعاد، ومقاييس الأهمية وقواعد التقييم لا تكون معايير موضوعية وإنما قناعات تم إنتاجها سياسيا». وهى تتحدى مباشرة محاولات «حراس المنهج السليم » للحفاظ على « السيادة المطلقة لوجهة نظرهم التى تصرُ على أنهم فقط يقدمون الحقيقة» فقط، أو «العلم» أو «الموضوعية» أو«التراث» أو «التاريخ كما كان يكتب دائما » (٢). وبهذا الأسلوب تلقى سكوت القفاز فى وجوه مؤيدى النموذج التقليدي والإمبريقية مؤسسة أقل إقناعا، ولا وقت لديها، لكشف المعرفة التاريخية باعتمادها على العلاقة بين الكلمة والعالم أكثر من التنكر والتخفى المتهافت من أجل رؤية أيديولوجية جامدة محافظة وإقصائية للتاريخ باعتباره معرفة حداثية .

ولا يزال غالبية المؤرخين يقبلون النقاط الست الإمبريقية، على حين يسعون إلى إقصاء البعد الأدبي المعرفي للتاريخ . بيد أنه ليس كل فلاسفة التاريخ يقبلون المبادئ الإمبريقية الستة وهم لا يزالون رافضين للموقف التفكيكي . إذ إن ليون جولد شتين، مثلا، يشك بصورة جدية فى تبريرات ماكولاج للإمبريقية، ولاسيما مايرى منها أنه فروضها الأساسية الثلاثة : وأولها أن العالم يوجد مستقلا عن معتقداتنا عنه ؛ وثانيا، أن مفاهيمنا يمكن أن تقدم انطباعا دقيقا عن ذلك الواقع ؛ وثالثها أن قواعد الاستقراء

عند المؤرخ ووضع السياق طريقة يعتد بها للوصول إلى حقائق جديدة عن الواقع . ويرى جولد شتين أن الاعتراض الأول لا معنى له صراحة، والثانى ليست له صلة بالتاريخ على الإطلاق، والثالث غير موجود طالما لا توجد قواعد صريحة للاستقراء التاريخي يمكن أن تنتج عنها أدلة إيجابية . وكل ما يمكن للمنهج الاستقرائي أن يفعله هو تقديم المؤشرات على ماض يمكن قبوله على أساس الأدلة .

ووراء نقد جولدشتين للإمبريقية تبقى الدفعة الأصلية للتاريخ التفكيكي متمركزة على عواقب كتابة التاريخ . وقد أعلن هايدن هوايت، يسانده آخرون من الفلاسفة المهتمين بالسرد مثل : كيلنر، وروسين، وكار، وأنكرسميث، أن التفسير التاريخي لا يبرز بشكل طبيعي من الوثائق. ذلك أن التاريخ لا يملك منهج بحث موضوعي، ومن ثم، فإن نتائجه تكتب بطريقة منفصلة . وليس هناك فى التاريخ المكتوب يقين حول المعنى . ولا توجد معانى التاريخ، كما يشير كيلنر، فى الوثائق الأولية التقليدية، وإنما توجد فى بنى التقديم التصويري . وحسبما يصرُ كيلنر فإن كل التاريخ المكتوب « جزء من قصة، فهو سرد صريح أو سرد ضمني» [٣] . ويرجع إلى المؤرخ تصوير الأحداث التى وردت الإشارة إليها فى الماضى . وتصوير الأحداث يعنى أن تحول حولية تاريخية الأحداث إلى قصة سردية يتم فيها تفسير الأحداث وتكتسب معناها . ويظهر التفسير والمعنى عندما تكون الأحداث قد تشكلت باعتبارها شكلا من أشكال التصوير المجازي الرئيسية الأربعة. هذه المجازات الرئيسية الأربعة المعتادة تتيح للمؤرخين أن يفسروا «ماذا حدث» بتحويلها إلى قصة من نوع خاص : تصوير مجازي يكون روائيا، أو مأساويا، أو ساخرا، أو فكاهيا . ويكون «نوع القصة» شكل التصوير المجازي الذى تم اختياره . وهكذا، إذا تم تصوير تاريخ ما فى صورة مجازية على أنه رواية « يتم تفسيرها » بوصفها رواية – ويصير هذا حقيقة قصة الماضى .

ولأن القصص لا توجد فى الأدلة ولكن المؤرخين يقدمونها من خلال حبك القصة، على ما يرى هوايت، فإن موضوع الحقيقة هذا يكون حاسما . ويختلف هوايت عن المنظر الرئيسي الآخر لنظرية حبك القصة، وهو بول ريكور، الذي يقول إن التصوير البلاغي الذي يقوم به المؤرخ « تقليد خلاَق » بواسطة حبك التجربة المعاشة . ويرى ريكور، إذن، وضع حبكة القصة على أنه تقليد للفعل الذى وقع فى الماضى . وكل

المنظرين البارزين فى مجال السرد الأدبي : جيرارد جينيت Gerard Genette، وسيمور تشاتمان Seymour Chatman، والمتخصص فى علم النفس وفى السرد جيروم برونر Gerome Bruner، كان لابد لهم أن يتفقوا مع ريكور فى قوله: «معنى عمل حبكة القصة أن ... تجعل المفهوم ينبثق من الطارئ الذي جاء بالصدفة، والكلي من المفرد، والضروري أو المحتمل من الحادث العرضي» (٤) . هذا النوع من الحقيقة السردية لا ينبغى أن نخلطه مع الروايات الحقيقية التى لا توجد فى الفئة نفسها باعتبارها حقيقة سردية . وبينما يتطلب التاريخ وفقا للفهم التقليدي تقارير صادقة حقيقية، فإن الموضوع ليس على الإطلاق ماذا تكون الحقائق (لأنها عادة ماتكون محل اتفاق مالم يردد المؤرخ الأكاذيب)، وإنما كيف تم ترتيب الحقائق – أي كيف وضعت فى حبكة قصصية .

ويعنى هذا تأويل التاريخ على أنه فعل جمالي وشعري أكثر من كونه فعلا إمبريقيا، كما يعنى قبول فكرة أن كتابة التاريخ تولد نوعا من خاصا من الحقيقة التاريخية وليست «الحقيقة» المجردة . ومعظم المؤرخين لا يزالون يفترضون أن الوسيط المكتوب [اللغة] شفاف فى جوهره وأن استكشاف السرد بوصفه وسيلة معرفية تضييع للوقت . ويفضل المؤرخون، مثل العلماء، أن يجذبوا الانتباه إلى رد الفعل بدلا من الاستجابة السريعة . ويرجع إلى بيريز زاجورين Perez Zagorin فيلسوف التاريخ فضل تلخيص هذا القانون الحديدي فى تدوين التاريخ الإمبريقي: «فى التاريخ تكون اللغة إلى حد كبير خاضعة لجهد المؤرخ فى نقل فهم الماضى أو معرفة شيء فى الماضى فى أكمل الصور وأكثرها وضوحا وحساسية » (٥) .

وفى هذه المصطلحات يواصل معظم المؤرخين إعمال الخيال واللاخيال فى التاريخ. ويفضل معظمهم ألا يفكروا بعمق أكثر مما ينبغى فى الشكل الذي يحكون به مكتشفاتهم، بل المدى الممكن للأشياء التى يمكنهم قولها عن طريق (حبك) الأدلة .

واستجابة لهذا، يجدر بنا أن نُذكر أنفسنا أن الإمبريقي الرائد ليوبولد فون رانكه، على الرغم من تأكيده على البحث فى المصادر، لم يحجم عن الاعتراف أن البحث يجب أن ينتج «قصة مقبولة» . وعلى حد تعبير رانكه :

«يتميز التاريخ عن جميع العلوم الأخرى من حيث إنه فن أيضا . فالتاريخ علم من حيث الجمع، والاكتشاف، والتغلغل فى الدراسة ؛ وهو فن لأنه يعيد خلق ما وجده وتعرف عليه ويصوره . أما العلوم الأخرى، فترضى ببساطة بتسجيل ما تم العثور عليه؛ كما أن التاريخ يتطلب القدرة على إعادة الخلق» (٦) .

ومعظم المؤرخين لا يسيرون على نهج هذه المجادلة، أن التاريخ يمكن أن يؤخذ باعتبارع علما وفنا على السواء، ولا ينتبهون إلى قوة اللغة فى تشكيل المعنى وخلق الفهم . وعلى الرغم من قوة اللغة فقد جرت العادة على التغاضى عنها لأن النموذج الراسخ يحدد ملامح مايفعله المؤرخون وما يعتقدونه حسب معايير أخرى غير المعايير الجمالية . وكما نعرف، فقد أنتج هذا فى القرن العشرين الرأي القائل إن التاريخ يهتم معرفيا باكتشاف «الحقيقة»، ويؤكد موضوعيا صلاحية المعرفة التاريخية .

بيد أن هذا التيار السائد لم يقبل بدون تحديات . وإذا لم يكن فى المصطلحات التى استخدمها فون رانكه فإن الموضوعية التى تستلهم الإمبريقية كانت تتعرض لهجوم متواصل من النسبيين . وفى ثلاثينيات القرن العشرين جادل كولينجوود والمؤرخان الأمريكيان تشارلز بيرد، وكارل بيكر أن الموضوعية التاريخية أسطورة . وكما أشار كولينجوود لابد أن يكون للتاريخ غرض، ومن غير المؤرخ يمكن أن يكتشف هذا الغرض ؟ وفى رأي كولينجوود أن المؤرخ يستخدم الدليل لكي يفصل القصد وراء الأفعال، ومن ثم مقاربته التقمصية . وإذ أخذت الموجة الجديدة من التفكيكية تكسب أرضا منذ السبعينيات فإنها – ملهمة جزئيا بفورة مابعد الحداثة وما يصفه أنكرسميث بأنها فلسفتها السردية – بدلا من أخذ مفاهيم كولينجوود الباكرة لتحدى الاتفاق بين مؤرخى إعادة بناء الماضى، وبدلا من ذلك أختار أن يؤكد بنى السرد التى يستخدمها المؤرخ التى تشركه بصورة حتمية فيما يخلقه . ولكن النتيجة بالنسبة لكل من كولينجوود ومؤرخى ما بعد الحداثة هو أننا لا يمكن أن نفصل أنفسنا عما ندرسه . ويكون كل التفسير التاريخي بالتالى مشروطا، ونسبيا، وبنيويا . والتفكيكية، بوصفها منهجا تاريخيا، إنما هي تفكيك طبقات هذه المعانى والتفسيرات البنيوية .

وتسعى عملية التقشير (التفكيك) هذه وراء ما هو مضغوط فى النص (سواء كان أوليا أو ثانويا) – ليس فقط ما هو مخبوء عن القارئ الساذج، ولكن أيضا ماهو مخبوء

من مقاصد المؤلفين . ويسعى المؤرخ التفكيكي وراء ما هو موجود فى النص الذى يجرى عكس ما يبدو للوهلة الأولى أنه يؤكده . ورد الفعل هذا بالذات يسعى للبحث عما يتم تجنبه وكبته وكذلك ما هو منكور ولا مشروعية له . ويجب علينا أن نسعى باستمرار وراء ذلك الذي لايبالى به النص، باسم الموضوعية والعقلانية –أي ما يسميه كثير من المؤرخين « الآخر » . وقد جلبت الموضوعية العقلانية فى الثقافة الغربية فى القرن العشرين على نفسها وعلى الثقافات الأخرى الموت والدمار على نطاق لم يكن متخيلا حتى الآن فى اضطهاد «الآخر» – (اليهود، والصرب، والكروات، والنساء، والفقراء، والمثليين، والمهاجرين، والسكان الأصليين، وأعضاء آخرين كثيرين من المهمشين والجماعات المضطهدة) . وفى تحد للنقاط الست للميثاق الإمبريقي، لايرفض الوعي التفكيكي العقلانية أو العقل كما هي، وإنما بدلا من ذلك يشير إلى أن ممارسته لاتنتج الصواب أو أنها سوف تقود إلى الحقيقة دائما . والموقف التفكيكي لا يرفض الحقيقة التاريخية بل يتساءل عن وصولنا إليها، ومن ثم، الوصول إلى معناها . ويجادل التاريخ التفكيكي أن هناك دائما أكثر من حقيقة واحدة . وأخيرا لا يعلن التاريخ التفكيكي أنه ليست هناك تراتبية فى القيمة، وإنما يعلن بدلاً من ذلك أن الجميع قادرون على صنع قيمة مختلفة ومشروعة حول ماهو صواب وما هو خطأ .

وهناك معلقون متنوعون مثل آنكرسميث، وبيتر نوفيك، وديفيد هوللينجر، جادلوا أن النموذج الإمبريقي لحسن الإدراك لاشتقاق المعرفة التاريخية، القائم على الاعتقاد فى الموضوعية التاريخية، قد ناله الدمار بشكل قوي [٧] . وليس هذا بسبب مؤامرة مقصودة لمهاجمة التاريخ بوصفه علما، ولكنه نتيجة الاعتراف العام ما بعد البنيوية أن مفهوم الموضوعية العلمية، معيار الحقيقة ومكونات للمعرفة، والذي يوجد على نحو ما خارج التجربة الاجتماعية، إنما هو افتراض يشوبه الشك . وهناك فلاسفة تاريخ آخرون، بغض النظر عن ليون جولدشتين، قد ألقوا بالشك على طبيعة الإمبريقية بوصفها الأساس الذي يقوم عليه الفهم التاريخي . وقد أعاد فيلسوف التاريخ البريطاني مارك بيفير القول مكررا النقطة الدالة على أن رواياتنا عن تجاربنا تعتمد على تصنيفاتنا التنظيمية بقدر ما تعتمد على على التجربة نفسها . وعلى حد تعبير بيفير :

« لايعنى هذا أن تصنيفاتنا تحدد ما التجارب التى لدينا ... ولكنها تعنى بالفعل أن تصنيفاتنا تؤثر على الطريقة التى نجرب بها أحاسيسنا . ذلك أننا نضفى المعنى على الأحاسيس التى تفرضها علينا الأشياء باستخدام تصنيفاتنا . ولأن تجاربنا تجسد افتراضات نظرية، فإن تجاربنا لا يمكن أن تكون خالصة، وهذايعنى أن تجاربنا لا يمكن أن توفر المعلومات غير المزوقة لتحديد الحقيقة أو الزيف فى نظرياتنا (٨) .

إننى أقرأ بيفير وهو يقول إن الإمبريقية خاطئة بوصفها منهجًا للحصول على المعرفة لأن فهمنا لتلك المعرفة يكون متأثرا دائما بـ «فروضنا النظرية » . ومن تراث كل منهما المختلف عن الآخر، أسهم كل من كولينجوود (كيف يمكننا ترجمة الدليل النصي لتحديد القصد وراء الفعل الإنساني) ودريدا (كيف يمكننا أن نفسر النصوص على الإطلاق ؟) فى الموقف التفكيكي الذى يؤكد على، كما لاحظنا للتو، أنه يركز على إدراك أهمية تدخل المؤرخ لفرض أفكاره وتنسيق النص لخلق المعرفة التاريخية . فبعد الألفية، وتحت تأثير حالنا ما بعد الحداثة، فإننا نمر بتجربة إعادة تعريف فلسفة المعرفة والدراسة التاريخية لأننا نواجه الآن من جميع الجهات موضوع عدم التوافق بين الكلمات والأشياء . وعندما يقول المؤرخون إنهم يواجهون الماضى، فإنهم يواجهون اللغة فى الواقع . فاللغة مثل الذاكرة، يمكن استرجاعها، ولكنها لايمكن أن تكون سوى بديل عن الحقيقة فقط .

وعلى أرضية عملية بقدر ما هي معرفية، يقبل التاريخ الثقافي الجديد أن التغيير والاستمرارية فى الماضى يمكن تفسيرهما على أنهما وظيفة من وظائف خطاب المؤرخ بقدر ما يمكن تفسيرهما على أنهما الدليل الخام أو سجل حقائق الحياة اليومية فى الماضى . وتفسير التكوين الثقافي أواخر القرن التاسع عشر فى كل من أمريكا وأوروبا ليست مستمدة فقط من التجربة المكتوبة عن الحياة السياسية، أو الدينية، أو الحياة فى المصنع، أو ظروف الحياة الحضرية أو الريفية (أحداث واقعية تحت وصف اتخذ صيغة السرد)، أو خطاب المجموعات السائدة والمجموعات الخاضعة فى أصوات العرق، والجماعة، والطبقة والنوع . هذا السجل وهذه الأصوات يتم تفسيرها من خلال بناء السرد الذي يتحقق الفهم من خلاله . ويعنى التفسير التاريخي الماضى مترجما من خلال السرد(٩) . ويوسِّع الحوار المتصاعد بين التاريخ والنقد الأدبي من نطاق الأفق

الطبيعي للعلاقة بين التغير الثقافي ومعرفتنا التاريخية به . وهو أيضا يطرح تساؤلا جديا عن التاريخ بوصفه معرفة متمايزة عن ممارسته الثقافية وتلوثه بحاجات المجتمع، ومطالبه، وبنى القوة فيه .

لقد تم تأطير مناقشاتنا حتى الآن فى شكل أسئلة معرفية أساسية حول التاريخ باعتباره شكلا من أشكال المعرفة . فهل نتوقع أن يعيد المؤرخون بناء الماضى كما كان بالفعل ؟ ربما يكون من الأفضل أن ننظر إلى التاريخ بوصفه نوعا من الأدب كتب باسم البحث عن الحقيقة ؟ هل يمكننا فى نهاية المطاف، أن نؤمن بالماضى فقط بسبب الكم الكبير من الاتفاق بين المؤرخين حول ما حدث من خلال خلق الحقائق التاريخية ؟ كيف يستخرج المؤرخون التفكيكيون ما يُسمى الحقائق التاريخية، وما درجة إمكانية الاعتماد عليها ؟ هل يمكن أن يكون التاريخ موضوعيا على الإطلاق ؟

الدليل

فى كتابه Child Loving: The Erotic and Victorian Culture يقول جيمس كينكيد James Kincaid إنه : «أقل اهتماما بإعادة بناء الماضى منه بفحص ما يمكن لمناهجنا لإعادة بناء الماضى أن تحكيه لنا عن سياساتنا الخاصة » فى الحاضر (١٠) وإذ كان موقف كينكيد يضايق المؤرخين المتشددين من أنصار إعادة بناء الماضى، فإنه مؤشر على موقف التفكيكيين إزاء المصادر والمنهج . وبدلا من قبول كينكيد المصادر على أنها بقايا مقدسة من حقيقة الماضى، الإمبريقية باعتبارها المنهجية المؤثرة الوحيدة القادرة على الوصول إلى حقائقه، فإنه وسّع من آفاق دراسة الماضى بالاعتراف بسمتها الحاضرة . مثل هذا النموذج فى التحليل يسمح بنوع القراءة المتحذلقة للمصادر التى قام بها مؤرخون آخرون : مثل كارول دوجلاس سباركس . ولأنها مؤرخة متخصصة فى تاريخ استغلال النسوة الأمريكيات من السكان الأصليين، يكشف موقف سباركس التفكيكي كيف أن مصادرها الإنجليزية منحازة عرقيا فى تصويرها لصور النساء الهنديات الحمراوات وعلاماتهن، على حد قولها : «إن تفكيك هذه العلامات، أو رموز الأهمية الثقافية، لا تكشف فقط عن نسيج الاستعمار الأمريكي العرقي فى القرن

التاسع عشر، وإنما تقشر أيضا طبقات الخيال الاستشراقي لكي تكشف عن النساء الحقيقيات» تحت هذه القشور .

وتؤهل سباركس هذه الرؤية الداخلية برفض النسخة الشائعة من عبارة دريدا الشهيرة بأن هناك فقط نصوص ولا نصوص، وتواصل القول إن «التحليل النصي يقدم أداة مفيدة لتفكيك مثل هذا التخيل الاستعماري »، على حين تذكرنا أن « هذا التأويل يجب أن يكون ضاربا بجذوره الراسخة فى سياق تاريخى أوسع يتضمن أوسع عوامل سياسية، واجتماعية، واقتصادية، وفكرية» . وفى رأي سباركس أن التفكيك يتيح لها أن تختبئ تحت «المحتوى الفعلي» للنصوص الإنجليزية مثل الخطابات، والأشعار، والمذكرات، ومقالات الصحف، بل والتقارير العسكرية والعلمية، من أجل الكشف عن «أصولها الخيالية» : فالحقيقة التى خلقها مؤلفوها الاستعماريون «استقوها من محيطهم المباشر» ولكن تمت تصفيتها من خلال تجاربهم وتوقعاتهم . وغالبا ما تعارضت «الحقيقة » الأنجلو- أمريكية تعارضًا حادا مع «حقيقة » الآخرين [١١] . وبعبارة أخرى، ما إن يتم تفكيك التصوير المجازي حتى يمكن الكشف عن الكثير حول الطبقات البديلة والمختلفة من المعنى التاريخي الذى يتوسل به المؤرخون .

وينبهنا عمل كينكيد وسباركس للسمة المضللة للمجاز الذى تقوم عليه عملية إعادة بناء الماضى الذى يشبِه مصادرنا النصية بطبقات الصخور . ولا يمكن تقطيع معناها قطعة قطعة حتى نصل إلى معناها « الحقيقي ». وقد أشار روجر شارتييه Roger Chartier إلى أن النصوص لا تخفى معناها «مثل الركاز الخام فى منجمه» . وبدلا من ذلك فإن النص « نتاج قراءة وبناء من جانب قارئه » . والقارئ، سواء كان يستهلك ما كتبه مؤرخ آخر أو كان هو المؤرخ نفسه، يقرأ نصا لا يحتل موقع مؤلف النص بمعرفة قصده، ولكن من المحتمل أن يكون مخترعا معنى لم يكن هو المقصود[١٢]. وإذا أخذنا تعريف ماكولاج للتفسير الذى عرضنا له فى الفصل الثالث، فإن تفسير النص ينطوى على إعادة تجميع حتمية للمصدر والسياق (النص الموجود متداخلا مع نصوص أخرى) وكذلك قصد المؤلف . وهذا يمكن أن ينتج كثرة من المعاني المشروعة والتفسيرات بدلا من أن يؤدى بالضرورة إلى المعنى الحقيقي [١٣].

ويدافع فيلسوف التاريخ البريطاني مارك بيفير عن تقديس المصادر الذى أعلن» «يعتمد التاريخ الجيد على الدليل الدقيق والمعقول فقط، وليس على الأخذ بمنهج معين(١٤)». ونحن دائما ما يقذف بنا مرة أخرى إلى الدليل . كذلك يمكن أن يكون اقتراح المؤرخ بيتر بوركى له وجاهته، ومؤداه أنه بينما يقدم الدليل المتاح ما يمكن أن يجعل فهم أحداث التاريخ أكثر سهولة باتباع منهج الروائي بحكاية القصة من وجهات نظر متعددة، بدلا من وجهة نظر المؤرخ الذي يفترض أنه عليم بكل شيء – وهو ما يسميه التفسيرات اللامتجانسة (١٥) . وعلى أي حال، فإن استنتاج سبيجل المتشائم مؤداه أنه إذا يمكن أن نتوقع ألا تعكس الحقيقة وإنما تعكس فقط نصوصا أخرى إذن، فلا يمكن تمييز الدراسة التاريخية عن الدراسة الأدبية إلا بالكاد، ويذوب الماضى فى الأدب » . وترفض سبيجل ما ترى أنه تفكيكية متطرفة، مفضلة أن تتمسك بالاعتقاد فى حقيقة الماضى التى يمكن معرفتها، على حين لا تزال تعترف بالتاريخ خطابا مكتوبا . وتفعل سبيجل هذا التوفيق عن طريق « الوسيط » (١٦) . وإذا كانت حقية الماضى لا يمكن أن تنعكس (ولكن يفترض أنها موجودة) فربما يمكن إذن أن تكون وسيطة، لأنها لا تعكس نصوص الماضى بصورة شفافة وإنما تمسك بتلابيبه فى « الشكل الوسيط الذى حفظتها لنا اللغة » . وبعبارة أخرى، تتقبل سبيجل أن النصوص، التى تصور على أنها خطابات ممتدة أو ممارسات ثقافية، تخلق معنى ما بين العالم الاجتماعي الحقيقي ومعرفتنا عنه . ولغة النص هى الوسيط المعتم التي نفهم من خلاله .

ولا تلبث سبيجل، بقدر كبير من التردد على ما يبدو، أن تقبل أن اللغة تبنى الهدف بدلا من أن تتوسط فيه أو تقدمه . وهذا، بطبيعة الحال، تكرار وإعادة للملاحظة العامة للبنية الاجتماعية للحقيقة فى اللغة ومن خلالها . وكما تصفها، بدلا من أن تكون اللغة طارئة على كل من الحقيقة والتفسير، فإنها جوهرية لوجود الحقيقة تخلقها وعمل هذه الحقيقة، وكل ما يستتبع هذا لتوزيع القوة واستخدامها فى المجتمع . وبالتالى، فإننا حين نبحث فى المصادر فإننا ندرس بالفعل الخطابات الوسيطة، المؤلفة من قوانين مركبة للمعانى المجازية والفهم بشأن كيفية عمل المجتمع، والمقاصد، ودور التاريخ فيه . ونحن لا نقرأ حقيقة خالصة غير غائمة – فالحقائق شذرات لغوية من الحقيقة أو الواقع التاريخي – بل أقل من هذا أننا نقرأ نصا كتب خارج المسار الثقافي .

وربما يحسن المؤرخون صنعا، نتيجة فهم هذا الدليل - النصوص وتداخلها - على أنه قد حسم بقوى عبارة عن خليط مركب بدرجة كبيرة من الثقافي، والمجازي، والسردي . ولكي نضع هذا بصورة أبسط، فإن التغير الثقافي يمكن التوسط فيه من خلال الخطاب التاريخي الذى كتبه المؤرخون فقط، بل أيضا من جانب الوكلاء التاريخيين فى الماضى الذين توجد أصواتهم فيما بين النصوص داخل خيالهم وموقفهم الاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي عن طريق وساطة اللغة . وبسبب كل ما نعرفه ربما يكون الماضى كما حدث بالفعل قد حدث وفقا لحبكة سردية يمكن كشفها، تتوسط هي نفسها المبادئ التى تبنى عليها المعرفة والمعنى وتحافظ عليها . ويبرز السؤال المثير عما إذا كان بوسعنا أن نكتشف الشكل السائد للتصوير المجازي والحبكة التاريخية، التى سوف تقودنا بدورها لفهم أكثر اكتمالا للمجادلات، والعلامات العقلانية والأيديولوجية الكامنة فى مصادرنا .

ويشير هايدن هوايت إلى أن المؤرخين يجب أن يستخدموا اللغة وهم يقومون بهذا العمل وبذلك يستخدمون الموصل الرديء نفسه للمعنى على أنه مصادرهم . وما يفعله هذا الموصِل المزدوج هو أن يذكِر المؤرخ التفكيكي أننا يجب ألا نخلط بين التاريخ المكتوب أو الدليل والماضى . ويجب ألا يحاول التفسير التاريخي أن يكشف عن « المعنى الحقيقي » فى المصادر - فالمؤرخ مثل شخص يائس سكران خارج من مخلفات صندوق قمامة كان يبحث فيه عن زجاجة سليمة كاملة . وتسمح سبيجل «بالإستراتيجيات التفكيكية لقراء النصوص التاريخية » لأنها « أدوات قوية للتحليل لكشف الطرق التى تضفى الغموض الأيديولوجي وتفكيكها » . وربما يمكن تحقيق الفهم الأكمل للماضى بتأسيس السياق التاريخي « من مصادر أخرى » . ويكشف هذا القول فى الواقع عن رغبتها التى لم تتلاش فى إعادة بناء الماضى لاستنباط وجود السياق «الحقيقي» الذى يمكنها أن تفكك النصوص داخله . ومنطقها أن هذا شرط الإستراتيجية المركب للبحث الذى سيحقق النص ومن ثم يصل إلى الماضى سعيا وراء معناه . وفى النهاية فإن نزعةإعادة بناء الماضى فى مجادلة سبيجل، تظهر حين تعترف بقبول الماضى بوصفه «وجودا ماديا كان ذات مرة » على الرغم من « إسكاتها الآن»، مع أن وعيها التفكيكي الجنيني يطفو على السطح برهة قصيرة مع زعمها أن الماضى

«موجود الآن باعتباره علامة فقط» وهو ماض يسحب لنفسه سلاسل من التفسيرات المتعارضة بين أولئك المؤرخين الذين يحومون حول بقاياه . وبهذا تحاول سبيجل أن توفق بين ما لا يمكن قياسه وحصره . ودائما ما يشكك الموقف التفكيكي فى الصلة بين المصدر والماضى المفترض، وهو موقف تحول سبيجل أن تتجنبه دائما .

والأكثر إقناعا هو التحدى الواضح الذى يطرحه المؤرخ الأمريكي ديفيد هارلان فى وجه الفهم التقليدي لما ينبغى فعله بالدليل . وإذ اتخذ هرلان موقفا مستمدا من الفيلسوف الألماني هانز جورج جادامر Hans-Georg Gadamer، فإنه تمسك بأن المؤرخين لا يمكنهم على الإطلاق انتزاع الدليل من معانيه المتراكمة، كما لا يمكنهم أن يتوقعوا إعادة اكتشاف المعنى الأصلى لكاتبه بوضعه فى سياقه . ذلك أن الدليل لا يمكن أبدا أن يكون « منفصلا عن التفسير الذى وصل إلينا من خلاله » [١٧] . ويعنى هذا التحقق من أن المؤرخ عاجز عن وضع نفسه موضع العارف بكل شيء، ويرى كل شيء، ولكنه بدلا من ذلك يبتكر ويضع الأطر، وهو بدوره محكوم بتوزيعات القوة التى تحكم وتسيطر فى أي فترة تاريخية أو فى أي سياق شخصي .

هذا الموقف التفكيكي ليس فريدا فى تساؤله عن العملية التى نعرف بها الحقيقة سواء فى الماضى أو فى الحاضر . وسيكون من الخطأ تماما أن نقترح أن المقاربة التفكيكية لخلق المعرفة هى الصوت المنفرد الذى يتحدث ضد نظرية الصلة عن الحقيقة. فمنذ سبعينيات القرن العشرين كان من يسمون البنيويين قد تحددوا موضوع المحتوى والشكل فى توليد المعرفة فى العلوم المادية والعلوم الاجتماعية . وهكذا، جادل البنيويون، مثلهم مثل المنظرين فى العلم، برونو لاتور وستيف وولجار أن التقدم العلمي لم يتولد ببساطة من آلية « الاكتشاف»، ولكن «تم بناؤه»[١٨]. والواقع أن البنيويين الراديكاليين، بقيادة عالم اجتماع العلوم لاتور، أنه يتم خلق أنواع مختلفة من الحقيقة . والتوازى بين خلق الحقيقة السردية (من خلال الحبك الذي يتولد هو نفسه بواسطة الاتجاه الخلقي والأيديولوجيا مثل أي شيء آخر)، والحقيقة الفعلية أمر مذهل . وعلى

سبيل المثال، يجادل لاتور أن عمل السرد جوهري بالنسبة للعلم بقدر ما هو جوهري فى خلق التاريخ . ولا يمكن أن يكون الموقف أكثر وضوحا فى عصر يتسم بـ « البنيوية الراديكالية » أو إعادة بناء الماضى : ذلك أن الحصول على المعرفة نشاط عارض وبلاغي بقدر ماهو نشاط إمبريقي .والحجة القائلة إن مثل هذه «النسبية » لابد لها فى النهاية أن تدمر نفسها لأنها خاضعة للنسبية التى تنشرها لا يكاد يقنع أحدا . فلو أن كل شيء نسبي، فإن هذه إذن طبيعة الوجود وكل مزاعم اليقين تكون فى الموقف نفسه – ما عدا الزعم بأن الحقيقة غير النسبية (فيما وراء ماهو مهم عمليا باستثناء مقولة «الماء يتجمد عند درجة حرارة معينة») تكون فى إنكار نسبي . ومن المؤكد أننا يمكن أن نحوز معلوات اختبرناها بالتجربة فى المعمل (حقا إن المؤرخين لا يستطيعون فعل هذا وهو ما يجعل الأمر «أسوأ» بالنسبة لهم) ولكن علينا أن نفعل شيئا بالمعلومات . وهكذا ينتهى بنا الأمر فى الموقف نفسه بالضبط كل مرة ويكون المعنى الأصلي مرواغا دائما . وبينما توجد معامل لدى الآخرين، فإن كل ما لدى المؤرخين نص يحاولون بواسطته خلق النظام من غمار الفوضى من غياهب اللامعنى .

ولا يمكن لمذهب إعادة الماضى إعادة إنتاج المعنى الأصلي حتى عندما يبذل الجهد مؤرخون من أمثال جابرييل سبيجل لتلجم به الموقف التفكيكي . وليس التاريخ التفكيكي تاريخا لإعادة بناء الماضى بصورة مراوغة . فكما يشير هارلان :

«إذا كانت التطورات الحديثة فى النقد الأدبي وفلسفة اللغة قد قوضت حقا الاعتقاد بوجود ماض مستقر يمكن تعريفه، وأنكرت إمكانية استعادة قصد المؤلف، وتحدت ما حظى به التقديم التاريخي من قبول، فإن على المؤرخين ذوى العقليات السياقية أن يكفوا عن الإصرار على أن « التكليف الأول بالعمل » لكل مؤرخ أن يفعل ما يبدو الآن وكأنه لا يمكن عمله – إذ يجب على المؤرخين ببساطة أن يسقطوا السؤال عما يعد تاريخا مشروعا ويتقبلوا حقيقة أنه، مثل أي علم أخر فى مجال الإنسانيات ليست لديهم، ولا يحتمل أن تكون لديهم، قائمة ومجموعة من إجراءات البحث المقبولة على نطاق واسع، وأن لا شيء يساعد أومهم، يحتمل أن يتأتى من محاولات تعريف التاريخ من هذا القبيل . وإذا سألنا : «ما الكتابة التاريخية ؟» فلا يمكن أن تكون الإجابة سوى « هناك هـذا النوع من الكتابة التاريخية، وذلك النوع، وذلك النوع مرة أخرى» (١٩) .

وعلى الرغم من أنه يتكلم عن التاريخ الفكري فإن كلماته تضم التاريخ كله الذي :

«لا يهتم بالمؤلفين الموتى وإنما يهتم بالكتب الحية، ولايهتم بالرجوع إلى المؤلفين السابقين وسياقاتهم التاريخية وإنما تهمه قراءة المؤلفات التاريخية فى سياقات جديدة وغير متوقعة، لا يهتم بإعادة بناء الماضى ولكن بتقديم الوسيط النقدي الذي ربما تكون المؤلفات القيمة من الماضى قد عاشت فيه بعد ماضيها - وربما عاشت بعد ماضيها لتحكى لنا عن حاضرنا . لأنه من خلال مثل هذا الحكي فقط نأمل دائما فى أن نرى أنفسنا وتاريخنا من جديد» (٢٠) .

هكذا يقدم هارلان أوضح العبارات دفاعا عن المقاربة التفكيكية للتاريخ . فالتاريخ مفتوح على عدة طرق لدراسة الماضى بخلاف الاعتقاد أننا نستطيع أن نعكسه بشكل دقيق . وعادة ما تخبرنا دراسة التاريخ عن السرد الذى بناه المؤرخ هنا، والآن بقدر ما يحكى لنا عن حقيقة الماضى .

نظريات التاريخ : بناء الماضى

ما الذي يعنيه هذا التهديد التفكيكي لأصالة الدليل أو نقائه بالنسبة للمؤرخ من أنصار إعادة بناء الماضى؟ إنه كان يعنى تفنيدا ودحضا عنيفا . وعند الماركسي المتشدد، المؤرخ البنيوي أليكس كالينيكوس إنه يحتاج إلى إعادة تكرار المجادلة التى استهلكت تماما بأن المؤرخ المشبع بالمصادر مؤهل للغاية لصياغة فروض يمكن التحقق من صحتها بغربلة الأدلة وتمحيصها . وقد لاحظت بالفعل اقتراحه القائل إن التاريخ كله نظري . وعلى حد قوله، فإن معظم المؤرخين «يعولون على النظريات حول طبيعة المجتمع الإنساني وتحوله (مع أن ذلك ضمني فى غالب الأحوال) » . وهو يقتبس أمثلة عن الماركسية، ومدرسة « الحوليات »، والتاريخ الاقتصادي الجديد فى سبعينيات القرن العشرين « على السعي الواعى بالذات لبرنامج بحثي فى التاريخ». وما يعنيه هذا أن المؤرخ يستخدم عمدا، ودون توفيق أحيانا، أنواعا مختلفة من النظرية الاجتماعية لكي «يوضح موضوعات برزت فى بحثه، أو حتى لتحديد الهدف منها»(٢١). وهو يصرُ على أن هذا لا يعنى أن التاريخ قد نزل ليكون اختبارا للفروض بالرجوع إلى أحد القوانين العامة أو قوانين التغطية .

ويزعم كاللينيكوس فى مجادلته ضد التفكيكية ثلاثة أمور : أولها، أنها أخفقت فى أن تعترف بالمادية فى التاريخ ؛ وثانيها، أن التفكيكية مشوبة بالنقائص لأنها لا تقبل أن الفهم التاريخي الأصيل يعتمد على إضفاء المفاهيم لشرح السببية، وأنه لا الصياغات البلاغية ولا الحبكة بحد ذاتها يمكن أن تكون كافية لشرح أي شيء ؛ وأخيرا، تفشل التفكيكية فى أن تولى الاحترام الواجب للفحص النقدي للمصادر الأولية . وتتمثل الذروة فيما يسميه كاللينيكوس «الانتقال» من الطبيعة الحقة للبحث التاريخي (الذى يقبل حقيقة الماضى التى توصلنا الوثائق إليها) إلى «عملية التقديم التاريخي نفسها»، وهو المدى الذى يمكن أن توصله أوصافنا التاريخية بما حدث فى الماضى بالفعل .

وفى الرد على هذا يتجه التفكيكيون إلى محاولات أخرى (غير ماركسية) لاستكشاف طبيعة البنيوية، ولا سيما تلك التى قام بها الفيلسوف بول ريكور، والمؤرخان فيليب كاراد، وروبرت بيركهوفر . ويشير ريكور إلى أن البنيويين لا يزال عليهم أن يعتمدوا على السرد لتفسير الماضى، وأن تحليلهم لابد أن يكون فى النهاية مصورا على أنه حبكة سردية (٢٢) . ويلاحظ كاراد أيضا كيف أن مايسميه التاريخ الجديد (الذى وصفته هنا بأنه بنيوية) قد فشل بشكل ملحوظ فى استئصال السرد باعتباره النموذج الذى يمكن به تنظيم رواياته . وكما يقول : « إنه الحبكة التى... تقدم إجابة قوية على أحد الأسئلة المركزية التى تطرحها هذه النصوص البنيوية : كيف وصلنا إلى ما وصلنا إليه الآن ؟» (٢٣) . لقد كان أتباع مدرسة الحوليات، مثلا، عاجزين تماما عن تجنب التأثيرات البنيوية للسرد فى كتاباتهم عن الماضى . فبينما وضعوا المفاهيم وأعادوا إضفائها على الماضى على مدى عدة أجيال، فإنهم كانوا عاجزين كليا عن إبعاد قوة اللغة ومنعها من التأثير على المعنى . ويقبل بيركهوفر أنه بينما ينقل من يسمون بالمؤرخين غير السرديين التأثيرات المعرفية عن الحقيقة، بمحاكاتهم العلم فإنهم لا يزالون عاجزين عن الهروب من الوسائل التقليدية الأدبية(٢٤). ولم يلبث حتى كاللينيكوس أن اعترف بأن الحقائق « بحد ذاتها بنى بلا سياق»(٢٥).

وبينما يهاجم المدافعون عن البنيوية المؤرخين الساعين إلى إعادة بناء الماضى، لم يكن الذين يدافعن عن الاتجاه البنيوي هم الذين أثاروا الشكوك حول الصلة بين المرجع وما يدل عليه من خارج السياق . مثل هذا الغموض كان لابد أن يوجد بدون الموقف

التفكيكي الذي يوضحه . وبالمثل، يبقى السرد باعتباره الوسيلة الأساسية للفهم والتفسير التاريخي، وسوف يبقى مجازه وحبكاته يستخدم في كتابة التاريخ، وحتى مع هذا، كما يقول هوايت، فإنه لا يمكن أن يوصلنا إلى الحقيقة . وبينما يمكن أن نجادل الموقف البنيوي، يتم الوصول إلى الحقائق بفحص الدليل مستخدمين بناء نظريا، ولا ينزل هذا بالكتابة التاريخية إلى مستوى السرد المجرد حسبما يزعم البنيويون الماركسيون، كما لو كان موضوعا ثانويا في التقديم التاريخي . وعلى أي حال، فإن التاريخ التفكيكي لا ينتقد البنيوية على أساس آراء إلتون التي تحكم على الماضي مسبقا، كما أنها ليست تقليلية، أو حتمية بالنسبة لهذه المسألة، ولكنها تجادل بدلا من ذلك أن نتائجها لا تزال بحاجة إلى التدوين والفهم بوصفها سرديات .

وكما نعلم، على الرغم من أن لورنس ستون قد أساء فهم معنى السرد في مقالته التي كتبها سنة ١٩٧٩ م بعنوان The Revival of Narrative فإنه أشار فعلا إلى الاتجاه اللاماركسي البارز في المنهج البنيوي الذي يشمل التاريخ الأنثروبولوجي، والإثنوجرافي، والبنيوي . وعندما تحرك لكي يكرر الممارسة في بواكير تسعينيات القرن العشرين، وبدا وكأنه يواجه مشكلة، ليس مع إعادة ظهور (وإخفاقات التفسير) حكاية القصة الوصفية، ولكن مشكلته كانت مع السلطة النامية للاتجاه التفكيكي أو اللغوي نفسه . وكما قال، فإنه انفصل عن أولئك المؤرخين « الذين انبهروا بأضواء الخطاب عندما مدوا نطاق مجادلاتهم حول استقلالية الخطاب» حتى النقطة التي صنعوا منها عاملا تاريخيا في حد ذاته، وبهذا أتاحوا له أن يصل إلى طريق تفسير التغير التاريخي وفقا لتفاعلات أشد تعقيدا للظروف المادية، والثقافة، والإيديولوجيا، والسلطة [٢٦]. وهذا بالفعل دفاع جيد إلى حد ما عن موقف التيار البنيوي السائد . ويواصل ستون كلامه :

«أما بالنسبة لاستخدام الأنثروبولوجيا الرمزية والاجتماعية، المتأثرة إلى حد كبير بصديقي كليفورد جيرتز، فكل ما أستطيعه أن أكرر ما قلته من قبل . لقد كان له فعلا، ولايزال، تأثير مذهل على البحث التاريخي» .

وعندما صنَف ستون المؤرخين البنيويين، كان في ذهنه أمثال روبرت دارنتون، وناتالي ريمون ديفيز، وكارلو جينزبورج، وإيمانويل لوروي لادوري إلخ . وبعد ذلك

اقـتـبس من سـيـمـون سكامـا Simon Schama الذى يـحـمل عنوان Dead Certainties بوصفه توضيحا لالتباس «الحقيقة الأرشيفية والخيال المحض » [٢٧] . والواقع أن ستون قد بالغ فى الحالة على حين فشل فى تقدير التعقيد التفكيكي الذى يصيب الآن أعمال المؤرخين الذين يدرسهم بصورة متزايدة الآن، ولاسيما ديفيز . وسيكون من المثير أن نعرف رأي ستون فى نص سكاما الخلاب Landscape and Memory الذي كتبه سنة ١٩٩٥م والذي يستكشف العلاقة بين الفضاء الأرضي والتاريخ. وما يسميه سكاما « السيكولوجية الثقافية للطبيعة» قد لايروق كثيرا لستون بوصفه شكلاً من أشكال التاريخ الشخصي جدا ويتسم بالفرض والإملاء [٢٨] .

ومنذ سبعينيات القرن العشرين، خلط المؤرخون الثقافيون الذين يستخدمون النماذج النفسية، والأنثروبولوجية، والثقافية للتحليل الثقافي بين ما لا يمكن إدراكه فى البنيوي ومابعد البنيوي، والتحليل الذي يستلهم اللغة لشاعريات الثقافة مستخدمين المجاز النصي . ولأنه تأثر بميشيل فوكو، الذى كان حتى ذلك الحين يعتبر أن هناك حقائق اجتماعية صلبة وموضوعية مثل العرق، والنوع، والطبقة (اشتقت بواسطة وسائل نقدية) وينظر إليها الآن عموما على أنه تم طرحها ثقافيا أو تكوينها اجتماعيا . والمفهوم البنيوي عن النظرية الاجتماعية يقدم الحقائق التى تعيد إنتاج حقيقة الحياة التاريخية لكي تمهد سبيل الوصول إلى الممكن بدلا من الطبيعة الحقيقية للمجتمع. ويمكن تحقيق هذا بقدر متساو على الأقل وكذلك برؤية المجتمع باعتباره نصا تقدم فيه الأحداث على أنها سلسلة مركبة من التقديمات التى لا رابط بينها، والمجازات البلاغية، والرموز، والأيقونات، والعلامات، والطقوس - وكلها يجب حبكها على يدي المؤرخ بوصفها نقدا ثقافيا . وليس من الحصافة أن نقول إن الحبك جزء من خليط من التصوير البلاغي المسبق، والنظرية الاجتماعية، واتخاذ الموقف الأيديولوجي، والبحث الإمبريقي . ذلك أن الحقائق تبقى افتراضية بالنسبة للمؤرخين البنيويين شأنها شأن الحبك .

وقد حاول المؤرخ الثقافي مارشال ساهلينس Marshal Sahlins، فى مجموعة المقالات التى أصدرها سنة ١٩٨٥م بعنوان Islands of History أن يضع فكرة التاريخ على أنها نص فى شرح تاريخي باستخدام منهج مستوحى من البنيوية أسماه

الأنثروبولوجيا التاريخية البنيوية[٢٩]. وتكمن أهمية كتاب ساهلينس فى محاولته أن يزاوج بين البنيوية والاعتراف بالنسبية فى التاريخ. وكانت حجة ساهلينس أن التاريخ محسوم تاريخيا، وأن اللغة تلعب دورا بالغ الأهمية فى ذلك الحسم تماما مثل تفسيره اللاحق . هذا النص مثال بارز على أولئك الذين يقودوننا إلى استنتاج أن الاتجاه اللغوي وتأثير ما بعد البنيوية قد تجلى بوضوح فى كل التاريخ الثقافي الجديد .

وقد تحرر التاريخ الثقافي الجديد، الذى يدين للأنثروبولوجيا البنيوية من الناحية المنهجية، على يدي بارثيس، ودريدا، وفوكو، وغيرهم . وفى رأي فوكو، ودريدا، أن مناهج العلوم الاجتماعية غير كافية بالمرة لأنها قائمة على أساس الوضعية التى عفا عليها الزمن . وهذا «التركيز على الألفاظ »، أو فكرة أن هناك معنى ثابتا (أو تفسير أو سبب) موجود بشكل مستقل عن اللغة . وبغض النظر عن التعقيد الذي تتسم به النماذج البنيوية فى الحقيقة الاجتماعية الماضية، فإن طبيعة تقديم استنتاجاتها تجد الآن من ينافسها أو ينازعها، ولكن ليس فقط من جانب الموقف التفكيكي . وقد أشار الفيلسوف البنيوي بيتر بوركى إلى أن المؤرخين تفحصوا نتاج الزواج بين السرد والبنيوية بواسطة :

«عمل سرد سميك بما يكفى ليس لتناول تتابع الأحداث ومقاصد الفاعلين الواعية فقط، وإنما أيضا تناول البنى – المؤسسات، وأحوال الفكر، وهلم جرا – سواء كانت هذه البنى كابحة للأحداث أو مسرعة لها» .

وهو يسأل متمنيا أن تكون الإجابة مرضية « ترى ماذا سيكون مثل هذا السرد ؟» [٣٠].

التاريخ سردا

يعتقد بوركى أن السرد يمكن أن يكون وسيلة يعتمد عليها التحليل التاريخي إذا ما استطاع توصيل فهم كافة المتغيرات فى البنى الاجتماعية والمؤسسات مثلها مثل الأحداث الفردية . ويصرُ بوركى على أن السرد يمكن أن يكون وسيطا للنظرية الاجتماعية بالإشارة إلى الروائيين من أمثال ليو تولستوى، وشيميزاكى توسون . وعلى

حـد قـوله « ربما يمكن أن يتـعلم المؤرخـون شـيـئـا من أسـاليب مـثل هؤلاء الروائيين السردية ... ولكن هذا لايكفى لحل مشكلاتهم الأدبية »(٣١). ذلك أن المؤرخين، كما بيَن بوركى، لايستطيعون أن يخترعوا الناس، أو الأماكن، أو الأحداث، ولذا يجب عليهم أن يتـجهوا إلى النـاس، والأمـاكن، والأحداث « الحـقـيـقـيـة »، ولكنه يخلص إلى أنه سيكون على المؤرخين أن « يطوروا أساليبهم التحليلية الخاصة (٣٢). وبعد أن أوضح ما يسميه السرد المصغَر الذى ينتج عن التاريخ المصغَر، وهو حكاية قصة حياة الناس العاديين، نقل عن ناتالى زيمون ديفيز فى كتابها The Return of Martin Guerre باعتباره كتابا توضيحيا (٣٣). وفى هذا المثال تحكى ديفيز تاريخ دجال يصل إلى قرية فرنسية فى القرن السادس عشر ليدعى أنه مارتين جير المفقود، ويستولى على زوجته وممتلكاته. وتستخدم ديفز عن عمد السرد المصغَر والأساليب التحليلية لكي توضح موضوعات بنيوية أوسع وتبين مجال حياة الفلاحين الفرنسيين . وعلى حد قولها كان القصد المزج بين التاريخ الثقافي الجديد والتاريخ الثقافي القديم . ويمكن لمثل هذه القصص، شأنها شأن سرديات جيرتز الكثيفة، يمكن أن توضح التغير الكبير والاستمرارية فى البنيوية . وعملية الإيضاح هذه تعتمد على قوة المؤرخة فى استخدام مادتها ومجادلتها، ووعيها بالقـوة التـفكيكيـة فى اللغـة التـصـويرية فـوق هذا كله . وكـمـا يوضح بوركى، صـار المؤرخون منذ تسعينيات القرن العشرين أكثر إبداعا فى طريقة استخدامهم قوة السرد لإضفاء الحياة على الماضى .

ورؤية التاريخ باعتباره معرفة إمبريقية أولا تأسست بشكل تحليلي إنما هي رؤية آخذة فى التلاشى على الدوام . ويشير فيلسوف التاريخ الأمريكي آلان ميجيل، مساندا لكاراد، إلى أنه حتى فى العالم الوضعي للعلوم، يهتم التفسير عموما باستخدام المجاز والوصف، أو «الحكي»، حسبما يفضل هو أن يسميه . وهو يعرِف الحكي بأنه « رواية حكاية ... حكاية تشهد على صدقها » الدليل والحجة . وعند ميجيل أننا يمكن أن نجد الحكي والتفسير على السواء فى طريقة سرد المؤرخ للعرض، ويوضح ميجل وكاراد النقطة نفسها التى يبينها ليمون، وجاللى، ومينك، وهوايت، وأنكرسميث، وجميع السرديين الآخرين، ومؤداها أن السرد تفسيري بطبيعته، ولا يعنى هذا أنه أكثر استقلالا عن الكاتب، أو أنه يحمل من الحقيقة أكثر مما تحمله الأنواع الأخرى من

التفسير . ويمكننا أن نضفى المزيد من الوضوح على هذه النقطة بأخذ إشارة سيمون سكاما فى الولايات المتحدة الأمريكية . وعلى حد تعبيره، نحن نحب أن نتخيل الحديقة خالية من الناس حتى لو كان فعل الرسم نفسه، أو التصوير الفوتوجرافي، الذى يصورها « يسبق افتراض وجودنا، ومعنا كل موروثاتنا الثقافية الثقيلة التى نحملها على ظهورنا ونأخذها معنا فى مسارنا » (٣٤). وامتدادا لهذا فإن الأمر نفسه يصدق على التاريخ . ذلك أننا قد نرغب أن نتخيل التاريخ خاليا من المؤرخين، أي برية مؤقتة، ولكن كل تفسير يمثل ما يحمله أحد المؤرخين عبر الماضى - أي يكون الباحث داخل ما يدرسه هو نفسه . فهل يحتمل أننا وصلنا إلى النقطة التى لا نكون عندها مستكشفين وإنما مستوطنين ؟

ولأن فكرة السرد بوصفه حكاية فكرة مقبولة عموما، فقد أشرت أنها أبعد ما تكون مقبولة كلية . ويتمسك الجيمس هنريتا **James A. Henretta** المؤرخ وعالم المناهج الأمريكي بأن «كثيرا من المؤرخين الاجتماعيين يبقون على شكوكهم فى المدى التفسيري وقوة أسلوب السرد فى التقديم بسبب» استخدامه الانطباعي غالبا « للأدلة، وعدم كونه قابلا للتعديل إلى أنماط كمية ومفاهيمية من التحليل » . ومع هذا، فإنه حتى هنريتا يحكم بأن السرديات « تجسد المنظور الظاهراتي، ولذلك السبب تبناه المؤرخون العاملون فى التراث النفعي على نطاق واسع». وهو يستمر ليقول إنه « بوضع الكثير (أو المزيد) من التأكيد على النظرات الذاتية على الفاعلين بقدر مساو من التأكيد على الظروف الموضوعية للوجود، توضح السرديات أهمية الدور الإنساني» . ويخلص إلى أن «المؤرخين الذين يتبنون إطارا زمنيا تتابعيا يؤسسون تناسبا أساسيا بين حياة من يكتبون عنهم وحياة جمهورهم من القراء » . ومن ثم، يعتقد هنريتا أن السرد مهم لتقديم ما يكشفه البحث « ليس بسبب خلوه من الرطانة غير المفهومة ولكن بسبب طريقتهِ المعرفية فى تقريب حقيقة الحياة اليومية»(٣٥) .

وفى هامش على مقالته يضيف هنريتا تفسيراً مهما لهذه العملية : « على الرغم من أن درجة ما من الحرفية تدخل فى بناء السرد - من حيث إن المؤلف يعرف فعلا حصاد القصة، ومن ثم يقدم إحساسا زائفا بالنهاية المفتوحة - فإن الحرفية وحدها لا تشكل اعتراضا رئيسيا » (٣٦) .

ومن المنظور التفكيكي، بطبيعة الحال، فإن هذا موضوع أكثر أهمية مما يفترض هنريتا. فربما تتضح رغبة المؤرخ لفرض نفسه فى الواقع على أنها مسألة حرفية فى بناء السرد، بيد أن فرض المؤرخ لذاته على النص عمل على مستوى أعمق كثيرا بسبب البناء السردي للتاريخ . وكما يذكرنا آنك رسميث تظهر الطبيعة المجازية للفهم التاريخي من «تشكيل المؤرخ لهدف لغوي»، وهو ما يسميه المادة السردية التى يعرِفها هوايت بأنها المرجعية الثانية . والتفسير التاريخي مجازي فى جوهره لأن السرد التاريخي يقصد به عادة أن يكون شبيها بالماضى . وفى رأيى أن جميع السرديات التاريخية تقدم الذكريات الثقافية أكثر من كونها إشارات صامتة . فالتفسير ليس أكثر من إعادة تقديم هذه الذكريات : إنها حيلة حقيقة، ولكنها حيلة تحمل نتيجة مادية بقدر أكبر مما كان هنريتا يريد لنا أن نعتقد(٣٧) . هذه رؤية تفكيكية بارزة بحيث لا ينبغى وضعها فى هامش .

ولكي نحد من نطاق هذه المجادلة التفكيكية فعلينا أن نلاحظ حكم آنكر سميث بأن «التاريخ لم يعد إعادة بناء ما حدث لنا فى مراحل حياتنا المختلفة، ولكنه تلاعب متواصل بذكريات هذا الذى حدث» . والنقطة هي على حد قوله أن « ذاكرتنا لها أولوية على ما نتذكره»(٢٨) فالذاكرة تاريخنا المكتوب . والإلهام وراء التاريخ السائد هى فى التحليل النهائي شوق لم يتحقق . وهو، كما يصفه أنكر سميث « الرغبة فى كشف حقيقة الماضى وإعادة بنائها بطريقة علمية »، ولكن فى هذه الأيام « لم تعد تلك مهمة المؤرخ المسلم بها . ويخلص آنكر سميث إلى أنه قد آن لنا أن نفكر بشأن الماضى، بدلا من تحقيقه ». ويمكن تحقيق هذه الرغبة فى الجزء المادي بالاعتراف بالحدود المجازية والتصويرية فى كتابة التاريخ بدلا من الاعتماد على العلم الإمبريقي وحده .

فى إنتاج المعرفة التاريخية، لا يمكن لمنهج الإمبريقية الساذجة التى تنشد إعادة بناء الماضى، ولا منهج الاستقراء البنيوي أو الاحتمالية الإحصائية، أن يمحو فرض المؤرخ رؤيته والمسألة المستمرة لتحويل الدليل عن الماضى إلى نص، أو إعادة كتابته سرديا . ولا يمكن تجنب التدخل فى الماضى بسبب ترجمتنا لآثاره فى الحقائق التاريخية التى يمكن استخدامها، بما يشبه مزج الألوان وإنتاج الأشكال على لوحة من قماش الكانفاه . ولا يبرز هذا الفرض فقط عندما نقارن الأحداث، ونتحقق منها،

ونضعها فى سياقها، وإنما يبرز أيضا فى الأوصاف السردية اللاحقة التى تحمل تأثيرات الواقع - أو الحقيقة - التى نتجت من خلال الحبك . وإذا تم الاعتراف بهذه الرؤية، فإن المنازعات على وضع الدراسة التاريخية وسمتها يمكن أن تختفى بإرادة كل من الجانبين . وعندما يقبل المدافعون عن النموذج الإمبريقي التاريخ بوصفه شكلا من أشكال الأدب - سرد له عناصر بلاغية وشاعرية ومجازية حتمية - فإنهم قد يصلون إلى الاعتراف بأن هذا لايلغى تلقائيا سلطة التاريخ التفسيرية، أو يقلل من مكانتهم المهنية. وحقيقة أن اللغة التصويرية قد لا تكون لها علاقة بحقيقة الماضى (لأنها وصف بلاغي أو تشبيهي للماضى) تضعنا فى موقف لا يزيد فى سوئه عمّا يفعله الاستقراء من الدليل الذى تم وضعه فى سياق ما. ومع هذا، لا يزال بإمكان المؤرخين أن يدرسوا الماضى فى شكل سردي ويسعون إلى تفسيره. وكثير من الواقعيين العمليين يقبلون الآن بالفعل الجانب الشعري فى التاريخ - ولكن بصفته واحدا فقط بين الكثير من السمات الحاسمة التى تؤثر على الكتابة عن الماضى . ولكننى أرى أن وضع طبيعة التاريخ الشعرية فى قلب العلم سوف يقوى التاريخ بوصفه نظاما علميا، بدلا من أن ينزل به إلى مشروع أضعف وأقرب إلى الأدب . وعلى الرغم من أن معظم المؤرخين سوف يظلون على عدم تقبلهم الماضى باعتباره تجربة معاشة لأن هذه عمل أدبي فى أساسه، يفهم المعاصرون مضمونه من خلال شكله السردي، مثلهم فى ذلك مثل المؤرخين فيما بعد، وسوف تدفع الرؤية التفكيكية الشكل نحو ما يتعدى مستوى الأسلوب وحده .

إن الشغل الأول للتاريخ، حسبما كان كولينجوود يرى وكما سيوافق كثير من المؤرخين التفكيكيين اليوم، أن يدرس التفكير «المستمر فى ذهن المؤرخ »، وقد نجد أنفسنا أيضا متقبلين فكرة أن ما يدور فى ذهن المؤرخ يشكل منطق المنهج التاريخي (٣٩). ومن الأمور الجوهرية فى هذه العملية قدرة المؤرخ على فهم التأثيرات السطحية للحقيقة والتى نتجت عن الأسلوب والتصوير البلاغي، وكذلك فهم البنى البلاغية الأعمق التى قد تكون حاسمة، والتى عرفها هايدن هوايت وميشيل فوكو . وما يبدو واضحا بشكل متزايد للمزيد والمزيد من المؤرخين اليوم، مثلما تجلى واضحا لكولينجوود منذ نصف قرن مضى، أنه لا يمكن تحقيق النموذج البطولي للعلم - وهو هدف التاريخ الموضوعي

– على أرضيـة مـعـرفيـة ولغـوية أسـاسـيـة، وأن أفـضل مـا يمكننا فـعله أن ننتج فـقط موضـوعية فعّالة (٤٠) .

وإشـارة هـايدن هـوايت إلى أن المنهج التـاريخي يسكن فى اخـتـيـار قصـة من نوع خاص وليس اكتشاف القصة التى تعكس بأمانة ما حدث بالفعل تعزز بصـورة متناقضة مـجادلة بول ريكور وديفـيد كـار أننا نعيش ثقـافة سـردية . وعلى الرغم من أن هـوايت يبقى على عدم اقتناعه بمجادلة ديفيد كار، أنه يمكن للموضـوعية أن تكتشف القصـة الحقيقية الموجودة فى المصـادر، فإنه يبدو من طبيعة الأمور أن نجادل أن تجربة حياتنا اليومية والتاريخ مشبعان بالسرد. وليس هذا تكرارا لخطأ الحداثيين عن الأصولية التى يمكن أن نتجه نحوها بحثا عن يقينية موضـوعية، بأن نضع السـرد محل الإمبريقية فى هذه الحال . وهو مـا يعنى ببسـاطة الاعتراف بدور السرد فى تفسير ماضينا. وتقديمه إلى الآخرين ليس نوعا جديدا من الأصولية ولكنه فتح الماضى على طرق جديدة لوصفه . وعلاوة على هذا، فإن ليمون يرى أنه لايزال ممكنا التمسك بالموضـوعية بدلا من مجرد وضـع خطة موضوعية فعالة .

ويصـرُ ليمـون، على عكس هـوايت، أنه يظل ممكـنا أن نشـرح مـا حـدث فى الماضـى بشكل موضـوعي على الرغم من العملية الحـتمـية لاختـيـار الأحـداث ووضـع حـبكة لهـا، عندما يقدم المؤرخ – الراوى معلومات كافية ليجعل العملية برمتها مفهومة . وليس من غير المتوقع القفز بين الأحداث بحيث تبدو غير مترابطة على نحو غريب أو بشكل زائف، وهو مـا يشكل بالنسبة لليمون رواية موضـوعية لما حدث . مثل هذا السرد المترابط يتيح لنا أن نحلل ونشـرح مـاوراء السـبب والأثر البسيط لأن بناءه يسمح بتفسيرات بديلة . فالقول إنه بعد أن قدم الرئيس جون كينيدى الأدلة على وجود صـواريخ روسية هـجومية فى كوبا فرض حصـارا بحريا، لهو قول أقل حسما من الناحية السببية من القول إنه بسبب الأدلة على وجود الصـواريخ الهجومية فرض الحصـار . إن هذا يسمح بإمكانية السياسـات البديلة المتاحة أمام كينيدى وحجة ليمون أن التفسير السـردي يتوسط بقدر أكبر من الإخلاص إمكانية الاختيـار الإنسـاني أو الدور الإنسـاني التى يفترض أنهـا أكثر واقعية من تخمين المؤرخ لشكل من أشكال إستـراتيجيـة الحرب البـاردة، فى هذه الحالة . وربما نسـأل أين موقع تاريخ مـا بعد الحداثة من هذا ؟ على أي حال، فإن مثل

هذا التعريف للسرد لا يبعد كثيرا عن النموذج التقليدي - فالسرد يمكن أن يكشف عن الحقائق الإمبريقية .

والمؤرخون التفكيكيون أحرار فى أن يستنتجوا أشياء عديدة نكتب ونقرأ عنها باعتبارها تاريخا . وبوسعنا، كما جادل ليمون، أن نعتبرها تقديما صادقا / دقيقا للاختيار الإنساني فى التاريخ ونستطيع، مثل هايدن هوايت، أن نرى السرد التاريخي باعتباره مجرد دفاع عن تفضيل أيديولوجي بورجوازي للاختيار . ويمكننا أن نرى النص التاريخي على أنه يشترك مع الرواية فى فى السمة المهمة المتمثلة فى تدخل المؤلف (المؤرخ القادر على التخيل)، أو بوصفه بلا مؤلف أصلي على الإطلاق بافتراض أن كيفية وضع السرد داخل إطار موضوع يعتمد على المؤرخين المتتابعين الذين مرّ النص من خلال أيديهم (وعقولهم) . وربما نختار ألا نثق فى لغة مصادرنا للتواصل مع حقيقة الماضى، ونقرر أنه لا يمكننا أن نعيد وضع الدليل الذى بحوزتنا فى ماض حقيقي يمكن اكتشافه . وربما نسأل بجدية عن الفرق بين الحقيقة والخيال بقدر ما أن كلا منهما نتاج الاستراتيجيات التفسيرية وحبك الأحداث . وعلى الرغم من أن البنية الأساسية والسرد الخيالي تبقى دائما هي هي - كما يوضح ليمون « حدث هذا، ثم حدث ذلك » -فإن هذا لن يحكى لنا الكثير عن كيف يتعامل المؤرخ مع المحتوى طواعية. ويكرر ليمون السؤال الذى طرحه هايدن هوايت على مدى عدة سنوات : هل يمكن لشكل التاريخ السردي، مهما كان المؤرخ قد شكله، أن يتوافق مع السرد الحقيقي عن الماضى كما تمت تجربته فعلا ؟ وهل يمكننا أن نعيد حكاية القصة ؟

ونشير، كما يفعل هايدن هوايت، إلى أنه لا يمكن أبدا الوصول إلى الماضى حقا، لأن «معنى القصة » متأثر مباشرة » بأسلوب الحبك الذى تم اختياره لجعل القصة المحكية قصة من نوع خاص، إذ إننا نهاجم الشعور الإمبريقى القوي بمكانة المؤرخ باعتباره مراقبا محايدا من حيث إنه لا يصور حصاد القصة سلفا (أو التحليل كما يراه الإمبريقي) . فبالنسبة للإمبريقي الذي لا يكل فإن فرض بنية سردية من خلال اختيار نوع معين من بناء الحبكة - مأساة، رواية، فكاهة ... وما إلى ذلك - يجعل طبيعة العلم التاريخي الجوهرية طبيعة فظة . ومعظم مؤرخي التيار السائد من أنصار إعادة بناء الماضى، كما ندرك الآن فقط، قلقون بشأن الصلة بين الحدث وروايتهم عنه،

والمصدر والبيان الدقيق الذي يتصل به . وبدعة هوايت الإضافية، التى تقول إن اختيار الحبك ينطوى على التزام أيديولوجي أو فلسفي لا يمكن للمؤرخ أن يتفاداه، تمثل العيب الذى يشوب نزاهة الإمبريقيين في كل مكان، إذا أخذنا فى اعتبارنا أن السرديات التاريخية لا ينبغى النظر إليها أبدا على أنها أشكال أيديولوجية . وإنه من قبيل الفضيحة لأولئك الذين يؤمنون بإعادة بناء الماضى كما كان بالفعل أن كتابة التاريخ قد تنهار داخل الأيديولوجيا .وبالنسبة للمؤرخين التفكيكيين، من ناحية أخرى، فإن المهمة هى أن يستكشفوا السرديات التى عاشها الناس فى الماضى، وبناها المجازية والاستراتيجيات التفسيرية التى تتضمن أيضا طبيعة النظرية الاجتماعية / أو القوانين الاجتماعية المتضمنة والدلالات التى يحتما أن تسبقها أو تعقبها .

خاتمة

يثير الموقف التفكيكي، بقبوله للطبيعة اللامرجعية للغة، وبشكل حتمي، الشكوك بشأن النماذج البنيوية بعدد من الطرق المهمة . وعندما ينظر إلى اللغة على أنها تكوينية لأحد المعاني، ينتج عن ذلك أن السرد التاريخى لا يمكن أن يتولد عنه أي فهم على الإطلاق، سواء ثابتا أو صادقا . وبالإضافة إلى ذلك، وعلى الرغم من أننا نعترف أن المؤرخ يفرض نفسه باستمرار ويتدخل فى الماضى بالضرورة، فإننا قد نطلب بشكل معقول أن نستعيد قصد المؤلف فى أحد المصادر الأصلية أو فى أحد التفسيرات . وإذا لم يكن السياق التاريخي يمكن أن يطور المعنى الحقيقي للماضى، فإننا مجبرون عندئذ على أن نبحث عن المعنى فيما بين النصوص المسجلة والأدلة التى أشير إليها مجددا والتفسير التاريخي الذي يتولد عنها . ويبقى كل من المصدر والتعليق عليه تفسيرا بصورة لا تنفصم، كما أن النموذج التقليدي، القائم على أسس إمبريقية، والذى يسعى إلى إعادة بناء الماضى، ويعتمد على السياق الذى يصر على أن التاريخ حرفة، لا يخدم سوى فى إخفاء الطبيعة الشعرية للتاريخ . وبدلا من ذلك، يقبل الموقف التفكيكي التاريخ على ما هو عليه فعلا . وعندما ألتفت أنا، بوصفى مؤرخا، إلى آثار الماضى فإننى لا أستطيع إصلاح معناها الحقيقي - فكل ما لدي هى الحكاية التى أختار تقديمها من المصادر المحملة بالقراءات السابقة التى بحوزتى أنا وغيرى من المؤرخين .

التاريخ أولا، وقبل كل شيء، مشروع أدبي ووظيفته المعرفية مستمدة من الافتراضات حول أحداث الماضى . ولا يشبه التفسير السردي بالمرّة الصيغة البنيوية للتغير التاريخي القائمة على الاعتقاد فى الحتمية الوظيفية أو قوانين السببية . ويتطلب بناء التفسير السردي التنظيم، والاختيار، والحذف للأحداث والماجريات، وبدراستنا كيف يفعل المؤرخ هذا يكون من الممكن كشف شيء من منطقه أو دوافعه لإنتاج هذا الاختيار أو ذاك من السرد . ويبدأ التفكيك بالكشف عن الكيفية التى يقوم بها المؤرخون التقليديون بدمج التقديم والمرجعية . لا شيء من هذا يحول دون المؤرخ التفكيكي الواعي والاعتقاد أن الماضى قد وجد ذات مرة . وما يعنيه أنه سيكتب عن الماضى داخل إطار الوعي الذاتي . ويعنى قبول الفرض المتولد من خلال حوار المؤرخ مع المصادر التى لا تتصل بالماضى بالضرورة والاعتراف بأنهم ليسوا إسقاطات لما حدث بالفعل لأنها ليست مرجعية .

إن السرد – كتابة الماضى – له على الأقل بعد رئيسي واحد ظل بدون استكشاف. وسوف أتحول إلى ميشيل فوكو وهايدن هوايت فى الفصلين التاليين لتوجيه انتباهنا إلى البناء البلاغي بوصفه الشكل المكتوب للماضى وكذلك الانتباه إلى مغزى مهم بأن الماضى نفسه يمكن أن يفهم على أنه يتسق مع بناء السرد . وإذا كان حقا أن الماضى سردي، من أين يستمد، وكيف يعمل، وهل الفكرة نفسها تزيد من تحدى التاريخ بوصفه ممارسة موضوعية ؟ هل نجد الماضى نفسه متولدا بوصفه سردا من ناس فى مسار حياتهم، أو يكون مفروضا تماما من جانب المؤرخ وهو يصطنع وينظم مصادره فى شكل تم اختياره ؟ هذه الأسئلة سوف يتم تناولها فى الفصلين التاليين .

(٧)

ميشيــل فــوكو والــتاريخ

تــقــديــم

سوف أفحص فى هذا الفصل من المنظور التفكيكي ما أسهم به فوكو فى دراسة الماضى، وهو ما يستوجب السؤال عن طبيعة التاريخ باعتباره نوعا متمايزا من المعرفة، وذلك بإحلال التفسير السردي الذى يعتبر الشكل الأولي للمعرفة والحكي محل المنهج الاستقرائي / الاستنباطي المستند إلى الإمبريقية . ويتمسك فوكو أنه لا يمكن للعقل البشري، بدون وسيط، أن يصل بصورة صحيحة إلى حقيقة أصيلة [١] . والباب الوحيد أمامنا للتجربة (الماضى، أو الحاضر، أو المستقبل) يكون من خلال الوسيط الأولي أي اللغة باعتبارها عملية دالة تتشكل عادة داخل إطار ممارسة القوة، بشكل مشروع وغير مشروع . وإذ أخذ هذا عن نيتشه، فإنه يكون تحولا أساسيا عن الإمبريقية، لأنه يتضمن استحالة معرفة أي شيء بشكل موضوعي، مع الأخذ فى الحسبان أن الموضوعية نفسها بناء تاريخي وثقافي .

وهكذا يعتبر فوكو فى رأي غالبية المحافظين، مثلهم مثل مؤرخى التيار السائد، معاديا للتاريخ . وليس هذا لمجرد رفضه أن يمنح الامتياز للمفهوم الحداثي عن الحقيقة العلمية والتصنيفات الثقليدية للتحليل المستمد من الأدلة، على الرغم من أن رفضه الفروض الأيديولوجية والوضعية التقدمية يضعه خارجا بسبب شك خاص [٢] . فإن السبب فى هذا أيضا يرجع إلى إنكاره السببية التاريخية التى تسير فى خط بين الأحداث والفترات التاريخية، مفضلا بدلا من ذلك تاريخا يقوم على أساس انقطاع الاستمرارية بين البنى التصويرية السائدة العاملة فى الوعي الإنساني . مثل هذا

التفكير لا يروق بشكل كليٍّ للتراث الأنجلو أمريكي . وفضلا عن هذا فإن فوكو ينظر إليه نظرة ارتياب بسبب شكوكه فى قدرة المؤرخ على تقديم أي نسخة من الماضى على نحو دقيق . وخط أتباع نيتشه وما بعد الحداثة الذى يتخذه فوكو قد تجلى واضحا فى اهتمامه بما يرى أنه سعي التاريخ المريب من أجل أصل الحقيقة والذى هو جزء من الأسطورة الكبرى فى الثقافة الغربية. وما يضايق الإمبريقيين بالقدر نفسه إصراره - النابع من المنهج التاريخي - على أنه لا يمكن أن يكون هناك تمييز بين ما يفكر فيه فلاسفة التاريخ وما يفعله من يمارسون الكتابة التاريخية . إننا نستطيع فقط، عندما يكون التاريخ كله مشغولا بفلسفته الخاصة، ولا سيما السؤال من أين تأتى معرفتنا وكيف يتم استخدامه (إطار القوة)، أن نواجه الأسئلة التى يطرحها . وفى نهاية المطاف، على حد قوله، فإن الماضى الذي يتم تأويله على أنه التاريخ إنما هو عملية تفسير لانهائية من جانب المؤرخين باعتبار ذلك فعلا من أفعال التخيل، وتصير تصنيفاتنا فى التحليل، والفروض، والنماذج، والأسلوب التصويري، كلها جزءا من التاريخ الذى نحاول فك غموضه .

المعرفة

فى كتاب صدر سنة ١٩٦٦م بعنوان :

The Order of Things: An Archaelogy of Human Sciences لفوكو، يصرح بما يعتقد أنه الموضوع المعرفي المركزي بالنسبة للتاريخ (٣) وهو يتناول كيف أن الثقافة الغربية قد نظمت المعرفة والمعرفة التاريخية على نحو خاص . وفى تقديره لأثر الخطاب والممارسة الاجتماعية / الثقافية على الطريقة التى كان الناس والمؤرخون فى الماضى ينظمون بها التجربة والذاكرة، يطرح السؤال البنيوي الحتمي : ما أثر اللغة على التاريخ والتجربة عندما تكون اللغة نظاما اعتباطيا بني اجتماعيا بين الدال / المدلول : العلامة الدالة، وعلاقات الكلمة والعالم ؟

ويعنى هذا فى المصطلحات العملية أن الفكر الغربي اعترف أولا أن مثل هذه المفاهيم الحاكمة «الإنسان»، و«المجتمع»، و«الثقافة» لا تشير إلى أشياء، وإنما تشير

إلى بنى لغوية، ثم تأسست العلوم الإنسانية كلها التى قامت على العقل، والعقلانية، والمعرفة، واليقين، والاستقراء الاستدلالي وصارت أيضا ،كما يفترض هوايت، سجينة للأساليب التصويرية التاريخية فى الخطاب الذى تم تأليفها فى نطاقه(٤). وحفائر فوكو [لأن عنوان كتابه علم آثار العلوم الإنسانية] فى علوم الإنسان (خاصة الطب والتاريخ) تفتح الإستراتيجيات التصويرية والسردية التى تعطى السلطة لوضع هذه العلوم فى سياق لكشف ما يسميه هايدن هوايت البناء العميق لبرتوكولاتها اللغوية - أي المجاز . إنه التتابع التاريخي للمجاز كما استنبطه هوايت الذي يكبح جماح الممارسة الخارجة عن السياق، ويحكم ظروف شخصية كل عصر (طبقة معرفية) بمصطلحات خلق المعرفة وتنظيمها . ويشير هذا إلى السمة اللانهائية للعملية التفسيرية الناتجة عن الموقف الذى لا نستطيع عنده أن نحفر ونحن نرجع القهقرى فى رحاب الزمن من أجل أن نعثر على الحقيقة الأصلية . وهذا بالنسبة لفوكو، جوهر ما نسميه الآن حال ما بعد الحداثة .

وعلى وجه التخصيص، فحص فوكو، فى دراساته عن الجنون والطب، «الأرشيف » أو الدليل من مجموع الخطابات (الروايات السردية الشفوية أو المكتوبة) التى تشكل المعرفة فى أي فترة تاريخية محددة . ويزعم فوكو أنه يجب على المؤرخين فحص الأساس اللغوي (أي الروايات السردية) التى تشكل التاريخ، بدلا من التواصل أو يقدموا بصورة لا منازعة فيها، العالم الحقيقي للأشياء - أي يتخلون عن المعنى الأصلي . وعلى أي حال، تم تعديل ما يمكن أن يكون حتمية لغوية أو سردية عقيما، وذلك بقبول الممارسات الخارجة عن السياق والتى حسمت ثقافيا وتقدم الشكل الذى يتم فيه إنتاج معرفتنا القائمة على أساس لغوي . يتولّد هذا الشكل أو الصيغة عن طريق الربط بين ما يقوله الفاعلون التاريخيون وما يفعلونه فى حدود ما يسمح به المجتمع أو يرى فيه شيئًا حقيقيا أو زائفا، مشروعا أو غير مشروع . هذه هى فكرة البناء الاجتماعي للحقيقة، وهى أيضا ما يصفه فوكو بأنه المساواة بين القوة والمعرفة . ومن رأيه أن المعرفة التى صيغت فى شكل علم تصبح هويات مسيطرة فى حياتنا عندما تمنع وتسمح، وتستبعد وتتمضن، المباح والممنوع . هكذا، لا يمكن أن يكون هناك تاريخ واحد، ولكن لابد أن يكون هناك أي عدد من تواريخ الاستبعاد (المهمشون أو

«الآخر») والضم (الذين يقبلون على أنهم عاديون) والتحوُل (العاديون الذين يتحولون إلى غير عاديين) .

ويأخذ فوكو الأرشيف على أنه الدليل الذى وضع فى صيغة سردية تمثل الطبقة المعرفية الزمنية التى تولد فيها وتدل عليها، ولكن هى التى تكون بطبيعة الحال فى مواجهة المؤرخين فى فترتنا التاريخية الخاصة . مثل هذه المادة المصدرية لا يمكن تفسيرها بشكل إمبريقي فى نفسها ولنفسها باعتبارها نقطة غير إشكالية من الأصل . وينبغى فهم الدليل التاريخي ليس فقط من أجل ذلك الذى يشير إليه (الأحداث كما يفسرها المؤرخون)، وإنما باعتباره وسيلة يمكن بها أن نستوعب التنظيم الأعمق والأكثر أصولية للآليات اللغوية التى يستند إليها خلق المعرفة التاريخية وتكوينها. ويجب أن يعيد التاريخ طرح نفسه بوصفه عملية فكرية أدبية وأيديولوجية واعية بذاتها. وتمثل الدلالة المعرفية لرؤية فوكو بوابة الدخول إلى الوعي الإنساني كما يزعم جيلليس ديليوز Gilles Deleuze، وهى ليست موجودة فى عمل المؤرخ التقليدي لأن اهتمام فوكو يكمن فى البحث عن البنى الكامنة، والمبادئ و «الظروف التى تحكم أي شيء له وجود عقلي »، فى هذه الحالة «العبارات ونظام اللغة » (٥) . ولأن الوعي الإنساني يعمل بواسطة علامات التلاعب والمجاز اللغوي، فإن فهمنا للماضى يعمل بهذه الطريقة أيضا . ولن ينتج هذا حقائق جوهرية على الإطلاق، ولكنه يكشف فقط عن التفاعل المتواصل للتفسير اللغوي أو السردي .

ويقبل فوكو، مثل هوايت، موقف نيتشه (الذى كان بشيرا بتاريخ ما بعد الحداثة والتاريخ التفكيكي) أن اللغة باعتبارها قوة تصويرية للوعي الإنساني تكون المحتوى الإمبريقي للتاريخ والمفاهيم والتصنيفات التى يستخدمها المؤرخون فى تنظيم معلوماتهم وتفسيرها(٦) وإذ يواصل فوكو هذا الموقف المعقد للنسبية اللغوية من ناحية، والحتمية الحداثية من ناحية أخرى، فإنه يواجه كلٌ من النقاط الست فى ميثاق المؤرخ الذى يسعى لإعادة بناء الماضى . واليوم يقبل كثير من المؤرخين الذين يعترفون بأهمية أعراف استعمال اللغة ومفهوم التاريخ باعتباره خطابا – تصير كتابة الماضى الممارسة الثقافية للتاريخ – يقبلون (عن وعي أو عن غير وعي) مجادلة فوكو أن التفسير التاريخي هو سبب البساطة المؤثرة فى نماذج التيار السائد . ويواجه فوكو الميثاق

الإمبريقي بالمجادلة أن التاريخ لا يكون موضوعيا قط، لأنه لايمكن أن يكون مستقلا عن المؤرخ وزمانه أو سياقه الثقافي، وأن قوة اللغة التى تخلق المعنى بدلا من أن تكتشف الاتجاه الحقيقي الذى اتخذه التاريخ هى المهمة . ونتيجة لهذا، ولكي يكون المؤرخ أمينا مع نفسه ومع قارئه،يجب أن يتجنب أي مزاعم بالموضوعية التى يضمنها الإمبريقيون خلف الحدود الثقافية التى يعيش داخلها .

والسبب وراء هذا هجوم فوكو العنيف على اعتقاد أنصار دعاة إعادة بناء الماضى فى إمكانية تقديم الحقيقة تقديما كافيا من خلال الشكل السردي . والموضوعية ليست أسطورة فحسب، ولكن الأهم من هذا أننا يجب أن نعترف بالاستحالة الواضحة للنظرية الحداثية عن المرجعية بين الكلمات والأشياء، بين الروايات والأدلة . وفى هذا كله يكون همه الرئيسى نزع الصفة الأسطورية المتمثلة فى زعم التاريخ أنه يمثل حقيقة الماضى، ومن خلال، تأكيده الإضافي على أن التفسير يمكن أن يكون كاملا على نحو ما، أو معقولا، أو واقعيا . وكما بيّن ميشيل روث **Michael Roth** يصير هذا واضحا عندما يلتمس أولئك الذين يمتلكون القوة من التاريخ أن يضفى المعقولية على تمسكهم بالسلطة(٧) . وسلطة إضفاء الشرعية التى يمتلكها التاريخ يستخدمها أيضا من يحاولون كسب السلطة . ذلك أن كلا من السيد والخاضع يرى التاريخ فى الطراز الحداثي نفسه – أي الزعم بأنه تقرير عقلاني عن الحقيقة – بحيث يتم استخدامه من أجل غاياتهم الأيديولوجية الخاصة .

ومثل نيتشه، انتهى الأمر بفوكو إلى تقبل أن كل مزاعم التاريخ الحداثي مزاعم زائفة فى النهاية . وفى مقالته المهمة **Nietzsche,Genealogy، History** المنشورة سنة ١٩٧١م، يبدى احتقاره بصفة خاصة تجاه الجهود التى يبذلها الإمبريقيون السذج لوضع « الحقيقة التاريخية » التى يعتقدون أنها «بلا زمن وجوهرية» . ويجادل بدلا من ذلك أنه بسبب كون التاريخ مصطنعا ونحن نتوسط فيه، فإننا نخطئ حين نستنتج أننا يمكن أن نقف خارج التاريخ بشكل أو بآخر، أونستنتج أنه المطلب الجوهري للعلم الذى نعمل فى رحابه(٨) . وعلى حد قوله : «المؤرخون يتحملون مشاق غير عادية لمحو العناصر التى تكشف فى عملهم عن وقوفهم فى مكان معين وزمان معين » . ويتفق مع نيتشه فى أن التاريخ « يجب أن يكون واضحا فى نظرته»، وأنه ينبغى أن يعترف أن

«النظر منحرف، لأنه إطراء أو تأكيد أو نفي متعمد » . ولا يلاحظ فوكو نزعة الفرض هذه من جانب المؤرخ فقط ولكنه يحتفى بها . ولكي يكون فعل الكتابة التاريخية فعالا، يجب أن يتسم بتدخل المؤرخ وإعادة الفهم بحيث يمكن أن يصل صراحة إلى « الآثار المتباطئة والسامة للماضى، حتى يمكنه أن يصف الترياق الأفضل » . ويتبع هذا أنه لايجب دفع التاريخ الجديد إلى «أن يتوارى معنويا أمام الموضوعات التى يدرسها » ويجب ألا « يخضع نفسه لعملياتهم ولا يبحث عن القوانين، بما أنه يعطى ثقلا متساويا لكل من رؤيته الخاصة وأهدافه(٩) . هذه الرؤية للتاريخ ما بعد الحداثي لا ترفض ضعف نظرية التواصل، التى تقول إن « الحقيقة موجودة هناك »، فحسب ولكنها تستبعد أيضا اعتقاد أنصار إعادة بناء الماضى فى السرد الشفاف الذي يسمح للحقيقة التاريخية أن تبرز كما لو كانت موجودة وراء وصفه . ومن هنا يستبعد فوكو الأساطير الفجة التى تفيض من هذا الموقف العام : المصداقية الفظة، المؤرخون المحايدون، الموضوعية، التقدم، الاستقرار، الاستمرارية، اليقين، الجذور، وتحديد الحدود بين التاريخ والأيديولوجيا، والخيال، والمنظور . وهو يرفض، بنص كلماته، إرادة الإمبريقية للحقيقة.

فى هذه المصطلحات يحاول فوكو أن يطيح بكل من التراثين الرئيسيين لنظرية الحكي من على عرشيهما، والدليل حول محور « حقيقة الماضى » . ويضع بلغة قوية المؤرخين «الحقيقيين» فى مكانهم بزعمه أن ذلك مثل «الديماجوجى الذى يضطر إلى الاستنجاد بالحقيقة، وقوانين الجوهر، ودقة الحقائق، وبقاء الماضى»(١٠) . وبقدر ما يهم فوكو لا يوجد محتوى مسلَّم به فى الماضى، ومن هنا تكون الحاجة إلى وعي ذاتي أكبر بين المؤرخين حول طبيعة مناقشاتنا . وفى مقالته The Order of Things ومقالته The Archaeology of Knowledge(١١) يوفر إسهامه فى التاريخ تواريخ تقوم على ثلاثة مفاهيم أساسية ومتتابعة لما يحاول هو أن يفعله . وفى البداية يستخدم الوصف « علم الآثار Archaeology »، ثم يستخدم بعدها مصطلح « علم الأنساب Genealogy »، وأخيرا مصطلح «صياغة المشكلة Problematization» . وما يميز منهجه التاريخي – الذى يسميه علم الأنساب الخاص –أنه يصف كيف أن كل فترة تاريخية منفصلة وغير مستمرة تفرض بصورة منفردة تماما نظاما فكريا لتوليد المعرفة والاستفادة منها .

لم يعد التاريخ، إذن، يعرَف بتصنيفات التحليل الثابتة - البنى الاقتصادية، القوميات المتنافسة، الثورات السياسية والثقافية، مسيرة الأفكار ومعارضتها، عظماء الرجال والنساء، فترات ارتكاب الفظائع والتجاوزات، الجمهوريات والملكيات، الإمبراطوريات والسلالات الحاكمة، والمجاعات والأوبئة - وإنما بات يعرَف بكيفية تفسير المجتمعات، وتخيل المعرفة، وخلقها، والسيطرة عليها وتنظيمها، وعرضها، لاسيما من خلال ما تدعيه العلوم حول الحقيقة والسلطة واليقين . فالأحداث لا تملى التاريخ : بل إن التاريخ هو الذى يملى الأحداث، ويترجم المفهوم الراديكالي إلى مفهوم فوكو العملي عن فرض حقبة معرفية عن الماضى . هذا الفرض يقدم الثقافة الفكرية التى يتواجد فيها المجتمع، والأيديولوجيا، والتكنولوجيا، والسلوك الإنساني جميعا . ويتمثل المجال الخاص الذى اختاره فوكو ليثير فيه تحديه للتاريخ التقليدي فى دراسته عن كيفية التعامل مع المريض (خطاب طبي) إنما يتصل بسياقه الاجتماعي (بينما يتحول إلى ممارسة اجتماعية)، الذى فحصه فى النصوص التى نشرها أوائل التسعينيات من القرن العشرين :

The Birth of the Clinic : An Archaeoligy of Medical Perception , Madness and Civilization : A History of Insanity in the Age of Reason[١٢] إذن، كيف يعمل مفهوم فوكو عن التاريخ فى الممارسة؟ كيف يتحدى هو النموذج المعرفي الراسخ الذى لا يزال سائدا ؟

يجادل فوكو أن الناس ينظمون المعرفة بطريقة غير واعية ويخلقونها على شكل خطابات وممارسات داخل كل من العصور التاريخية الأربعة المتمايزة، أوالحقب المعرفية الزمنية الأربع التى وجدت فيما بين القرن السادس عشر والقرن العشرين . فقد تكونت كل حقبة معرفية من غمار تجريدات الفكر (المفاهيم) التى اتسمت بها مختلف العلوم، ومجالات المعرفة أو فروعها (وهو يعنى بالعلوم القانون، والاقتصاد، وعلم الأحياء، والتاريخ ... إلخ) فى الفكر الغربي . ووظيفة علم الأنساب الخاص به أن ينقِّب فى هذه الحقب المعرفية وأن يحدد موضع المبادئ أو المفاهيم المعرفية التى بنيت عليها مختلف مجالات المعرفة أو فروعها . ويلاحظ فوكو ثلاثة فروع أساسية للمعرفة - الحياة (الخطاب البيولوجي)، وتكوين الثروة (الخطاب الاجتماعي - الاقتصادي) واللغة (الخطاب الثقافي). والمفاهيم التى تستخدمها هذه الفروع المعرفية تقدم الأسئلة التى يمحصون بها معلوماتهم، وبذلك يخلقون المعرفة.

يجادل فوكو إن كل علم يكون محاطًا بمواقف عقلية مشتركة فيما بين العلوم تجاه ظروف الفكر التى من خلالها ننظم كل معرفتنا . هذه التوجهات يشار إليها عمومًا على أنها مشاعرنا الفكرية بالاختلاف، والتماثل، والتمثيل . وهذا هو ما يقوده إلى صياغة وتكوين كل حقبة معرفية على أنها تجميع للمفاهيم التى تثبت وتحدد المعرفة داخل حقبتنا . هذه المواقف العابرة للعلوم أو ظروف الفكر، تتضح، بطبيعة الحال فى المجازات التصويرية المسبقة واستراتيجيات السرد التى نستخدمها بوصفنا مؤرخين وهى التى تميز الشكل السائد من التقديم السردى فى كل حقبة . وهكذا يمتلك كل عصر علامته أو توقيعه المجازى السائد والمتمايز . كل الفكر عرضى وطارئ، من ثم على أصله فى البناء العميق المجازى للذهن. ولا يختلف فوكو عن أى مؤرخ تقليدى آخر يحاول أن يجد أساس أو أصل التاريخ . والفرق الرئيسى هو إصراره على أنه من الناحية المعرفية فإن مثل هذه المهمة للعثور على حقيقة تاريخية موضوعية سوف تصير عبثا بسبب انهيار التمييز بين العارف والمعروف . وكما اعترف هو طواعية وأنا أشك أنه كان متشائما نوعا ما، أن منهجه، بطبيعة الحال، خاضع لهذا الانهيار لأنه حداثى. بيد أنه انهيار ينكر تراث التيار السائد. وربما لا يكون هناك ما يدعو إلى الدهشة، أن السمة الرئيسية فى خطابه عن مكانة التاريخ توجد فى تكراره لمبدأ تفكيكى رئيسى نحن الآن على ألفة به، وهو الجدل بأن خطاب التاريخ يوجد الآن داخل ثقافتنا ومجتمعنا وليس خارجهما .

وإصرار الإمبريقية الفظ على أن الحقيقة الدقيقة والتى يمكن الوصول إليها توجد وراء نطاق التفسير يكون مرفوضا هكذا من جانب فوكو من خلال رفضه الاعتقاد بأن الدليل يتصل بحقيقة ما حدث فى الماضى. وكما نعرف، تعرِّف الرواية التاريخية الصادقة من جانب الإمبريقيين بأنها اقتراح يتصل أو يتسق مع الدليل المتاح والذى يمكن التحقق من صحته، وبدوره يحدد طبيعة نص التاريخ المكتوب بموضوعية . والمؤرخون التفكيكيون وغيرهم من المؤرخين الثقافيين يفضلون أن يستكشفوا فشل نظرية التواصل، خاصة فى العلاقة بين الدليل والسياق، العارف والمعروف - الذى يُشار إليه على أنه التداخل بين نصوص التاريخ المكتوب- وهى مشكلة مركزية أتحول الآن إليها .

الدليل

على الرغم من هجومه على المعرفة فى التاريخ التقليدى، فإن فوكو مثل جميع المؤرخين (بما فيهم المؤرخون التفكيكون) يقبل الحاجة إلى دراسة الدليل فى دور المحفوظات (الأرشيف) . والشرط الجوهرى هو أن حقائق التاريخ تفهم بصورة أولية على أنها إبداعات معرفية غير مترابطة خلقها الناس فى الماضى كما خلقها المؤرخ، وقد كتبت على أنها العلاقة التى يعتقد المؤرخ أنها توجد بين الكلمات والأشياء فى أي حقبة معرفية يدرسها. ويعنى هذا أن فهمه للمعلومات ينتج عن السرد، ولا يمكن الكشف عنها سوى فى سرده الذى ألفه أو اخترعه والذى هو نفسه يكون فى النهاية وظيفة البناء اللغوى المجازى لعصره . ولأن المعلومات التاريخية ترى آنذاك على أنها تمثيل للأحداث، وليست الأحداث نفسها، فإنه ينتج عن ذلك أن فوكو يعتقد أن المعنى التاريخى لا يستمد من وضع الدليل فى سياق تاريخى موضوعى (اكتشاف الصلات) ولا من اكتشاف قصد المؤلف (ومن ثم موت المؤلف) .

والأدلة، على شكل وثائق، لا ينبغى النظر إليها على أنها آثار الماضى التى يمكن إعادة بنائها قابلة للتأويلات الاستنباطية والاستقرائية الثابتة . ذلك أن التاريخ سجل ليس لما حدث بالفعل، وإنما هو سجل لما يخبرنا المؤرخون أنه حدث بعد أن نظموا المعلومات وفقا لروايتهم الخاصة للحقيقة الاجتماعية. واعتماد أنصار إعادة بناء الماضى على الاستقراء الاستنباطى- من الأدلة لكى يضمنوا الحصول على حقيقة الماضى- إنما هو مشروع زائف . ذلك أن الحسم المجازى للحقبة المعرفية لايستبعد أهمية الدليل، ولكنه حتماً يضعه فى دور ثانوى يلى عمل اللغة- الشكل السردى فوق المحتوى. فالدليل، بدلا من أن يكون نقطة المفارقة، هو نقطة وصول التاريخ . فالمجاز اللغوى هو نقطة المغادرة.

ويرى فوكو دليل العالم المادى على أنه نتاج الممارسة غير المترابطة فى الحقبة المعرفية . ويعنى هذا أن الدليل بينما لا يمكن للأحداث التى يجرى وصفها أن تولد حقائق خام، يتم استيعابها وفهمها على أنها آثار متسقة مترابطة أو تخترق حقيقة الماضى الذى لاتوجد وساطة للوصول إليه. ويواصل فوكو لدرجة بعيدة بحيث يقترح أن

مفهوم الحقيقة الإمبريقية ليس أكثر من خطاب ساذج من علم القرن التاسع عشر . ويعنى هذا أن كيفية تناول المؤرخين للدليل تعتمد على القواعد اللغوية السائدة (أو المجاز اللغوى) فى أرشيف الحقبة المعرفية التى يعملون بها وفى داخلها. وهكذا، بينما يجب علينا أن نستمر فى دراسة الدليل المتاح، فإنه ينبغى أن يُفسَّر عند أكثر مستوى أساسى له باعتباره وسيطا للبنى السردية الحاكمة فى الحقبة المعرفية. إن معرفة تلك البنى هى التى تشكل البعد المعرفى فى المنعطف اللغوى للمؤرخ التفكيكى، وتعلمنا عن الطبيعة الحقة لمشروعه التاريخى. وفى هذا الصدد أعنى أن كل التاريخ بداخله عنصر لا يمكن تقليله من رد الفعل الذاتى الفلسفى.

هذا الاعتراف بالماضى بوصفه نصًا مكتوبًا يقدم أيضا المنصة التى قد نفكك فوقها السرد التفسيرى الخاص بالمؤرخ . وهذه النقطة يتم عملها كثيرا الآن. وكل من الناقد الثقافى أنتونى إيثوب Antony Easthope والمؤرخ الاجتماعى باتريك جويس Pat-rick Joyce قد رفعوا راية هذه الحجة . وهما يجادلان (على طريقة فوكو) أنه بسبب أننا معشر المؤرخين فى التاريخ مثل أى شخص آخر، فمن المستحيل لنا أن نفصل التقديم عن المحتوى. وكما يقول جويس، مترجما إيستوب فى البداية، ثم مقتبسًا عنه :

«لكى تكون حقيقة ما دقيقة أولا ليست هناك ضرورة لوجود علاقة تواصل... بين الخطاب والحقيقى. وإذا كان الجدل المعرفى غير قابل للحل، فليست هناك إذن مشكلة بشأن التفرقة بين الدقيق وغير الدقيق من المعلومات، وبين الحجج التى يعتد بها وتلك التى لا يُعتد بها . ونحن نفعل هذا طوال الوقت، وهناك قواعد مختلفة على نطاق واسع تحصل عليها فى مناطق مختلفة. ومع هذا فإن هذه القواعد (البروتوكولات) فى حد ذاتها نتاج للتاريخ، المنطق» الذى يتحول إلى بحث لكى يعتمد على «الاتفاق والبناء الاجتماعى (البلاغة)»[١٣]. ويثير هذا مرة أخرى، موضوع علاقات القوة المبنية اجتماعيا وتقديمها فى اللغة، والارتباط بين إرادة الوصول إلى الحقيقة وما يسميه فوكو إرادة الوصول للقوة.

ويجادل فوكو أنه بسبب كون الدليل دائمًا يقدم إلينا على أنه نتاج قوانين تصويرية مرتبة سلفًا، فإن سمته تعتمد على كيف يختار الناس فى الماضى، والمؤرخون

الآن أن يفسروا حدثًا إما باعتباره متسقا أو متعارضا مع المفاهيم المقبولة للطبيعة البشرية والممارسة الثقافية (إحساس الاختلاف/ أو التشابه) . وفى أي ثقافة محددة فى أى زمن محدد، هناك توزيع للقوة، عن طريق واسطة، ربما تكون هناك بعض نماذج السلوك ممنوعة على حين تلقى نماذج أخرى التشجيع . هذه الممنوعات أو الموافقات، التى غالبا ما تمنح تفسيرًا أخلاقيًا أو عقلانيا، تم بناؤها لأغراض اجتماعية وسياسية ينبغى أن تكون لها علاقة بالقوة الاجتماعية واستخداماتها. وهذه الممارسات الاجتماعية فى حد ذاتها، التى يتم تعريفها على أنها فكر وسلوك، سواء ما كان منها مباحًا أو ممنوعًا، لا أخلاقيا أو أخلاقيا، تنتج بواسطة نظام اعتباطى لوضع القوانين الثقافية. هذا التقنين، الذى يعمل داخل السرد بطبيعة الحال، يتم تصنيفه بحسب الاستقطابات التى تتولد عن تصويرنا المجازى المسبق- إحساسنا بالاختلاف الذى يسبغ المعنى على أشياء فهمت على أنها استمرار أو بوصفها مجاورة (وغالبا ما ترى على أنها انقطاع للاستمرارية) مع طبيعة بشرية تم تحديدها بصورة اعتباطية على أنها معيارها ومقياسها. وكما سنرى فى الفصل التالى، يتفق هوايت مع فوكو على أن كل حقبة معرفية تكاد تكون مغلقة بالتأكيد داخل حالة محددة من الخطاب (تسمح لنا بالوصول إلى «الحقيقة» فى الدليل من خلال تقنيننا للتماثل، والتشابه أو الاختلاف. إن مثل هذه التقنيات- تقديم اعتبارات القوة الأيديولوچية أو الاجتماعية- التى تخلق بالفعل شعورنا بالحقيقة الاجتماعية.

ولا ينبغى الآن أن يكون صعبًا أن نرى مدى قصر المسافة بين تفسير الدليل وعمل الأحكام الأخلاقية، الغرض الأيديولوچى ووظيفة توزيعات القوة ما بين السيادة والخضوع فى المجتمع. وتعريف التفسير التاريخى بأنه تسجيل العلاقة بين الدال والمدلول - الذى تعاد صياغتها من خلال التماثل أو الاختلاف- قد دفع فوكو إلى تقديم مثال معاملة المجنون فى ثقافة أوروبا الغربية منذ عصر النهضة. وكان هذا واحدًا من أفضل الأمثلة التى استطاع أن يجدها عن ممارسة القوة الاجتماعية والاعتباطية فى التقنين الثقافى. وقد فصل الطبيعة الوظيفية وتكوين مثل هذا التقنين اللغوى الذى نتج فى الطرق المختلفة التى كان ينظر بها إلى المجانين ويعاملون بها فى كل من الحقب المعرفية الأربع. والنقطة هنا أنه بينما قد يهتم المؤرخون بترتيب الدليل ترتيبًا زمنيًا،

فإن تفسير أى نماذج موجودة ليس هو ما حدث بالفعل، ولكنها عملية طرح التقنين للتقنين التصويرى التى أخذناها عقلياً والتى تطفو على سطح سردياتنا . ولا يمكن لأى مؤرخ أن يهرب من العواقب الخلقية أو المعنوية لعملية الدال- والمدلول الاعتباطية. ونحن جميعًا سجناء فى الحاضر حين نحكى قصة الماضى. هذا هو العمى المزدوج الذى يعانى منه المؤرخ على الدوام. وعلى حد مصطلحات فوكو، لكى تكون فاعلة، يجب أن يعترف التاريخ أنه ينتج عن بنى قوى المساندة المقننة لغوياً وهذا هو ما يعطى التاريخ انشقاقه، أو بالنسبة لهذا الموضوع، قوته الداعة الراهنة فى «هنا والآن».

هذا التأكيد على حالتنا فى التقديم الجبرى التاريخى يسمح لنا أن نفهم كيف أن عملية التقنين قائمة على توزيعات القوى بين المجموعات السائدة والمجموعات الخاضعة. وعلى حد وصف هايدون هوايت، فإن كتابة سرد تاريخى يجب أن تحمل دائما البصمة، فى شكلها ومضمونها على السواء، «لتأثيرات اللغة والاهتمام الثقافى التى تشكل السرد»(١٤). وما نتعلمه، بقدر ما يخص الدليل الذى لدينا، هو أننا بوصفنا مؤرخين نستطيع إعادة تكوين معانيه فقط فى ضوء تجاربنا الثقافية المباشرة، والطرق التى تكتب بها تلك التجربة الماضية من أجلنا جزئيا . والدرس المركزى فى علم الأنساب الخاص بفوكو هو أن لدينا الآن رؤية للتاريخ، التاريخ ما بعد الحداثى إن شئت، موجه بواسطة الاعتراف بالسلطة المعرفية للشكل، وأن كل محاولاتنا للحصول على عروض يوثق بها مشروطة بنظرات لغوية واجتماعية. وبالتالى، لا يمكن لأي معرفة بالماضى أن تكون موضوعية، كما أن عالم الماضى لا يمكن أن يوجد بصورة مستقلة عن تقديمنا له فى الحاضر.

وفى نصه Discipline and Punish، والمجلد الأول من كتاب History and Sexuality، يختار فوكو من الأرشيف ومن البناء التاريخى الذى لا رابط له للتقنين الاجتماعى للسلطة على الجسد البشرى- فى السجون، والمستشفيات العقلية، والممارسات الجنسية. ويقرأ فوكو الدليل على التغييرات التى يقدمها فى المواقف الثقافية تجاه السيطرة على الكائنات البشرية والتى تتوسط فى الحقب المعرفية والتحولات المعرفية فى بناء المعنى فى أشكال سردية معرفية. هذان النصان يكشفان عن الكثير بشأن منهج فوكو التاريخى، ولا سيما تضمينه موضوعات القوة فى عملية كتابة التاريخ وبنائه

. وباعتباره علما اتخذ شكل المهنة الاحترافية فإن وظيفة التاريخ التقليدية كانت ترتيب الفهم الموثوق به للماضى . وعلى أي حال، بينما نضطلع بكتابة التاريخ- سواء على سبيل الاستعادة، أو الاكتشاف، أو إعادة البناء، أو البناء، أو التفكيك- فإننا نخلق العلم والماضى. ويعترف فوكو بهذا زاعمًا أن ممارسات المؤرخ التى لا يجمعها رابط تشكل مواقف ذاتية ربما كان يتخذها الناس فى الماضى شأنهم فى ذلك شأن المؤرخين .

ولأن كل حقبة تاريخية أو حقبة معرفية تحدد أوليًا بالطرق التى تتولد بها المعرفة وتستخدم- وفقًا للعملية التصويرية لتمييز التشابهات والفروق بين الأشياء - اللغة، والأيديولوچيا، والقوة وكتابة التاريخ، فإنها مرتبطة، سويا بشكل لا ينفصل فى التاريخ. وبينما درس مؤرخو التيار الرئيسى الدليل لكى يظهروا معناه الحقيقى، فإن التفكيك يعنى البحث عن رسائل التاريخ العديدة عن المرجعيات . ومن ثم يجب على المؤرخين التفكيكيين دائما لفت الانتباه الفلسفى إلى رسائلهم السردية التى تحمل كافة التوريات والإمكانيات فى محتواها الذى يؤيده الدليل وشكلها المعرفى.

نظريات التاريخ : بناء الماضى

منذ بداية حياة فوكو العلمية كانت تحدوه طموحات أن ينافس مفهوم أن المعرفة تستمد من الطريقة التى نأخذ أنفسنا بها، بوصفنا بشرًا، على أساس أننا الهدف الموضوع المؤسس للمعرفة . وكان هدفه أن يتحدى اعتمادنا فى الثقافة الغربية على السمو الذى يدل عليه المنهج الإمبريقى الإكلينيكى، قواعد الاستقراء والاستنباط، ونظرية الصلة بالحقيقة والمعرفة التى يعول عليها . كما أشارت واحد من أتباع مدرسة الحوليات هو روچر كارتييه بعد أن قرأ ما كتبه فوكو عن معاملة المجانين «الجنون، والطب، والدولة ليسوا فئات يمكن وضعها فى مفاهيم فى مصطلحات الكليات»، وإنما هى فئات للتحليل، وهى أشياء لا رابط بينها مؤسسة فى السياق التاريخى - بالضبط فى الحقبة المعرفية[١٥]. بهذا يقدم فوكو كلاً من الفلسفة التأملية والفلسفة التحليلية للتاريخ، الذى يقدم عملية خاصة لخلق المعرفة بوصفها أساس فهمنا للتغير والمعنى التاريخى. إنه مفهوم الحقبة المعرفية الذى يحتمل أن يكون له الصيت الأعظم بالنسبة للمؤرخين البنويين.

على الرغم من منهجه فيما بعد الذى كان معادياً بقوة للوضعية، والإمبريقية، وضد الاستقراء والتاريخى، فإن الشاب فوكو سقط فى البداية تحت تأثير مدرسة الحوليات. وقد حفز هذا ما تحول إلى أن يكون رغبته البنيوية التى لازمته طوال حياته لاكتشاف قواعد ترتيب الممارسات الثقافية الجماعية. وعند قراءته نيتشه، على أي حال، تحول من التأمل فى شروح النظرية الاجتماعية للتاريخ عن كيف جرب الناس العالم المادى، إلى دراسة العالم البلاغى للغة التى عاشوا فيها تماما مثل النظريات الاجتماعية نفسها. وقد كان تركيزه الباكر الذى ألهمته البنيوية هو الذى أنتج نموذجه التاريخى التأملى والتحليلى للحقبة المعرفية. ويقدم فوكو فى The Archaeology of

Knowledge التعريف التالى للحقبة المعرفية: «شيء مثل رؤية عالمية، شريحة من التاريخ مشتركة فى كل فروع المعرفة، تفرض على كل واحد المعيار القياسى نفسه، وتتطلب، مرحلة عامة من العقل، بناء بعينه من الفكر لا يمكن للرجال من أبناء فترة بعينها أن يهربوا منه- كم عظيم من التشريع الذى كتب مرة وإلى الأبد بيد مجهولة» (١٦).

هذا القدر العظيم من التشريع يشكل مبادئ أو مفاهيم يتم السيطرة عليها بواسطة هذه اليد المجهولة هو ما توسع فيه فوكو فى كتاب The Order of Things؛ حيث يبين كيف تتوافق حياتنا مع المفاهيم الداخلة فيما يسميه «الإمبريقيات» أو الدليل الموضوع فى الثلاثة فروع الإنسانية الرئيسية للمعرفة التى لاحظناها فى السطور السابقة: الحياة (أو الخطاب الحيوى). والعمل (الخطاب الاجتماعى- الاقتصادى) واللغة (الخطاب الثقافى) . إذا ما أخذنا فى الاعتبار نفوره فيما بعد من بنيوية العلم الاجتماعى. والواقع أن فوكو، يزعم أنه قد اكتشف فى الدليل فى الإمبريقيات الثلاثة الفترات الأربع المتمايزة أو الحقب المعرفية، أو مراحل العقل، أى «بناءه الأكيد للفكر» الذى يشكل فعلاً مجالات الحقبة أو فروع المعرفة . ويجب أن نكون على وعى أن مفهوم الحقبة المعرفية الجديد الآن مع فوكو، كان قد تم التوسع فيه من قبل بواسطة الفيلسوف الإيطالى جيامباتيست ڤيكو Giambattist Vico فى القرن الثامن عشر . ونظرة فوكو للتاريخ لها المقدمة المنطقية نفسها التى ألهبت ڤيكو- ويمكننا فقط أن نكون على يقين بشأن الإنسان الذى خلقه . وسوف أعود إلى فيكو فى القسم الثانى، ولكن،

فى اللحظة الراهنة من الضرورى أن ندرك موقف فوكو بأن العلم الطبيعى يجب دائما أن يبقى غير معلوم لنا بصفة نهائية، وبما أننا خلقنا العلوم الإنسانية، فإنها توفر لنا فرصتنا الوحيدة للمعرفة الحقة .

وفى توسيعه للحقبة المعرفية، اعتبرها النقطة التى عندها يفارق على النحو الأكثر جذرية تاريخ نظرية المرحلة فى افتراضه غير البنيوى بأن الحقب المعرفية الأربع لا تنمو عضويا من كل منها الأخرى، ولا تحدث على أنها ثورات فى الفكر من خلال رواية ما لعملية جدلية عندما تصل إلى الصراع . وبدلاً من ذلك تظهر فى الوقت نفسه توازى كل منها الأخرى، تملأ الفراغات التى خلت فجأة بواسطة شروط أخرى للمعرفة . وبهذه الطريقة نرى أرخبيلاً من فروع المعرفة تشكل الحقب المعرفية، لا شبه جزيرة تربطها جسور السببية- الطبقات المتصادمة، والثورات الصناعية، وتجارب حدودية، والمجاعات الكارثية، والاكتشافات العلمية، والأفراد الذين انكبوا على السيطرة على العالم، ثورات المعلومات، أو أى شىء آخر يأخذه معظم المؤرخين على أنه يربط الفترات التاريخية. وفى لغة البنيوية، فإن تاريخ فوكو لايتطور بشكل زمنى، ولكنها تفهم على أفضل نحو بصورة تزامنية، على أنه بناء بلا سياق متفجر، وبينما يلاحظ أن وصولنا إلى الحقيقة من خلاللغة تاريخى، ومن ثم، يشك فى إمكانية المعرفة الحقة عن الواقع، وحتى فوكو مرغم على أن يعمل من الافتراض الذى يسعى لإعادة بناء الماضى بأن طبيعة التاريخ، فى حالة الوجود الخلاق للحقبة المعرفية، إنما هى فى الواقع موجودة «هناك» . وفهم فوكو للحقب المعرفية الأربع يعتمد على معرفة كيف تطورت اللغة وعملت فى كل حقبة لتخلق المعرفة وتوصلها. ومن سوء الحظ، لأننا لا نستطيع الهرب من حقبتنا المعرفية، أننا لا نستطيع أبداً أن نعرف ما يشكل التغير التاريخى، لأن ذلك هو ما يحدث بصورة كارثية فيما بين الحقب المعرفية. وكل ما يمكننا فعله أن نضع خريطة لسلسلة الكوارث فى الحقب المعرفية ولكن، طبعا، فقط من حقبتنا نحن - ما بعد الحداثة- التى ترتب كيفية قيامنا بعمل هذه الخريطة .

وما هو غير مقنع أكثر من غيره بالنسبة للمؤرخين يتمثل إصرار فوكو على أن الحقب المعرفية تحدث فقط بدون عمل آلية السبب والتأثير . ويبدو هذا حدساً مضاداً بحيث لا يكون له معنى. بيد أنه ليس هناك مدعاة للقلق فى هذا . وإذا أخذنا فى اعتبارنا أننا لا يمكن أن نضع تغيرات فى كل حقبة سوى من خلال التغيرات الكلية

وانتقال الوعى، التى يكون التفكير فيها عادة على أنها فنية، أو دينية، أو علمية، أو أيديولوچية أو أيا ما كانت، من المهم أن نفهم طبيعة ذلك الوعى باعتباره أسلوبًا لغويًا للوعى. ووفقا لتفسير هوايت على الأقل، فإن فوكو يشير إلى أن العلوم الإنسانية (الفن، والسياسة، والعلوم، الخ) هى دائما أسيرة الأساليب التصويرية للخطاب، والتى فيها تشكل الأشياء فى الحياة اليومية بين الحقب المعرفية (المجازات الأولية الأربعة) . وهكذا، فإننا حين نسعى إلى شرح التغيرات التى تقع فيما بين الحقب المعرفية، نحتاج إلى زعزعة الاعتقاد، الذى كان يرن فى آذانهم منذ أيامهم الأولى فى المدرسة، بأن التغير يجب أن يحسم إمبريقيًا . بيد أن هذه ليست هى الحال بالضرورة.

والتشويشات فى الوعى هى ما تقلق فوكو. فإن الحقب المعرفية لا تلى إحداها الأخرى، والسبب فى هذا أنها ليست إمبريقية . والعلوم الجديدة والمواقف إزاء أشياء الحياة لا تظهر بوصفها ردود أفعال ولكن باعتبارها فترات انقطاع. والعلوم، والقيم، والمواقف، وأنماط السلوك الجديدة قد تظهر بشكل إمبريقى لتثور ضد أنماطها السابقة ببساطة لأن هذا ما يبحث عنه الإمبريقيون. وسوف يجدون، بطبيعة الحال، الدليل على «رد الفعل» إزاء المعتقدات السابقة والأنشطة السابقة لأنها موجودة بلاشك . ولكن تشكيل هذه إنما يكون من خلال أشكال التعبير الذى يتخذها الوعى. وما إذا كان المرء مقتنعا أم لا بهذه النظرية الكارثية عن التغير اللغوى وفقا للحقب المعرفية، فإن النقطة المهمة حقا هى دراسة الدور الأساسى للغة فى تقديم الأشياء التى تراها.

والحقبة المعرفية الأولى، من العصور الوسطى حتى أواخر القرن السادس عشر، (عصر النهضة) تحدد ملامح المعرفة وفقًا للبروتوكول الثقافى/ اللغوى السائد فى التشابه أو التماثل، حيث كان ينظر إلى الأشياء المرتبطة ارتباطًا وثيقًا باعتبارها جزءا مما أسماه المعاصرون «سلسلة الوجود الكبرى). وبينما مدى المقارنة والبحث عن حلقات وصل مخبوءة بين الأشياء) اتسعت فى المشابهة، فإن تعاطفا طبيعيا بين الأشياء كان مفترضا (بصورة اعتباطية) - ومن هنا جاء مفهوم السلسلة متصلة الحلقات، وفى الحقبة المعرفية الثانية، من القرن السابع عشر إلى القرن الثامن عشر (الكلاسيكى) كانت المعرفة تتولد بحسب بروتوكول لغوى يمثل إحساسًا واضحًا بالاختلاف . فى هذا العصر، كانت الأشياء تفهم وتفسر بواسطة إناس يتمايز كل منهم

عن الآخر بحيث يخلق مقارنة ذات معنى (مثل التفرقة بين التاريخ والعلم) ؛ وهكذا يرى فوكو أن تكوين المعرفة فى الحقبة الثانية محكوم بالتجاور والاستمرارية ومن ثم تكون الحقبة المعرفية الثانية مكرسة لإرساء التصنيف والقياس، ولا سيما فكرة أنه يمكن فرض النظام على العالم الحقيقى من خلال لغة شفافة .

ولم تتطور الحقبة المعرفية الثالثة، من نهاية القرن الثامن عشر حتى أوائل القرن العشرين (وهى الحقبة الحديثة أو الأنثروبولوچية) خارجة من رحم الحقبة الكلاسيكية التى لم تنبثق من حقبة عصر النهضة. وتبدو فترات الانقطاع المعرفية بين الحقب، التى لم يتوقعها أحد، وكانت بمثابة تحولات كارثية على تأسيس المعرفة، واضحة جلية فى بروز الحقبة المعرفية الثالثة بشكل عفوى. وكان شغلها الشاغل هو الإنسان بوصفه موضوعهما المركزى و (هدف) الحقيقة. وفى رأى فوكو أن هذا الانشغال يُفهم على أفضل وجه من خلال اختراع علم التاريخ من خلال تعريفه الحداثى بأنه فهم التغير الاجتماعى على مرِّ الزمان، لأن المؤرخين يصوغون الأصول والتطور التاريخى فى صياغة مجازية متتابعة زمنيا . ويفهم فوكو الحقبة المعرفية الحديثة على أنها تخلق تناقضًا معرفيًا أساسيًا بالنسبة للإنسانية: الإنسان بوصفه نتاج تجربته الاجتماعية المعاشة، وبوصفه أيضا من يشكل المعرفة متوسلاً بالمعرفة الاستنباطية . مثل هذا التوتر المعرفى لا يمكن أن يستمر أطول مما ينبغى، ولن يلبث الاختراع (الإنسان بوصفه حيوانا إمبريقيا وبوصفه حيوانا استنباطيا على السواء) أن يختفى بشكل يكاد يكون مؤكدا باعتباره فكرة عن الإنسان بوصفه مؤسسة للفكر تختفى فى عتمة الغموض، والمعرفة (وبالتالى الإنسان كموضوع للمعرفة) يتم الاعتراف بأنه لا شىء أكثر من خلق معرفى، وهكذا نشهد موت اليقين، والتاريخ والإنسان باعتباره حيوانًا عارفًا . وليست بنا حاجة للقول إن مثل هذه الرؤى التى تتنبأ بنهاية العالم لا تؤثر فى الإمبريقيين والتى تخلق الانطباع بأن فوكو، مفكر ما بعد حداثى، بيد أنه لم يكن كذلك.

وميراث الحقبة المعرفية الحديثة أو الأنثروبولوچية فى اختراع العلم الأكاديمى لتاريخ إعادة بناء الماضى مصحوب بالافتراض الساذج بالشفافية فى اللغة والاعتقاد أن السرد يمكن أن يتصل بشكل موضوعى بما حدث بالفعل فى الماضى. وإذا ما أخذنا هذه المعتقدات سويا، فإنها قد أنتجت المفهوم الذى ساد فى القرن التاسع عشر

والقرن العشرين للتاريخ على أنه معرفة إمبريقية. ومن هذا المنطلق، فإن التاريخ، كما يفهمه ويمارسه مؤرخو التيار السائد، ليس سوى بقايا من حقبة مفاهيمية سابقة. ودفاع فوكو عن هذه الصورة لماهية التاريخ وما يفعله كان السبب جزئيًا عن مكانة التاريخ الحالية وأزمته الراهنة. إن هذا الفضاء الفكرى الذى توجد فيه أزمة التاريخ الحداثى يشهد على التحول إلى الحقبة المعرفية الرابعة.

والحقبة المعرفية الحالية، الرابعة (ربما تكون ما بعد الحداثة)، إذا لم تكن قد حدثت بالفعل، يجرى خلقها مع بداية القرن الحادى والعشرين. ولأن فوكو يصرُ على أن الحقبة المعرفية تتحدد بواسطة التحولات الأساسية التى تحدث فى طبيعة اللغة، واستخداماتها، فإنه يجادل أننا نصل إلى فهم التاريخ (الذى يعرف بأنه وضع خريطة التغير المعرفى الكارثى) لا عن طريق فحص مضمونه، وإنما الشكل أو بناء اللغة التى يُقدَّم فيها المحتوى بواسطة الناس فى الماضى وبواسطة المؤرخ حاليًا. وفى دراسته عن التغيير الثقافى لاحظ طبيعة القوة الكامنة فى الخطاب ولكنه رفض أن يتبع آثار إعمال القوة متقهقرا إلى ما قد يفترض مؤرخو التيار الرئيسى، فى الحكومة، والمراكز الإمبريالية، أو صراع الطبقات . وبدلا من ذلك سعى للبحث عنها فى عواطف وغريزة صيغت سرديا- خاصة فى الإمبريقيات الثلاث : العمل، والحياة واللغة. ومن دراسة هذه الإمبريقيات يستنتج فوكو أن الحقائق التاريخية شأنها شأن النظريات البنيوية، (ومن بينها نظريته هو بطبيعة الحال) يمكن أن توجد فقط باعتبارها كيانات لا رابط بينها، وهى ليست نتاج عملية الاستقراء الاستنباطى، وإنما كعملية لغوية، أو على وجه الدقة، عملية سردية مفروضة .

التاريخ سردا

يتمسك فوكو بأنه فى المستوى العميق فى العقل البشرى هناك تشابه أو تواز بين البناء غير المترابط للإمبريقيات الثلاث والتنظيم المعرفى للمعرفة . ونحن نعرف العالم الذى نعيش فيه فقط إلى حد أننا نصوره سلفا ونحكيه سردا لأنفسنا . وربما يكون التاريخ، أو لا يكون، مجرد قصة نحكيها لأنفسنا لأغراض اجتماعية أو سلطوية

مختلفة، ولكن من الممكن بالقدر نفسه أن نستوعبه على أنه إعادة حكى الحبكة فى الماضى المعاش نفسه- التأريخ الذى تم تأويله بواسطة الناس فى الزمان من خلال المجاز المعرفى التصويرى السائد . وبعيدا عن المؤرخين المعادين للسرد من أمثال هايدن هوايت (الذى يعتقد أنه ليس هناك سرد فعلى فى الماضى لكى يتم اكتشافه وإعادة حكيه)، ففى قراءة فوكو يتم تذكيرنا بالأصوات البعيدة لفلاسفة التاريخ من أمثال جاللى الذى زعم أن المرجعية هى التى تحول السرد إلى «القصة» . وكما نعرف الآن، فإن صورة التاريخ لدى فوكو تعتمد على كونه مفهومًا على أنه نظام لغة ذو علاقات بنيت بصورة اجتماعية اعتباطا بين الكلمات والأشياء، ومن خلال هذه العملية نخلق سردياتنا الخاصة ونعيشها. فى هذا التعريف للحقبة المعرفية، يولى فوكو أهمية كبرى للغة فى تكوين المعرفة (معرفة حياتنا والعالم الذى نعيش فيه) . وفى إسهاب أكثر عن تعريفه يقول:

«نحن نعنى بكلمة حقبة معرفية، المجموعة الكلية من العلاقات التى توجد، فى فترة بعينها، الممارسات التى لا يجمعها رابط التى تبرز الشخصيات المعرفية، والعلوم والنظم التى يمكن أن تكون قد تمت صياغتها؛ والطريقة التى تم بها وضع كل من هذه التكوينات وتشغيله»(١٧).

وبناء على ذلك فإن اللغة تشكل على نحو مختلف أساليب التفكير فى الفترات المختلفة. وعلى الرغم من أننا لا يمكن قط أن نعرف إذا ما كان الفكر حقا نتاج تكوينات مختلفة متفرقة أو لغوية (مجازية)، فمن الممكن أن نتخيل أن الدور المركزى فى خلق المعنى قد يعطى إلى الممارسات المتفرقة التى تكون فروعا من المعرفة مثل التاريخ. وعلى كل حال، كما حاول فوكو أن يبين، أن عمل اللغة مختلف فى كل حقبة من الحقب المعرفية الأربع. ففى العصر الحديث كانت طبيعة اللغة محل تساؤل، وقد صارت اللغة شيئا مثل أى شيء آخر، ومع قبول فوكو المفهوم الحداثى بأن اللغة لا تستطيع أن تحمل ثقل التوقع بأنها سوف تقدم بشفافية النظام الحقيقى للأمور أو تصل إلى الماضى كما كان بالفعل. لقد صارت اللغة مجرد شئ إضافى آخر فى عالم من الأشياء . وليس لها مسار داخلى يؤدى إلى الحقيقة. واستخدام المؤرخين لها لا يضمن التقديم الدقيق لكافة الأشياء الأخرى. وكل ما يمكن أن تقدمه هو إمكانية الحبك (الحكاية) ومن

خلالها تقدم نوعا ما من الفهم (المعرفة) . وفوكو، مثل هوايت، ولكنه على خلاف جاللي، لا يمكنه إذن أن يحكي «القصة»، فقط يحكي قصة ما . هذا الإنكار ما بعد الحداثي للسمة التمثيلية للغة هو الذى يشكل جزءا من الميل ما بعد الحداثي الحتمى تجاه عدم يقينية المعرفة، ورغبته فى إنكار الأسس التقليدية للتاريخ.

عدم شفافية اللغة هذه تجعل من الممكن إعادة بناء الماضى كما كان بالفعل (أو محبوكا كما كان بالفعل؟)، ولكن هذا قد يكون أيضا بسبب عدم الاستمرارية بين الحقب المعرفية. وهذا بسبب أن فروع المعرفة فى كل حقبة تتولد باستخدام أساليب فى التقديم تقوم على أساس مفاهيم سردية مختلفة للعلاقة بين الكلمة والعالم (إحساسنا بالاختلاف) . وهكذا، فإننا بوصفنا من المؤرخين التخيليين من الاتجاه اللغوى أو التفكيكى، ربما نفحص الدليل الذى وضع فى السياق، ونحدد سمات الشكل السائد من الحبك السردى فى كل حقبة معرفية . وربما ننقب فى الحقب المعرفية الماضية لنميز كيف أن الأحداث فيها (تلقى على أنها إمبريقيات فوكو للحياة والعمل واللغة) قد شرحها الناس لأنفسهم فى زمانهم من خلال البنى السردية السائدة والخاضعة فى ذلك العصر . ولنا أن نسعى آنذاك لأن نفهم كيف أنه، فى كل حقبة معرفية، كان المعنى الذى أسبغه الناس على الحياة والعمل واللغة فى زمانهم يتغير وفقًا للجزر والمد للقوى المجازية فى اللاوعى تحت مستوى عملهم الواضح لبناء الأساطير، أو الإمبريقية، أو التنظير الاجتماعى. والتيار المضاد تحت السطح للقواعد المعرفية المستلهمة أو المستوحاة مجازيا التى كانت تحرك تفكير الناس فى الماضى من المفكرين والسياسيين، والمصلحين، أو أيا ما كانوا- كان سيبقى بطبيعة الحال، مجهولاً بالنسبة لهم . هذه القواعد المجازية، على أية حال، هى القوانين الأساسية التى تشكل بنية السرد، «المجموعة الشاملة للعلاقات التى توجد فى فترة بعينها، والممارسات التى لا تربطها صلة ببعضها والتى تؤدى إلى ظهور الشخصيات المعرفية، والعلوم، وربما النظم التى تمت صياغتها»، التى لاحظها فوكو.

وعند نقطة أخرى، يزعم فوكو أن الحقبة المعرفية بوصفها «مجموع العلاقات التى يمكن اكتشافها، بالنسبة لفترة محددة، بين العلوم عندما يحللهم المرء عند مستوى حالات الانتظام المتفرقة»(١٨). مؤكدا على مفهوم الحقبة المعرفية بوصفها البنى التحتية

العقلية لكل الفروع الإنسانية (غير العلمية) للمعرفة، المجازى التاريخى المسبق الذى يمكن الكشف عنه وتكوينه فقط فى تقويم سردى . وتحديدا، وبسبب شكله السردى، لا يمكن للتاريخ أن يتجنب استخدام المجازات التصويرية الأربعة: المجاز، والكناية، والمجاز المرسل، والسخرية . واليوم يعتقد كثير من النقاد، إن لم يكن غالبية المؤرخين، أننا دخلنا عصرا (الحقبة المعرفية الرابعة) نلقى فيه القصة السردية لحياتنا فى مجاز ساخر بصورة سائدة- وهو المجاز السائد للحقبة المعرفية ما بعد الحداثة. بل إن بعض مؤرخى التيار الرئيسى بين الإمبريقيين يسألون فى سخرية كيف يتسنى أن تكون الحقيقة الاجتماعية للماضى معلومة لنا - أو تقدم لنا بصورة دقيقة فى السرد؟ هذا الكتاب، على سبيل المثال، كان يمكن ألاً يكتب سوى فى هذا الوقت فقط . ونحن نعرف أن هايد هوايت يتمسك بأن رواية النص والسياق يتطلب من المؤرخ أن يستخدم إستراتيجيات فى الشرح تعترف صراحة بالمجازات التعريفية، والحبك، والحجج الشكلية المفروضة، والتى تحمل كلها، كما أوضح فوكو، دلالات أخلاقية / إيديولوچية / سلطوية . وإذا ما اتبعنا فوكو، فإننا ننقاد إلى كيف تعمل البصمة الثقافية لكل حقبة معرفية من خلال الطريقة التى يتم بها تحديد التشابه، والاختلاف، والمقارنة . وهذا كله يعنى أن الشرح التاريخى يستخدم الأساليب المجازية، ليس فقط باعتبارها أشكالاً أسلوبية للكلام، ولكن بوصفها إستراتيجيات تصويرية مسبقة للشرح فى تعبيرها عن علاقات الكل- الجزء، والجزء - الكل. ومن ثم فإننى افترض أن العملية المجازية المتمثلة فى الكناية، والمجاز المرسل والسخرية هى التوقيعات الثقافية للفهم فيما قبل الحداثة، والفهم الحداثى، وما بعد الحداثى.

وربط فوكو الحقب المعرفية بالأساليب المجازية السائدة، على أي حال، ليس اختراعًا حداثيا (أو ما بعد حداثى) . والحقيقة أن الفكرة الأساسية للحقب المعرفية والأساس المجازى للمعرفة جاء فى الأصل فى حقبة عصر النهضة مع الفيلسوف المؤرخ چيا مباتيستا ڤيكو. ففى مقالته The New Science (التى اكتملت ما بين سنة ١٧٢٥ وسنة ١٧٤٤م) استكشف ڤيكو على نحو أكثر كمالاً عن ذى قبل المدى الذى تصل إليه اللغة (باعتبارها مجازا وسردًا) فى تمثيلهاالأشياء فى العالم، وتشكل أيضا فهمنا للعلاقات المفترضة أن توجد بينها . كان هذا المفهوم على وجه التحديد فى الحقبة

المعرفية قد ضاع عندما كانت الأساطير الحداثية عن العقلانية والعلم قد نزعت من القوة المعرفية للغة والبلاغة. وكانت العاقبة، على حد قول هوايت، أن حُجب «عن العلم نفسه إدراك طبيعته الشاعرية»(١٩). فالعلم، مع التاريخ الحداثي يقلد مناهجه ويشاطره أساطيره، قد افترض أنه أيضا يمكنه أن يقف خارج اللغة ويكتشف حقيقة الماضي.

وقد رفض فيكو مثل هذه اليقينية وعقلانية التنوير بالتأكيد على الطبيعة التي تشكل المعرفة اجتماعيا (وقد صادق فيكو على الرأى القائل إن الحقيقى والمصطنع شيء واحد) . والاستدلال الحداثي اللازم للرأى القائل إن العلم مؤكد ويقينى لأنه من صنع الإنسان، إنما هو القناعة المطلقة للعلم أن الحقيقة يجب أن تبرز من التجريب من جانب الإنسان في العالم المادى بمساعدة حساب التفاضل والتكامل في الرياضيات . وبسبب التفضيل الحداثي للاستقراء التاريخي، والاستنباط البنيوى، فقد أخفق المؤرخون، كما يشير فيكو في زمانه وتقبله فوكو بعد ذلك، أن يقدروا تماما هشاشة الشكل المكتوب عن الماضي والطبيعة الإيديولوچية البورجوازية للمشروع التنويرى. وبالنسبة لفوكو، متبعًا ما يفهمه على أنه منطق ڤيكو، أنه يجب أن يكون المؤرخون على استعداد لتعليق اعتقادهم في البرهان الموضوعى في المعرفة التاريخية، وبدلاً من ذلك يقبل تقديمًا وفرضًا يتوسط ويقدم المواقف المعنوية في العالم. وقد اقترح فيكو أنه عندما يكتب المؤرخون الماضي في صورة نص فإنهم يفرضون الحاضر سياقًا له بالضرورة . وفي محاولة تجنب ما رأوه مشكلة خاصة بهم، قبل مؤرخو التيار السائد مقاربة كولينجوود- كار التقمصية للفهم التاريخي. والمؤرخون التفكيكيون، من أتباع فوكو، قد وجدوا بدلاً من ذلك فرصة في هذا لمزيد من الفحص للدور التشكيلي الذى تلعبه اللغة في تشكيل الماضي- إعادة التفكير في الماضي يعني بشكل حتمي إعادة التفكير في التاريخ.

وتقدم دراسة الأساليب البلاغية الأولية الأربعة فرصة لجعل أنفسنا على ألفة مع المراحل أو الدورات التي من خلالها «يمر الوعي في جهوده لمعرفة العالم» ولكنه يخفق دائما في نهاية المطاف في «معرفته بصورة كاملة» بحسب تعبير هوايت(٢٠). مثل هذا الإخفاق في المعرفة، وهو ما يقبله فوكو دائما، لا ينبغي أن يوقفنا عن كتابة الماضي. وعلى أية حال، فإنه يجب علينا أن نكتب بطريقة تأملية، واعين لقدرة السرد على

تشكيلنا من الناحية الإيديولوچية وكذلك الاعتراف بأن الماضى الذى نفسره فى السرد ليس هو الحقيقة . وكما بين عدد كبير من الشرّاح منذ فيكو، ومنهم ميشيل فوكو بصفة خاصة، فإن اللغة هى الوسيلة الأولية للسيطرة والمعارضة الأيديولوچية. وعلى نحو خاص، فإن تفكيك الماضى يتوقف على فهمنا للاستجواب الأيديولوچى فى وظيفة اللغة حسبما يصفه الماركسى الجزائرى لويس ألتوسير Althusser، قدرة اللغة العاملة عند المستوى الأيديولوچى على وضع الناس فى مواقف أقل أو موقف خاضع . ويواصل ألتوسير القول إن جماهير الناس قد تشكلوا ووضعوا فى مواقف الخضوع الإيديولوچى بسبب أجهزة الدولة الأيديولوچية التى تعمل من خلال وسائل الإعلام وغيرها من نظم الاتصالات التى تم تحديدها معرفيًا[٢١]. ولأن المعرفة قوة، وحدود معرفتنا وشكلها محسوم باللغة التى نستخدمها للتعبير عن تلك المعرفة، فإن طريقة استخدامنا للغة لابد أن تؤثر على ما نفكر أنه يكوِّن القيمة، والسلطة والشرعية.

وإذا وضعت الأساليب المجازية فى أوضح صورها، فإن هذه الأساليب التى تصور (تحسم) الكتابة التاريخية، وكذلك فهمنا للقواعد المعرفية التى تولد المعرفة، قد تشبعت إيديولوچيا . وبالنسبة للمؤرخ الذى يرغب أن يضع المجاز الحاسم، ويعنى هذا البحث عن العلاقة بين الشكل والمضمون فى الأدلة وفى خياله التاريخى على السواء . ويجب أن نفهم أن حقيقة الماضى (الذى يفترض أنه قد وجد) إنما تولدت نصيا وشوهت أيديولوچيا . وأعنى بهذا أن التاريخ المكتوب يجب أن يستوعب طبيعة عملية صياغة المجاز وأهميتها فى الماضى باعتباره تجربة معاشة وتجربة مكتوبة على السواء. وتمامًا مثلما كانت الأساليب المجازية أساس نظرية المراحل فى التاريخ عند ڤيكو (إذ يمثل المجاز عصر الآلهة، والكناية عصر الأبطال، والمجاز المرسل عصر الرجال، والسخرية عصر الاضمحلال والذبول)، وهكذا فإنه بالنسبة لفوكو هناك أساس مجازى لكل من الحقب المعرفية. وليس هناك ما يثير الدهشة فى أننا قد نرى ما بعد البنيوية والتفكيكية نفسها على أنها إمبريقيات ما بعد حداثية، وكل منها بطريقتها ترفض التاريخ الحداثى الذى يرتكز على الإنسان، وكل منهما يقيم الدليل على أزمة الوضع الراهن فى التاريخ .

خاتمة

فى سنة ١٩٨٤ كان بوسع مارك بوستر أن يزعم، بقدر من الدقة، أن السبب الرئيسى لما أسماه عدم تماسك الكتابة التاريخية هو « غياب التفكير النظرى من جانب الذين يمارسون التاريخ الاجتماعى»(٢٢). وبينما لم يعد هذا هو السبب، فإن التيار السائد، على وجه الإجمال، لايزالون يمكن أن يعترفوا بأنهم تغاضوا عن عمل فوكو. وهم ينكرون فراسة فوكو ورأيه بأن دور المؤرخ أن يضع ويستكشف الممارسات المتفرقة وغير المتفرقة التى تضمها وثائق الأرشيف داخل حقبة معرفية، بحيث يمكنه أن يقدم للقارئ التحويل السردى الذى تولد، وكيف يمكن أن تكون هذه الممارسات قد حكمت الأحداث، والأفعال فى الماضى. وبينما قد يكون فوكو، أو لا يكون، أول مؤرخ تفكيكى أو ما بعد الحداثى، فإنه مؤهل لحمل اللقب، فقط لأنه يشير إلى الانقطاع المعرفى بين عصر الحداثة وعصرنا. وربما يكون اللقب مستحقًا أكثر بسبب إعادته صياغة التاريخ على شكل لا يعتمد على الاستدلال الاستقرائى أو إسناد السببية، والأصول، واليقين، والحقيقة. ويترتب على هذا الرفض للأصولية الإمبريقية أنه يمكننا أن نعيد التفكير فى طبيعة الدليل التاريخى وغرضه باعتباره أرشيف يضم الممارسة غير المترابطة، مع الاعتراف بأن فائدته تكمن فيما يخبرنا فى النهاية عن تنظيم المعرفة وفقا لمعايير أخرى غير نظرية التواصل فى المعرفة.

هذه الرؤية الجديدة لطبيعة التاريخ تبدو وكأنه تطرح الفلسفة فى وجه من يمارسون كتابة التاريخ: كما يقول إلتون، يخرجونه من غرفة غسيل الأطباق إلى غرفة الاستقبال . والمؤرخون بعد فوكو يتقدمون بشكل مطرد نحو المصالحة مع دراسة الماضى، والماضى نفسه، باعتباره سرديات مؤلفة. إنه فى الخط مع هذا الوعى الجديد أن أسس هايدن هوايت إسهامه فى كتابة التاريخ . ذلك أن تأكيده، متبعًا فوكو، هو أنه بينما السرد كشكل من أشكال المعرفة والتقديم لا يمكن تجنبه، فإنه أيضا متمرد على نحو يثير الحنق. وعلى أي حال، إذا كان التاريخ بوصفه علما لا يجب أن يختلط بالماضى– وهى مسألة مركزية فى برنامج هوايت– فمن الممكن إذن الوصول إلى حقائقه الممكنة فقط من خلال القوى المفاهيمية للمؤرخين الذين تقيدهم البنى والتصنيفات اللغوية. ونتحول الآن إلى نموذج هوايت السردى فى الشرح التاريخى.

(٨)

هايدن هوايت والتاريخ التفكيكى

تقديم

المؤرخون الذين يرفضون عادة فكرة أن الشكل الذى يكتب به بحثهم يخلق معنى تاريخيًا، يبنون رفضهم على افتراض أن اللغة المستخدمة للكتابة عن الماضى تتصل بالماضى بوصفه سردًا. وهذا رأى يرفضه هايدن هوايت (ومعه آخرون مثل لويس مينك، وآنكر سميث، وبول ريكور). وتحليل هوايت لكيف أن المؤرخين، وهم يصفون أحداث الماضى ويقيمونها، يخترعون الماضى ربما يكون أكثر تطور جذرى فى المنهج التاريخى فى السنوات الثلاثين الأخيرة. وقد أجبر فلاسفة آخرين ومؤرخين آخرين على دراسة موضوع التواصل أو التشابه بين الشكل السردى والتجربة المعاشة. وفى رأى هوايت أنه بسبب أن الماضى مخترع أو متخيل ولم يكن موجودا، فإنه التاريخ للمرة الأولى لا يتوافق مع أو يتواصل مع سرد أو قصة موجودة سلفًا . ولا ينازع هوايت فى أن الماضى قد وجد، وهو ليس ضد المرجعية، بيد أن إجابته على السؤال الذى طرحته فى البداية، متسائلا عما إذا كان الماضى موجودا سلفا فى شكل قصة يحكيها الناس فى الماضى لكى يشرحوا حياتهم لانفسهم، إنما تجادل بأننا نفرض القصص على الماضى لعدة أسباب متنوعة تفسيرية، وأيديولوچية، وسياسية. والسرديات ليست وسائل منفصلة لنقل حقائق الماضى، ولا يمكن للمؤرخين أن يكتشفوا السرد الحقيقى للماضى فى الدليل على المقاصد والمعتقدات الإنسانية.

فلماذا يكون من المهم أن نتدير حجج هوايت بشأن طبيعة التاريخ ؟ حسنا، لقد كان هو أول من بنى نظرية مفصلة عن التاريخ بوصفه ممارسة للغة المجازية. ولكى

نفهم طبيعة التاريخ فهما كاملاً، علينا أن ندرك أن ما يزعمه المؤرخون أنصار إعادة كتابة الماضى والمؤرخون البنيويون، إنما هى المبادئ والعقائد الجوهرية المركزية (من وجهة نظرهم) فى التاريخ وهى العناصر الوحيدة فيه. وكما بيَّن هوايت بقدر أكبر من الوضوح من أى مؤرخ آخر فى نصف القرن الماضى مع الاستثناء الممكن لوليم جالى، ولأنها ممارسة لصنع السرد، فهناك مما يخص التاريخ قدر أكثر كثيرا مما للإمبريقية والاستقراء . والمؤرخون الذين يريدون إعادة بناء الماضى غاضبون على نحو خاص من مجادلة هوايت أن التاريخ لا يمكن أن يتواصل مع قصة معينة موجودة سلفا عن الماضى، لا سيما إذا كانت قصة يمكن معرفة ما تعنيه حقًّا . وبالنسبة لهوايت ليس ثمة معنى فى الماضى . والمؤرخ يقدم هذا المعنى. وما هو مهم فى هذا هو وجود المؤرخ نفسه. وهوايت يعترف هنا بتفكيك التمييز بين الذات والموضوع بالطريقة نفسها التى يقبل بها انهيار الفرق بين المحتوى والقصة. والمؤرخون التفكيكيون، من أمثال هوايت، لا ينكرون ضرورة إحالة الماضى إلى الأدلة المتاحة (ما لم يكونوا يجربون عن عمد، طبعا) أو أن المعنى والشرح لا يمكن تقديمهما له. ومن الناحية الجدلية، فإن المؤرخين أنصار إعادة بناء الماضى سوف ينكرون من ناحية التصنيف أن المعنى يقدم من أجل الماضى. إنه لهذا السبب أن شرط الشرح والمعنى لا يتبع المنطق الإمبريقى فى الاكتشاف وإنما يتبع منطق صناعة السرد.

ويعتقد المؤرخون فى كل من الاتجاهين الرئيسيين بإمكانية استعادة قصد المؤلف، والحقيقة، والأسباب، والأصول، وتواصل معقول بين الكلمات والعالم، ويصرون على أن التاريخ يبرز من الحرية النهائية للناس فى الماضى لأن يفعلوا، ويفكروا ويقوموا باختيارات عقلانية (أو اختيارات غير عقلانية يمكن شرحها) وليسوا مقيدين بشكل مطلق بالأحوال المادية مثل الطبقة. ومن هذا الموقف المحافظ أيديولوجيا يصرون على أن هناك منهجا تاريخيًا إمبريقيا أصيلا. وعلى أي حال، يبدو أن البعض يريدونها من كلا الطريقين بالإصرار على هذه المجموعة من المعتقدات عن المنهج، إلا أنهم مع هذا يرغبون فى الادعاء أن «ليس هناك شىء أكثر يمكن قوله عن الشرح التاريخى؛ لا شىء مما لا يمكن قوله فى الحياة اليومية عن الشرح»[١] إن عدم الاتساق هذا يتجاهل الجدال الذى دار فى القرن العشرين حيث جادل الفلاسفة التحليليون حول الفرض

القائل إن اللغة هى الحالة الأولية التى تنتج فيها المعرفة وتفهم، وأن بناء النص التاريخى ككل، بدلاً من مجرد مستواه الصغير للروايات الفردية عن المقاصد، يمكن أن يكون معرفياً أى أنه يخلق المعنى.

وقد نختار، بطبيعة الحال، أن نتحدى هوايت ونسأل ثانية إلى أى مدى يكون السرد التاريخى بالفعل متجانساً مع الماضى- هل يمكن للتاريخ أن يستعيد قصة الماضى، أو هل نحن نفرض قصة ما فقط؟ إن هذا سيكون تواصلا مختلفاً لما يتصوره الإمبريقيون- وهو ما سوف أسميه تواصلاً سردياً - المدى الذى تجارى فيه قصتنا قصة الماضى لا عن طريق الإمبريقية، وإنما عن طريق دراسة البنى البلاغية السائدة والخاضعة فى الماضى. وفى هذا الفصل سوف أتناول هذا الموضوع ورفض هوايت لفكرة اكتشاف المؤرخ للقصة . وقد أشار آنكر سميت، أنه ليس حتى وقت قريب نسبياً، لم يكن النص التاريخى «ككل» أبدا «موضوعاً للتحقيق الفلسفى»(٢). هذا شىء يدعو للأسف، إذا ما أخذنا فى اعتبارنا أن التاريخ هو النشاط الأدبى الذى يناسب أكثر من غيره هذا المستوى من التحليل النصى. إنه عند هذا المستوى يتناول ما قد يكون السؤال المركزى بالنسبة لهوايت وجميع أولئك الذين يهتمون بدور السرد فى التاريخ: هل الحياة نفسها لها بناء سردى وهل يمكن أن نستعيده ؟ لو كان ذلك كذلك، إذن فالتاريخ كما هو مكتوب يجب ألا ينظر إليه إما باعتباره تقريرا عن برنامج بحث إمبريقى موضوعى، أو قطعة ذاتية من الأدب، وإنما يجب النظر إليه باعتباره تمثيلا للحياة والثقافة فى الماضى.

المعرفـــة

إن الطبيعة المتمردة لعلاقة الدال- المدلول، وعدم تثبيت المرجعية والتواصل الإمبريقى، والتدهور فى بنيوية قانون التغطية، واستكشاف فوكو للعلاقة بين الماضى والشكل السردى، قد حسَّنت من فحص البنية المعقدة الأيدلوجية والتفسيرية والحبك للتاريخ بوصفه شكلا من الشرح. وهكذا فإنه أننا نرى التاريخ بوصفه حرفة أكثر منه نتاجاً غير مخلوط للمصادر الموضوعة فى سياق، أو إعادة بناء للتجربة المستمدة من

الإمبريقية والدقيقة، أو بناء نظرية اجتماعية. ويؤكد هايدن هوايت، مثل فوكو، فى كتابة التاريخ على الممارسات التى لاسياق لها والأساليب المجازية الحاسمة، مقدما نموذجاً شكليا يسمح، عندما يؤخذ مع رؤية فوكو، للمؤرخين أن يربطوا بنى التمثيل السردى بطبيعة التغير التاريخى .

وبالمصطلحات المعرفية، فإن اشتباك هوايت مع مفهوم فوكو عن الحقبة المعرفية، ومع مثاله السردى الشكلى الخاص به عن الشرح التاريخى الذى تمت هندسته مجازيًا، يثير أسئلة مهمة عن الماضى بوصفه نتاجًا نصيا. ونموذج هوايت للكتابة التاريخية والفهم التاريخى معروف الآن تماما(٣). باختصار، يقدم هوايت نموذجا من السرد التاريخى يؤخذ على أنه يصور سلفا فهم المؤرخ لمعنى الماضى ومضمونه . ونص هوايت الرئيسى Metahistory، الذى نشر أوائل السبعينيات من القرن العشرين. أوضح فيه كيف أن السرد التاريخى يسبغ على نفسه وعلى «الماضى» المعنى. وبالنسبة لمعظم المؤرخين، فإن أسلوبا أدبيا واضحًا فى شرحهم التاريخى يؤخذ معيارًا على عدم صلة السرد بالفهم. وعندما يصل الأمر إلى هذا فلماذا ندرس الشكل بدلاً من أن ندرس هدف الدراسة؟

وعلى أي حال، يجبرنا هوايت على مواجهة الموضوعات الأصلية . هل تعمل اللغة فى تعارض مع افتراضنا لوجود الحقيقة لأنه فقط من خلال اللغة يمكننا أن نستوعب تلك الحقيقة؟ (ومع هذا بسبب شخصيتها التصويرية، فإنها يجب دائمًا أن تصطنع الحقيقة) . هل سجن اللغة يعنى أننا لا يمكننا قط أن نهرب إلى الحقيقة ؟ هل شكل إعادة بنائنا التاريخى للماضى يحكم مباشرة أو يشكّل تفسيرنا؟ كيف نفرض بناءاتنا السردية الخاصة على الماضى؟ لم يكن هوايت وحده فى تأمل هذه الأسئلة . وقد تناول كثير من المؤرخين وظيفة السرد بوصفه موضوعًا تأويليا. فقد أوضح فردريك أولافسون، على سبيل المثال، ليس مجرد أهمية فهم المؤرخ للغة المصادر الأولية، ولكنه بين أيضا أهميتها فى وضع أطر لأسئلتنا والإجابة عليها. ومن خلال اللغة نتمركز نحن المؤرخين فى عملية خلق الفهم التاريخى(٤). ويأخذ هوايت هذا ويصعده مجادلاً ضد التمسك بالتمييز بين اللغة والعالم . وبينما من المؤكد أنه من المهم للمؤرخين داخل اتجاهات التيار السائد أن يزعموا الكفاية فى تقديم الماضى، ينازع هوايت هذا التوظيف الإمبريقى بصورة مباشرة.

والمؤرخون أنصار إعادة بناء الماضى والمؤرخون البنيويون يزعجهم كثيرا ما يرون أنه موقف هوايت الفروسى من الحقيقة وواقع الماضى. وبطبيعة الحال، فإن هوايت مهموم بالاثنين إلى درجة كبيرة، بيد أن استجابته لنظرية التواصل للحقيقة هى التى تزعج معظم المؤرخين . ويؤكد هوايت، فى دفاعه عن السرد باعتباره حالة مشروعة من التقديم، الوظيفة الاتصالية أو التمثيلية للغة. وهو يشير إلى أن الطلب على تاريخ يخلو من الصياغة البلاغية أمر جوهرى بالنسبة للمؤرخ الواقعى باعتباره الوسيلة الوحيدة التى يمكن بها استئصال الذاتية والانحياز السياسى من التاريخ . وبهذه الآلية، يمكن التمييز بسهولة بين التاريخ والخيال، وهى الخطوة الأولى تجاه تاريخ موضوعى. والافتراض الواقعى هو أن الشعر يجب أن يستبعد من كتابة التاريخ. وفى هذا النطاق الخاص بلغة التاريخ، لا توجد مسألة الانحياز لأن « القصص» التى يحكيها المؤرخون موجودة كلها فى الأدلة(٥). وبالتالى، فإن موضوع لغة المؤرخ لا يمكن أن يظهر . فقد كانت ببساطة نتيجة «قواعد الأدلة» وعلى أي حال، كما جادل هوايت، أنه مع الأخذ فى الحسبان طبيعة اللغة، لا يستطيع المؤرخون الهرب منها إلى «قواعد الأدلة» . وهكذا يفترض أن مفهوم «التخيل» بالمعنى الشاعرى قد استبعد من العملية.

وكما أوضحت بالفعل، فإن منهج هوايت التاريخ ينطلق من الافتراض العام بأن التاريخ المكتوب مشروع أدبى بلا جدال ولا يمكننا الوصول إلى ما كان الماضى عليه سوى من خلاله . ويتبع ذلك أننا نفهم الماضى من خلال الشكل السردى الذى نصممه لتنظيمه . ومن ثم، فإن التاريخ عند كل مستوى، نص يحمل معنى مفروضا أو مخترعاً. وتبقى وظيفة المؤرخ التفكيكى هى التفسير، ولكنه تفسير يرى على أن ترجمة أو إعادة صياغة نص واحد (الماضى) فى صورة سردية جديدة هى نص آخر من اختراع المؤرخ (التاريخ المكتوب) هذه الإعادة النصية للماضى، كما ندرك نحن، يتم توجيهها بالأساليب المجازية الأربعة الرئيسية فى إعادة التحديد– وهى المجاز، والكناية، والمجاز المرسل، والسخرية . ولأنه ليس هناك تواصل ضرورى بين الكلمات والأشياء، أو اللغة وحقيقة الماضى، يمكن ربط النص التاريخى بنصوص تاريخية أخرى ويستمد معناه من تلك النصوص التاريخية الأخرى. هذه هى الحجة بأن التاريخ يكسب معناه من التفاعل بين النصوص، وبينما يكشف عن فحوى لعب دريدا على مفهوم «الاختلاف»، فإنه يؤكد أيضا على فراسة فوكو بأن الماضى نفسه قد يُعتبر بمثابة نص. وبطبيعة الحال لا شىء

من هذا يوقف المؤرخ الذى يسعى لإعادة بناء الماضى عن مسعاه - ويجب ألا أن يوقفه . وكما يوضح هوايت، فإن التاريخ يُعرَّف بأنه نموذج لفظى يمكن مع هذا أن «يقدم بواسطة المؤرخ على أنه تقديم وشرح «لما حدث حقا» فى الماضى» إذا ما كانت هذه رغبته. ولا هوايت أو الوعى التفكيكى يحظر تقييم محتوى الماضى على ما هو عليه ؛ إنهم فقط يتساءلون عن المزاعم الإمبريقية بوجود مرجعية نهائية ومعرفة بالتاريخ .

إنها قناعة هوايت أنه لكى تفهم ما كان عليه الماضى يجب أن نفرض سردا عليه؛ ومن هنا فإن معرفتنا عن الماضى تكون عبر فعل شاعرى. هذا هو عنصر الخيال فى كل التقارير التاريخية، وهذا الجزء الذى يساء استخدامه من خلال إهمال المؤرخين. وإذ اختاره المؤرخون، وشكل البعد الخيالى فى الفهم التاريخى، فإن السرد يقدم إرجاعًا دقيقا لمفهوم الماضى. ويبرز عنصر الخيال عندما يزعم الإمبريقيون أنهم يقدمون «القصة» كما حدثت بالفعل وعندما يؤخذ الاختيار التفكيكى للحبك على أنه يقدم قصة عن الماضى أيضا. ويتبع هذا، إذا ما كان هوايت محقًا، وأن الناس فى الماضى لم يعيشوا قصصًا بالفعل (أى أنهم لا يفرضون حبكات من نوع خاص على حياتهم وأزمانهم لكى يضفوا عليها المعنى)، فإن حجة أنصار إعادة بناء الماضى أنهم قد اكتشفوا حقيقة الماضى فى قصتهم تكون قد انهارت وتقوضت بقدر عدم وجود قصة فى الماضى لكى تكتشف . ويصر هوايت على أن الماضى بوصفه تاريخا ليس هو «القصة» - إنه الاختراع الخيالى للمؤرخين، بينما نحاول أن نحكى ما كان الماضى عليه. وعلى حد قوله :

«المواقف التاريخية ليست مأساوية، أو فكاهية، أو رومانسية بطبيعتها . فإنها قد تكون جميعا ساخرة بفطرتها، بيد أنها لا تحتاج إلى الحبك بتلك الطريقة. وكل ما يحتاجه المؤرخ أن يفعله ليحول الموقف المأساوى إلى موقف فكاهى هو أن يحول وجهة نظره أو يغير مدى نظراته. وعلى أي حال، فإننا نفكر فقط فى المواقف على أنها مأساوية أو كوميدية لأن هذه المفاهيم جزء من ميراثنا الثقافى عامة والأدبى على نحو خاص. كيف يكون موقف تاريخى بعينه مصوراً اعتمادا على الفطنة فى مجاراة حبكة مجموعة من الأحداث التاريخية التى يرغب فى أن يضفى عليها معنى من نوع خاص» (٦).

وعند نقطة أخرى يكون هوايت عنيداً فى أنه «لا أحد يعيش قصة» ومن ثم تكون كل الحبكات مفروضة فيما بعد من جانب المؤرخين . ونحن، بطبيعة الحال، لسنا مضطرين إلى الموافقة مع هوايت . التاريخ يرى على أنه ممارسة أدبية بصورة جوهرية ربما لا يحول دون إمكانية أن الناس الذين عاشوا فى الماضى قد شرحوا فعلا حياتهم فى صورة سرديات كما جرى تأويلها فى حقبتهم المعرفية الخاصة. ويتبع هذا أنه قد يكون هناك نوع ما من التواصل السردى الممكن بين حوادث الماضى كما تمت معايشتها، وتاريخها كما تمت حبكته فيما بعد على أيدى المؤرخين، بيد أنه يمكن أن يعنى أيضا أن هناك تنويعة من القصص، أو الحبكات الممكنة، فى الماضى مكبوحة بشكل عام بالبنى السردية العميقة للحقبة المعرفية. والواقع، كما يسأل هوايت، هل هناك تشابه بين «ديناميات التحولات المجازية فى اللغة وتحولات كل من الوعى والمجتمع؟»[٨] إن هذا يشير إلى أن المراحل فى التاريخ قد تتصادف، فى علاقة حاسمة على نحو أكثر أو أقل، مع أساليبها المجازية التصويرية الصاعدة، مع التنويعات من المجازى إلى الكناية، ومن المجاز المرسل إلي التعبيرات الساخرة للفكر المرتبط بالنقلات الثقافية الأصلية فى المجتمع الغربى منذ عصر النهضة. هل هناك بالفعل، حبكات يمكن استعادتها من الماضى؟

إذا كان الحبك فعلا محسوماً من الناحية المجازية، وإذا كان فوكو على صواب فى تحليله للتغير المعرفى التاريخى، إذن يكون هوايت فى مأزق. وكما يبين روبرت بيركهوفر، إذا كان فيض هوايت من الأساليب المجازية (متبعا ترتيب فوكو للحقب المعرفية) يتنبأ فعلا أو يصور سلفا جماليات الحبك ومستواه، والمستوى المعرفى للمجادلة، ودلالاتها الأيديولوچية المشتركة فى الروايات التاريخية، إذن فإن الأحداث الماضية يمكن تأويلها فقط على أنها أفعال شعرية مستقلة عن المحتوى الحقيقى للماضى [٩]. وكون العملية المجازية توجه الفهم التصويرى لدى المؤرخ عن الماضى والناس فى الماضى يمكن أن نراه فى تطبيقات نموذج هوايت على التطور التاريخى الحديث فى أمريكا[١٠]، واستخدام بنيوية هوايت البلاغية لا يعنى أننا لا نستطيع أن ندرس ما كان عليه الماضى، ولكنه يعنى أننا يجب أن نعترف بجوانب القصور الحادة للإمبريقية . وبطبيعة الحال، بينما تفكك الماضى، فإننا يمكن أن نفكك استعادة كل منا

له . وإحدى الفوائد الجذرية للتاريخ التفكيكى تتمثل فى كسره الحواجز بين شكله الخاص ومضمون الماضى. وبينما تفكك هذا الكتاب، أو كتاب Metahistory لهوايت. والواقع أنه فى خاتمة Metahistory يشير هوايت نفسه إلى مثل هذا المسار - على حد قوله، إن شكلانية بنموذجه قد تعكس المرحلة الساخرة الحالية من التاريخ الإنسانى التى كان الكتاب قد كتب فيها . وهكذا، بينما تفكك الماضى نحن نفكك العلم نفسه حتماً .

ويخلص هوايت إلى أن المؤرخين أحرار فى ممارسة تخيلاتهم ورؤية حقب فوكو المعرفية الأربع على أنها بالضرورة فترات تتابعية تخدم فيها المجازات اللغوية السائدة لتنظيم المعرفة، وقد نختار أن نجادل أن بناء السرد فى أى وقت أو فى أى مكان يقدم الشروط المعرفية التى تؤثر على كيف كان الناس يسردون حياتهم لأنفسهم(١١). ونموذج هوايت الشكلى ليست له مثل هذه التأملات لأنه أضيق معرفيًا وملتصق بموضوع كيف، وبأي طرق، يشكل المؤرخون الماضى ويرسمون حدوده من خلال الأشكال اللغوية، والأدبية، وخاصة التصويرية المتاحة. ونموذج هوايت لا يجيب على السؤال عما إذا كانت هناك قراءة أصلية واحدة فقط أو حبكة واحدة للماضى متاحة يمكن للمؤرخين اكتشافها . وهوايت مهموم ليس بحقيقة الماضى كما تضمنه الإمبريقية، وإنما بحبكة المؤرخ الذى يفرض نفسه، بحيث يولد تأثير الحقيقة، كما يراه بارثيس . وكما أشرت، فإن نموذج هوايت الشكلى لا يوقفنا عن دراسة محتوى الماضى وما كان عليه الماضى، ولكنه يلقى بمثل هذه الدراسة فى ضوء مختلف اختلافا جذريا . وهو يفتح رؤية جديدة لكيف نتناول الماضى عند أكثر مستوى أساسى ثقافى له، أى مستوى السرد.

الدليـــــل

يواصل هوايت القول إن محاولة إعادة اكتشاف أو إعادة بناء المقاصد الأصلية للمؤلف، ومن ثم، معنى الدليل، أمر دائما أكثر صعوبة مما تشير إليه المشكلات الشرعية (القانونية) المرتبطة بالمنهج الإمبريقى/ الاستدلالى . ذلك أن وراء أبسط

مستوى من التقرير المرجعي الفردى (أن الرئيس ماديسون كان طوله خمسة أقدام وأربع بوصات)، إن تكوين الحقائق التاريخية على شكل كلى هو الذى يخلق معناها، بدلاً من اكتشاف أو استعادة المعنى الأصلى/ الجوهرى والمقصود كما شكَّله المؤلف الأصلى. وقد جادلت أن كل آثار الماضى تأتى عن طريق وسيط لأنه تم تصنيفها أو تنظيمها (صيغت سرديا) بطريقة ما فى الماضى والآن على السواء دورة تأويلية أو تفسيرية. ويعنى هذا أننا ونحن نخترع حبكة لتحويل الأحداث الفردية أو التصريحات الفردية إلى حقائق تاريخية، فإن الحبك بدوره يصير أكثر من مجموع أجزائه، وكما يجادل كل من هوايت وأنكرسميت، إنه الحبك الذى تم تصويره سلفا والذى يحدد بداية اختيار الأدلة كما يحدد تفسيرها .

وعلى حد قول هوايت، عندما يحاول المؤرخون أن يشرحوا حقائق الثورة الفرنسية أو اضمحلال الإمبراطورية الرومانية:

«نقطة الخلاف ... ليست ما هى الحقائق ؟ وإنما كيف ينبغى وصف الحقائق لكى نختار أسلوبا لشرحها بدلاً من أسلوب آخر ؟ وسوف يصر بعض المؤرخين على أن التاريخ لا يمكن أن يصير علمًا حتى يجد المصطلحات الفنية ... تلك هى توصية الماركسيين، والوضعيين، والكليومتريين (الذين يطبقون الرياضيات والإحصائيات على معلومات الماضى)، وهلم جرا. وسوف يستمر غيرهم فى الإصرار على أن تماسك التدوين التاريخى يعتمد على استخدام لغة عادية ... وهؤلاء الأخيرون يفترضون أن اللغة العادية ضمان أمان ضد التشويه الأيديولوجى «للحقائق» . وما يفشلون فى الاعتراف به هو أن اللغة العادية نفسها لها أشكالها الخاصة بها فى التحديد الاصطلاحى، الذى تمثله صور الكلام التى بدونها يكون الخطاب نفسه مستحيلاً»[١٢].

وهكذا، بينما نستخدم اللغة نكون خاضعين لمتطلباتها التصويرية، ولكننا دائما ندخل المزيد من أنفسنا فى شراكتنا مع اللغة. ويلاحظ هوايت أن «معظم العواقب التاريخية يمكن حبكها فى عدة طرق مختلفة، بحيث تقدم تفسيرات مختلفة لتلك الأحداث وتسبغ عليهم معانى مختلفة»[١٣]، ومن ثم، فإن مدخلات المؤرخ، تتمثل فى قدرته على تطوير الطبيعة التصويرية أو المجازية للسرد باعتباره شكلا من أشكال التفسير – وأن يَمُدَّ نطاق طبيعة خياله التاريخى. وهكذا، ما التاريخ بعد كل هذا ؟ من

الناحية الجدلية هو وضع الماضى الحقيقى داخل الماضى الخيالى. وإذا رأينا الأمر على هذا النحو فقط، فهل يمكننا نضفى المعنى على الماضى وعلى التاريخ ؟ إن التواريخ أبنية تصويرية «تسبغ المعنى» على الماضى. فهل يعنى هذا أننا يمكن أن نستخدم أى أحداث نريدها أيًا كانت ؟ وكما هو الحال مع كل مثل هذه الموضوعات لا توجد إجابة صحيحة هنا. ولكن حسبما استنتج هوايت، فالأكثر احتمالاً أنها لا توجد . وليس هذا بسبب أن مجموعة من الأحداث تحمل فى داخلها معنى ولكن بسبب أن الحبك فعل تاريخى (تقديمى) وأن أنواعا بعينها من السرديات فى ثقافتنا الحالية لا تظهر على أنها «تناسب» بعض مجموعات من الأحداث . وهناك وفرة من الأمثلة . فالمعارك عادة ما يتم حبكها بواسطة «المنتصرين» بشكل يختلف عن حبكها بواسطة «المهزومين» . حرب جورج بوش وتونى بلير «على الإرهاب» سوف يتم حبكها على نحو مختلف اعتمادا على فروضك الأيديولوچية . وأحداث حياة جورج واشنطن يحتمل تماما أنها قد صيغت باعتبارها رواية رومانسية أساسا- على الأقل فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث ينظر إلى سيرته بشكل أكثر رومانسية من أووربا .

وعلى أي حال، هل يمكننا حبك أحداث مثل الهولوكوست النازى كيفما شئنا؟ والنزا ع بين هايدن هوايت ومعارضيه حول التقديم الصادق للهلوكوست مثال توضيحى. ومع افتراض تجريد لغة المؤرخ من البلاغة فإن مثل هذه الأحداث المرعبة إذن لا يمكن تقديمها / تصويرها سوى بطرق معينة- إذ لا يمكن أن يكون لها أكثر من معنًى واحد فقط. وبعبارة أخرى فإن القصة التى تتناول الهولوكوست النازى لا تترك مكانا للجدل حول ما يعنيه مثل هذا الحدث. وعلى الرغم من أن هوايت لا يزال يصر على أن المؤرخ له الاختيار، فإنه يقبل أن أنواعا معينة من الأحداث الحديثة فى كل الاحتمالات لا تسمح أخلاقيا بتنوع الاختيارات وأن الهولوكست النازى كان حدثا مرعبا(١٤). وقد طفا هذا الجدل على السطح فى المجادلات التى جرت فى أوائل التسعينيات من القرن العشرين وأوسطها حول تقدم الهولوكوست النازى بداية بصمويل فريدلاندر فى المجموعة التى حررها على تقديم الهولوكوست(١٥). وقد أعلن أنه إذا تخيلنا أننا فقط نجلب الماضى حيًا ونحن نكتب سردا عنه، فإننا نكون فى خطر

القيام بالإساءة البالغة إلى ضحايا الهولوكوست النازى . ذلك أن البلاغة (التصوير والحبك أولا) يمكن أن تعنى «نحن نسينا» حقيقتها الإمبريقية . والمجادلات بشأن التقديم وطرق التقديم لا تكون مناسبة عندما نعتبر مثل هذه الأحداث، وهو ما جادل به فريد لاندر.

وموضوع الشكل حاسم هنا. فهل هناك فقط عددٌ محدودٌ جدا من الطرق التى يمكن بها تقديم الهولوكوست النازى (وكذلك عدد آخر معين من الأحداث الصادمة أو التى عرفت بأنها أحداث ذات دلالة بالغة من الناحية الوطنية، أو الطبقية، أو العرقية) لكى لا يتم حجب معناه المحدد؟ هل القاعدة مرنة أن «التخيل الزائد عن الحد غير مناسب ببساطة لتقديم أحداث إمبريقية بعينها؟ هنا مرة أخرى لا توجد إجابة «صحيحة» . أن نقول إن هناك فقط طرقًا معينة للتفكير فى الماضى قد يبدو مؤشراً على درجة من عدم التسامح الفكرى أو العكس، إن «التعقل الصحيح» يتطلب منا أن نعترف بـ « جوانب القصور فى التقديم» . فى النهاية، قد يكون الأمر أنه حيث تختار أن تقف فى هذا الموضوع فإنه ينزل إلى مستوى الجدل حول تقديم الماضى، بدلاً من الجدل حول السياسات الحالية. وهو أيضا يتعلق بما نفهم أنه طبيعة الحقيقة فى التاريخ . ومهما كان ما نقرره، فإنه يبدو واضحًا بما فيه الكفاية أن سؤال الحقيقة أكثر تعقيدا بدرجة ما من المسألة المعتادة للحصول على الحقائق مباشرة.

ويقبل معظم المؤرخين أنه حتى إذا ما كان بمقدورنا أن نعيد زيارة الماضى وإنتاجه كما كان بالفعل، فإننا سنكون مع هذا لا نزال نفسره فى زماننا وفى مكاننا، والأكثر احتمالا أننا سنفسره من أجل أغراضنا الأيديولوجية . ولا أحد اليوم، بغض النظر عن عصبة الإمبريقيين السذج الآخذة فى التلاشى باستمرار، يؤيد بجدية وجهة النظر القائلة بأن المؤرخين يستعيدون الماضى بشكل موضوعى لكى يكتشفوا الحقيقة.

---

* هذا كلام يفضح ادعاءات الفكر الغربى الذى يتحدث كثيرا عن المعايير التى يجب أن يلتزم بها البحث التاريخى والكتابة التاريخية؛ فالمؤلف هنا يستثنى، هو وآخرون، مزاعم الدعاية الصهيونية بشأن الهولوكوست، ويطالب الباحثين بأخذ الرواية الصهيونية كما هى دون محاولة فحصها ودراستها. فهل هذه الرواية لها من القدسية ما يحول دون تناول المؤرخين لها ؟ (المترجم)

وفى مكان الإمبريقيين السذج كنت سأجادل أننا الآن فى موقف حيث، من ناحية الممارسة، يسعى معظم المؤرخين بحثا عن «الحقيقة» الخاصة بهم فى الماضى. وبغض النظر عن مدى عدم بساطة استعادتهم الغنية للماضى ونقائها فى وضع الحقائق التاريخية فى سياقها وخلق هذه الحقائق، فسوف أزعم أنها دائما تسير فى طريقها لأن تكون مفروضة من جانب مؤرخ منحاز أيديولوجيا وبنيوى من الناحية البلاغية. وعندما نفسِّر الأدلة فإننا نسهم فى مركز مفترض لـ :«الحقيقة» بإضافة تفسيرنا إلى وزن التفسيرات الموجودة. وهكذا خلق معنى الحقائق التاريخية، فعلا، التغيرات بينما كان يعاد النظر باستمرار فى التفسيرات التاريخية كما اتخذ انعدام معنى الماضى نظاما جديداً فرض عليه من خلال وضع التاريخ فى نظام تعليمى. والعملية التقليدية لوضع الماضى فى نظام تعليمى أو تدجينه من خلال المراجعة التاريخية المتواصلة، تفريغ الماضى مما يسميه هوايت الذروة : أى عدم اليقين الملازم للتغير الذى لا يمكن شرحه. ويعترف الموقف التفكيكى طواعية بالطبيعة المتصاعدة للماضى- انعدام معناه الأدبى، وافتقاره إلى المركز، وافتقاره بالتالى إلى الحقيقة - على حين أن مؤرخى التيار السائد لا يزالون مصرين على السؤال عما كان الماضى مثله حقًا، ومن خلال المراجعة التاريخية المتواصلة تفرغ الماضى مما يسميه هوايت الذروة : أى عدم اليقين اللازم للتغير الذى لا يمكن شرحه. ويعترف الوعى التفكيكى طواعية بالطبيعة السامية للماضى- انعدام معناه الأدبى، وافتقاره إلى المركز، وافتقاره بالتالى إلى الحقيقة- على حين أن مؤرخى التيار السائد لا يزالون مصرين على السؤال عما كان الماضى يشبه حقيقة، ومن خلال البحث المحترف فى الأرشيف، لا يزالون على اعتقادهم بأنهم يقتربون دائما من حقيقته الصادقة. وحقيقة أن الحقيقة تختلف بالنسبة للماركسيين، أو الليبراليين فى عصر ما بعد الاستعمار، أو أنصار النسوية، أو اليمين الرجعى أو ما بعد البنوية، أو أيا كانوا، ينبغى أن تحذرنا من استحالة الوصول إطلاقا إلى الحقيقة(١٦). فهل يمكن الآن قبول أن التمايزات القديمة بين التاريخ والبلاغة والتقييم والخيال كان على أحسن الأحوال مجرد موضة من عصر التنوير وتراثها الوضعى فى القرن التاسع عشر، والتى بولغ فى فوائدها مبالغة كبيرة؟

إن إنكار السمو- الذى ربما كان موجودا - فى الرغبة العنيدة للفهم المطلق تعمل

بأكبر قدر من الفظاظة فى محاولة استخراج قصد المؤلف الحقيقى الخفى من الدليل . لقد كان هوايت فى ذروة فراسته عندما رفض عملية الكشف غير المحتملة هذه فإذا كان الماضى بناء سرديًا خياليًا، أو إذا كان بلا معنى تماما، فإن إصرار من يريديون إعادة بناء الماضى على أساس حقيقة السياق الذى أضفى عليه المعنى التاريخى يسمح باستعادة المعنى الأصلى الثابت، والمنتظم، والمقدر أن يبرز من الدليل هذا الإصرار سوف يُدمر . وبالنسبة لهوايت، فإن النقص الحقيقى الفعلى للمعنى الأصلى- والذى لا يمكن استعادته بواسطة وضع السياق لإعادة بناء الماضى- أمر مهم اليوم خاصة لأن هناك اعتقادًا بأنه لا ينبغى تصنيف التاريخ فى فئات وأنه ينبغى أن يغلق فى وجه الأغراض الإيديولوجية والسياسية من جانب اليسار، أو اليمين أو الوسط . ومن هنا فإنه تأكيد على أن فعلنا فى تنظيم الأدلة بينما نقوم بصياغتها سردًا يغلق فى الحال وبصورة فعالة أى وصول سواء إلى المعنى الأصلى أو إلى معان أخرى بديلة ما أو فكر ما . وعندما نكون قد قررنا أن ما نعرفه هو ما يعنيه - إذن يكون ذلك هو ما يعنيه.

إذا لم يكن ممكنا أن نثق أن الدليل الأصلى فى سياقه يدل على ما كان المؤلف الأصلى يعنيه، فليست هناك أية كمية من التحليل الجدلى يمكن أن تسترد ما هو متروك فى الخارج، أو يفند ما تم اختراعه عندما تم خلق الدليل أول مرة . ونفتقد عنصر السمو الذى يرحب به هوايت إلى هذا الحد إذا أخفقنا فى فهم طبيعة الدليل . هذا تهديد رئيسى للتيار الرئيسى من مؤرخى إعادة بناء الماضى بسبب الرغبة القوية لدى أتباع رانكه فى معرفة ما حدث بالفعل . وسوف أميل إلى الاتفاق مع هوايت أنه إذا لم يكن المؤرخ يستطيع أن يعرف القصة التى يفترض وجودها فى الدليل، فإن السبب فى هذا قد يكون راجعًا وجود عدد غير محدد من القصص التى حكيت فى الماضى وعن الماضى. وما يجب على المؤرخ عمله أن يضع الأنماط المختلفة من القصص التى سوف يؤيدها الدليل، والتى يمكن أن تكون قد تم تمريرها بشكل معقول باعتبارها حبكة متماسكة استمدت معلوماتها من بناء الحبكة أو الأساطير المتوفرة ثقافيا التى تسمح بتصوير الحقائق على أنها قصة من نوع خاص. وقد يكون المؤرخ مقنعًا، أو مقبولاً أو يحكى تاريخا جيدا وليس تاريخا سيئا، عندما تتوسل القصة بالمخزون نفسه من

الأساطير والتفضيلات الأيديولوجية والمنهجية التى يشاركه فيها القارى. وهذا يعطى الرواية أو التفسير، على حد قول هوايت : «أريج المعنى أو المغزى» ويمدُّ التاريخ بمعناه عن الواقعية (١٧). وما أظن أن هوايت يلقى الضوء عليه هو كيف أن هذه الواقعية نتيجة الاختيارات الجمالية والأخلاقية التى يقوم بها المؤرخ حتى مع أن هناك زعماً من جانب أولئك الذين يسعون إلى إعادة بناء الماضى أو الذين لهم ميول بنيوية لأن تكون نتيجة سنوات من المعاناة، وبشكل كبير فى أعماق البحث فى الأرشيفات العلاجية والتفسيرات. ويجب طبعا، أن يكون ممكنا أن نمتلك كليهما.

وكما نعرف، فإن المثال التقليدى quellen kritik مقصود به أن يقدم للقارئ ليس مجرد استعادة محاكية لما حدث - أريج المعنى- وإنما التقييم الشرعى والدقيق للأفعال الإنسانية والأحداث . ولكن كما يجادل آنكر سميث، فإن السرد التاريخى «يشبه مبنى على البحر» : بعد أن يصعد درج رواياته المفردة، يصل المرء منطقة تتعدى بكثير المنطقة التى تم بناء الدرج عليها(١٨) وفى حكم هوايت أن كل مؤرخ يضع مُسبقًا السياق التفسيرى للماضى انطلاقًا من هذه الرؤية، بالاختيار بين الأستراتيجيات المجازية، والحبكات، والحجج الكلية المختلفة بمضامينها الأيديولوجية لكى يضع إطاراً للمنظور ويستثمر الدليل الذى يحمل المعنى ولكنه لا يحمل الحقيقة. وهكذا يفهم التاريخ على أنه مثل الرسم أكثر منه محاكاة بإعادة بناء الماضى- وهو تقدير جمالى لعالم مضى وليس استعادة لحقيقته الضائعة من المصادر المؤلفة من بيانات مفردة عن حقيقة الماضى. ومجادلة آنكر سميت بأننا نحن المؤرخين لا نستخدم قط كل ما هو متاح لنا من البيانات المرجعية يعنى أننا نختار- مثلما نختار الألوان من لوحة الألوان التى يستخدمها الرسام (البالتة) - والتى ينبغى استخدامها بحسب قراراتنا (وهو ما يعنى تلك التى نحكم أنها مهمة). وعلى حد قوله «نتائج البحث التاريخى معبراً عنها فى بيانات يمكن بيان أنها أكثر صدقًا أو أقل صدقًا، من حيث تواصلها مع بيانات أخرى لها المرجعية نفسها تقول الأشياء نفسها عنه ؛ ولكن بينما تكون التفسيرات السردية مجموعات من البيانات فى واقع الأمر، فإن من الواضح أن هذا لايعنى أن بنية السرد التفسيرى الذى يفرضه المؤرخ حقيقى (أو زائف). وبطبيعة الحال، فإن البنيوية، البلاغية نفسها، باعتبارها كيانا لغويا، ليست محصنة ضد تهمة أنها أيضا تقديم، ومن

ثم لم تعد حقيقية، أو يحتمل أن تكون حقيقية، أكثر من كونها إمبريقية. ويخلص آنكر سميت إلى أنه بينما البيانات المفردة (الأدلة) قد تتصل بالماضى بمعنى امتلاك المرجعية، عندما تقارن بوصفها تفسيرات سردية يمكن عندئذ أن «تنطبق على الماضى» ولا تتصل به أو تشير إليه»[١٩].

لا يُملى المحتوى التكوين من جزئيات بداية عملية تفسير الدليل كما قد يجادل مؤرخو إعادة بناء الماضى؛ ولا يبرز التفسير باعتباره دليلاً مكونا من قطع صغيرة تم تجميعها سويًا لكى تقدم الصورة أو الرسم الحقيقى. وبالنسبة لهوايت يوجد الدليل فى حالة مبعثرة سلفا، وهى حالة تتطلب من المؤرخ أن يقطع الدليل ويشكله فى شرح سردى. والحقائق التاريخية لا تفرض التفسيرات ؛ فقط أبنية الحبكة القصصية هى التى تفعل ذلك. ومن ثم، فى رأى هوايت، فإن الدليل ليس بطبيعته مأساويا، أو فكاهيا، ساخرًا أو رومانسيًا، ومقولة ماركس الشهيرة إن التاريخ يحدث للمرة الأولى على شكل مأساوى وفى المرة الثانية فى صورة هزلية، لا يمكن أخذها سوى على أنها تعنى أن التاريخ كتبه البشر، وأن فعل التفسير السردى يأخذ التاريخ خارج حقيقة الماضى التى لا يمكن معرفتها إلى الحاضر، بدلا من إرسالنا مرة أخرى إلى الماضى . إن فعل الخلق هذا- ماديًا ومجازيًا- يشكل نصا تاريخيا مقبولاً بدلاً من الماضى.

لايشك المؤرخون التفكيكيون بصورة تلقائية فى حقيقة البيانات المرجعية الفردية، ولا يزعمون أنه من المستحيل إظهار أن أحداثا بعينها تحدث أو لا تحدث أو أن الناس لم يكونوا قصار القامة أو طوال القامة، أو أن القرارات كانت تتخذ أو لاتتخذ . ولكن التأكيد التفكيكى يكون على الإجراء المتبع لخلق المعرفة التاريخية عندما نتعامل مع الأدلة . ونحن ندرك أننا نأخذ بيانات بسيطة يمكن التحقق من صحتها ونؤلفها فى قصة سردية بحيث تصير ذات معنى (ليس بالضرورة أن تكون صادقة) . هذه العملية من نتاج القوة التخيلية لدى المؤرخ. وإذ أشار هوايت أن الماضى مخلوق فى صورة تاريخ بواسطة بناء مجازى مفروض، فإنه مع هذا يقول بفكرة أنه لا يكفى كمؤرخ مجرد معرفة اللغة التى تمت بها كتابة الدليل، لأنه يجب على المؤرخ أن يتوغل فى حالات الفكر التى كانت الأساليب المجازية وسيطا لنقلها . هذا التوغل ليس فعلا للاكتشاف، ولكنه إحدى الصيغ البنيوية النشطة من جانب المؤرخ. وهذا ليس إنشغالاً بالاستكشاف والكشف، وإنما فعل من أفعال الإبداع .

وإذ كان هوايت مقتنعا بأن الماضى ليست به حبكة لازمة، فإنه الخيال فى التقديم الحقيقى كما يصفه، يكمن فى عملية الفرض، على حد قوله:

«وإذا ووجه المؤرخ بفوضى الحقائق فإن الواجب عليه أن يستخرجها لأغراض سردية، باختصار، فإن الحقائق التاريخية، التى تكونت أصلا بيد المؤرخين باعتبارها معلومات، يجب تشكيلها مرة ثانية على أنها عناصر بناء لفظى يكون دائما مكتوبا لغرض معين»(٢٠).

يتبع هذا أن المنازعات فى التاريخ نادرا ما تعتمد على الحقائق، وإنما على ما تعنيه ومعناها يتحدد بالأسلوب المجازى لبنيانها السردى- نتاج الاتجاه السردى. وهكذا، إذا كان التاريخ بناء سرديا بصفة أولية، فماذا، بالنسبة لهوايت، يمكن أن يكون دور النظرية الاجتماعية للمؤرخ؟

نظريات التاريخ: بناء الماضى

على حد قول هوايت :

« حين نثير السؤال المتعلق بطبيعة السرد يعنى أن نتأمل فى طبيعة الثقافة نفسها ... والدافع إلى السرد طبيعى جدا، وحتمى جدا شكل السرد فى أى تقرير عن الطريقة التى تحدث بها الأشياء حقا، لدرجة أن السردية تبدو إشكالية فقط فى ثقافة كانت غائبة عنها ...» (٢١).

ونظرية هوايت البلاغية البنيوية عن عمل التاريخ بنيت على هذه النظرة . فهو يحاول ليس فقط أن يعرف البناء الكامن للنص التاريخى، ولكنه مثل فوكو، يحاول أن يفهم القوى اللغوية التى تعمل لخلق الماضى نفسه- أى أساليب الفكر وهو يدعى أن التفسير التاريخى «قد يعتبر ما يسميه فوكو تشكيل الأسلوب اللغوى الذى كان المجال الظاهراتى قد أعد لها أصلا»(٢٢). وهنا يؤكد هوايت أن المعرفة مبنية من خلال الأساليب المجازية المسبقة وعملية صياغة المجاز. كيف تتعلق عملية وضع المجاز بالبنيوية؟

من الواضح أن تأكيد هوايت على التاريخ بوصفه شكلا من الأدب يحدده بأنه نوع من البنيوية. والرابطة التى يضعها هوايت بين القوة التصويرية للأساليب المجازية ومفهوم فوكو عن الحقبة المعرفية يقدم إمكانية نموذج لغوى تفسيرى استفزازى للتغير التاريخى. هذا النموذج الذى يصفه هوايت بأنه تخفيض مجازى، ولكننى أفضل أن أسميه بناء بلاغيًا، قد يطبق حتى الآن بطريقة محدودة نسبيًا من جانب المؤرخين . والسبب سبب ثلاثى الأبعاد : أولا، هناك شك عام فى كل من فوكو وهوايت لأن أعمالهما تتساءل عن التاريخ باعتباره معرفة إمبريقية متمايزة ؛ ثانيا، ونابعًا من هذا، لدينا الاستثمار المهنى فى وجود التاريخ بوصفه مهنة منفصلة ؛ وأخيرا، وربما أكثر إفادة، هناك نفور عميق من أى نموذج للتغير التاريخى يستند على وجود أسس سائدة (وخاضعة) مجازية للمعرفة- أى شك من جانب دعاة إعادة بناء الماضى فى البنيوية يلتحم بالخوف اللاعقلانى من أن الأدب سوف يسرق روح التاريخ. وبالنسبة لمعظم المؤرخين فى التيار الرئيسى فإن ما يؤخذ على أنه حسم لغوى ينتج عدم اليقين الإمبريقى، ويشجع نسبية أخلاقية خطيرة، إن لم تكن عدمية خالصة. أي محاولة لاستعادة السمو عن طريق بنيوية بلاغية إنما هى هجوم طائش يهدف إلى القلب نفسه من المشروع الإمبريقى .

وما يقترحه هوايت، متبعًا فوكو، هو أن المؤرخين، فى كتابة التاريخ، فعلا يبنون بناء قائما على المجاز. وعلى النقيض من هذا الاعتقاد - خاصة الاعتقاد الشائع بين المؤرخين البنيويين الماركسيين- أن التجربة التاريخية يمكن استردادها كما كانت بالفعل فقط، مع تدخل التنظير الاجتماعى غير اللغوى والقائم على التجربة. ومصطلح البنيوية مثلما استخدمه فى هذا الكتاب يشير إلى التاريخ الناتج عن فرض النظرية الاجتماعية باستراتيجياتها أو نماذجها، أو قوانين التغطية لتفسير الماضى، وكما نعرف، فإن البنيوية، خاصة التنويعات الاجتماعية والأنثروبولوجية، تتساءل عن الاستقراء التاريخى لإعادة بناء الماضى عند مستوى الحدث الفردى، مفضلة المستوى العام للشرح الذى يغطى الكثير من الأحداث الفردية . واستخدام مثل هذه النماذج التاريخية كان يميل إلى إعادة تعزيز مفهوم أن المؤرخين قادرون على أن يقفوا بمنأى عن الماضى، محافظين على الفجوة بين العارف والمعروف[٢٣]. ويتمسك هوايت بأنه لا

يوجد مؤرخ لا يمكن أن يحافظ على مثل هذا الفصل بين أنفسهم ومعلوماتهم لأن السرد التاريخى سوف يشوه باستمرار هذا التميز .

وتسليم فيليب كاراد بأنه حتى «التاريخ البنيوى» يعتمد على السرد الذى من خلاله يقدم تقريرا عن نتائج اختباره الافتراضى له دلالات مهمة. ويجادل بأن التطبيق الأكثر تعقيدا للنظرية الاجتماعية لا يزال يعتمد إلى حد كبير على حكاية القصة «لإضفاء المعنى على المعالم» . ويخلص من هذا إلى أنه ليس هناك قدر من الجهاز العلمى يمكن أن يخفى حقيقة أن المكون التحليلى فى البنيوية « لايزال فى إطار حبكة، وهذه الحبكة تحتفظ بالوظائف المعرفية الجوهرية»(٢٤). وليس هذا فقط بطبيعة الحال، ولكن كما يصر هوايت وفوكو، فإن تنظيم المعلومات فى الأبنية السردية مخادع عند المستوى الأكثر أساسية. وهو ليس فقط استعادة دقيقة للأحداث التاريخية والحياة المفقودة، ولكن ما نفرضه هو أيضا يحتمل أن يكون أدوات لممارسة القوة- الأمثلة الواضحة تهتم بأن تحافظ على التاريخ بوصفه علما ومهنة، أو لكى تكتب نوعا من التاريخ سوف يهمش الأقليات ويستبعدها، أو يشكل روايات استعمارية ووطنية من الحقيقة، أو إذا ما كان المؤرخ يرغب فى هذا، يفعل عكس هذه جميعا . وإذا ما تم الاعتراف بقدرة السرد على إرباك ترتيبات القوة هذه تماما مثل القدرة على تأسيسها، فإن هذا إذن يمكن أن يحرر بناءنا للماضى بدلاً من أن يكبحه . وفى أكثر جوانبه أساسية ينبغى أن يذكرنا بألا نخلط أبدا بين التاريخ المكتوب والمرجعية لأن التاريخ فى أفضل الأحوال مشابه للماضى.

ومن ثم، فإن نظرية كتابة التاريخ وتفسيره التى بناها هوايت، نموذج شكلى للشرح التاريخى تصر على التاريخ بوصفه بناء تصويريا . فكل مجاز يستخدمه المؤرخ هو نفسه لا أكثر ولا أقل من نموذج مجازى يستخدم لتمثيل الحقيقة، كما حدث عندما ربط فردريك جاكسون تيرنر بين تقدم الحدود الأمريكية فى القرن التاسع عشر وعدة موجات من المد. وقد حمل هذا الوصف معه ما كان يفترض أنه قصد تيرنر العمدى ليخلق فى ذهن القارئ معنى عملية طبيعية خالدة مقدرة سلفا لا يمكن إيقافها . فى هذا المثال الخاص، كان الدال المرجعى عند تيرنر حالات مد أو موجات من بناء الوطن (٢٥). وكما يزعم فإن المؤرخين جميعا يتصرفون على نحو بناء عندما يؤلفون الماضى. وعلى حد قوله، إذا ما كنا جميعا:

«نعامل نص المؤرخ على أنه ما كان بشكل واضح، إنشاء بلاغيًا، وسيكون المرء قادرا على أن يرى ليس فقط أن المؤرخين قد بنوا بصورة فعالة موضوع خطابهم بالكتابة، ولكنه فى النهاية، ما كتبوه بالفعل كان تقريرا عما وجدوه فى بحثهم أقل مما تصوروا أن هدف اهتمامهم الأصلى يتكون منه. وهذا هو السبب فى أننى تحدثت فى كتاب Metahistory عن «التخيل التاريخى» فى أوروبا القن التاسع عشر وصورت «شاعريات التاريخ» على أنه بديل «للنظريات» المختلفة عن التاريخ كانت رائجة فى ذلك الحين»(٢٦).

هناك زعم بأن الشرح التاريخى شكل من البنيوية البلاغية . ويرفض هوايت بعضا من المزاعم الأكثر لتاريخ النظرية الاجتماعية. وهو ينتقد بشكل خاص التنويعة الماركسية التي تفترض أنها اكتشفت فى الدليل الحقيقة الفعلية للماضى- السرد، القصة - فى الحسم الاقتصادى المبنى طبقيا. وليس هوايت، كما قرأته، يشير إلى أن نموذجه البنيوى يجب رؤيته على أنه نوع من الحسم اللغوى البورجوازى أو الساخر، أو بالنسبة لتلك المسألة، أن المؤرخين يكونون مجرد الأداة للسرديات التى يرونها . وما يفعله هوايت أكثر تعقيدا، لأنه يدعونا، بدلاً من استكشاف اللغة باعتبارها العنصر الذى يوجد فيه كل شخص (بما فيهم المؤرخون) ومن خلاله نحن جميعا نضفى المعنى على ماضينا، وحاضرنا ومستقبلنا . وبالإضافة إلى هذا، يذكرنا أن تقييمنا، وتفسيرنا وتقديمنا للأحداث والماجريات الماضية، يجب أن تكون، كما يقول تحت حكم أنها «نسبية» إلى الزمان، والمكان والأحوال الثقافية التى اكتنفت صياغته(٢٧) . هذا النوع من وضع السياق أو التاريخانية يستقر بشكل مضطرب على أكتاف معظم البنيويين من أنصار النظرية الاجتماعية. وعلى الرغم من أن كثيرا من البنيويين اليوم أكثر انفتاحاً على تنويعة من المقاربات المنهجية للتاريخ من الواقعيين السذج، فإن عددا قليلاً جدا لا يزالون يفكرون بشأن كيف أن بناءهم للماضى قد تغير بينما هم يكتبون سردياتهم . هذه الثغرة تتحمل المزيد من الاختبار وقبل تطبيق النظرية الاجتماعية أو الفروض لمعلومات الماضى، يتمسك هوايت بأننا يجب أن نتناول الأساليب المجازية التى يتم بها تأليف قوانين التغطية، والنظريات، والمجادلات وتقديمها . واتباعا منطق نموذج هوايت فإن هذا يعنى أن الشكل الأدبى الذى تم بناؤه على شكل حبكة، يسبق النظرية والحجة،

وأن جميع العناصر أو إستراتيجيات الشرح التاريخى محسومة بالبنى المجازية فى الحقب المعرفة السائدة التى قال بها فوكو.

وكل النقاط الست ذات السمة الإمبريقية لإعادة بناء الماضى- البنيوى التى أطاحت بها مجادلة هوايت بأنه قبل أن يتمكن المؤرخ من أن يجلب «الجهاز المفاهيمى الذى سوف يستخدمه لتقديمه وشرحه» لكى يحمله على الدليل، فإنه يجب أولاً «أن يتمثل سلفا المجال - بمعنى تشكيله هدفا للاستيعاب العقلى»(٢٨) هذا هو تعليق هوايت المذهل على عملية كتابة التاريخ باعتباره فرضا- سرديا من جانب المؤرخ . ويقدم نموذجه الشكلى أكثر نظرية مرضية عن كيف يعمل السرد التاريخى بالنسبة للمؤرخ . ونموذجه مفروض على الاعتقاد بأن إثارة سؤال «بلاغة الخطاب التاريخى يعنى أن تثير مشكلة طبيعة الوصف والتحليل» وارتباطًا بهذا يلاحظ عالم الأنثروبولوچيا الثقافية الفرنسى كلود ليفى شتراوس على التاريخ التقليدى، بأنه فى الواقع ليس له منهج «ينفرد به، ولا أي مادة موضوع فريدة» والنقطة المهمة التى يوضحها هوايت هنا هى أن الكتابة التاريخية :

«يجب أن يتم تحليلها أولا على أنها نوع من الخطاب النثرى قبل أن يمكن اختبار موضوعيتها وصدقها . وهذا يعنى إخضاع أى خطاب تاريخى للتحليل البلاغى، بحيث تكشف عن البناء التحتى الشاعرى لما يعنى به أن يمر من أجل تقديم نثرى متواضع للحقيقة»(٢٩).

وهوايت يقول إن التاريخ المكتوب يمكن تصنيفه أولا وفقا للطريقة التى يصف بها هدف الدراسة بدلاً من الآليات التفسيرية المستمدة إمبريقيا للتفسير، فإنه يطبق الدليل (الجمع، والضم، والمقارنة، والتمحيص) . الكتابة التاريخية تشرح بسبب الطريقة التى تضع بها سويا- الشكل والمضمون . ولكى نفهم تمامًا دور السرد فى الكتابة عن الماضى، ومحتواه الجمالى، والمعرفى والأخلاقى، من الضرورى أن نحدد باختصار نموذج هوايت الشكلى للخيال التاريخى الذى قد يعطينا بدوره رؤية داخلية دالة فى سمات التفسير التاريخى(٣٠) .

نموذج هوايت يُرى على أفضل نحو باعتباره حزمة من العلاقات، أو صلات قربى انتقالية على حد تسميته، بين مستويات الشرح التاريخي التي يستخدمها كل مؤرخ في إعادة بناء الماضي.

المجاز	الحبك	الجدل	المغزى الإيديولوجي
استعارة	رومانسي	شكلي	فوضوي
كناية	مأساوي	آلي	راديكالي
مجاز مرسل	فكاهي	عضوي	محافظ
سخرية	ساخر	سياقي	ليبرالي(٣١)

واتباعا للأنواع الرئيسية الأربعة من المجاز التي تعمل بوصفها الأساسي لكل التفسير التاريخي، هناك أربعة أنواع من الشرح في ثلاث روابط، هي أربع حبكات المرتبطة بأربعة أنماط من الجدل وأربعة مواقف أيديولوچية - وربما يحبك المؤرخ سرده في أحد النماذج المتاحة - الرومانسي أو المأساوي، أو الفكاهي أو الساخر . وعندها تؤثر هذه النماذج على استعانته بأحد أساليب الجدل- الشكلي أو الآلي، أو العضوي، أو السياقي ؛ وأخيرا، اختياره للحبكة والجدل له دلائل إيديولوجية تتخطى اتحاد الاستراتيجيات الجمالية والمعرفية المسبقة. والدلائل الإيديولوچية هي الفوضوية، أو الراديكالية، أو المحافظة أو الليبرالية.

وكمساعدة لفهم كيف يكتب التاريخ، فإن أحسن تلخيص لهذا النموذج ما كتبه هوايت في Metahistory:

«هذه الصلات لا ينبغي أن تؤخذ على أنها مزج ضروري لأساليب مؤرخ بعينه. وعلى العكس، فإن التوتر الجدلي الذي يميز عمل كل مؤرخ متمكن عادة ما يبرز من جهد لتزويج حالة من الحبك بحالة من الجدل أو مغزى أيديولوچي لا يكون منسجما معه. وعلى سبيل المثال، ... حاول ميشيليه أن يمزج بين حبكة رومانسية وجدل شكلي بأيديولوچية ليبرالية واضحة . وهكذا، أيضا، استخدم بوركهارت حبكة ساخرة

ومجادلة سياقية فى خدمة موقف أيديولوجى محافظ واضح ورجعى فى نهاية المطاف . وقد وضع هيجل حبكته على مستويين- مأساوى على المستوى المصغَّر، وفكاهى على المستوى المكبَّر- وكلاهما مبرر باللجوء إلى أسلوب الدجل الذى هو عضوى، مع نتيجة أن المرء يمكن أن يستخرج إما دلالات راديكالية أو محافظة أيديولوچية من قراءة كتبه (٣٢) .

ومن الواضح، إذن، على الرغم من أن النموذج يجب حتما أن يوضع خارجًا من الناحية الشكلية، فهو ليس جامدًا أو مطلقا فى العلاقة التى يقدمها . لكن هوايت، مثل فوكو، يزعم أن الروابط السطحية الثلاثة للسرد مثبتة بواسطة بنائها المجازى أو التصويرى، الذى هو (لكى نذكر أنفسنا) عملية ننشغل بها ونحن نصف لأنفسنا وللآخرين العلاقة المفترضة وجودها بين الأشياء، والنصوص والأحداث والسياقات . هذا هو المستوى ما وراء التاريخ للنموذج الذى يشير إليه هوايت على أنه مجموعة من الفروض التى «ليست سوى شبكة من الالتزامات التى يقوم بها المؤرخ في مسار تفسيره على المستويات الجمالية والمعرفية والأخلاقية»(٣٣) هذا المستوى الأساسى للوعى يكون «مستوى اللغة نفسها، التى فى منطقة دراسة مثل التاريخ، يمكن أن يقال عنها إنها تعمل بطريقة مجازية»، لكى تصور سلفًا «مجالاً للنظر فى كيفية خاصة من العلاقات»(٣٤) وفى عبارة أخرى، هذه العملية المجازية تخلق سياقا متخيلاً من خلاله، من أجل التوضيح، فإن علاقات الكناية (الجزء عن الكل) أو المجاز المرسل (الكل إلى الجزء) مؤسسة بين الأحداث والأشياء . ولأن التاريخ أدب فإنه يمكن فهم معلوماته فقط من خلال إملاءات الشكل السردى له ؛ فإن صورة الكلام التى نفرضها على المعلومات تعمل لتصادق على طبيعة فهمنا التاريخى نفسها . فالمجازات، باعتبارها نماذج تمثيلية، تشكل سلفا الأوصاف التى نسبغها على المعلومات، وتسبق وتمثل مسبقا الحبك، والجدل، والمستويات الأيديولوچية لسردياتنا التاريخية.

واستخدام المجاز يعنى استخدام الاستعارة لتضمين المعنى وشرح الأحداث بتغيير منظورنا، وإجبارنا على أن ننظر ثانية إلى الأشياء والمفاهيم من منظور شىء مختلف - الدلالة وإعادة الدلالة. وكل من الأساليب المجازية الأربعة محدد وفقًا لبلاغته الخاصة، ومن ثم، وظيفته التفسيرية . نحن نحكى الأحداث والأفعال الإنسانية ليس وفقا لموقف عارض تماما، وإنما من خلال اللغة، وبصفة خاصة كيف تعمل اللغة فى ربط الأجزاء بالكليات والعكس بالعكس. وكما يقول هوايت:

«السخرية، والكناية، والمجاز المرسل أنواع من المجاز، ولكنها تختلف عن أحدها الآخر فى أنواع التخفيضات أو الصفات الملازمة، فمثلا تؤثر على المستوى الأدبى لمعانيها وبأنواع التوضيحات التى تهدف إليها على المستوى التصويرى . والاستعارة تمثيلية فى جوهرها، والكناية تخفيضية، والمجاز المرسل استفسارى، والسخرية نافية»[٣٥].

وإذ يسير هوايت على خطى فيكو فإنه يأخذ عملية المجاز هذه لكى يكون الفعل التصويرى المسبق الحتمى الذى يقوم به المؤرخون وجميع الذين يكتبون السرديات وهوايت، مثل فوكو، يشير إلى أن آلية كتابة التاريخ تعمل على المستوى التحتى للغة والوعى الإنسانى- الفعل التصويرى المسبق الذى يتم التكهن به فى ومن خلال «الأسلوب المجازى السائد الذى يلقى فيه»[٣٦] وحتى إذا يبقى الهدف هو المحاولة المقررة لاستعادة ما حدث بالفعل فى الماضى، حتى فى ذلك الحين يجب علينا أولا «نصور سلفا جميع الحوادث التى ورد ذكرها فى الوثائق باعتبار ذلك موضوعا ممكنا للمعرفة»[٣٧] هذا النوع من وضع السياق ليس مجرد نسخة سردية من الإمبريقية (التى تصادق على الرابطة بين البيان والمرجع)، وإنما هى بالأحرى وسيلة للفهم تسبق الإمبريقية تماما مثل جميع فلسفات التاريخ الأخرى. والنتيجة هى أننا بوصفنا مؤرخين لا نكتب عن الماضى بشكل موضوعى، نحن نخلقه ونحن نستخدم اللغة لتعريف المفاهيم المستخدمة – ليس لمجرد أن نحدد أهدافنا من الدراسة، ولكن أيضا لكى نحدد نوع العلاقات (المجاز) الذى نراه (نتخيل) فيما بينها . ويكتسب التاريخ صلاحيته ليس فقط باللجوء إلى حقيقة الماضى، وإنما أيضا بكيف كتبت هذه الحقيقة . وكما كتب أحد المعلقين، لا يمكن بعد هوايت الحكم على التاريخ كما لو كان هو نفسه خارج التاريخ – شىء طبيعى ما من الحقيقة[٣٨].

بالنسبة لهوايت، فإن النقطة المهمة فى الاستعارة البلاغية، والكناية، والمجاز المرسل، والسخرية:

«اللغة تقدم لنا نماذج من الاتجاه الذى قد يأخذه الفكر نفسه فى جهده لتقديم المعنى لمناطق من التجربة لا تعتبر بالفعل مضمونة معرفيًا سواء بالإدراك السليم أو التقاليد، أو العلم. ونستطيع أن نرى فى مجال دراسة مثل التاريخ ربما يعتبر التفسير

مثل ما أسماه فوكو تشكيل الأسلوب اللغوى الذى فيه كان المجال الظاهراتى مجهزًا فى الأصل...»(٣٩).

ومن ثم فإن الاستعارة تعرف الفكر على أنه فكر تمثيلى تكون فيه التشابهات بين الأشياء تحت التأكيد، ويستدل على الكناية بتخفيض شىء ما إلى جزء أو أجزاء؛ والمجاز المرسل يعمل بطريقة عكسية بضم الأشياء سويا مؤكدا على تشابهاتها أو جوهرها، واستخدام المجاز الساخر يعنى نفى المعنى الحرفى .

وإذا استخدمنا مثال تاريخ فروديك چاكسون تيرنر للحدود الأمريكية لكى نوضح عملية استخدام المجاز، فإن أحد مزاعمه أن «الأرض الحرة» من الحدود كانت تمتلك القوة على استيعاب المستوطنين الرواد أو أمركتهم . إذا قرئت «الأرض الحرة» على أنها مجاز يكون تعريفها « خط أسرع عملية أمركة» فإذا ما قرئت على أنها كناية، تنزل عملية الأمركة إلى أهم جزء دال فيها، أى وجود «الأرض الحرة» . فإذا ما قرئت على أنها مجاز مرسل «الأرض الحرة» تعنى جوهرية عملية الأمركة. أما إذا قرئت بشكل ساخر، فإن «الأرض الحرة، التى قررت باعتبارها الحقيقة الحرفية لعملية الأمركة، سوف تنفى بواسطة السياق الذى خلقه المؤرخ بأن أحدا لم يكن هناك وأن عملية الأمركة بهذا لم تحدث قط . مثل هذه البنى البلاغية، كما يحذرنا هوايت، يمكن أن تعمل بوفها تقنينًا سياسيًا فعالاً بشكل خاص يخدم ممارسة السلطة– التاريخ باعتباره إيديولوچيا . ولهذه الغاية عندما تكتب باعتبارها تاريخا، فإن المقالة التى كتبها تيرنر عن الحدود تكون فى النهاية ملازمة لتعريفه لأمريكا بالتأكيد على سماتها الوطنية الجوهرية، التى يحددها على أنها «وجود مساحة من الأرض الحرة».

هذه الإستراتيجيات المحسومة مجازيا أو بصورة سلفا الشرح تسمح لنا بوصفنا مؤرخين باختراع من خلاله نختار لكى نبنى شروحًا سردية أو تفسيرات سردية للماضى– حتى بالنسبة لأولئك الذين بيننا تحدوهم الرغبة فى أن يعرفوا ما حدث بالفعل، أو الذين يرغبون فى التأكيد على شرحنا البنيوى الخاص. هذا المنطق مترجم بواسطة هوايت فى حجته بأن الاختيار الفعلى للحبك هو فى نهاية المطاف نتاج الحقبة المعرفية التى كتب فيها، لأنه يعول على نقاط مرجعية ثقافية معاصرة، أو حسبما يسميها هو أشكال قصصية من النمط السائد، والتى هى نفسها تتسق مع الأساطير

السائدة وحاجات المجتمع حسبما تلقى عند المستوى المجازى أو ما وراء التاريخى الذى منه يبرز تاريخنا المكتوب. وتجربة الحدود الأمريكية، كما صاغها وحبكها فردريك جاكسون تيرنر فى تسعينيات القرن التاسع عشر، تماشت مع حاجات التكوينات الاجتماعية المقاولة السائدة فى ذلك الوقت لتخلق هوية بطولية رائدة مفيدة لهم. ومن ثم، فيما هو بالنسبة لنا فى حقبتنا المعرفية قد يبدو على أنه مفهوم غير مقبول إلى حد ما، أن انحسار الحدود قدم القوى التى بواسطتها ثم خلق الوطنية التى كونت للولايات المتحدة، ومع ذلك صياغته خدمت فى ذلك الوقت غايات وطنية مهمة فى فترة من الأزمة الثقافية . وتفعل هذا بتقديم الأمريكى الفردى الرائد البطل من النمط السائد الذى تحول إلى المقاول- الذى كانت قواته المستهلمة من الحدود لن تلبث أن تحل المشكلات الكثيرة التى أحاطت بأمريكا فى تسعينيات القرن التاسع عشر المضطربة. وبالنسبة لتيرنر، صار التاريخ نفسه هو الاستعارة النهائية .

وسياق تاريخ تيرنر يدعم حجة هوايت بأن أكثر القصص إقناعًا التى حكاها المؤرخون ستكون تلك التى تردد أصداء الأساطير الثقافية المعاصرة والمعتقدات، لأنها تتوافق مع الأنماط الغربية من القصص الرومانسية والمأساوية، والفكاهية والساخرة. ومن ثم، فإن القصة التى صاغ المؤرخون طرازها مجازيا تتمثل مسبقا الطريق التى ترتبط فيها آثار الماضى سويا من خلال أنواع من التخفيضات أو الدمج التصويرية التى لاحظتها فى السطور السابقة. ذلك أن حبكة الصياغة، مثلا، قد اختيرت بوصفها نتاجًا لمفهوم المؤرخ عن قوة الفعل الذى يقوم به البطل أو الشخصية الرئيسية على بيئته . ولأنه من وجهة نظر هوايت، ليست هناك مجموعة من الظروف التاريخية مأساوية أو فكاهية بطبيعتها، فإن حبكة الصياغة تكون مكتوبة بواسطة المؤرخ الذى يفرض رؤيته نتيجة فرضه الحكم على طبيعة الأحداث التالية التى يواجهها بطل معين أو شخصية رئيسية بعينها. وتصبح حبكة الصياغة وسيلة شرحه التاريخى.

وفى وصف الأحداث على أنها رواية، يكون حبك الصياغة التاريخى متماثلا مع المؤرخ الذى يتخيل قوة البطل التاريخى أو الشخصية التاريخية الرئيسية على أنها متفوقة على بيئته. ويكون التاريخ محبوكا على أنه رواية تتكشف باعتبارها سعيًا بنجاح نهائى، والعلاج أو التسامى مضمون ويوصف هذا التاريخ فى الثقافة الغربية عادة على

أنه رحلة، نضال، مع النصر النهائي على الشقاء من أجل البطل أو الشخصية الرئيسية، سواء كان وطنا، دولة، فرد، طبقة أو أيا كان . وصياغة الحبكة فى قالب السخرية هو القطب المضاد للرواية من حيث أن البطل أو الشخصية الرئيسية فى القصة يتصوره المؤرخ على أنه أدنى، أسير لهذا العالم، وقدره حياة من العقبات والنفى. والحبكات المأساوية مماثلة للرواية الرومانسية فى أنها بقدر ما تحدد البطل أو الشخصية الرئيسية بقدر ما تلبث أن تخيب آماله بالقدر أو النقائص فى شخصيته المأساوية. وتكون النتيجة فى النهائية الفشل، أو الهزيمة ،أو الموت. ومصير البورجوازية فى التاريخ الماركسى، على سبيل المثال، تكون عادة فى صورة حبكة مأساوية . أما فى الحبكة الكوميدية، تكون الحركة متخيلة من العقبة التى تحول دون إعادة البناء، والمؤرخ يأمل دائما فى نصر مؤقت على الأقل على الظروف من أجل البطل أو الشخصية الرئيسية من خلال عملية المصالحة . والاحتفالات فى نهاية مثل هذه السرديات التاريخية، عادة ما تحتفل بالتماسك والتوافق الذى يحققه الرجال أو النساء والأعراق، أو الأمم، أو الطبقات الأخرى، بواسطة الشخصية البطولية(٤٠).

وبالإضافة إلى المستوى السردى لحبك صياغة الأحداث، هناك مستوى آخر يحاول المؤرخون عليه أن يشرحوا «النقطة فى هذا كله» أو «ما يضيفه هذا كله»، الذى هو الشرح بواسطة مجادلة شكلية (مجادلات شكلية، آلية، عضوية وسياقية) والشرح بالجدل يعنى أننا كمؤرخين نقدم لقرائنا قوانين مقنعة بقدر ما، ولكنها مقبولة دائما بشكل عام، عن التغير التاريخى أو السلوك الإنسانية، ونعول عليها كلنا فى شرح الأحداث . والمجادلات التى نستخدمها تصل الأحداث والناس والأفعال فى الماضى . مثل هذه المجادلة تتيح لنا كتابة تقديم أحداث حية مفردة يمكن أن نعمل منها تعميمات دالة ومهمة . ومن ثم يشكل كسب المعارك العظمى، أو الحروب الأهلية، أو خسارتها، يكون أصول التغير التاريخى العظيم، أو حياة الرجال والنساء العظماء الخاصة التى تؤخذ على أنها دالة على طبيعة التغير التاريخى؛ وهناك شكل كلاسيكى لهذا الموضوع الأخير يتمثل فى موضوع من يولد فقيراً لكى يصير رئيساً، أو يتغلب على النقيصة الاجتماعية ليصعد إلى مرتبة رجل الدولة، أو يهزم الانحياز ليبرز زعيما لأحد العرقيات. والمجادلات العضوية، التى تتسم بالاندماج، تسمح لنا أن نعرف الأحداث

والناس والأفعال الماضية على أنها مكونات عملية تجميعية فى علاقة الكون الأصغر بالكون الأكبر حيث يكون حادث وحيد أو فرد مجرد عنصر واحد بين عناصر كثيرة - وهو عامل يدخل فى أحداث التغير التاريخى المركب. أما المجادلات الآلية فإنها تميل إلى أن تكون تخفيضية لا تجميعية؛ وعادة ما تلقى فى شكل علاقة تكافؤ بين الجزء والجزء، وبها نعتبر الأحداث، والناس والأفعال موضوعا لحسم القوانين فوق التاريخية. وكما يوحى المصطلح، فإن المجادلات السياقية تكون إدماجية بشكل معتدل كما أنها تستخدم بواسطة أولئك المؤرخين الذين يرغبون فى مضاهاة الأحداث، والناس والأفعال فى الماضى بروابطهم المفترضة بالآخرين فى شبكات من العلاقات المترابطة فى عصر بعينه، أو داخل عمليات مركبة من التغير المتداخل .

قليل من الفكر ينتج الكثير من الأمثلة على البنيوية البلاغية التى تعمل كمجادلة تفسيرية. ويقدم هوايت نفسه المثال على العلاقة بين قاعدة ماركس والبناء الفوقى على أنه «قانون» آلى كلاسيكى. ووفقا لهذا «القانون» فإن التحولات فى القاعدة الاقتصادية تحدد فى النهاية تغيرات البناء الفوقى الاجتماعى / الأيديولوجى، ولكن العكس لا يحدث (جزء إلى جزء) . وهكذا، فإن مأساة الشرح الآلى عند ماركس للتغير التاريخى تكمن فى فشل البروليتاريا البطولية فى أن يطيحوا بنجاح بمضطهديهم البورجوازيين فى أوربا وأمريكا أواخر القرن التاسع عشر. وهناك بناء بلاغى آخر أمكنه أن يرى الأمر على نحو مختلف، كما فى حالة الثورة الروسية التى ربما كان قد تم تخيلها على أنها رواية رومانسية ناجحة لانتصار البروليتاريا. وهكذا، فإن المنازعات التاريخية لا تتعلق بما حدث أو لم يحدث بالفعل، وإنما تتعلق أكثر بكيف نحبك أو نستنجد بالقانون النظريات الاجتماعية لشرح الماضى.

على أي حال، هنا المستوى الثالث فى نموذج هوايت الشكلى للشرح التاريخى وهذه الإستراتيجية النهائية هى الأيديولوجية . وكما يشير وصف هوايت، فإن الإستراتيجية الأيديولوجية هى المغزى الأخلاقى لاختيارنا للحبكة وللجدل . وبناء على ذلك، فى السرد التاريخى، يلقى المستوى الأيديولوجى «العنصر الأخلاقى فى فرض المؤرخ عن موقف خاص على سؤال المعرفة التاريخية والدلالات التى يمكن استخراجها من دراسة الأحداث الماضية لفهم أحداث الحاضر»[٤٢] بهذه الطريقة يعترف أنه ليس

هناك مؤرخ يستطيع أن يتنحى جانبا عن التاريخ ويعلق قدرته على الحكم الأخلاقى أو ممارسته . ومسألة الأخلاق والتاريخ كانت تطورا مهماً منذ تسعينيات القرن العشرين حتى الوقت الحالى . ما دور الاتجاه الأخلاقى فى التاريخ ؟ يبدو أنها حجة دامغة أن نجادل بأن المؤرخين لا يتخذون مواقف أخلاقية، وأنه فقط يكون أقل إقناعا أن نقول إنه يمكنهم وقفها عندما يكتبون التاريخ. والواقع، أن الاختيار الأخلاقى إستراتيجية مهمة للشرح فى التاريخ. ويبدو معقولاً أن نقول إن التاريخ أخلاقى بقدر ما يمكن أن يكون عليه أى سرد، ثقافى مبنى ذو مضمون تاريخى، أو لا يكون . وبعبارة أخرى، فإن الأخلاق وتقديم الماضى توجد فى الكون نفسه الذى يوجد فيه صنع السرد. وإذا كان المؤرخون يقدمون قيمة مضافة إلى عالم العيش الأخلاقى، فإننى افترض أن هذا نتيجة لإخلاصهم واحتشامهم فى التفكير بشأن التاريخ باعتباره شكلا جماليا للتقديم أكثر من مجرد عمله ببساطة– وبعبارة أخرى، فإن إعادة التفكير فى النموذج المعرفى الإمبريقى التحليلى مع التزامه بالمعنى من خلال ما حدث وقصد الفاعل الذى يمكن معرفته ، مع مفهوم أكثر تعقيداً ووسيط للتاريخ باعتباره فلسفة من الدرجة الثانية . فإذا كانت الجماليات تسبق التاريخ، كذلك فإن الأخلاق تسبق الجماليات.

وإذا كانت الحقيقة التى تعرف على أنها «المعنى الواقعى» لا يمكن الدفاع عنها فى عالم ما بعد البنيوية– ليس بإنكار حقيقة الماضى ولكن فى مصطلحات فهم معنى «الآخر»، التخلف – إذن فإن الجدارة الأخلاقية لـ «الماضى بوصفه تاريخا» يمكن أن توضع فقط فى السرد الذى نبنيه حوله «كما لو» كانت تعنى شيئا نجده مرغوبا فى نهاية الأمر. وإذا لم يكن فى استطاعتنا أن نعرف المعنى الحقيقى للماضى على الرغم من معرفة ما حدث فإن المؤرخ الذى يرغب فى أن يحصل على إجابة على كل ما قد يعنيه يمكنه فقط أن يبدأ بموقفه هو تجاه «الآخر» كما يذكرنا هايدن هوايت، إيمانويل لي ڤانس، وفرانك آنكر سميت، فإن الأخلاق تسبق الحقيقة، ومعرفة «الأشياء» ليست مرشدا إلى حياة أخلاقية(٤٢) . وفى عالم شكاك من الناحية المعرفية ربما نجد من يجادل بأننا لا ننظر إلى الماضى، والتاريخ أقل كثيرا، على أنه مصدر للارتباط بـ «الآخر» وفهمه . نحن نخلق الماضى والتاريخ عندما نقوم بالتفسير الأخلاقى .

وطبيعة أسلوب الفرض لدينا تعنى أنه ليس هناك مؤرخون محايدون . وهوايت

يجعل هذا واضحًا للغاية عندما يعرِّف الأيديولوچية على أنها مجموعة من «التوجيهات لاتخاذ موقف فى العالم الحالى من الممارسات الاجتماعية والعمل عليه (إمًا لتغيير العالم أو لمواصلة الحفاظ عليه فى حالته الراهنة)» وهو ينص على أربعة مواقف إيديولوجية أساسية (مستعارة من الفيلسوف الألمانى كارل ما نهايم) - الفوضوية، والراديكالية، والمحافظة، والليبرالية . هذه المواقف الأساسية الأربعة كلها تزعم أنها عقلانية أو علمية بالمعنى الحداثى الذى يحوِّل مثل هذه المزاعم إلى سرد رئيسى للعلم بحيث يكون مسموعًا(٤٤). وتكمن الأيديولوجية النهائية للتاريخ الإمبريقى فى الطريقة التى يحاول فيها أن يجعلنا جميعا نقرأ عمله كما لو كان واقعيا- هذه هى حقيقة المسألة، أو أنه يجب علينا حقا أن نواجه الحقائق- وهكذا يمكننا أن نستجيب فقط بطرق معينة.

وعلى الرغم من القوة التى تبدو بارزة أو حاسمة فى القوة المجازية، فإن هوايت غير متأكد من أن الإيديولوجية هى بشكل مطلق نتيجة الشكل، أى أن المجاز يحسم فى نهاية المطاف المواقف «الإيديولوجية» (٤٥). وفى إحدى النقاط يقول إن المواقف الإيديولوجية الأربعة أقل تأثرا بالمجاز (بين التخفيض، والفصل والدمج) منها بالمؤرخين تجاه ما هو مرغوب فى طبيعة التغير الاجتماعى ومساحته، ويعنى هذا، إن المؤرخين لهم الاختيار الأخلاقى الذى لا يعرقله قوة التصوير، وأنه من ثم، فإن كل المواقف الأيديولوچية الأربعة فى اختلافاتها فيما يتعلق بالرغبة فى توجيهها والمسافة يمكن أن تكون مستقلة . وباختصار فإن المحافظين هم الأكثر شكا فى التغير، والآخرون أقل شكا. ذلك أن المحافظين يعارضون التغير السريع بمساندة التوسع الثورى فى المؤسسات الاجتماعية الموجودة . أما الفوضويون فيطلبون تغيرا اجتماعيا سريعا، وربما أكثر كارثية لكى يؤسسوا مجتمعا جديداً. ويفضل الليبراليون التحول الهادئ المجتمع لضمان تغير اجتماعى معتدل الخطى، على حين أن الراديكاليين يرحبون بالتغير الاجتماعى الحال، ولكنهم بخلاف الفوضويين أكثر إدراكا لما يسميه هوايت «السحب الكسول للمؤسسات الموروثة»، كما أنهم، بالتالى، أكثر تمرسًا بقدر أكبر من الفوضويين بوسائل إحداث التغيير. وهكذا فإن جميع المواقف الأربعة تحمل تفضيلات لتوزيع القوة والمعايير التى تتم بها ممارسة السلطة. وما يعنيه هذا هو أن أيديولوجية

المؤرخ تنكسر من خلال التاريخ الذى يكتبه، أما بالنسبة لسؤال الحسم النهائى- مجازا أو أيديولوجيا- فالإجابة دائما يحتمل أن تبقى محل خلاف.

ومع هذا، فإن نموذج هوايت واضح أن السرد التاريخى التفسيرى لا يعتمد على حقيقة الأحداث فى عمله، ولكنه يعتمد على خلق قصة ما، مستخدما المجادلات، ومتخذا مواقف أخلاقية يمكن للقارئ أن يتابعها ويفهمها فى مصطلحات ثقافية معاصرة مشتركة . والدقة فى توليد الحقائق لا معنى لهاحرفيًا ما لم تتحول تلك الحقائق (باعتبارها افتراضات أو أحداثا يجرى وصفها) إلى قصص يجرى المزيد من شرحها بالمجادلات، وتقدم باعتبارها مواقف أيديولوجية قوية ومتماسكة. ويوضح لويس مينك، مقتبسًا بشكل حرفى من الناقدة باربارا هاردى، نقطة مهمة فى هذا الصدد:

«السرد، مثل الشعر الغنائى أو الرقص ؛ لا ينبغى اعتباره إبداعا جماليا يستخدمه الفنان للسيطرة، والتلاعب، وتنظيم التجربة، ولكن بصفته فعلا أوليا للعقل يتحول إلى فن من الحياة... والأكثر أهمية من إبداعات الخيال المزايا التى يشترك فيها السرد مع حكاية القصة أو التجربة المعاشة : «لأننا نحلم فى السرد، وفى أحلام اليقظة فى السرد، نتذكر نتوقع، نأمل، نيأس، نعتقد، نشك، نخطط، نراجع، ننتقد، نبنى، نغتاب، نتعلم، نكره، ونحب بواسطة السرد»[٤٦]. والآن، على الرغم من أن مستوى الفهم الذى يصبو إليه السرد بالنسبة لمينك هو فعل للعقل، فإنه ينسحب متقهقرًا من المنطق النهائى لموقف هاردى، وهنا يوافق هوايت على النتيجة التى استخلصها أن:

«القصص لا تعاش ولكنها تحكى. فليست للحياة بدايات، وأوساط، ونهايات: هناك تقابلات، بيد أن بداية علاقة حب تنتمى إلى القصة التى نحكيها نحن فيما بعد، وهناك مفارقات، بيد أن المفارقات النهائية تحدث فقط فى القصة . هناك أمال، وخطط، ومعارك حاسمة، وأفكار جوهرية . وفى القصة فقط تكون أمريكا التى يكتشفها كولومبوس، وفى القصة فقط تضيع المملكة بسبب الحاجة إلى مسمار... وهكذا يبدو أكثر صدقا أن نقول إن خصائص السرد تنتقل من الفن إلى الحياة. وبوسعنا أن نتعلم أن نحكى قصص حياتنا من أغانى الأطفال، أو من أساطير الثقافة إذا كان لدينا أى منها، ولكن من التاريخ والكتابة الخيالية نتعلم كيف نحكى وكيف نفهم القصص المركبة، وكيف أن القصص هى التى تجيب على الأسئلة»[٤٧].

على الرغم من هذا التأكيد المعادى للسردية من جانب هوايت، فإنه يجب علينا على الأقل أن نسأل مرة أخرى، هل التاريخ حقا هو فقط الخيال الذى يحكيه المؤرخون وهم ينظمون الأدلة، أم أنه ليس هناك صدى ثقافى بين التاريخ كما عاشه الناس والتاريخ كما يحكيه المؤرخون؟

خاتمــــــة

وفقا للنزعة الشكلانية لنموذج هوايت المجازى، فإن التاريخ يكون عملية مستمرة من إعادة الكتابة من التفاعل فيما بين النصوص، يؤلفها المؤرخ ويوجهها فهو بداية فعل من الإبداع الأدبى. ولأن سمة التفسير التاريخى تكمن فى بنائه السردى فإن المعرفة التاريخية تتولد بواسطة الجدل المستمر بين السرديات (التفسيرات) لا من آثار الماضى البدائية، غير المكتوبة، والتى لم توضع فى سياق . وأنكر سميت يهتم تماما بما يدعيه من أن ما لدينا نحن المؤرخين جميعا هو « «التفاعل فيما بين النصوص» والتأثير المتبادل فيما بين سردياتنا التاريخية»[٤٨]. وجميع المناقشات فى التاريخ- من الذى بدأ الحرب الباردة، ما مدى نجاح «الحركة الوثيقية Chartists فى تحقيق أهدافهم . إلى أى مدى كان انحسار الحدود الأمريكية من الناحية الثقافية مهما فى التاريخ الأمريكى؟ وعلاوة على ذلك، لأن الخيال التاريخى نفسه موجود فيما بين النصوص داخل بيئتنا الاجتماعية والسياسية، فإن الماضى ليس مكتشفا على الإطلاق فى عالم معزول عن الحياة اليومية . إن التاريخ مصمم ومؤلف فى الـ «هنا» و الـ «الآن» . (أى فى الحاضر والمكان الحالى).

وسواء كانت نزعة الفرض لدى المؤرخ مبنية فى النهاية بواسطة الأيديولوچيا أو المجاز أمر يستحيل أن نحسمه بالدليل أو النقد. وربما يكون موقف المؤرخ من الناحية الأخلاقية أو من الناحية البلاغية قد تبدل . وما يهم، على أية حال، هو أن الخيال التاريخى إضاءة برق وموجه للثقافة على السواء، فى الماضى وفى الحاضر . وإلى جانب نموذج الحقبة المعرفية المتمثل سلفًا فى التكوين الثقافى الذى قدمه فوكو، فإن نظرية هوايت عن السرد التاريخى تقدم نوعا من علم الصرف لدراسة الماضى. متفقا

مع هوايت أن الفهم التاريخى باعتباره مستمدا من الأدلة لا يكمن فى مستوى البيان المرجعى الفردى وإنما فى ترتيبه المحبوك، يترك السؤال مفتوحًا بأنه فى الماضى ربما كانت هناك أبنية سردية سائدة تشكلت مجازيا فى حقب معرفية تتوسط طبيعة التغير التاريخى. وهذا يقودنى إلى استنتاج أن الفقر الحقيقى للإمبريقية يكمن فى رفضها الشديد للاعتراف بقوة التصوير فى الحكاية السردية للماضى كما كان يمارس آنذاك تمامًا مثلما كان المؤرخون يصورونه فيما بعد . والدلالات فى هذا الجدال بالنسبة للوعى التفكيكى تشكل الملخص الذى أقدمه فى فصل الخاتمة.

---

* الحركة الوثيقية Chartists حركة قام بها بعض المصلحين الإنجليز فى القرن التاسع عشر كان هدفها تحسين أوضاع العامة من الناحية الاجتماعية والناحية الاقتصادية (المترجم) .

(٩)

الخاتمة

تقديم

فى هذا الكتاب تساءلت كيف يمكن لما كان يعنيه محتوى الماضى أن يتأثر بالشكل الذى يقدم فيه ؟ وتابعت هذا بطرح أربعة أسئلة رئيسية عن المعرفة، والأدلة، والنظرية الاجتماعية والسرد. وقد سهل تفكيرى فى هذه الأسئلة وصف المقاربات الثلاث السائدة حاليا تجاه العلم التاريخى: الاتجاهان التوأمان لإمبريقية إعادة بناء الماضى، وبنيوية النظرية الاجتماعية، وما وصفته أنا بالتفكيكية. وكل من هذه المقاربات الثلاث تقدم اتجاها منهجيا متمايزا صوب الأسئلة الأربعة . وكما رأينا، فإن الاتجاهات المنهجية الثلاثة لا تدل فقط على تعقيدات المنهج التاريخى وتنويعاته المتاحة اليوم، ولكنها تكشف أيضا عن الاختلافات الأساسية بين المؤرخين حول طبيعة الموضوعية، والتفسير، والحقيقة، والوصف، والمعنى، وأدوارها فى الفهم التاريخى .

ولا يشير الموقف التاريخى التفكيكى أنه يجب وصف التاريخ بأنه كيان عقلى خالص أو كيان لغوى خالص، لأننا لانستطيع أن نمتلك وسيلة مباشرة خالصة للوصول إلى حقيقة الماضى . ومع هذا، لا يزال بوسعنا أن نتكلم عن الماضى وما نظن أنه حدث فيه . ولكن ما افترضته أنه، على الرغم من فحص الأدلة على أدق وجه، وفى غياب تواصل مباشر مع الماضى، فإن الطريقة التى يتم بها تفسير التاريخ وحكايته فى صورة سردية ذات أهمية أولية بالنسبة للطريقة التى نحصل بها على المعرفة التاريخية وطبيعة هذه المعرفة . وبينما لا توجد مشكلة فى قبول أن حقيقة الماضى قد وجدت ذات مرة، فمن المعقول أيضا أن نجادل أننا لا يمكن أن نحقق الوصول إليها فقط أو حتى

بصفة أولية من خلال المنهج الإمبريقى . والمؤرخون التفكيكيون يشكون فيما إذا كنا نستطيع «حقا» أن نعرف الماضى «كما حدث بالفعل» باتباع نقاط ست من ميثاق التيار السائد. وهذا ليس تاريخا مضادا، ولكنه مفهوم للتاريخ كما هو ملموس : إنشاء سردى واع بذاته كتب «هنا، والآن» يعترف بشكله الأدبى على أنه وسيطه المعرفى الجوهرى، وليس مجرد أسلوب فى الحكى. وانطلاقا من هذا سألت إذا كان الماضى نفسه قد تشكل على صورة السرد بواسطة الناس فى مسار تجربتهم المعاشة، وهى عملية ربما يكون الدليل قد تضمنها . ومن ثم فإننى تساءلت عن درجة اكتشاف المؤرخين الماضى، أو هل نستطيع أن نختار أن نكتب «الماضى» أو نكتب عن ماض ما، فى صورة «القصة»، أو قصة ما. وقد أدى هذا إلى مجادلتى بأننا يجب دائما أن نميز الماضى عن التاريخ . وفهمى لأهمية شكل الكتابة التاريخية بالنسبة لطبيعة التغير التاريخى، وكذلك حكاية المؤرخ له، جعلنى أدرسه بواسطة الإشارة إلى المزج الإستراتيجى بين مفهوم ميشيل فوكو عن البناء التحتى المعرفى / المجازى الاجتماعى، ونموذج هايدن هوايت الشكلى للتخيل التاريخى[١]. وسأنتقل الآن إلى مضامين علم التاريخ فى عملية إعادة التفكير هذه فى طبيعته.

المعرفـــــة

فى جو الشك والنزاع الذى ساد ألفية ما بعد الحداثة التى نعيشها فإن كثيرا من الأشياء التى كانت تؤخذ ذات مرة على أنها يقينية باتت محل تساؤل، ومن بين أشياء أخرى كثيرة، لم يكن السرد الكبير معفيا من هذا الاستفسار . وبصفة خاصة، يركز التاريخ التفكيكى الاعتراض المتزايد الذى يبديه كثير من المؤرخين والمفكرين النقديين على الاعتقاد الحداثى فى الفكر الغربى فى نظرية التقديم أو نظرية التواصل التى تصل ما بين الكلمة والعالم[٢]. وعلى الرغم من أن فيلسوف التاريخ لويس مينك قد جادل بأنه لكى نشرح الأحداث التاريخية فإننا الآن على أى نموذج أعلى فى التفسير، سواء كان إمبريقيا، أو قانون تغطية، أو بالنسبة لهذه المسألة، تفكيكيا، ومن المؤكد أن التطور الرئيسى فى فلسفة التاريخ فى الجيل الماضى يكمن فى الإشارة إلى أن الجهاز المعرفى الأولى للتاريخ ربما يكمن فى قوته السردية[٣]. وحتى وقت قريب نسبيًا كانت

نصوص تاريخية قليلة تتخذ مرجعيتها المعرفية من نفسها لدرجة أنها كانت تولى اهتماما مقصودا بشكلها البلاغى، مفضلة ذلك على إبراز الحقيقة الكامنة وراءه . وبالتالى، فإن نصوصا مثل كتاب إيمانويل لوروى لادورى Montaillou، وكتاب كارلو جينزبورج The Cheese and Worms، وكتاب ناتالى زيمون ديفيز The Return of Martin Guerre، وكتاب سيمون سكاما Dead Certainties، وكتابه Landscope and Memory، كلها كتب تعتبر أمثلة على نوع تاريخى جديد لأنها تجذب الانتباه إلى نفسها إما من خلال محتواها باعتبارها دراسات عن التافه، والنادر وما يبدو مهمشًا تاريخيًا، أو فيما يتعلق بشكلها، باعتبارها إيضاحات لأين يجتاز التاريخ الحدود ليدخل فى الكتابة الخيالية من خلال طرق معينة ينظمون فيها محتوى الماضى(٤).

والكتب مثل هذه لا ترمى إلى الإشارة إلى حقيقة الماضى الذى يمكننا أن نعرفه بشكل موضوعى من خلال الدراسة الشرعية للدليل . وكما قالت ناتالى زيمون ديفيز إن كتابها كان القصد منه أن يتساءل عن النقطة التى يتوقف التاريخ عندها عن أن يكون إعادة بناء للماضى ويصير اختراعًا، متضمنا أنها اختارت أن تتقدم «بحجمها بتنظيم السرد، واختيار التفاصيل، والصوت الأدبى، والاستعارة . مثلما يحدث بالتحليل المجازى»(٥). إنه عند هذه النقطة يعصى المؤرخ القواعد التقليدية باستبدال سلطة المصدر بشكل تنظيمه. ومن خلال هذا يكون الماضى قد تحرر لأنه لم يعد أسيرا للمؤسسة الفكرية لإعادة بناء الماضى أو البنيوية . وكما تمت المجادلة، فإن التاريخ ما بعد الحداثى أو التفكيكى لم يعد يتوجه نحو الماضى كما هو، ولكن نحو الانفصال بين الماضى والحاضر. والمؤرخ الذى ينتمى إلى التيار الرئيسى من المحافظين الراغبين فى إعادة بناء الماضى بوصفه إمبريقيا يعتقد فى وجود حقيقة تاريخية يمكن معرفتها ومستقلة عن ذهن المؤرخ- الموضوع والذات منفصلان تماما مثلما يفترض أن الذهن والمعرفة منفصلان . والنص موجود فقط لكى ينتقل، وعلى أي حال، فإن كل النصوص تخفى الماضى عبر قصد المؤلف- المؤرخ المشوب أيديولوجيا . وبدلا من أن يكون النص موجودا، ولكن بدون فحص، فإنه الآن محور دراستنا للماضى . وهذا لا يعنى، حسبما يريد لنا دريدا أن نعتقد، أنه ليس هناك شيء وراء النص، لأن النص ليس نهاية التاريخ، إنما هو البداية. وقد وضع أنكرسميت أكثر الحالات إتساقًا فى أثناء

تسعينيات القرن العشرين وفى العقد الأول من القرن الحادى والعشرين عن «الاتجاه الجمالى» فى دراسة التاريخ. وقد جادل أن المؤرخين ينبغى أن يكونوا واعين بالطبيعة الجمالية للتاريخ، ليس من أجل مقايضة الفكر العقلانى أو الإمبريقية، وإنما لكى يوسعوا نطاق الوعد والإمكانية فى فهمهم الماضى على أنه التاريخ. وبالنسبة لآنكر سميث، فإنه على كل مؤرخ أن ينشغل بموضوع معرفى أساسى واحد. هذا ما إذا كان معنى الماضى محسومًا بشكل مطلق من خلال محتواه الإمبريقى أو شكل تقديمه، أو مزيج منهما. إذا كنت تعتقد أن التاريخ يجب أن يصاغ بصورة بلاغية، إذن فإن جمالياته لا تستحق الملاحظة من الناحية الجمالية. ومن المفترض، أنك سوف تظن أن التاريخ ينبغى أن يكتب ليس باعتباره عقبة، كما يقول الفيلسوف العملى الواقعى للتاريخ بيهان ماكولاج، فى طريق تقديم «تاريخ مصدق، مفهوم وعادل»(٦) وإذا كنت لا توافق، على أي حال، على رأي ماكولاج، إذن فإنك قد تعتقد أن استكشاف الطبيعة الجمالية للتاريخ يصبح ضروريا وملحا وأساسيًا لكى نفهم ما يكون عليه التاريخ المصدق والمفهوم والعادل حقًا.

ويكون المؤرخ التفكيكى دائما غير متأكد بشأن التاريخ. وعلى الرغم من أنه قد يكون من الصعب التغلب على عادات المؤرخين القدامى، فليس جوهريًا بناء تفسيرات غائية أو كلية. وفى اعتراض على أساطير اليقين والطبيعة فى إمبريقيةإعادة بناء الماضى فى سياقه أو النظريات الاجتماعية التى تأسست إمبريقيا عند البنيويين، فإن إدراك التفكيكيين لطبيعة التاريخ المخترعة لا تسمح بأن يكون «الماضى» و «التاريخ» هما الشيء نفسه . وأنه ليست هناك روابط طبيعية، وإنما فقط روابط معرفية مفترضة بين الأحداث الواقعية فى الماضى والطريقة التى نصفها بها هى مصدر قوة مناقشة آنكر سميث بأن التاريخ يرى على أفضل صورة من خلال المنظور السردى ويقدر أكبر من رؤيته من خلال فلسفة تاريخ معرفية(٧).

الماضى لا يسكن «هناك»، بوجود مستقل عن المؤرخ واستخدامه للغة. وإن يكن هذا كذلك،، كما يقول الراغبون فى إعادة بناء الماضى، فكيف نحكى حكاية جيدة من تاريخ سئ وبدون علامة الإمبريقية المتسامية، ومراسى الحقيقة والدراسة الجدلية للدليل، ألسنا فى وسط بحر من النسبية انجرفنا فيه؟ كيف يمكن لنا أن نثق فى

التاريخ الذى نقرأة ؟ إن طرح مثل هذه الأسئلة يكشف عن الكثير بشأن أوجه القصور المنهجية فى الإمبريقية. مثل هذه المخاوف تعلن عن استثمار دعاة إعادة بناء الماضى الخائب فى مجاز الحقيقة . وكثير من المؤرخين اليوم، آمل أن يكون غالبيتهم، لن يتقبلوا حجة جيرترود هيميل فارب، المستمدة من الواقعية الفلسفية، بأن نزعتنا الإملائية الإملاذية يجب أن تعنى أننا نبنى الماضى بدون أى شعور بما هو صحيح من الناحية الأخلاقية لمجرد أننا لا نعرف ما هو حقيقى. هذه حجة مكشوفة لا تنصف الطبيعة الانشقاقية التساؤلية لكثير من التدوين التاريخى.

وقد شكَّل التحدى الذى طرحه بارثيس ودريدا فى وجه العلاقة المرجعية بين الكلمة والعالم قد شكل جزءًا من الاعتراضات الأوسع المشابهة من جانب هوايت، وميچيل، ولاكابرا وچينكز، وآنكرسميث وكيلنر، ورويسن وفوكو إزاء النماذج التقليدية . وعلى خلاف هيميلفارب، رفض هؤلاء النقاد اعتقاد بيكون بأننا يمكن أن نحصل على مدخل إلى «عالم الماضى الحقيقى» من خلال شذرات الحقيقة المبعثرة فى الأرشيفات . وبدلا من افتراض الاقتراب من الأدلة، ومن ثم نصل عبرها إلى حقيقة ما حدث فعلا، هنا يتم تقديم فهم تاريخى بديل. هذه المعرفة التفكيكية تعترف بوجود تأثير الحقيقة أكثر من المفهوم الخيالى عن الحقيقة التاريخية، وتنكر أننا يمكن أن نكتشف قصد المؤلف، وتقبل سلاسل من المدلول التفسيرى بدلا من إمكانية اكتشاف المعنى الأصلى، وترفض إغراءات المرجعية السهلة، وتخاصم موضوعية المؤرخ حين يعمل من داخل البناء التصويرى للسرد، وتقبل الطبيعة السامية للماضى المتخيل على أنه شعور بـ «الآخر»، وتعترف بأن علاقة الشكل بالمحتوى أكثر تعقيدا من كثير مما تسمح به غالبا العلاقات فى الاتجاهين الرئيسيين التوأمين .

فى سنة ١٩٩٠م زعمت المؤرخة المتخصصة فى التاريخ الأفريقى إليزابيث تونكين، فى ملاحقة أصوات كثيرة من الماضى، أنه يجب ألا أن نستخدم بعد الآن كلمة «تاريخ»، مفضلة مصطلح «تقديم الماضى» لأن التواريخ حسبما تفهم هى طبيعة المعرفة التاريخية، وهى عبارة عن سلاسل بسيطة من الكلمات إما منطوقة أو مكتوبة، منظمة فى نماذج من الخطاب الذى يقدِّم الأحداث» . واستمرت فى القول: «والمجادلات والآراء أيضا أشكال من الكلمات . وعندما نمسك بحقيقة تاريخية أو تفسير تاريخى، نكون قد

صنعنا مجموعة معقدة للغاية من التفسيرات لكى نفعل هذا »[٨]. والوعى التفكيكى يجعلنا واعين معرفيًا أن الطريقة التى نصور بها، وننظم، ونحبك، ونضع أحكامًا أخلاقية عن الماضى بصورة مجازية هى طريقتنا الوحيدة للوصول إلى الماضى . وإذا كان القارئ مقتنعا بالمقاربة العامة للمؤرخ. ويقبل ممارساته واتجاهه المنهجي، فلن توجد إذن ثغرة يمكن أن نجدها بين القارئ، والنص، والفهم . وإذا كانت العادات اللغوية والأعراف التى يستخدمها المؤرخ، ويشاطره القارئ إياها، هى تلك التى لدى أنصار إعادة بناء الماضى، فهنا مرة أخرى لا يوجد صدع بين الرواية التاريخية وما «يُعتقد» أنه قد حدث بالفعل . وبأي من الطريقتين، على المؤرخ أن يرتب داخل الافتراضيات المعرفية لقارئه . وإذا لم يكن التفسير التاريخى مجديًا داخل واحد أو أكثر من التيارات الفكرية العامة فى الحاضر الذى كتب فيه هذا الشرح، فإن لن يستطيع أبدا أن يشرح أى شىء لأى أحد.

ومجادلة هوايت الأولية أن التاريخ بناء بلاغى من عمل المؤرخ، وهو مخترع بقدر ما هو موجود، يعنى أن الماضى كما حدث بالفعل أمر لا يمكن أن نعرفه فى النهاية، وبدلا من أن نكون قادرين على الإمساك بالمعنى الحقيقى للماضى كما تمت تصفيته موضوعيا من خلال شبكة الدليل، فإن التاريخ التفكيكى يؤكد على الدور التفاعلى والفرضى للمؤرخ، بحيث أنه أيا كانت المعرفة التى نحصل عليها من الماضى فإنها مقدمة لا من الماضى وحده فقط، وإنما من السرد المصور سلفا، والمحبوك، والذى تمت مناقشته ووضعه المؤرخ بصورة أيديولوچية . وعلى أي حال، يبقى السؤال، على الرغم من إصرار هوايت على أن الماضى ليس محبوكا بطبيعته، عما إذا كانت رابطة فوكو المجازية– المعرفية غير موجودة، فهل هناك رذن حسم نهائى فى التاريخ يوضع حين يحكى المؤرخ القصص عن الماضى؟ إن عالم التجربة الثقافية واللغوية المعاصرة التى يشارك فيها المؤرخون هى الكابح النهائى ليس فقط لما يمكن أن يكتب على أنه تاريخ، وإنما لكيفية كتابته .

الدليل

أنا لا أشك فى أن الماضى قد وُجد ذات مرة، وأن الدليل عليه يبقى فى حاضرنا. وعلى أي حال، فإن المشكلة المعرفية العنيدة المتمثلة فى عدم معرفة الماضى كما كان بالفعل على الإطلاق، لأن كل ما يمكننا فعله أن نستقرئ المعنى من خلال آثاره، يؤكد الحاجة إلى إعادة دراسة الافتراض السارى فى التيار الرئيسى عن وجود تواصل كاف بين الدليل والمعرفة الصادقة بالماضى. هذا الشك يقدم الإجابة عن السؤال القائل: ما سمة الدليل التاريخى وما الوظيفة التى يقوم بها ؟ إن الموقف الإمبريقى الساذج، الذى يفترض بالضرورة وجود المؤرخين الموضوعيين العدول المنفصلين عن الدليل، الذين يبقون عقولهم متحررة من الفروض المسبقة، والذين يتجنبون الأسئلة التى تستجدى الإجابات، والتى تنطبق على إجراءات الدليل الجدلى من أجل التقييم النقدى للدليل، هذا الموقف يلقى الآن خصومة أوسع كثيرا عما كان قبل ذلك.

لقد حاولت أن أبين كيف أن الاعتقاد عند أنصار إعادة بناء الماضى بأن «الحقيقة» تتواصل مع حقيقة الماضى عن طريق آليات المرجعية والاستقراء الاستنباطى و(الذى لخصته فى ست نقاط أو مبادئ فى الميثاق الإمبريقى)، وهو ما دفع بمؤرخين مثل ماكولاج، وإلتون، وستانفورد، ومارويك إلى الجدل بأن الحقيقة التاريخية يمكن اكتشافها باستعادة نية المؤلف الذى كتب الدليل. هذا الموقف، كما تطور ولم يرفضه المؤرخون المعتدلون من أنصار إعادة بناء الماضى مثل كلوبنبرج، وأبلبى، وهنت، وجاكوب، وجوردون، يعنى أنهم يسعون وراء «القصة» التى تمثل بشكل أدق «الحقيقة» التى يمكن ويجب العثور عليها فى نهاية المطاف فى «الماضى» من خلال تفصيل حقيقى متفق عليه لأحداث الماضى. وبينما يعترفون بالسرد وسيطًا لعملية إعادة البناء الإمبريقية هذه للماضى، فإنهم ينكرون بشدة قوة السرد فى الاختراع. إن المؤرخين يخدمون الدليل فى كل الظروف. وينطبق التفكير نفسه على التنظير الاستنباطى فى العلم الاجتماعى، وقد بلغ الأمر أن كلا من التفكيكية والبنيوية ترى على أنها تصرفات غير طبيعية تسير ضد اتجاه المنهج التاريخى القائم على الدليل .

وينبغى علينا الآن أن نكون على ألفة بمجادلة إلتون بأن التاريخ هو ما ينتج عن

الدليل عندما يقوم بتحقيقه المؤرخ غير المنحاز والمستقل الذى، يطرح الأسئلة المؤطرة بشكل مناسب، و يبقى بصفة خاصة شكاكا بشأن نماذج الشرح التى افترضها كل من المنظرين الاجتماعيين والتفكيكيين. ومن بين العواقب التى يفترض أن تفيض من هذا المنهج ليس فقط توليد حقائق لا مشاحة فيها مستمدة من اكتشاف نية كاتب الدليل، ولكن أيضا ظهور تمييزات واضحة بين التاريخ والقيمة، بين الحقيقة والخيال. والنظريات البنيوية عن التاريخ تكون بهذا مرفوضة من مؤرخى إعادة بناء الماضى المتشددين بسبب الأضرار التى يلحقونها ببقايا الماضى، التى يصنعونها قسراً فى أشكال غريبة تمليها حاجات الفروض لاختبارها، وعلى حد تعبير إلتون، ويؤكدونها بشكل ثابت لا يتغير. وبالنسبة لكل من المؤرخين البنيويين ومؤرخى التيار الرئيسى فإن الدفاع النهائي ضد ما يعلن على أنه نسبية التفكيكية يكمن فى ممارسة الدراسة الفنية والتفصيلية للمصادر من خلال عملية التحقيق، والمقارنة والتجميع .

فى نصف القرن الماضى، على أي حال، وتحت تأثير كار ورؤيته المؤثرة للتاريخ بأن الماضى يكون دائمًا فى مواجهة ناقصة، فإن معظم المؤرخين الواقعيين العمليين أو المعتدلين من مؤرخى التيار السائد كانت تواجههم صعوبة قليلة فى قبول ما يسمونه الطبيعة المشروطة لتفسيراتهم وأن البرهان والحقيقة لا يوجدان فى التاريخ. هذا يترجم فوراً إلى الرجعية التاريخية. وترتكز الطبيعة المشروطة لكل التفسيرات التاريخية على العملية المستمرة المتمثلة فى اكتشاف أدلة جديدة، ثم التعامل معها بآليات تزداد تعقيدا للتحليل ووضع المفاهيم، ووضعها باستمرار فى السياق بحيث، مثلا، يصبح الدليل على الإمبراطورية، بالنسبة للجيل التالى من المؤرخين، الدليل على تفسير جديد فى مرحلة ما بعد الاستعمار. وعلى الرغم من أن هذا يحدث، فإن الدليل المتاح يكون، بطبيعة الحال، لا يزال محل اعتقاد بأنه يوفر نافذة للإطلال على حقيقة الماضى. وبينما تقدم الأدلة الجديدة دائما نوافذ جديدة فإن وجهات النظر التعديلية سوف تستمر فى التواصل مع الحقيقة الموجودة وراء النوافذ الجديدة. ولا تدمر البنى التعديلية الموضوعة على الحقائق التاريخية، من ثم، إمكانية معرفة حقيقة الماضى. وحتى مع أخذ نسبية كولينجوود وكار فى الحسبان، فإن الزعم النهائي بإعادة بناء الماضى يبقى خامداً، أنه يمكن معرفة الماضى من خلال الدليل، وتبقى معرفته ممكنة حتى كما هى مكونة فى

السرد، لأنها تكون حينئذ أننا نحصل على القصة أو على وصف حقيقى للماضى. وبالنسبة لمؤرخى التيار الرئيسى يبقى الهدف الاقتراب أكثر من ذى قبل نحو أصدق وصف ممكن .

وردى على هذا الرأي القائل بوجود حقيقة تاريخية يمكن معرفتها كان سؤال الاعتقاد الإمبريقى بأن القيمة التفسيرية للدليل تتزايد كلما اتجهنا إلى التقليل من شأن البحث التقنى والنقدى. وقد سلمت بأنه لا يتبع ذلك أننا كلما اقتربنا من الدليل، كلما رأينا المزيد من الحقيقة. ولم أجادل أن تواصل الدليل مع الحقيقة يعمل بشكل مرض ومعقول على المستوى الأساسى للجملة الواحدة التى يساندها الدليل (كان رئيس الولايات المتحدة ابراهام لنكولن قد تعرض لإطلاق النار فى ١٤ أبريل ومات فى الصباح الباكر يوم ١٥ أبريل سنة ١٨٦٥م) . ولكن مثل هذا التواصل لا يوجد عندما نتحول إلى مستوى التفسير بفرض حبكة، أو مجادلة (اغتيل ابراهام لنكولن قبل أن يتمكن من تنفيذ خططه لإعادة البناء) . هذه عبارة تتسم بالتكرار: فالسرد التاريخى ليس «الماضى»، إنه تاريخ. وبينما قد يكون ممكنا أن نبين وجود تواصل قوى، بل محتمل، بين عبارة منفردة عن الماضى وقطعة منفردة من الدليل، كافية لأن تولد عبارة حقيقية، بحيث تترجم هذه «الحقيقة» الاستنباطية إلى سرد تفسيرى تاريخى كامل تستعيد الماضى كما كان بالفعل، فإن هذه ممارسة معيبة.

وكون الدليل لا يتواصل مع حقيقة الماضى عند المستوى التفسيرى يجعل اكتشاف قصد المؤلف أمرا غير مؤكد وتكشف المجادلة، مثل إلتون، بأن المؤرخ غير المنحاز يمكنه فهم مقاصد الناس فى الماضى بأن يسأل لماذا يوجد الدليل، عن مستوى غير عادى من سلامة الطوية والسذاجة . وينبغى لعدم الدقة الفطرى فى الاستقراء الاستنباطى أن يحذِّر كل المؤرخين من مثل هذا الاعتقاد، بيد أنه من الواضح أن هذا لا يحدث . وزعم البحث عن الحقيقة بطريقة استقرائية قد يكون مرضيا من الناحية النفسية والمهنية، ولكنه دائما خطير من الناحية الفكرية، ولا يزيد عما يحدث عندما يعتقد البعض أنهم يقتربون منها بشكل مستمر، أو أنهم عثروا عليها. ومصيدة اليقين الصلبة تطبق عندئذ على العقل المستفسر. وأن تسأل وتشك دائمًا يعنى أن ترحب بالطبيعة غير المستمرة لكتابة الماضى- وهو موقف ربما يؤدى إلى شكل أكثر إحاطة من التحليل التاريخى وأقل احتمالاً أن يستبعد المهمشين و «الآخر».

ونجد اليوم التقييم الأكثر نضوجًا من الناحية الفكرية لتاريخ التيار السائد متمثلاً في مؤلفات مؤرخين مثل أبلبى وهنت وجاكوب اللاتى يجادلن أن التزامهن بدراسة الدليل هو أن يكتشفوا حقيقة (فى حالتهم) تاريخا أمريكيا جمعى متعدد الثقافات سوف يعزز بالضرورة (ما اختارو أن يعتقدوا أنه) ميراث أميركا الديمقراطى الجوهري. تلك نظرتهم للتاريخ الأمريكى الحقيقى، وهكذا يكون. ولكن تقديمه على أنه جزء من البحث عن «الحقيقة النهائية» للتجربة التاريخية الأمريكية، خاصة عندما يكون مثل هذا البحث ينفذ ويوصف على أنه جزء من المنظور الذى يدعى أنه واقعى عملى، فمن الواضح أنه مفهوم مشحون أيديولوچيا بأجندتهم الاجتماعية، والسياسية، والفكرية . وليس هذا، طبعا، محل جدل إذا ما كانت الواقعية العملية فى هذه الحال، بموضوعيتها متعددة الثقافات، محل اعتراف بأنها مجرد مجموعة أخرى من المواقف الإيديولوچية كما قدمت فى سردها . وعنوان كتابهم Telling the Truth About History، يشى بأنهم يرصون سرداً تم وضعه فى سياق اعتباطى وأسبغت عليه السمة التاريخية يفرض مجموعة خاصة من العلاقات الدالة على الماضى. والحقيقة أن آبلى وهنت وجاكوب يعترفون فعلاً بأجندتهم فى التقديم فى هجومهم على التاريخ التفكيكى بزعمهم أنه «ميراث علم الحرب الباردة ... الذى يساعد على شرح الاستخفاف، بل العدمية، وبالتأكيد النسبية الفكرية، الذى يرحب حتى بذكر الحقيقة والموضوعية»(٩) وهكذا بالنسبة لهم يبدو أن الحقيقة المستمدة بصورة إمبريقية تبقى حقيقة متسامية، على حين أن التساؤل التفكيكى عن قيمة حقيقتها وتأثير الحقيقة معرفى ويفترض أنه عابر، وهو نتاج فى هذه الحال للتأثيرات المضطربة من الناحية النفسية للحرب الباردة. وكون هذا قد يكون ظلمًا أو لا يكون شيء ولكن المهم أننا دائما نحمل فى ذهننا أنها تحكى لنا نسختهم عن حقيقة التاريخ.

وإضفاء الصفة التاريخية على Telling the Truth About History مثال واضح على مجادلة فوكو بأن الماضى المتخيل على أنه تاريخ إنما يوجد فقط فى الخطابات المعاصرة للمؤرخين. ويبقى التاريخ بناء، سواء كان ينظر رليه بوصفه تقديما بلاغيًا أو تنظيراً اجتماعيا ثم اختباره إمبريقيا . والكتب التى تزعم أنها تحمل الحقيقة التاريخية، مثل Telling the Truth About History تؤكد شكوكى بشأن «الغرفة النظيفة» الخالية

من الأيديولوجيا . وكما حاولت أن أوضح فى هذا الكتاب، فإن حوار المؤرخ مع دليله لا يمكن أن يتم من خلال وسيط موضوعى، يخلو من التفاعل بين النصوص، وليس تصويريا وخاليًا من القيمة . وكما أشار ديفيد هارلان فإن هذا يترك لنا أنواعا كثيرة مختلفة من التواريخ والمناهج بقدر ما يوجد من أنواع الكتابة التاريخية. وكما أشار فوكو وهوايت، فإن أسباب بناء الشكل التاريخى بطريقة خاصة عادة ما يكون بوحى من الأيديولوجيا .

وكما جادل فوكو فى تحليله لعلم الأجناس إلى معاملة المجانين وممارسة السلطة على الجسد الإنسانى، فإن التاريخ خطاب مركزى يعطى الأمثلة على ممارسة السلطة ويصادق عليها. وسلطة التاريخ تكون فى أعظم إمكاناتها عندما تكون بأيدى المؤرخين المحايدين، وهى تعمل على كشف الحقيقة الموضوعية عن الماضى كما كان بالفعل. وما يفعله مثل هذا التاريخ فى متابعة هذا التأكيد أن يقدم رواية عن الماضى من خلال ما أسماه هوايت تشكيل اللغة والاهتمام الثقافى بالذات. كيف يترجم الدليل أو يتم سرده فى حقائق المؤرخ أمر أساسى لممارسة السلطة - وهو ما حدده هوايت بأنه «الحسم الاصطلاحى» لأشكال الكلام(١٠). هذا العجز الأساسى من جانب المؤرخين عن الوصول إلى حقيقة الدليل ليس فى الواقع تجربة موهنة، وبالأحرى فهى تسمح بفضاء لفتح ما لا يمكن ملؤه لأغراض أيديولوجية بهذا القدر من السهولة. وعدم اليقين فى التاريخ إنما هو شكل من أشكال الحماية ضد ما هو صحيح سياسيًا، أو خطأ، صواب، أو غلط. واليقين السياسى، فى رأيى دائما ما يثير الشك. وموقف الوعى التفكيكى أن التاريخ ليس ملخصًا للحقيقة التى تبرز من الدليل سوف تغضب فقط عددًا قليلاً من المؤرخين السذج بصفة خاصة. بيد أن قلائل فى التيار السائد سوف يقبلون أنه عندما نكتب التاريخ فإننا نخلق صنعة كلامية/ نصية تولد ما أسميته حقيقة «تاريخية» - الحقيقة أو أثر الحقيقة. ولن يقبلوا أن حقيقة الماضى تكمن فى أثر الحقيقة أو قبول القصص التى يحكونها على أنها تاريخ، وإنما سوف يصرون على أن الدليل يجب أن يبقى القياس النهائى والمطلق للحقائق .

نظريات التاريخ : بناء الماضى

فى الإجابة على السؤال عن بناء الأطر الاجتماعية (أو البلاغية) التى نستفسر بها عن الدليل، يعترف الموقف التفكيكى بهذا على أنه مفروض من جانب المؤرخ. وشكوك الإمبريقيين السذج بشأن المقاربات النقدية للفهم التاريخى موضحة بشكل فضفاض فى نفورهم من فلاسفة التاريخ المثاليين والنسبيين من أمثال كولينجوود، وكروتشه، وبيرد، وبيكر، وكار، تماما مثل العدد الذى لا يحصى من المؤرخين البنيويين المتأثرين بالماركسية من المؤرخين الحتميين الاجتماعيين والثقافيين، ولكن فى وقت أحدث للسرديين الذين يتدرجون من ميشيل فوكو، وهايدن هوايت، ودمينيك لا كابرا، إلى لويس منيك وفرانك أنكرسميت . والرابطة المشتركة بين هؤلاء المؤرخين النسبيين تتمثل افتراضهم ليس فقط أنهم فى حوار استفهامى مع الدليل وإنما أنهم يؤيدون التدخل مباشرة فى النص التاريخى. وبطرقهم المختلفة، يعترفون جميعًا أن الماضى «يصبح» تاريخًا «فقط» عندما يتم بناؤه من خلال مصفاة استراتيجيات المؤرخ فى الشرح . وكموقف عام، يقبل مؤرخو التيار السائد النسبية الفطرية فى البنيوية، ويتوقفون عن أخذها إلى خاتمتها التفكيكية التى تفارق أساس الإمبريقية بصورة فعالة.

يفهم البنيويون أحداث الماضى من خلال تنويعة من المناهج، حسابية وإحصائية، مستخدمين تعميمات أنثروبولوچية واجتماعية ذات طبيعة استنباطية كقوانين تغطية، حتى إعادة التفكير كولينجوود التقمص فى الماضى. بينما يقدم الدليل بالنسبة لأنصار إعادة بناء الماضى، الحقيقة من خلال فحص أدق تفاصيله، فإنه بالنسبة للوضعيين ينال مكافأته من خلال القوة الرافعة للنظرية المناسبة . وبالنسبة للتيار الرئيسى، هذا الطرفان ثم التوفيق بينهما على يدى كار فى رأيه الشائع، ولكنه من وجهة نظر التفكيكيين، رأى غير مقنع بأنه بينما المؤرخون هم الذين يكتبون التاريخ ويخلقون نماذج التفسير، فإنهم يفعلون ذلك وفقًا لإملاءات الدليل. ويعنى منهج كار أن العملية المستمرة للتبديل السريع بين النص والسياق دائما توجهها البنى والنماذج، التى تقدمها النظريات، والنماذج، والمفاهيم عن الطبقة، والعرق، والنوع، وهلم جرا، التى يمكن أن نجدها فى الدليل . بالنسبة لكار يقترح الدليل نماذج تفسيرية مناسبة للسلوك الإنسانى التى سوف تسمح آنذاك بالمزيد من التفسير التاريخى الصادق . ومعظم المؤرخين فى التيار السائد ربما قد يقبلون هذا الوصف لما يفعلونه .

وعلى أية حال، فإنه بسبب أن تحديد الخط الفاصل بين ما ينتهى عنده الإمبريقيون وما يبدأ به الاختبار للفروض عادة ما يكون من الصعب تماما حسابه، فإننا نقبل بشكل متزايد فكرة أن المؤرخين ينشطون دائما فى خلق الماضى من خلال بناء النماذج، إذن فلماذا يكون من غير المعقول أن نأخذ فى الحسبان حبكاتنا السردية الصورة مسبقا، ومجادلاتنا ومدلولاتها الأيديولوچية ؟ وعلى الرغم من أن مؤرخى إعادة بناء الماضى المتشددين بصفة خاصة يتمسكون بأن القرارات الأخلاقية ليس لها مكان فى إعادة بناء الموضوعية للماضى. فإننى سوف أجادل بأنه بسبب عدم وجود تاريخ مكتوب خال من الحبك المصور سلفًا وبدون مجادلة، أو وضع أخلاقى ومعنوى، فإن فهما أكمل للماضى لا يمكن أن يبرز سوى عندما يكون الدور الفرضى للمؤرخ مقدراً تمام التقدير باعتباره دور مؤلف أكثر منه دور راو .

والبنيوية المؤسسة إمبريقيا تضم اليوم الكثير من الأساليب الجديدة من التحليل ووضع السياق المطلوبة من العلوم مثل علم الاجتماع والأنثروبولوچيا . ويشهد وصف جون توش للتاريخ بوصفه نتاجًا للفروض لكى «يتم اختبارها فى ضوء الدليل» بتعقيدات تاريخ التيار السائد اليوم. بيد أن التاريخ قد فجر ضفاف التيار السائد كما يحاول كثير من المؤرخين أن يسدوا الفجوة بين الحقيقة والخيال باستعارة أساليب التحليل من النظرية النقدية الأدبية ورؤية التاريخ باعتباره موضوعا أدبيا. وعلى الرغم من أن تعليقات لورنس ستون قد ألقيت على أنها مخاوف، فإنها دليل أكثر من كاف على هذا التطور. ويبدو لى أن المؤرخين ينبغى أن يتحركوا فى هذا الاتجاه، أكثر من كونه سببًا للقلق، خاصة إذا ما أخذنا اعتراف فيليب كاراد فى الحسبان بأنه ليس حتى أكثر المؤرخين البنيويين تأثرا بالوضعيين يمكنهم الهروب من قوة السرد والحبك- فالكتابة بدون مجاز أمر يصعب القيام به (١١).

وكما حاولت أن أشرح، فإن التأكيد على الدور التكوينى لسرد المؤرخ يُستمد من نظراتنا الفاحصة فى طبيعة اللغة والطبيعة الاعتباطية للعلاقة. ويعتمد السرد التاريخى على البلاغة بقدر أكبر من اعتماده على المجادلة المنطقية، ويعمل بواسطة الرابطة المتداعية بين الدال، والمرجع لإنتاج وهم أن اللغة تمثل أحداث الماضى أو تتواصل معها بشفافية، وبهذا تظهرها فى «ضوئها الطبيعى» كما أن النماذج التى نضعها يتم

إنتاجها بطريقة مماثلة . عند هذه النقطة يكتسب نموذج هايدون هوايت، الذى صور السرد التاريخى مسبقًا بصورة مجازية، أهميته. وما إن نبتعد عن مفهوم الرابطة الصافية بين الكلمة والعالم، بحيث نراها على أنها مجاز عن الحقيقة، فإننا نستطيع أن نبدأ فى تقييم أهمية إستراتيجيات السرد التى يشير هوايت إلى أنها تساعد فى التفسير التاريخى.

والنقطة التى تفترق عندها التفكيكية عن البنيوية تتمثل فى إصرار البنيوية على أنه لا يمكن أن نحكى الأحداث المنفصلة وفهمها سوى بالإشارة إلى سرد كبير تفسيرى مثل قانون التغطية، أو تعميمات بشأن السلوك الإنسانى الذى يتخذ عادة فى مواقف أو سياقات مادية معينة. وبهذا المعنى فإن البنيوية «المسبقة» تنتزع القليل من الإقناع فى الذهن التفكيكى كما تفعل فى ذهن مؤرخى إعادة بناء الماضى. والبنيويون يزعمون فى الواقع أن الحقيقة تظهر بصورة أكثر واقعية من خلال نظريتهم الاجتماعية الخاصة المستمدة إمبريقيًا من ظهورها من خلال استرداد التفاصيل الدقيقة فى عملية إعادة بناء الماضى، أو بخصوص هذه المسألة، من خلال انشغال التفكيكيين بحقيقة السرديات . وعلى الرغم من مغازلة فوكو لمدرسة الحوليات، فإن قصده تقويض التركيز على الكلمة، كما جادلت، سرعان ما تمثل فى نموذجه عن الحقبة المعرفية المبنية بلاغيا واجتماعيًا. لقد كان هدفه أن يضع الوسيلة التى تنتج المعرفة بواسطتها لغويا داخل المجتمع . وقد حوله بحثه إلى اتجاه القواعد التاريخية للتغير التاريخى . وبعمل هذا، بخلاف معظم المؤرخين الذين يرون التغير على مرّ الزمان على اكتشاف توضيح زمنى طولى عن سرد متماسك أو عملية ارتباط متبادل، يرى فوكو هذا على أنه شبكة أو بناء متزامن لعلاقات القوى، هدفها خلق المعرفة، والمعرفة التاريخية بصفة خاصة. وحسبما يصرُّ، فإن التاريخ ليس بشأن اكتشاف الحقيقة وإنما بشأن الخلق الأدبى والنصى للمعرفة بغرض ممارسة السلطة أو لمواجهة مثل هذه الممارسة كشكل من المعارضة الأدبية. فى هذه الحال فإننا نحن المؤرخين، مثل الناقد الأدبى أو أى مفكر ملتزم علانية، نكون مشتبكين فى شبكات من المعنى خلقناها نحن والمجتمع- إذ إن المعرفة التاريخية تكون دائما متضمنة فى الخطاب والثقافة .

وفوكو، مثل هوايت، يعول على تقاليد ڤيكو ويفترض أن التغير التاريخى ينتج عن

التفاعل بين الوعى الإنسانى وسياقه الاجتماعى والطبيعى، وهذا يجعل الصنائع الأدبية والثقافية، مثل تاريخنا المكتوب، أكثر قليلا من إضفاء العقلانية بعد فوات الآوان على البشر الذين يتفاعلون فى المواقف الاجتماعية. هذه الرؤية الثاقبة الأصلية لفوكو، المبنية على أساس عجز البشرية دوما عن الفهم الكامل العالم الطبيعى مثلما نستطيع أن نعرف إبداعاتنا الاجتماعية، قد ألهمت الكثير من التنظير الاجتماعى العلمى. ولكن وضعية غالبية المؤرخين البنيويين، خاصة منظرى المرحلة مثل الماركسيين، يتجاهلون بالفعل رؤية فيكو بأن التاريخ، باعتباره فنا أدبيا، يحتاج بالضرورة مقاربة مفاهيمية متمايزة لتحليل الظواهر الاجتماعية والإنسانية فى الماضى، مختلفة تمامًا عن الاستنباطية التى تميز دراسة عوالمهم الطبيعية أو الاجتماعية.

مثل فيكو، يقبل كل من هوايت وفوكو القوة الخلاقة للغة. والطريقة المركبة التى نستخدم بها اللغة وتستخدمنا اللغة بها للتوسط فى حقيقة الماضى تشير إلى أنه ليس هناك أى قدر من اختبارات الفروض فى العلم الاجتماعى المعقد يمكن أن تتجنب العلاقة المتفاعلة بين المؤرخ، والكلمة والعالم. والسرد ليس ببساطة تقديم عالم حقيقة الماضى، إعادة إنتاج للأشياء والعلاقات الكائنة بينهم. وبينما تستخدم اللغة بواسطة التيار السائد من المؤرخين كما لو كانت قادرة على إعادة الإنتاج، فإنها بصفة أولية وسيط مبتكر له قوة ابتكار وخلق معرفتنا عن الماضى. وكل من هوايت وفوكو، مثل فيكو قبلهما، وجد هذه القوة التفسيرية للسرد فى طبيعته الاستعارية والمجازية.

السرد

لقد جادلت لصالح السرد بوصفه الجهاز المعرفى الأولى للتاريخ الذى يعمل فى ذهن المؤرخ وهو يتخيل، ويشكِّل، ويقدم الماضى. وحبك التاريخ كقصة، بحججه الداعمة واستراتيجياته الأخلاقية فى التفسير، إنما هو شكل مركب للغاية لشرح التغير التاريخى، بيد أنه ليس التاريخ كما حدث بالفعل. أما كيفية تصوير الماضى فتتوقف على قدرة المؤرخ على مجاراة نمط من حبك الأحداث التاريخية التى يرغب فى أن يسبغ عليها معنى من نوع بعينه . والشرح السردى أكثر من تسجيل فيض من الأحداث وفق

نظام حدوثها . وتعريف ليمون «حدث هذا، ثم حدث ذلك» يشير إلى المستوى المعقد للتفسير الذى يعقب بسرعة مجرد التتابع . ووظيفة المؤرخ، التى لاحظ جاللى أنها جوهر الفهم التاريخى، أن يقدم قصة يمكن متابعتها . مثل إمكانية المتابعة هذه تبرز عندما تكون القصص التى يحكيها المؤرخون متماسكة وتبدو مقبولة فى ضوء الأدلة المتاحة. وحقيقة الماضى لا توجد بالفعل فى الرخام غير المنحوت، متطلبًا فقط مهارة المؤرخ فى كسره لكشف الشىء الموجود بداخله . هذا بالتأكيد موقف هوايت، ولكن يمكن مجددًا أن نطرح السؤال: هل هناك سرد فى الماضى لكى يعاد حكيه؟

حتى مع أن كولينجوود وكار اعترفا بوجود تفاعل مستمر بين المؤرخ والأحداث الموصوفة، فإنهما كانا ما يزالان غير مرحبين نهائيا بقبول أن التاريخ الناتج كان عملا خياليا فى البداية. وبالنسبة لهم ولآخرين، أحدثهم ريتشارد ?ان، فإن مجادلة هوايت أن التاريخ صنعة أدبية تم تصويرها مجازيا مسبقا، قصة مخترعة بقدر ما هى موجودة، تبقى غير مقبولة لأنه بدون مرساة المعنى الحاسم التى ينبغى اكتشافها فى الدليل، لا يمكن للحقائق أن تبرز وليس هناك معيار يمكن قياس صدق تلك الحقائق عليه . وهم يأخذون بحماسة تعليق لويس مينك «إذا كانت هناك حبكات بديلة قائمة فقط على تفضيل أحد المجازات الشعرية على مجاز آخر، إذن لا تبقى هناك طريقة للمقارنة بين بناء سردى وآخر فيما يخص مزاعمها بالحقيقة كسرديات»(١٢) بيد أن قبول مجادلة مينك يجب ألا يعمينا عن الطبيعة الإشكالية للعلم الذى نعمل فى رحابه . والعقيدة الإمبريقية الأساسية أن الحقيقة «موجودة هناك» تبقى الشائبة الأساسية التى تشوب فهمنا لما نفعله، وكيف نفعله . والتاريخ بوصفه خطابًا مكتوبا لا يقف موقف اللا مبالاة إزاء القوى التى تخلق الماضى. ولأن الماضى لا يمكن استعادته، فإنه سجله المكتوب الثانى مهم على الأقل لفهمنا التاريخى بقدر أهمية الدليل على الماضى نفسه. ووسيلة وصولنا الوحيدة إلى الماضى تكون من خلال السرد التخيلى والعمليات الفكرية المسجلة فى الصياغات المجازية، والنظرية التى تمدنا بالأساس الجذرى والواعد لتصنيف الخيال التاريخى فى أي حقبة معرفية معينة(١٣).

والقدرة الإنسانية على الصياغة المجازية مركبة . وقد أوضحت كيف تعمل الصياغات المجازية فى تخيلات المؤرخين بالتخفيضات والاندماجات لتقديم طبيعة

التغير فى الماضى. والنقطة المهمة فى منهج فوكو التاريخى هى الطريقة التى يمكن بها رؤيته على أنه يأخذ الأساس المجازى إلى الوعى الإنسانى على أنه نموذج نقسيم من خلاله كيف يبرز التاريخ من التبادل بين الواقع واللغة، أو كما يصف هوايت العلاقة بين «التحولات فى المجتمعات والتحولات المجازية فى الكلام»(١٤). بهذاالأسلوب يبدو من المعقول بالنسبة لى أن أجادل أن السرد، باعتباره الوسيط اللغوى للوعى الإنسانى، ربما يسهِّل التغير التاريخى بمرور الزمن، وليس فقط وصفنا له . ويقدم فوكو وهوايت، سويا، العملية التصويرية كنموذج يعيش التغير التاريخى من خلاله وتدب الحياة فيه ويمكن شرحه .

وقد جادلت أنه بسبب أن النموذج المجازى للسرد هو الذى يؤطر تفسير الأحداث، وليس العكس، فإن الفهم التاريخى يكون نتاج الصنعة الأدبية بقدر ما هو واقع تاريخى يمكن معرفته . ورفض نظرية التواصل لا يعنى أننا أحرار تمامًا فى أن نختار أي مجاز – حبك– مجادلة – ترتيب أيديولوجى للدليل، ثم نمضى إلى نسخة تاريخية نهائية ما من التفكيك الأدبى تسمح بفرض أى معنى على الماضى بينما تتنصل من أى مسئولية عن هذا . ما لدينا بدلاً من ذلك اعتراف بأن هناك درجة قوة من التناقض بين عملية التصوير المسبق الذهنية والدليل، بقدر كون كل قطعة سردية بالفعل تفاعلاً بين النصوص كان قد تم تفسيرها من قبل وصياغتها فى نص من جانب مؤرخين آخرين يعملون داخل نطاق الأرشيف والحقبة المعرفية التى يحيون فى رحابها . ولا يمكن لأى مؤرخ أن يعمل فى ظل الجهل بالتفسيرات أو الحبكات السابقة للأرشيف.

والواقعية الساذجة لا تلاحظ بشكل كاف القوة الكبيرة للغة على الوصف والاختراع . والإمبريقية بالضرورة تبيع التاريخ بثمن بخس . وعلى حد قول هوايت، «إن اللغة تستخدم لكى تصف مجالاً من الحوادث التاريخية تشكل المجال نفسه فى حقيقة الأمر»(١٥) . وكون هذه القوة الكبرى للغة تكمن فى بنائها المجازى والتصويرى يمكن أن يفهم من خلال التوضيح . ذلك أن مقارنة تيودور روزفلت، عند عودته من رحلة صيد كبيرة فى أفريقيا سنة ١٩١٠م، بالمذنب هالى (الشهاب هالى) تفسير تاريخى مشروع، نستنتج من خلاله أن روزفلت كان مشابهًا لقوة هائلة من قوى الطبيعة (فنيا هذا مجاز مرسل استخدم ليدل على ماهية شخصية روزفلت). ولكن، بينما يشرح هذا

الوصف روزفلت ويفسره، فإنه لا يربط بأي طريقة اللغة التى يستخدمها المؤرخ فى وصفه بالأحداث التى يناقشها(١٦). وليست هناك صلة طبيعية بين تيودور روزفلت والشهاب. فى مسار استخدام هذه الصورة، يرسم المؤرخ بحيوية صورة لروزفلت تعيده إلى الحياة وتضعه داخل سياقه (الشهاب هالى ظهر ١٩١٠م) . وهو يقيم الدليل أيضا على رأى هوايت بأن السرد التاريخى «لا يصور الشئ الذى يشير إليه؛ إنما يستدعى إلى الذهن صورا للأشياء التى يشير إليها»(١٧) وبعبارة أخرى، لا يمكن للمجاز أن يشكل صورة حقيقية للشيء الذى يتطلع إلى وصفه، ويقدم بدلا من ذلك خريطة معرفية للقارئ لكى يجد الصور المناسبة (والتفسيرية) التى ترتبط بهذا . والمقارنة بين تيدى روزفلت والشهاب هالى ليست مرجعية ولا حتى تشبيهية، ولكنها تبقى ذات معنى بسبب سمتها الشعرية. ويتولي تأثير الحقيقة مباشرة الأمر- لا لهدم لحقيقة وإنما لخلق المعنى.

ونرى تأثير التاريخ التفكيكى اليوم فى القبول الواسع لأن الماضى، بوصفه تاريخا مكتوبا، نتاج نصى لعصره، وإذا ما أخذنا فى الحسبان الدور التنظيمى المركزى للمؤرخ، فهو متأثر حتما بمتطلبات التقديم الأيديولوچية والتوزيع السارى للقوة. ومن المقبول على نحو متزايد أن المؤرخ، من خلال وصفه السردى، متورط تماماً فى أي تقديم مكتوب للماضى . وعدد قليل يرون التاريخ على أنه مسألة إتباع الدليل مثل اقتفاء آثار الأقدام على رمال الزمن صوب الحقيقة. واليوم يشعر المزيد والمزيد من المؤرخين أنهم أسعد حالاً لا يسألون فقط كيف فهم الفاعلون التاريخيون حياتهم والأحداث التى شكلتهم، ولكن كيف يمكن لهؤلاء المؤرخين - المراقبين أن يبنوا مرة أخرى وجهة نظرهم الذاتية فى العالم ويشرحون أفعالهم ؟ أين ينحرف التيار الرئيسى عن التفكيكية ليس فوق حقيقة أن التاريخ يهتم أولا بالمجادلات بين التفسيرات السردية، ولكن على الإصرار التفكيكى بأن الموضوعية يستحيل تحقيقها. والتيار الرئيسى لن يقبل بأن الخطوة التفكيكية التى تقدم «الإنسان (أفعاله، أفكاره، سلوكه، قراراته) على أنها ما يبحث عنه التاريخ ؛ ويجب على المؤرخ بشكل حتمى ولا يمكن تجنبه، أن يعطيه شكلا بأن يخترع، مثلا، البروليتاريا، المرأة المجردة من حقوق المواطنة»، «أصول الإحياء الأمريكى»، «قرن من الحرب» ؛ «١٩٢١م: نهاية المثالية السوڤييتية»، «الآخر»

فيما بعد عصر الاستعمار، أول أمة صناعية، الثورة الأمريكية الثالثة، عصر التوازن بين القوتين العظميين، العم توم زعيم العرق، أو أبو الأمة . كل هذه أشياء خلقها التخيل التاريخى لأنه فيما يبدو لا يمكن أن يمسك حقائق الماضى ويعيد إنتاجها. وكما أوضح ميجيل، لا يوجد قدر من التلويح الإمبريقى بالأعلام يمكن أن ينكر أن التاريخ المكتوب يتطلب شكلا من التفسير بلا سياق، وهو ما يسميه أنكر سميث تكوين شىء لغوى، ويسميه هوايت «البناء التحتى الشعرى» للتاريخ المكتوب.

خاتمة

وهكذا، عودة إلى السؤال الذى طرحته عند البداية : إلى أى مدى يكون التاريخ، بوصفه نظاما تعليميا، الاستعادة الدقيقة والتمثيل المضبوط لمحتوى الماضى، من خلال شكله السردى الشائع ؟ وكانت إجابتى أنه بوصفه وسيلة المؤرخ للتفسير التاريخى، يجب أن نحكم على كفاية بنائه السردى داخل النقد ما بعد الحداثى الأوسع لطبيعة اللغة ومعناها. والمغزى الأكبر هو أن التاريخ لا يمكن أن يكون أكثر، ولا أقل، من تمثيل للماضى. مثل هذا المفهوم يرفض صراحة التاريخ المكتوب بصفة أولية باعتباره علما إمبريقيا ينطوى موضوعياً على تقديم حقيقة تاريخية ماضية مفترضة . والموضوع هو طبيعة التمثيل، وليس عملية البحث الإمبريقية بحد ذاتها. والمشكلة هى التحذير ضد الاعتقاد بأننا يمكن حقا أن نعرف حقيقة الماضى من خلال تمثيله النصى. ولا يزال هناك تيار قوى للتاريخ فى شكله السردى لأن يصير حقيقيًا أكثر من الواقع، مثل التجربة الأمريكية الحدودية التى مثلتها دراسة فردريك جاكسون تيرنر عن الحدود . وبالنسبة للأمريكيين صار هذا التاريخ «مهما جداً بوصفه مجازا عن الفردية الأمريكية والديموقراطية بحيث أخذت بعدا جوهريا ولكنه أسطورى تمامًا» . وبينما يصير نص التاريخ حقيقيًا أكثر من التاريخ نفسه، تتلاشى المفاهيم التقليدية عن الحقيقة والمرجعية والموضوعية التى تبعث بشكل متناقض على علو مكانته على أنه حقيقة تاريخية .

إن الماضى ليس مكتشفا ولا موجوداً . إنه مخلوق ومعروض من جانب المؤرخ فى صورة نص، يستهلكه القارئ بدوره . ويعتمد التاريخ التقليدى من أجل قوته على

الشرح مثل تمثال موجود من قبل في الرخام . بيد أن هذا ليس التاريخ الوحيد الذى يمكن أن يكون لدينا . ذلك أنه باستكشاف كيف نقدم العلاقة بين أنفسنا والماضى فربما نرى أنفسنا لا باعتبارنا مراقبين منفصلين للماضى وإنما، مثل تيرنر، مشاركين فى خلقه . والماضى معقد وصعب بدرجة كافية بدون خداع النفس بأن المزيد من النضال مع الأدلة يقربنا أكثر من الماضى. وفكرة الحقيقة التى تتم إعادة اكتشافها فى الأدلة مفهوم حداثى من القرن التاسع عشر، وليس لها مكان فى الكتابة المعاصرة عن الماضى.

دليل إلى مزيد من القراءة

تبين الملاحظات والهوامش المرجعية المصادر والفكر وراء مجادلاتي واستنتاجاتي. هذ الدليل القصير قصد به أن يضع علامة - حيث يمكنك أن تتحول بحثا عن دراسة أكثر تفصيلا للموضوعات الرئيسية التي طرحها المؤلف ، وعن ماهية التاريخ والتيارين الرئيسيين في المنهج التاريخي، والتحدي التفكيكي الذي يواجهها. ونبدأ بالمنهج التجريبي التقليدي في التاريخ . التجريبي التقليدي في التاريخ. والمبادئ الأساسية في هذه المدرسة لاتزال ثابتة في كتاب إلتون (The Practice of History الصادر في لندن ١٩٦٧م) وتقريره لعقيدة التجريبية المحافظة في كتاب Return to Essen-tials (Cambridge University Press, 19991)، وثمة أرضية ثابتة في المقاربة التقليدية لإعادة بناء الماضي تتمثل ، كما هو الحال دائماً ، فيما قدمه آرثر مارويك في كتابه الذي يحمل عنوان:

The New Nature of History: Knowledge, Evidence, Language (Houndmills, Palgrave, 2001)

الذي كان بحق واحداً من أكثر التقديمات للتاريخ في صورة مهنة انتشاراً . وهناك دفاع ماركسي مستميت عن :التاريخ الصحيح» قدمه بريان بالمر في كتابه :

Descent into Discourse: The Reification of Language and the Writing of Social History (Philadelphia, Temple University Press, 1991).

وإذا ما تحركنا أكثر صوب المركز التجريبي نجد كتاب توش الشهير :

The Pursüt of the History (London, Longman, third edition , 2001).

وكتاب بيتر تشارلز هوفر ووليم ستويك :

Reading and Writing American History : An Introduction to the Historion's Craft (2 vols . Lexington, D.C. Health, 1994).

والعنصر الواقعي العملي في التيار الرئيسي المعتدل يستمر يقدمه باقتدار جيرزي توبولسكي:

"Towards an Integrated Model od Historical explanation" History and Theory, vol . 30 .pp. 324 - 338،No 3, 1991،

وجويس ابلبى ولين هنت ومارجريت جاكوب فى كتابهن:

Telling the Truth About History (New York , Norton, 1994)

ومن المفيد جداً كذلك باعتباره مقدمة عامة كتاب آناجرين وكاثين تروب :

The Houses of History : A Critical Reader in Twentieth century History and Theory (Manchester, Manchester Unvirsity Press, 1999) .

ولا يزال جديراً بالقراءة ، على الرغم من أنه يؤخذ على أنه إلى حد ما أكثر نسبية فى مقاربته لخلق الماضى كتاب كار :

Whats History (London , Penguin, Second edition 1987).

وفى مواجهة تحدى ما بعد الحداثة والتفكيكية للنموذج التقليدى تبقى مقالة جرترود هيملفارب:

«Some Reflections on the New History." American Historical Review, vol . 94 ، No.3, June, 1989, pp. 661-670.

أنظر أيضا أيا من السلسلة المتوالية للمسح الحديث والذى يسهل الوصول إليه تماماً للنصوص التى تتضمن لوديلا جوردانوفا وكتابها .

History in Practice (London, Arnold، 2000).

ومارى فولبروك Historical Theory (London، Routledge، 2002)

والمجموعة التى جمعها بيتر لاميرت وفيليب سكوفيلد بعنوان :

Making History : An Introduction th the History and Practices of a Discipline (London and New York, Routledge, 2004).

انظر أيضا التقديم القيم وواسع المدى الذى يطرحه ستيفان برجت ، وهيكو فيلدنر وكيفين باسمور فى كتاب:

Writing History: Theory and Practice (London , Arnold, 2003)\

والمقاربة «التجريبية الجديدة» تمت خدمتها للغاية بفضل المجموعة التى حررها جابرييل. سبيجيل بعنوان:

Practicing History : New Directions in Historical Writing After the Linguistic Turn (New York and London , Routledge, 2005).

ومقالة كارلا هسى

«The New Empiricism» Cutural and Social History vol . I. No. 2. 2004. pp. 201-208 .

وهناك بالإضافة إلى هذا السلسلة التقديمية التى تقدم مسحًا للكتابات فى الموضوع وتحمل عنوان Theory and History، والتى يحررها دونالد ماكريلد، التى تتضمن وتحمل نصوصًا عن جوانب محددة من التاريخ . أنظر ، مثلا ، كتاب مات بيرى :

Marxism and History (Houndmils, Palgrave, 2002).

وستيفن دافيز:

Empricisim and Hisotry (Houndmills, Palgrave, 2003) .

والبنيوى ويللى ثومبسون فى كتابه :

Postmodernism and History (Houndmills, Palgrave, 2004)

وكتاب دونالد ماكريلد وأفرام تايلور

Social Theory and Social History (Houndmills, Palgrave 2004.

وألون مونسلو

Narrative and History (Houndmills, Palgrave, forthconing).

وهناك مسح أساسى لتنويعات التاريخ يمكن وجودها فى كتاب حرره جاردنر :

What is History Today (London, Humanities Press International, 1988).

على الرغم من أن كتاب ميشيل بنتلى :

Companion to Historiography (London and New York, Routledge, 1997).
أكثر موسوعية إلى حد ما . انظر بالإضافة إلى هذا الكتاب الذى حرره دافيد كنادين :

What is History Now (Houndumills,, Palgrave, 2002).
الذى يقدم مجموعة ممتازة من الأفكار الجديدة عن طبيعة علم التاريخ، على الرغم من أن التوجه العام هو ، لسوء الحظ، يتشكك فى المقاربات التفكيكية.
ودفاعًا عن الأساس الفلسفى لمقاربة إعادة البناء لا تزال المنطقة الخاصة للصوت الرائد لبيهان ماكولاف فى كتابه :

Justifying History Description (Cambridge, Combridge University Press, 1984).
وفى زمن أحدث كتابه الذى يحمل عنوان :

The logic of History, Putting Postmodernism in Perspective (London and New York, Routledge 2004).

وانظر كذلك كريس لورنز
"Can Histories be true: Narrativism, Positivism and the Metapharical Turn", History and Theory, vol 37, no.3, 1998, 309-329.
وانظر له أيضا :
«Historical Knowledge and Historical Reality: A Plea for Historical Realism» History and Theory, vol 33, no. 3, 1994, pp. 297-327.
وربما يكون أفضل التقديمات العامة إلى المناهج المتاحة فى التاريخ اليوم هو كتاب ميشيل ستانفورد

A Companion to the Study of History (Oxford, Basil Blackwell, 1994).
وكتابه الأحدث

An Introduction to the Philosophy of History (Oxford, Blackwell Publishers, 1998).
وأيضا كتاب له قيمة خاصة هو الكتاب الذى حرره روبرت بورنز وهيو رايمنت- بيكارد:

Philosophies of History: From Enlightenment to Postmodernity (Oxford, Blackwell Publishers, 2000).
وبالإضافة يوصى تماما بكتاب ليمون

Philosophy of History : A Guide for Students (London and New York, Routledge, 2003).

والاستكشاف الاكثر شمولاً للتطور الحديث فى التاريخ الأمريكى واهتماماته المنهجية يتمثل فى كتاب بيتر ماروبك بعنوان :

That Noble Dream : The Objectivity Question «and the American Historical Profession (Cambridge, Cambridge University Press, 1988).

ولكن كتاب ديفيد هارلان

The Degradition of American History (Chicago, Chicago University Press, 1997).

له أهمية فريدة :

ونجد النقاش حول الموضوعية التاريخية فى هيئة مجلة Amercian Historical Review فى مقال عنوانه :

«The Objectivity Question and the future of the Historical Profession» Amercian Historical Review, vol 96 , No . 3, June, 1991 , pp. 675-708.

وثمة نصوص فى الفلسفة الأكثر عمومية للتاريخ حيث تتم دراسة قضايا مثل الموضوعية، والحقيقة ، والمعنى تتضمن كتاب وليم والسن:

An Introduction to Philosophy of History (London , Hutchinson , third edition , 1967).

والكتاب الذى حرره وليم دراى:

Philosophical Analysis and History (New York , Harper and Row, 1966).

وكتاب ليون جولدشتين

Historical Knowing (Austin University of Texas Press 1976).

وكتاب مارك بيفير :

The Logic of the History of Ideas (Cambridge, Cambridge University Press, 1999).

وعلى الرغم من أن عدداً متزايداً من النصوص المنشورة فيما بين تسعينيات القرن العشرين وأواخر هذا القرن قد حاولت أن تنتقل إلى « ما وراء» التحول اللغوى، فإن الأمثلة الوحيدة على الاعتراف بهذا التحول تتمثل فى كتاب :

Dominik Lacapra and Steven Kaplan , Modern European Intellectual History : Reappraisals and New Perspectives (Ithaca, Cornell University Press, 1982) .

وكتاب لين هنت

The New Cultural History (Berkeley, University of California Press, 1989).

والكتاب المفيد أيضا مع أنه محل نقد من هايدن هوايت كتاب سول فريدلاندر:

Probing the Limits of Representation : Nazism and the Final Solution (Cambridge, Massa chusetto, Harvard University Press, 1992).

وفى العقد الماضى أو نحو ذلك، ظهرت نصوص مفيدة منها كتاب ميكائيل روث:

The Ironist's Cage: Memory , Trauma, and the Construction of History (New York, Columbia University Press, 1995).

وكتاب ديفيد روبرتس:

Nothing but History: Reconstruction and Extremity after Metaphysics (Berkeley, University of California Press, 1995).

وكتاب روبرت بيركهوفر :

Beyond the Greadt Story : History as Text and Discourse)Cambridge, Massachusetts, Harvard University Press, 1995) .

وكلايتون روبرتس فى كتاب :

The Logic of Historical Explanation (University Park, Pennsylvania State University, 1996) .

وكتاب روجر كارتييه:

On the Edge of the Cliff: History, Language and Practice (Baltimore and London John Hopkins University Press,1997)

وكتاب جورج إيجرز

Historiogrphy in the Twentieth Century (Middletown Wesleyan University Press, 1997).

وكتاب ميجيل كابريرا:

Postsocial History : An Introduction (Lanham, Leexington Books, 2004).

وكتاب دى كارفلين ومكاريل:

The Ethics of History (Evanston, North Western University Press 2004).

وثمة موضوع مهم عن التاريخ غير التقليدى فى:

History and Theory, vol. 41, 2002.

وهناك صوت مهم فى الجدل حول فائدة التاريخ فى العقد الماضى كان صوت بيفرلى ساوثجيت الذى كتب عدداً من النصوص المهمة منها :

History : What and Why? (London, Routledge , 1996); Why Bother with History ? (Harlow, Pearson, 2000) ; Postmodenism in History : Fear or Freedom? (New York and London, Routledge, 2003).

وفى زمن أحدث نشر كتاب:

What is History for ? (London and New York, Routledge, 2005).

ومنذ سنة ١٩٩٧م حتى الوقت الحالى فإن مجلة :

Rethinking History : The Journal of Theory and Practice.

كانت فى طليعة «الموجة الجديدة» لطرق ما بعد الحداثة والطرق التجريبية فى التعامل مع الماضى .

وعن العلاقة العامة بين ما بعد الحداثة باعتبارها حركة فكرية وكتابة التاريخ، انظر كتاب ستيفن بان .

The Clothing of Clio: A Study of the Representation of History in Nineteenth Century Britain and France (Cambridge, Cambridge University Press, 1984).

وكتاب ديريك اتريدج وجيوف بنتينجتون وروبرت يونج:

Post- Structralism and the Question of History (Cambridg, Cambridge University Press, 1987).

وكتاب ديفيد هارفى :

The Condition of Postmodernity: An Enquiry into the Origin of Cultural Change (Oxford, Basil Blackwell, 1989).

وعن التاريخ الثقافى فيما بعد الحداثة انظر جويس آلبى وآل :

Knowledge and Postmodernism in Historical Perspective (London , Routledge, 1996) .

الذى يقدم تقديمًا ممتازًا للنصوص الرئيسية مع نصوص أخرى لنيتشه ، وريكور، وهوايت، وفوكو، ودريدا، ورورتى. والمقدمة الأكثر حداثة والأعلى تقييما إلى الموضوعات التى تجابه التاريخ من منظور ما بعد حداثى هو كتاب كاللوم براون :

Postmodernism for Historians (Harlow . Pearson Longman, 2005) .

ولكن من المفيد أيضا فى النص الحديث الذى كتبه آلون مونسلو :

The New Future of (Harlow, Pearson Longman , 2003).

وثمة كتاب يتخذ موقف المعارضة ، هو كتاب إيرنست بريساش:

On the Future of History: the Postmodemist Challenge and its Aftermath (Chicago and London, University of Chicago Press, 2003).

والمجموعة التى تتسم بأنها توضيحية فى طليعة التفكير التاريخى والممارسة هى التى تولى تحريرها آلون مونسلو وروبرت روزينستون بعنوان :

Experiments in Rethinking History (New York and London Rouledge, 2004) .

وكتاب كيث جينكنز وآلون مونسلو:

The Nature of History Reader (London and New York, Routledge, 2004) .

والجدل حول بنيوية النظرية الاجتماعية فى التاريخ لا يزال مخدومًا بشكل جديد فى كتاب آليكس كاللينيكوس:

Theories and Narratives: Reflections on the Philosophy of History (Oxford Oxford University Press, 1995) ;

وكتاب كريستوفر لويد :

The Structures of History (Oxford, Basil Black well , 1993).

والكتاب الذى حرره بيتر بوركى بعنوان :

New Perspectives on Historical Writing (University Park Pennsylvania University Press, 1992) ; The History and Social Theory (Ithaca , Cornell University Press, 1993)

.

ومن بين التقليديين الذين عرضوا تاريخ النظرية الاجتماعية كليفورد جريتز فى مقالتيه :

»Thick Description : Toward on Interpertive Theory of Culture «and »Deep Play : Notes on the Balinese Cockfight «in the Interpretation of Cultures (New York ; Basic Books, 1973) , pp. 3-31 , 412-454 and Local knowledge : Futher Essays in Interpretative Anthropology (New York, Basic Books, 1983).

وهناك أمثلة أخرى على هذا التيار السائد هم فرديناند بروديل فى كتابه:

On History (London , Weidenfeld and Nicolson , 1980).

وثمة أمثلة أحدث زمنيا مثل لورا لى دونز:

Writing Gender History (London, Arnold, 2004) .

ونانسى بارتنر محررة كتاب

Wriding Medieval History (London , Arnold, 2005) .

وكاترين ووكر محررة كتاب :

Writing Early Modern History (London , Arnold , 2005) .

وعن السرد وسمات كتابة التاريخ ننصح بأن نبدأ بكتاب جاللى:

Philosophy and the Historical understanding (New York، Schocken Books, Decond edition. 1968).

وكتاب بيتر جراى :

Style in History : Gibbon , Ranke, Macaulay, Burckhardt (New York , Basic, Bookes, 1974)

وكذلك هناك كتاب يساعد فى هذا الصدد لكنارى وكوزيكى :

The Writing of History : literary form and Historical understanding (Madision, University of Wisconsim Press, 1978).

وكتاب آرثر دانتو :

Narration and Knowledge (New York , Columbia University Press, 1985).

وكتاب داڤيد كار

Time, Narrative and History (Bloomingtoon , Indiana University Press 1986)

وكتاب ليمون :

The Description of History and the History of Thought (London , Routledge, 1995).

وكتاب أنكر سميث وهانز كيلنر الذى حرراه بعنوان:

A New Philosophy of History (Chicago, University of Chicago Press, 1995).

وليس هناك شك فى أن المنظر الرئيسى فى السرد، والتقديم والعمل فى التاريخ اليوم هو فرانك أنكر سميث . انظر على سبيل المثال :

Sublime Historical Experience (Stanford , Stanford University Press, 2005), »Invition to Historians«, Rethinking History : The Journal of Theory and Practice vol. 7 , No .3 , 2003 , pp. 413-439 , Historical, Representation (Stanford, Stanford University Press, 2001) , History and Tropo : The Rise and Fall of Metaphor (Berkeley, University of California Press, 1994) .

والمؤرخون لا يعتادون سوى ببطء على طبيعة السرد كما يوجد فى الأدب ومن بين المنظرين الرئيسيين جيرارد جينيت وسيمور شاتمان. ويثر جيرارد على أن جميع أشكال التقديم تتضمن وسائل سردية خيالية. انظر كتابه:

Narrative Discourse trans . Jane E. Leurin (Oxford , Basil Blackwell , 1986) and Narrative Discourse Revisited , trans. Jane E. Lewin (Ithaca, Cornell University Press, 1990).

وهناك الكثير لدى سيمور شاتمان المفيد الذى يمكن قوله عن طبيعة السرد، ولا سيما التمييز بين القصة والخطاب . انظر كتابه:

Story and Discouse : Narrative Sturucture in Film (Tthaca and London , Cornell University Press, 1973).

والتحليل المهم الآخر عن الوظيفة الكلية هو الذى يقدمه جيروم بروتر فى كتابه:

Acts of Meaning (Cambridge, Massachusette , Harvard University Press, 1990) .

وهناك عدة مقالات مهمة باكرة في هذه المنطقة ، انظر مثلا لورنس ستون :

The Revival of Narrative'< Past and Present, No. 85 , 1979, pp. 3-24 ."

وعن الاستجابة الماركسية أنظر:

E. Hobsbaunm "Some Comments", Past and Present, No. 86, 1980, pp. 3-8 ; David Carr, "Narrative and the Real World: An Argument for Continiuty", History and the Theory, vol. 25 , No. 2, 1986, pp. 117-131 .

وإحدى أكثر المقالات تأثيراً مقالة چون تويس:

"Intellectual History after the linguistic Turn", Amercian Historical Review , vol . 92 , No.4 , October, 1987 , pp. 879- 907 .

مزيداً من التعليقات المهمة على التاريخ بعد التحول اللغوى يمكن أن نجده فى مقال بمجلة Amercian Historical Review بعنوان :

Intellectual History and the Return of Literature", Amercian History Review, vol. 94 ," No .3 , June, 1989 . pp. 581-698 .

ومن أجل الفهم التام لإسهام لورنس ستونفى موضوع ما بعد الحداثة والتاريخ انظر مقالته :

"History and Postnmdernism", Past and Present, No . 131 ,1991, pp. 217-218" and History and Past - Modernism", Past and Present , No. 135, 1992, pp. 187-194 .

وكذلك من المقالات ذات القيمة مقالة بيرنر زاجورين:

"Historiography and Postmodernism : Reconsiderations", History and Theory", vol . 29 , No. 3, 1990, pp. 263-274; Andrew P. Norman, "Telling It like It was : Historical Narratives on Their Own Terms ", History and Theory vol. 30, No.2 , 1991, pp. 11-135. and Gabrille M. Spiegel, :History and Post- Moderuism" , Past ant Present, No. 135, 1992 , pp. 197-198 .

وفى وقت أحدث مقالة دومينيك لاكابرا :

"History , Language and Reading : Waiting for Grillon", Amercian Historical Review , vol. 100, No. 3, June, 1995 .

وعن الموضوع نفسه الفحص الذى قامت به دوروثى روس عن وضع التاريخ الأمريكى فى مقالتها :

" Grand Narrative in American Historical Writing from Romance to Uncertiainty" , pp. 651-677 .

والمقالات الأكثر فائدة فى المجلات التاريخية تتضمن مقالة أوليفر دارو :

"No Philosophy Please, We are Historians', Rethinking History : The Journal of Theory and Practice", vol .9 No.1 , 2005 , pp. 105-109 , Haikke Saari," On Frank Ankersmit's Postmodernist Theory of Historical Narrativity Rethinking History, vol.9, No.1, 2005, pp. 5-21 and the reply by Frank R. Ankersnit, "Reply to professor Saari", Rethinking History , vol . 9 , No. 1, 2005 , pp. 23-33 .

وعن الأخلاقيات والمؤرخ أنظر:

"Historians and Ethics ", History and Theory , vol . 43, No.4 2004, pp. 1-164 .

وقد جادل هذا الكتاب بأن الأمر المركزى بالنسبة للعلاقة بين التطورات الفكرية ما بعد الحداثة فى تقديم الماضى وكتابة التاريخ هى مؤلفات ميشيل فوكو وهايدن هوايت والنصوص الأساسية لميشيل فوكو تتضمن «The Order of Discourse» وهى محاضرة افتتاحية فى الكوليج دى فرانس فى ٢ ديسمبر ١٩٧٠م وكتابه:

The Archaeology of Knowledge (New York, Harper and Row 1971); The Order of Things : An Archaeology of Human Sciences (New York Random House , 1973) ;

Madness and Civilization : A History of Insanity in the Age of Reason (London , Tavistock, 1973) ; The Birth of the Clinic (New York , Vintage Books, 1975,) Countes-Memory, Writings (Brighton , Harvest Press, 1980); Jan Goldstein, Foucault and the Writing of Hostiry (Oxford, Basil Blackwell, 1994); Mitchell Dean, Critical and Effective Histories: Foucault's Method and Historical Sociology, (London , Routledge, 1994) .

وثمة مقدمة ممتازة عن فوكو بوصفه مؤرخًا قدمها هايدن هوايت:

"Structuralism and Popular Culture", Journal of Popular Culture , vol 7, 1974 , pp. 759-775 and " Foucault Decoded: Notes from Underground", History and Theory", vol 12, 1973 , pp. 23-24 .

وهناك قائمة شاملة للغاية لأعمال فوكو موجودة في مقالة جيمس برناور وتوماس كينان :

"The Works of Michel Foucault, 1954-1984".

في الكتاب الذي حرره جيمس برناور وديفيد راسموسين بعنوان :

The Final Foucault (Cambridge, Massachusettes, MIT press, 1988).

وكذلك من الكتب القيمة في استكشاف فوكو كتاب هيربرت دريفوس وبول رابينو :

Michel Foucault: Beyond Structuralism and Hermenaeutics (Brighton, Harvest Press, Second edition, 1983); Mark Poster , Foucault, Marxism and History (London, Polity Press, 1984) ; "The Reception of Foucault by Historiams" Journal of History of

هوامش

١ - مقدمة

1 Quoted in Richard T. Vann, 'Louis Mink's Linguistic Turn', *History and Theory*, Vol. 26, No. 1, 1987, pp. 1-14. See also Louis Mink, 'History and Fiction as Modes of Comprehension', *New Literary History*, Vol. 1, 1970, pp. 541–558. While strongly objecting to Hayden White's placing of literary form before historical content as the central organisational feature of written history, a helpful introduction to the relationship of form and content in historical explanation is to be found in Saul Friedlander (ed.), *Probing the Limits of Representation: Nazism and the 'Final Solution'* (Cambridge, Massachusetts, Harvard University Press, 1992). See also Nancy Partner, 'Hayden White: the form of the content', *History and Theory*, Vol. 37, No. 2, 1998, pp. 162-172; Alun Munslow, *The New History* (Harlow, Pearson, 2003), pp. 112-113.

2 A lucid though unsympathetic introduction to this issue is to be found in Alex Callinicos, *Theories and Narratives: Reflections on the Philosophy of History* (Cambridge, Polity Press, 1995), Introduction, pp. 2-4. See also Keith Jenkins, *Re-Thinking History* (London, Routledge, 2003 [1991]), pp. 12–15.

3 M.C. Lemon, *The Discipline of History and the History of Thought* (London, Routledge, 1995), p. 131.

4 Ibid., p. 144.

5 Ibid. The debate on history and literary fiction has been explored in depth in a themed double issue of the journal *Rethinking History: The Journal of Theory and Practice*, Vol. 9, No. 2/3, 2005, pp. 141-383.

6 This is a well-established position. See Richard Rorty, *Philosophy and the Mirror of Nature* (Princeton, Princeton University Press, 1979); Peter Charles Hoffer and William W. Stueck, *Reading and Writing American History: An Introduction to the Historian's Craft* (Lexington, D.C., Heath, 1994); Keith Jenkins, *On 'What is History?'* (London, Routledge, 1995) and Alun Munslow, *The Routledge Companion to Historical Studies* (London and New York, Routledge, second edition, 2006).

7 Arthur Danto, *Narration and Knowledge* (New York, Columbia University Press, 1985), p. 202.

8 Lemon, op. cit., p. 133. See also Philip Stewart, 'This is Not a Book Review: On Historical Uses of Literature', *Journal of Modern History*, Vol. 66, No. 3, September 1994, pp. 521–538.

9 This description is to be found in Thomas A. Bailey and David M. Kennedy, *The American Pageant* (Lexington, D.C., Heath, tenth edition, 1994), p. 225.

10 William H. Walsh, 'Colligatory Concepts in History', in Patrick Gardiner (ed.), *The Philosophy of History* (New York, Oxford University Press, 1974), p. 136; William Dray, *Philosophy of History* (Englewood Cliffs, Prentice-Hall, second edition, 1993), pp. 89–113; Hayden White, *Metahistory: The Historical Imagination in Nineteenth Century Europe* (Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1973), pp. ix–x.

11 R.G. Collingwood, *The Idea of History* (originally published 1946, Oxford, Oxford University Press, revised edition 1994), pp. 302, 390–395.

12 Carla Hesse, 'The New Empiricism', *Cultural and Social History*, Vol. 1, 2004, pp. 201–207.

13 Ibid.

14 Howard Marchitello, *What Happens to History: The Renewal of Ethics in Contemporary Thought* (London and New York, Routledge, 2001); Frank R. Ankersmit, 'In Praise of Subjectivity', in David Carr, Thomas R. Flynn and Rudolf A. Makkreel (eds), *The Ethics of History* (Evanston, Northwestern University Press, 2004), pp. 3–27.

15 Neville Kirk, 'The Continuing Relevance and Engagement of Class', *Labour History Review*, Vol. 60, No. 3, winter 1995, pp. 2–15.

16 The term used by the philosopher of history Michael E. Hobart to describe this attention to the role of narrative in writing history is rhetorical constructionism, while White describes it variously as the 'metahistorical' or an 'essentially poetic act' in which the historian 'prefigures the historical field'. See Hobart, 'The Paradox of Historical Constructionism', *History and Theory*, Vol. 8, No. 1, 1989, pp. 43–58. The only full application and critique of White's methodology of history is to be found in Alun Munslow, *Discourse and Culture: The Creation of America, 1870–1920* (London, Routledge, 1992). A useful assessment of the role of narrative in writing the past and other issues concerning the postmodern condition of history is to be found in Robert F. Berkhofer, *Beyond the Great Story: History as Text and Discourse* (Cambridge, Massachusetts, Harvard University Press, 1995). See also David R. Roberts, *Nothing But History: Reconstruction and Extremity After Metaphysics* (Berkeley, University of California Press, 1995), Michael S. Roth, *The Ironist's Cage: Memory, Trauma, and the Construction of History* (New York, Columbia University Press, 1995); Joyce Appleby (ed.), *Knowledge and Postmodernism in Historical Perspective* (London, Routledge, 1996); Keith Jenkins, *The Postmodern History Reader* (London, Routledge, 1997) and Roger Chartier, *On the Edge of the Cliff: History, Language and Practice* (Baltimore and London, Johns Hopkins University Press, 1997).

17 W.B. Gallie, *Philosophy and the Historical Understanding* (New York, Schocken Books, second edition, 1968), p. 105. See also Louis Mink, 'Narrative Form as a Cognitive Instrument', in R. Canary and H. Kozicki (eds), *The Writing of History: Literary Form and Historical Understanding* (Madison, University of Wisconsin Press, 1978), pp. 129–149.

18 David Carr, 'Narrative and the Real World: An Argument for Continuity', *History and Theory*, Vol. 25, No. 2, 1986, pp. 117–131; Michel de Certeau, *The Writing of History* (trans. Tom Conley, New York, Columbia University Press, 1988); Paul Ricoeur, *Time and Narrative* (Chicago, University of Chicago Press, 3 vols, 1984, 1985).

19 Paul Veyne, *Writing History: Essays on Epistemology* (Middletown, Wesleyan University Press, 1984); Hayden White, 'The Historical Text as Literary Artifact', in *Tropics of Discourse: Essays in Cultural Criticism* (Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1978), p. 82.

20 Hayden White, *The Content of the Form: Narrative Discourse and Historical Representation* (Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1987), p. 81. See also the collection by F.R. Ankersmit, *History and Tropology: The Rise and Fall of Metaphor* (Berkeley, University of California Press, 1994), pp. 25–28, and his two articles 'The Dilemma of Contemporary Anglo-Saxon Philosophy of History', pp. 44–74, and 'Historical Representation', pp. 97–124, both of which originally appeared in the American philosophy of history journal *History and Theory*.
21 Michel Foucault, *Power/Knowledge* (Brighton, Harvester Press, 1981), pp. 131–132.
22 White, *Content of the Form*, op. cit., p. 87.
23 George A. Reisch, 'Chaos, History, and Narrative', *History and Theory*, Vol. 30, No. 1, 1991, pp. 1–20.
24 Peter Novick, *That Noble Dream: The 'Objectivity Question' and the American Historical Profession* (Cambridge, Cambridge University Press, 1988), p. 523.
25 Jean-François Lyotard, *The Postmodern Condition* (Manchester, Manchester University Press, 1984), p. 21.
26 This is a point made by the literary critic Robert Young in his study of the deconstruction of the concept of 'the West' in his book *White Mythologies: Writing History and the West* (London, Routledge, 1990), pp. 1–20.
27 Jenkins, *On 'What is History?'*, op. cit., p. 6.
28 F.R. Ankersmit, 'Historiography and Postmodernism', *History and Theory*, Vol. 28, No. 2, 1989, pp. 137–153.
29 Ignacio Olábarri, '"New" New History: A Langue Durée Structure', *History and Theory*, Vol. 34, No. 1, 1995, pp. 1–29.

٢ - الماضي حاضر متغير

1 Philosopher of history Christopher Lloyd maintains that 'The writing of economic and social history is now a multifarious, voluminous, and cacophonous business'; see Christopher Lloyd, *The Structures of History* (Oxford, Basil Blackwell, 1993), p. 66. See also Lynn Hunt, *The New Cultural History* (Berkeley, University of California Press, 1989), Introduction, p. 1; Robert Darnton, 'Intellectual and Cultural History', in Michael Kammen (ed.), *The Past Before Us: Contemporary Historical Writing in the United States* (Ithaca, Cornell University Press, 1980), pp. 327–354. See also Peter Burke (ed.), *New Perspectives on Historical Writing* (University Park, Pennsylvania University Press, 1991), p. 1 and *History and Social Theory* (Ithaca, Cornell University Press, 1992). A basic survey of the varieties of history is to be found in J. Gardiner (ed.), *What is History Today?* (London, Humanities Press International, 1988) and more recently Michael Bentley (ed.), *Companion to Historiography* (New York and London: Routledge, 1997); Keith Jenkins, *Why History? Reflections on the Possible End of History and Ethics under the Impact of the Postmodern* (London and New York, Routledge, 1999); A. Green, and K. Troup (eds), *The Houses of History: A*

Critical Reader in Twentieth-century History and Theory (Manchester, Manchester University Press, 1999); Ludmilla Jordanova, *History in Practice* (London, Arnold, 2002); David Cannadine (ed.) *What is History Now?* (Houndmills, Palgrave Macmillan, 2002); Kevin Passmore 'Poststructuralism and History', in Stefan Berger, Heiko Feldner and Kevin Passmore (eds), *Writing History: Theory and Practice* (London, Hodder Arnold, 2003), pp. 118–140; Keith Jenkins, *Refiguring History: New Thoughts on an Old Discipline* (London and New York, Routledge, 2003); Donald M. MacRaild and Avram Taylor, *Social Theory and Social History* (Houndmills, Palgrave Macmillan, 2004); Alun Munslow and Robert A. Rosenstone (eds), *Experiments in Rethinking History* (London and New York, Routledge); Peter Lambert and Phillipp Schofield (eds), *Making History: An Introduction to the History and Practices of a Discipline* (London and New York, Routledge, 2004); Keith Jenkins and Alun Munslow (eds), *The Nature of History Reader* (London and New York, Routledge, 2004); Willie Thompson, *Postmodernism and History* (Houndmills, Palgrave Macmillan, 2004); Keith Jenkins, 'Ethical Responsibility and The Historian: On the Possible End of History "of a certain kind"', *History & Theory*, Vol. 43, No. 4, 2004, pp. 43–60; Callum G. Brown, *Postmodernism for Historians* (Harlow, Pearson Longman, 2005); Gabrielle Spiegel, *Practicing History* (New York and London, Routledge, 2005); Beverley Southgate, *What is History For?* (New York and London, Routledge, 2005); Alun Munslow, *Narrative and History* (Houndmills, Palgrave Macmillan, forthcoming); Keith Jenkins, Sue Morgan and Alun Munslow (eds), *Manifestos for History* (London and New York, Routledge, forthcoming).

2 This debate between postmodernity and history is now well established. See Frank R. Ankersmit, 'The Reality Effect in the Writing of History: The Dynamics of Historical Topology', in *History and Tropology: The Rise and Fall of Metaphor* (Berkeley, University of California Press, 1994), pp. 125–161; Gertrude Himmelfarb, 'Some Reflections on the New History', *American Historical Review*, Vol. 94, No. 3, June 1989, pp. 661–670; Lawrence Stone, 'History and Post-Modernism', *Past and Present*, No. 131, May 1991, pp. 217–218; C. Behan McCullagh, 'Metaphor and Truth in History', *Clio*, Vol. 23, No. 1, Fall 1993, pp. 23–49; Elizabeth Tonkin, 'History and the Myth of Realism', in Raphael Samuel and Paul Thompson (eds), *The Myths We Live By* (London, Routledge, 1990), pp. 25–35; Philippe Carrard, *Poetics of the New History: French Historical Discourse from Braudel to Chartier* (Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1992); Alun Munslow, *Discourse and Culture: The Creation of America, 1870–1920* (London, Routledge, 1992); Barbara Melosh (ed.), *Gender and American History Since 1890* (London, Routledge, 1993); Alex Callinicos, *Theories and Narratives: Reflections on the Philosophy of History* (Oxford, Oxford University Press, 1995) and Keith Jenkins, *On 'What is History?'* (London, Routledge, 1995).

3 Peter Gay, *Style in History: Gibbon, Ranke, Macaulay, Burckhardt* (New York, Basic Books, 1974), p. 3.

4 G.R. Elton, *The Practice of History* (New York, Crowell, 1967); John Tosh, *The Pursuit of History* (London, Longman, second edition, 1991); J.H. Hexter, *Re-Appraisals in History* (Evanston, Northwestern University Press, 1961).
5 Marshal Sahlins, *Historical Metaphors and Mythical Realities* (Ann Arbor, University of Michigan Press, 1981), *Islands of History* (Chicago, University of Chicago Press, 1985), *Boundaries: The Making of France and Spain in the Pyranees* (Berkeley, University of California Press, 1989); Anthony Giddens, *New Rules of Sociological Method: A Positive Critique of Interpretative Sociologies* (New York, Basic Books, 1976); Clifford Geertz, 'Thick Description: Toward an Interpretive Theory of Culture' and 'Deep Play: Notes on the Balinese Cockfight', in *The Interpretation of Cultures* (New York, Basic Books, 1973), pp. 3–31, 412–454, and *Local Knowledge: Further Essays in Interpretative Anthropology* (New York, Basic Books, 1983).
6 Harvey Kaye, *The British Marxist Historians: An Introductory Analysis* (New York, Polity Press, 1984) and *The Education of Desire: Marxists and the Writing of History* (London, Routledge, 1992).
7 For a basic introduction see Dominick LaCapra and Steven Kaplan (eds) *Modern European Intellectual History: Reappraisals and New Perspectives* (Ithaca, Cornell University Press, 1982); Dominick LaCapra, *Rethinking Intellectual History: Texts, Contexts, Language* (Ithaca, Cornell University Press, 1983); David Harlan, 'Intellectual History and the Return of Literature', a contribution that lent its title to the AHR Forum, *American Historical Review*, Vol. 94, No. 3, June 1989, p. 585; Joan W. Scott, *Gender and the Politics of History* (New York, Columbia University Press, 1988) and 'History in Crisis? The Others' Side of the Story', AHR Forum, *American Historical Review*, Vol. 94, No. 3, June 1989, pp. 680–692; Stephen Bann, *The Clothing of Clio: A Study of the Representation of History in Nineteenth Century Britain and France* (Cambridge, Cambridge University Press, 1984) and Roger Chartier, *On the Edge of the Cliff: History, Language and Practice* (Baltimore and London, Johns Hopkins University Press, 1997). More recently, see Frank R. Ankersmit.
8 Tosh, *The Pursuit of History*, op. cit., p. 48.
9 G.R. Elton, *Return to Essentials* (Cambridge, Cambridge University Press, 1991), pp. 6, 77–98.
10 Ibid., p. 12.
11 Chris Lorenz, 'Historical Knowledge and Historical Reality: A Plea for "Historical Realism" ', *History and Theory*, Vol. 33, No. 3, 1994, pp. 297–327.
12 Elton, *Return to Essentials*, op. cit., p. 67.
13 Ibid., pp. 67–68.
14 Ibid., p. 10.
15 Arthur Marwick, *The Nature of History* (London, Macmillan, third edition, 1989), pp. 105–106 and also see his much updated version *The New Nature of History: Knowledge, Evidence, Language* (Houndmills, Palgrave, 2001).
16 Lawrence Stone, 'Dry Heat, Cool Reason: Historians Under Siege in England and France', *Times Literary Supplement*, 31 January 1992.

17 Burke (ed.), *New Perspectives*, op. cit., pp. 2, 9.

18 Mark Cousins, 'The Practice of Historical Investigation', in Derek Attridge, Geoff Bennington and Robert Young (eds), *Post-Structuralism and the Question of History* (Cambridge, Cambridge University Press, 1987), pp. 126–136.

19 Lawrence Stone, 'The Revival of Narrative', *Past and Present*, No. 85, 1979, pp. 3–24. For a Marxist constructionist response see E. Hobsbawm, 'Some Comments', *Past and Present*, No. 86, 1980, pp. 3–8.

20 Lawrence Stone, 'History and Post-Modernism', *Past and Present*, No. 131, 1991, pp. 217–218.

21 Lawrence Stone, 'History and Post-Modernism', *Past and Present*, No. 135, 1992, pp. 187–194.

22 Roger Chartier, *Cultural History: Between Practices and Representations* (Cambridge, Cambridge University Press, 1988), p. 42 and *On the Edge of the Cliff*, op. cit., pp. 28–38.

23 A sound introduction to the history and impact of all major aspects of postmodernism is Hans Bertens, *The Idea of the Postmodern: A History* (London, Routledge, 1995), pp. 45, 67, 71–74. See also Alun Munslow, *The New History* (Harlow, Pearson Longman, 2003); Ernst Breisach, *On the Future of History: The Postmodernist Challenge and its Aftermath* (Chicago and London, University of Chicago Press, 2003) for a realist view.

24 Chartier, *Cultural History*, op. cit., p. 43.

25 Jacques Derrida, *Of Grammatology* (trans. G.C. Spivak, Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1976), *Writing and Difference* (trans. A. Bass, Chicago, University of Chicago Press, 1978), 'Différence', *Speech and Phenomena: and Other Essays on Husserl's Theory of Signs* (trans. David B. Allison, Evanston, Northwestern University Press, 1973), pp. 129–160.

26 A useful summary of constructionism is provided by Michael Stanford in *A Companion to History* (Oxford, Basil Blackwell, 1994), pp. 128–129. Barbara Melosh is very much aware that in her book *Gender and American History Since 1890* she has edited a collection that is epistemologically self-conscious, as she says 'these essays demonstrate the influence of post-structuralist attention to language', Melosh, op. cit., p. 5.

27 Raymond Williams, *Keywords* (Oxford, Oxford University Press, 1983), pp. 304–306.

28 Ferdinand de Saussure, *Course de Linguistic Générale* (1916, trans. Wade Baskin, London, Fontana, 1959). See also Tim Dant, *Ideology and Discourse* (London, Routledge, 1991), p. 101.

29 William Pencak, 'History and Semiotics', themed issue in *The American Journal of Semiotics*, Vol. 12, Nos. 1–4, 1995/98.

30 On this important issue see Christopher Norris, *Deconstruction: Theory and Practice* (London, Methuen, 1982), pp. 1–55. A number of philosophers of history and practising historians have explored the nature of narrative as historical explanation: see, for example, William H. Walsh, *An Introduction to Philosophy of History* (London, Hutchinson, 1958) and Leon Goldstein, *Historical Knowing* (Austin, University of Texas, 1976). See the excellent survey in Geoffrey Roberts, *The History and Narrative Reader* (London and New York, Routledge, 2001).

31 Roland Barthes, *Mythologies* (London, Jonathan Cape, 1972), *Elements of Semiology* (New York, Hill & Wang, 1967), *S/Z* (New York, Hill & Wang, 1975) and *Image–Music–Text* (New York, Hill & Wang, 1977). This issue will be taken up further below.

32 Frank R. Ankersmit's key texts are: 'Reply to Professor Saari', *Rethinking History: The Journal of Theory and Practice*, Vol. 9, 2005, pp. 23–33; *Sublime Historical Experience* (Stanford, Stanford University Press, 2005); 'Invitation to Historians', *Rethinking History: The Journal of Theory and Practice*, Vol. 7, 2003, pp. 413–439; 'Pygmalion. Rousseau and Diderot on theatrical representation', *Rethinking History: The Journal of Theory and Practice*, Vol. 7, 2003, pp. 315–341; *Political Representation* (Stanford, Stanford University Press, 2002); *Historical Representation* (Stanford, Stanford University Press, 2001); 'Exchanging Ideas' (with Mark Bevir) in *Rethinking History: The Journal of Theory and Practice*, Vol. 4, 2000, pp. 351–372; 'Hayden White's appeal to the historians', *History and Theory*, Vol. 37, 1998, pp. 182–193; 'Danto on Representation, Identity, and Indiscernibles', Theme Issue: *History and Theory*, Vol. 37, 1998, pp. 44–70; *History and Tropology: The Rise and Fall of Metaphor* (Berkeley, University of California Press, 1994); 'Historiography and Postmodernism', *History and Theory*, Vol. 28, 1989, pp. 137–153; *Narrative Logic: A Semantic Analysis of the Historian's Language* (The Hague, Martinus Nijhoff, 1983); and Frank R. Ankersmit and Hans Kellner (eds), *A New Philosophy of History* (Chicago, University of Chicago Press, 1995).

33 The term new historicism emerged in Michael McCanles, 'The Authentic Discourse of the Renaissance', *Diacritics*, Vol. 10, No. 1, Spring 1980, pp. 77–87. The phrase was recoined by Stephen Greenblatt in his essay 'The Forms of Power and the Power of Forms in the Renaissance', *Genre*, Vol. 15, Nos 1–2, 1982, pp. 1–4, and has been subsequently elaborated in Greenblatt's *Shakespearean Negotiations: The Circulation of Social Energy in Renaissance England* (Berkeley, University of California Press, 1988). In 1989 Greenblatt suggested that the movement could be defined as 'an openness to the theoretical ferment of the last few years' and that this openness 'is what distinguishes the new historicism from the positivist historical scholarship of the early twentieth century'. Stephen Greenblatt, 'Towards a Poetics of Culture', in H. Aram Veeser (ed.), *The New Historicism* (London, Routledge, 1989), pp. 1–14. For an alternative definition that stresses new historicism as 'the next step past deconstructionism', see James A. Winn, 'An Old Historian Looks at the New Historicism', *Comparative Studies in Society and History*, Vol. 35, No. 4, October 1993, pp. 859–870.

34 Veeser (ed.), *The New Historicism*, op. cit., Introduction, *passim*.

35 White, 'New Historicism: A Comment', in Veeser (ed.), *The New Historicism*, op. cit., pp. 293–302.

36 Stone, 'History and Post-Modernism', *Past and Present*, No. 131, loc. cit.

37 Veeser (ed.), *The New Historicism*, op. cit., Introduction, p. xi.

38 Gay, *Style in History*, op. cit., p. 3.

39 Williams, *Keywords*, op. cit., p. 306.

40 Dant, *Ideology and Discourse*, op. cit., p. 7; Munslow, *Discourse and Culture*, op. cit., pp. 1–3.
41 White, 'The Historical Text as Literary Artifact', in *Tropics of Discourse: Essays in Cultural Criticism* (Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1978), p. 82.
42 Carrard, *Poetics of the New History*, op. cit., pp. 18–19. The *dissertations historiques* is the exacting French equivalent of Ph.D. level historical study.

٣ – التاريخ بوصفه أعادة بناء وبناء

1 Neville Kirk, 'The Continuing Relevance and Engagement of Class', *Labour History Review*, Vol. 60, No. 3, Winter 1995, p. 4.
2 C. Behan McCullagh, *Justifying Historical Descriptions* (Cambridge, Cambridge University Press, 1984), p. 2.
3 Ibid., p. 4. See also his most recent defence of empiricism and truth *The Logic of History: Putting Postmodernism in Perspective* (London and New York, Routledge, 2004) and his *The Truth of History* (London and New York, 1998).
4 C. Behan McCullagh, 'Can Our Understanding of Old Texts be Objective?', *History and Theory*, Vol. 30, No. 3, 1991, pp. 302–323; 'Bias in Historical Description, Interpretation, and Explanation', *History and Theory*, Vol. 39, No. 1, 2000, pp. 39–66.
5 McCullagh, *Justifying Historical Descriptions*, op. cit., p. 6.
6 McCullagh, 'Can Our Understanding', op. cit., p. 302.
7 James T. Kloppenberg outlined a list similar to this in 'Objectivity and Historicism: A Century of American Historical Writing', *American Historical Review*, Vol. 94, No. 4, October 1989, pp. 1011–1030.
8 Joyce Appleby, Lynn Hunt and Margaret Jacob, *Telling the Truth About History* (New York, Norton, 1994), p. 248 and Joyce Appleby (ed.), *Knowledge and Postmodernism in Historical Perspective* (London, Routledge, 1996), p. 14.
9 Appleby *et al.*, *Telling the Truth*, op. cit., p. 249.
10 Arthur Marwick, *The Nature of History* (London, Macmillan, third edition, 1989), p. 21; and also *The New Nature of History*, op. cit., *passim*.
11 Arthur Marwick, 'Two Approaches to Historical Study. The Metaphysical (Including Postmodernism) and the Historical', *Journal of Contemporary History*, Vol. 30, No. 1, January 1995, pp. 5–36.
12 Keith Jenkins and Alun Munslow (eds), *The Nature of History Reader* (London and New York, Routledge, 2004).
13 Edward Royle, *Modern Britain: A Social History, 1750 1997* (London, Arnold, [1987] 1998), pp. 120–125.
14 Michael A.R. Graves, *Elizabethan Parliaments, 1559 1601* (London, Pearson Education, [1987] 1996).
15 G.R. Elton, *Return to Essentials* (Cambridge, Cambridge University Press, 1991), p. 51.
16 John Tosh, *The Pursuit of History* (London, Longman, second edition, 1991), p. 53.

17 Elton, *Return to Essentials*, op. cit., p. 52.
18 Ibid., p. 55.
19 Ibid., p. 62.
20 Ibid., p. 66.
21 Ibid., p. 70.
22 Michael A. Stanford, *A Companion to History* (Oxford, Basil Blackwell, 1994), p. 124.
23 David Hollinger, 'The Return of the Prodigal: The Persistence of Historical Knowing', *American Historical Review*, Vol. 94, No. 3, June 1989, p. 613.
24 Elton, *Return to Essentials*, op. cit., p. 11.
25 E.H. Carr, *What Is History?* (London, Penguin, second edition, 1987), p. 65.
26 Ibid., p. 22.
27 Peter Burke, *History and Social Theory* (Ithaca, Cornell University Press, 1993), p. 1.
28 Ibid., p. 28.
29 Ibid., p. 29.
30 Appleby *et al.*, *Telling the Truth*, op. cit., p. 304.
31 Alex Callinicos, *Theories and Narratives: Reflections on the Philosophy of History* (Cambridge, Polity Press, 1995), p. 77.
32 Appleby *et al.*, *Telling the Truth*, op. cit., p. 304.
33 Callinicos, *Theories and Narratives*, op. cit., p. 82.
34 James Harvey Robinson, *The New History: Essays Illustrating the Modern Historical Outlook* (New York, Free Press, 1965).
35 Frederick Jackson Turner quoted in Peter Novick, *That Noble Dream: The Objectivity Question and the American Historical Profession* (Cambridge, Cambridge University Press, 1988), p. 92.
36 Philippe Carrard, *Poetics of the New History: French Historical Discourse from Braudel to Chartier* (Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1992), pp. 1–28.
37 Christopher Lloyd, *The Structures of History* (Oxford, Basil Blackwell, 1993), p. 83. See also Christopher Lloyd, 'History and the Social Sciences', in Berger *et al.*, *Writing History*, op. cit., pp. 83–103.
38 Carrard, *Poetics of the New History*, op. cit., p. 31.
39 Carl Hempel, 'The Function of General Laws in History', *The Journal of Philosophy*, Vol. 34, 1942, reprinted in Patrick Gardiner (ed.), *Theories of History* (New York, Free Press, 1959).
40 Ibid., p. 351. See also Murray G. Murphey, 'Explanation, Causes, and Covering Laws', *History and Theory*, *Beiheft* 25, 1986, pp. 43–57.
41 Anthony Giddens, *Profiles and Critiques in Social Theory* (Berkeley, University of California Press, 1982) and *Social Theory and Modern Sociology* (Stanford, Stanford University Press, 1987); Ernest Gellner, *Culture, Identity and Politics* (Cambridge, Cambridge University Press, 1987); Charles Tilly, *From Mobilisation to Revolution* (Reading, Massachusetts, Addison-Wesley, 1978) and *Big Structures, Large Processes, Huge Comparisons* (New York, Russell Sage Foundation, 1984); Clifford Geertz, *The Interpretation*

of Cultures (New York, Basic Books, 1973) and *Local Knowledge* (New York, Basic Books, 1976); Fernand Braudel, *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II* (New York, Harper & Row, 1972) and *The Identity of France* (New York, Harper & Row, 1988–90); Emmanuel Le Roy Ladurie, *The Peasants of Languedoc* (Paris, Flammarion, 1969) and *Montaillou* (New York, G. Braziller, 1978); Robert Darnton, *The Great Cat Massacre and Other Episodes in French Cultural History* (New York, Basic Books, 1985); Roger Chartier, *Cultural History: Between Practices and Representations* (Cambridge, Polity Press, 1988); W.G. Hoskins, *The Making of the English Landscape* (London, Penguin, 1955); Harry Braverman, *Labor and Monopoly Capitalism* (New York, Monthly Review Press, 1974); James Weinstein, *The Corporate Ideal in the Liberal State* (Boston, Beacon Press, 1968); Gabriel Kolko, *The Roots of American Foreign Policy* (Boston, Beacon Press, 1969); Herbert Gutman, 'Work, Culture and Society in Industrialising America, 1820–1920', *American Historical Review*, Vol. 78, No. 3, 1973, pp. 531–587; David Montgomery, *Workers' Control in America: Studies in the History of Work, Technology and Labor Struggles* (Cambridge, Cambridge University Press, 1980); Eric Hobsbawm, *The Age of Empire* (New York, Pantheon Books, 1987); Eugene Genovese, *In Red and Black: Marxian Explorations in Southern and Afro-American History* (New York, Vintage Books, 1971); Sheila Rowbotham, *Hidden From History* (London, Pluto Press, 1983) and Catherine Hall, *White, Male and Middle Class: Explorations in Feminism and History* (Cambridge, Polity Press, 1992).

42 J.H. Hexter, 'The Rhetoric of History', *International Encyclopaedia of the Social Sciences* (1968), first quotation in Novick, *That Noble Dream*, op. cit., p. 623, and Hexter, *The History Primer* (New York, Basic Books, 1971), pp. 108, 222.

43 Ibid., pp. 137–138.

44 M.C. Lemon, *The Discipline of History and the History of Thought* (London, Routledge, 1995), pp. 184–186.

45 Hayden White, 'The Question of Narrative in Contemporary Historical Theory', in *The Content of the Form: Narrative Discourse and Historical Representation* (Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1987), pp. 26–57; Andrew Norman, 'Telling It Like It Was: Historical Narratives on Their Own Terms', *History and Theory*, Vol. 30, 1991, pp. 119–135 and William H. Dray, *Philosophy of History* (Englewood Cliffs, Prentice-Hall, second edition, 1993), pp. 91–95.

46 Lawrence Stone, 'Revival of Narrative', *Past and Present*, No. 85, 1979, pp. 3–4, 19.

47 Ibid., p. 19.

48 W.B. Gallie, *Philosophy and the Historical Understanding* (New York, Schocken Books, second edition, 1968), p. 105. See also Arthur Danto, *Narration and Knowledge* (New York, Columbia University Press, 1985).

49 Carrard, *Poetics of the New History*, op. cit., p. 75.

50 Frank R. Ankersmit, 'Reply to Professor Saari', *Rethinking History: The Journal of Theory and Practice*, Vol. 9, 2005, pp. 23–33; *Sublime Historical*

Experience (Stanford, Stanford University Press, 2005); 'Invitation to Historians', *Rethinking History: The Journal of Theory and Practice*, Vol. 7, 2003, pp. 413–439; 'Pygmalion. Rousseau and Diderot on theatrical representation', *Rethinking History: The Journal of Theory and Practice*, Vol. 7, 2003, pp. 315–341; *Historical Representation* (Stanford, Stanford University Press, 2002); 'Exchanging Ideas' (with Mark Bevir) in *Rethinking History: The Journal of Theory and Practice*, Vol. 4, 2000, pp. 351–372; 'Hayden White's appeal to the historians' *History and Theory*, Vol. 37, 1998, pp. 182–193.

51 Appleby *et al.*, *Telling the Truth*, op. cit., p. 238.
52 Ibid., pp. 234–235.
53 Stanford, *A Companion to History*, op. cit., p. 95.
54 Ibid., p. 102.
55 Ibid., p. 104.
56 Phyllis Deane, *The First Industrial Revolution* (Cambridge, Cambridge University Press, 1965); Clive Trebilcock, *The Industrialisation of the Continental Powers 1780–1914* (London, Longman, 1981) and Vicki L. Ruiz and Ellen Carol DuBois (eds), *Unequal Sisters* (London, Routledge, third edition, 2000).
57 Elton, *Return to Essentials*, op. cit., p. 12.
58 McCullagh, *Justifying Historical Descriptions*, op. cit., pp. ix–x.

٤ - التاريخ بوصفه عملية تفكيكية

1 Mark Poster, 'Foucault and History', *Social Research*, Vol. 49, 1982, p. 120; Jan Goldstein, *Foucault and the Writing of History* (Oxford, Basil Blackwell, 1994) and Mitchell Dean, *Critical and Effective Histories: Foucault's Methods and Historical Sociology* (London, Routledge, 1994).
2 Allan Megill, 'Foucault, Structuralism, and the Ends of History', *Journal of Modern History*, Vol. 51, September 1979, p. 451.
3 Charles Beard, 'Written History as an Act of Faith', *American Historical Review*, Vol. 39, No. 2, 1934, pp. 219–231 and 'That Noble Dream', *American Historical Review*, Vol. 41, No. 1, 1935, pp. 74–87.
4 Rudy Koshar, 'Foucault and Social History: Comments on "Combined Underdevelopment" ', *American Historical Review*, Vol. 98, No. 2, April 1993, pp. 354–363.
5 Roland Barthes, 'Le discours de l'histoire', *Information sur les sciences sociales*, Vol. 6, No. 4, 1967, pp. 65–75, translated as 'Discourse of History' with an introduction by Stephen Bann, *Comparative Criticism – A Yearbook*, Vol. 3 (University Park, Pennsylvania University Press, 1981), pp. 3–20.
6 Quoted by Bann in ibid., p. 3.
7 Ibid., p. 5.
8 Barthes, 'Discourse of History', op. cit., p. 7.
9 Ibid., p. 11.
10 Barthes, 'Discourse of History', op. cit., p. 16.
11 Ibid., p. 17. See also Stephen Bann, 'Analysing the Discourse of History', *Renaissance and Modern Studies*, Vol. 27, 1983, pp. 61–84.

12 Barthes, 'Discourse of History', op. cit., p. 18. See Richard J. Ellis and Alun Munslow, 'Narrative, Myth and the Turner Thesis', *Journal of American Culture*, Vol. 9, No. 2, 1987, pp. 9–17 and Alun Munslow, *Discourse and Culture: The Creation of America, 1870–1920* (London, Routledge, 1992), pp. 68–88.

13 See Hayden White, 'The Question of Narrative in Contemporary Historical Theory', *History and Theory*, Vol. 23, No. 1, 1984, pp. 1–33.

14 Andrew P. Norman, 'Telling It Like It Was: Historical Narratives on Their Own Terms', *History and Theory*, Vol. 30, No. 2, 1991, pp. 119–135.

15 Roland Barthes, 'The Death of the Author', quoted in David Harlan's 'Intellectual History and the Return of Literature', a contribution that lent its title to the AHR Forum, *American Historical Review*, June 1989, p. 585.

16 F.R. Ankersmit, 'Historiography and Postmodernism', *History and Theory*, Vol. 28, No. 2, 1989, p. 146.

17 Hayden White, 'The Context in the Text: Method and Ideology in Intellectual History', in *The Content of the Form: Narrative Discourse and Historical Representation* (Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1987), p. 192.

18 G.R. Elton, *Return to Essentials* (Cambridge, Cambridge University Press, 1991), p. 49.

19 Hayden White, 'The Burden of History', in *Tropics of Discourse: Essays in Cultural Criticism* (Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1978), p. 47.

20 R.G. Collingwood, *The Idea of History* (Oxford, Oxford University Press, revised edition, 1994), pp. 282–302.

21 Ibid., p. 302.

22 Ibid.; see Elton's commentary, *Return to Essentials*, op. cit., p. 43.

23 The original examination of the character of general or covering laws in historical explanation is to be found in C.G. Hempel, 'The Function of General Laws in History', *Journal of Philosophy*, Vol. 39, 1942, reprinted in Patrick Gardiner, *Theories of History* (New York, Free Press, 1959), pp. 344–356.

24 Frederick Jackson Turner, *Rise of the New West, 1819–1829* (1906), a volume in the series *The American Nation: The United States, 1830–1850: The Nation and Its Sections* (New York, H. Holt & Co., 1935) with an introduction by Avery Craven; *The Frontier in American History* (1920, New York, reprinted by Holt, Rinehart & Winston, 1962); Martin Ridge, 'Frederick Jackson Turner, Ray Allen Billington, and Frontier History', *Western Historical Quarterly*, Vol. 19, January 1988, pp. 5–20; Munslow, *Discourse and Culture*, op. cit., pp. 68–88; John Mack Faragher, 'The Frontier Trail: Rethinking Turner and Reimagining the American West', *American Historical Review*, Vol. 98, No. 1, February 1993, pp. 106–117 and Peter Stoneley, 'Signifying Frontiers', *Borderlines*, Vol. 1, No. 3, March 1994, pp. 237–253.

25 Turner, 'The Significance of the Frontier in American History', in *The Frontier in American History*, op. cit., pp. 2–3.

26 Benedetto Croce, *Aesthetics as Science of Expression and General Linguistic*, translated by Douglas Ainslie with a new Introduction by John McCormick (New Brunswick, Transaction Publishers, 1995).

12 Barthes, 'Discourse of History', op. cit., p. 18. See Richard J. Ellis and Alun Munslow, 'Narrative, Myth and the Turner Thesis', *Journal of American Culture*, Vol. 9, No. 2, 1987, pp. 9 17 and Alun Munslow, *Discourse and Culture: The Creation of America, 1870–1920* (London, Routledge, 1992), pp. 68–88.

13 See Hayden White, 'The Question of Narrative in Contemporary Historical Theory', *History and Theory*, Vol. 23, No. 1, 1984, pp. 1–33.

14 Andrew P. Norman, 'Telling It Like It Was: Historical Narratives on Their Own Terms', *History and Theory*, Vol. 30, No. 2, 1991, pp. 119 135.

15 Roland Barthes, 'The Death of the Author', quoted in David Harlan's 'Intellectual History and the Return of Literature', a contribution that lent its title to the AHR Forum, *American Historical Review*, June 1989, p. 585.

16 F.R. Ankersmit, 'Historiography and Postmodernism', *History and Theory*, Vol. 28, No. 2, 1989, p. 146.

17 Hayden White, 'The Context in the Text: Method and Ideology in Intellectual History', in *The Content of the Form: Narrative Discourse and Historical Representation* (Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1987), p. 192.

18 G.R. Elton, *Return to Essentials* (Cambridge, Cambridge University Press, 1991), p. 49.

19 Hayden White, 'The Burden of History', in *Tropics of Discourse: Essays in Cultural Criticism* (Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1978), p. 47.

20 R.G. Collingwood, *The Idea of History* (Oxford, Oxford University Press, revised edition, 1994), pp. 282–302.

21 Ibid., p. 302.

22 Ibid.; see Elton's commentary, *Return to Essentials*, op. cit., p. 43.

23 The original examination of the character of general or covering laws in historical explanation is to be found in C.G. Hempel, 'The Function of General Laws in History', *Journal of Philosophy*, Vol. 39, 1942, reprinted in Patrick Gardiner, *Theories of History* (New York, Free Press, 1959), pp. 344–356.

24 Frederick Jackson Turner, *Rise of the New West, 1819–1829* (1906), a volume in the series *The American Nation; The United States, 1830–1850: The Nation and Its Sections* (New York, H. Holt & Co., 1935) with an introduction by Avery Craven; *The Frontier in American History* (1920, New York, reprinted by Holt, Rinehart & Winston, 1962); Martin Ridge, 'Frederick Jackson Turner, Ray Allen Billington, and Frontier History', *Western Historical Quarterly*, Vol. 19, January 1988, pp. 5–20; Munslow, *Discourse and Culture*, op. cit., pp. 68–88; John Mack Faragher, 'The Frontier Trail: Rethinking Turner and Reimagining the American West', *American Historical Review*, Vol. 98, No. 1, February 1993, pp. 106–117 and Peter Stoneley, 'Signifying Frontiers', *Borderlines*, Vol. 1, No. 3, March 1994, pp. 237–253.

25 Turner, 'The Significance of the Frontier in American History', in *The Frontier in American History*, op. cit., pp. 2–3.

26 Benedetto Croce, *Aesthetics as Science of Expression and General Linguistic*, translated by Douglas Ainslie with a new Introduction by John McCormick (New Brunswick, Transaction Publishers, 1995).

27 Carl Becker quoted in Peter Novick, *That Noble Dream: The Objectivity Question and the American Historical Profession* (Cambridge, Cambridge University Press, 1988), p. 98.

28 Karl Popper, *The Logic of Scientific Discovery* (London, Hutchinson, 1959). According to Allan Megill, 'Recounting the Past: "Description", Explanation, and Narrative in Historiography', *American Historical Review*, Vol. 94, No. 3, June 1989, pp. 627-653, 'the positivist programme still retains an aura of prestige' in historical explanation, p. 636. See also '"Grand Narrative" and the Discipline of History', in Frank Ankersmit and Hans Kellner (eds), *A New Philosophy of History* (Chicago, Chicago University Press, 1995).

29 Collingwood, *The Idea of History*, op. cit., p. 130.

30 Dorothy Ross, 'Grand Narratives in American Historical Writing: From Romance to Uncertainty', *American Historical Review*, Vol. 100, No. 3, June 1995, pp. 651–677.

31 Christopher Tilley (ed.), *Reading Material Culture* (Oxford, Basil Blackwell, 1990), pp. 281 347.

32 Quoted in Norman, 'Telling It Like It Was', op. cit., p. 130.

33 White, 'The Question of Narrative', op. cit., p. 19.

34 Amy J. Elias, 'Metahistorical Romance, the Historical Sublime, and Dialogic History', *Rethinking History: The Journal of Theory and Practice*, Vol. 9, No. 2/3 2005, pp. 159–172.

35 W.H. Dray, 'On the Nature and Role of Narrative in Historiography', *History and Theory*, Vol. 10, 1970, pp. 153 171.

36 Quoted in Norman, 'Telling It Like It Was', op. cit., p. 117.

37 Harlan, 'Intellectual History', op. cit., p. 600.

38 A.R. Louch, 'History as Narrative', *History and Theory*, Vol. 8, 1969, pp. 54–70.

39 William Dray, 'Mandelbaum on Historical Narrative', *History and Theory*, Vol. 8, 1969, p. 290, quoted in Leon Goldstein, *Historical Knowing* (Austin, Texas, 1976), p. 140.

40 Ibid., Introduction, p. xix. See also Goldstein, 'Impediments to Epistemology in the Philosophy of History', *History and Theory*, *Beiheft* 25, 1986, pp. 82–100.

41 Ibid., Introduction, pp. xx–xxiii.

42 William Gallie, *Philosophy and the Historical Understanding* (New York, Schocken Books, second edition, 1968), pp. 105–125 and M.C. Lemon, *The Discipline of History and the History of Thought* (London, Routledge, 1995), pp. 42–79.

43 Lemon, *The Discipline*, op. cit., p. 133.

44 Paul Ricoeur, *Hermeneutics and the Human Sciences*, ed. by J.B. Thompson (Cambridge, Cambridge University Press, 1981), p. 275.

45 Hayden White, 'Response to Arthur Marwick', *Journal of Contemporary History*, Vol. 30, No. 2, April 1995, pp. 233–246.

46 Roland Barthes, 'Introduction to the Structural Analysis of Narrative', quoted in White, 'The Question of Narrative', op. cit., p. 1. See also Paul Ricoeur, 'Explanation and Understanding: On Some Remarkable Connec-

tions Among the Theory of the Text. Theory of Action, and Theory of History', quoted in ibid., p. 26. See also Michel Foucault, 'The Order of Discourse', Inaugural Lecture at the College de France, 2 December 1970. *The Archaeology of Knowledge* (New York, Harper & Row, 1972), *The Order of Things: An Archaeology of the Human Sciences* (New York, Random House, 1973), *Madness and Civilisation: A History of Insanity in the Age of Reason* (London, Tavistock, 1973), *The Birth of the Clinic* (New York, Vintage Books, 1975), *Language, Counter-Memory, Practice: Selected Essays and Interviews* (Ithaca, Cornell University Press, 1979) and *Power/Knowledge: Selected Interviews and Other Writings* (Brighton, Harvester Press, 1980).

47 F.R. Ankersmit, *History and Tropology: The Rise and Fall of Metaphor* (Berkeley, University of California Press, 1994), p. 83.

48 'Unconventional History', *History and Theory* (themed issue), Vol. 41, 2002, pp. 1–144.

49 Kevin Passmore, 'Poststructuralism and History' in Berger *et al.*, *Writing History*, pp. 118–140.

50 Alun Munslow and Robert A. Rosenstone (eds), *Experiments in Rethinking History* (London and New York, Routledge, 2004).

51 Hayden White, 'Structuralism and Popular Culture', *Journal of Popular Culture*, Vol. 7, 1974, pp. 759–775, 'The Tropics of History: The Deep Structure of the *New Science*' and 'Foucault Decoded: Notes From Underground', in *Tropics of Discourse*, op. cit., pp. 197–217, 230–260; Munslow, *Discourse and Culture*, op. cit., pp. 1–4.

52 'Otherness' as a historical construct has been much explored by deconstructionist historians and critical theorists like Luce Irigaray, *This Sex which is not One* (Ithaca, Cornell University Press, 1979), and also see Hayden White, *Metahistory: The Historical Imagination in the Nineteenth Century* (Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1973), pp. 133–425. A culture results from the bargaining between dominant and subordinate groups and is represented through the metaphors, icons and images employed by such groups. On tropes and their cultural significance see Paul Ricoeur, *The Rule of Metaphor: Multi-Disciplinary Studies of the Crèation of Meaning in Language* (Toronto, Toronto University Press, 1978), pp. 44–64 and Stephen Bann, *The Clothing of Clio: A Study of the Representation of History in Nineteenth Century Britain and France* (Cambridge, Cambridge University Press, 1984).

53 White, *The Content of the Form*, op. cit., Introduction, pp. 1–23.

54 White, *Tropics of Discourse*, op. cit., Introduction, p. 19.

55 Roland Barthes, *Mythologies* (London, Cape, 1972), p. 129.

56 The anthropologist Clifford Geertz has been one of the main advocates of the textual model for understanding culture. See his 'Thick Description: Toward an Interpretative Theory of Culture' and his 'Deep Play: Notes on the Balinese Cockfight' in his collection *The Interpretation of Cultures* (New York, Basic Books, 1973), pp. 3–30, 412–453.

57 White, 'The Context in the Text', in *The Content of the Form*, op. cit., p. 188.

58 White, 'The Absurdist Moment in Contemporary Literary Theory', in *Tropics of Discourse*, op. cit., pp. 261–282.

59 White, 'Historicism, History, and the Figurative Imagination', in ibid., p. 117.
60 Ibid.
61 Hayden White, 'The Metaphysics of Narrativity: Time and Symbol in Ricoeur's Philosophy of History', in *The Content of the Form*, op. cit., p. 173.
62 Ricoeur, *Hermeneutics and the Human Sciences*, op. cit., p. 279. See also Robert Scholes and Robert Kellogg, *The Nature of Narrative* (New York, Oxford University Press, 1966) and Saul Friedlander (ed.), *Probing the Limits of Representation: Nazism and the 'Final Solution'* (Cambridge, Massachusetts, Harvard University Press, 1992).
63 Hayden White, 'The Metaphysics of Narrativity', op. cit., p. 173.
64 Ibid., p. 181.
65 Ibid.

٥ - ما وجه الخطأ فى التاريخ التفكيكى ؟

1 Fred A. Olafson, 'Hermeneutics, "Analytical" and "Dialectical"', *History and Theory, Beiheft* 25, 1986, pp. 28–42.
2 John Tosh, *The Pursuit of History* (London, Longman, second edition, 1991), p. 108.
3 Joyce Appleby, Lynn Hunt and Margaret Jacob, *Telling the Truth About History* (New York, Norton, 1994), pp. 160–197.
4 T.S. Kuhn, *The Structure of Scientific Revolutions* (Chicago, University of Chicago Press, 1961).
5 Appleby *et al.*, *Telling the Truth*, op. cit., pp. 195 196.
6 Frank R. Ankersmit and Mark Bevir, 'Exchanging Ideas', *Rethinking History: The Journal of Theory and Practice*, Vol. 4, 2000, pp. 351–372.
7 Michel Foucault, 'What is Enlightenment?', in Paul Rabinow, *The Foucault Reader* (New York, Random House, 1984), pp. 32–50.
8 Appleby *et al.*, *Telling the Truth*, op. cit., p. 212.
9 Linda Gordon, 'Comments on That Noble Dream', *American Historical Review*, Vol. 96, No. 3, June 1991, pp. 683–687.
10 G.R. Elton, *Return to Essentials* (Cambridge, Cambridge University Press, 1991), p. 29. What is intended to be an accessible guide to key concepts in history, like truth, form and content, objectivity, event, knower and known, etc. is provided in Munslow, *Routledge Companion*, op. cit.
11 Michael Stanford, *A Companion to the Study of History* (Oxford, Basil Blackwell, 1994), p. 91.
12 Arthur Marwick, 'Two Approaches to Historical Study: The Metaphysical (Including Postmodernism) and the Historical', *Journal of Contemporary History*, Vol. 30, No. 1, January 1995, pp. 18–20.
13 Appleby *et al.*, *Telling the Truth*, op. cit., p. 227.
14 James T. Kloppenberg, 'Objectivity and Historicism: A Century of American Historical Writing', *American Historical Review*, Vol. 94, No. 4, October 1989, p. 1017.

15 Richard Rorty, *Philosophy and the Mirror of Nature* (Princeton, Princeton University Press, 1980) and *Consequences of Pragmatism* (Minneapolis, University of Minnesota Press, 1982); Richard J. Bernstein, 'The Resurgence of Pragmatism', *Social Research*, Vol. 59, 1992, pp. 825–826.
16 Kloppenberg, 'Objectivity and Historicism', op. cit., p. 1018.
17 Quoted in ibid., p. 1020.
18 Ellen Nore, 'Charles A. Beard's Act of Faith: Context and Content', *The Journal of American History*, Vol. 66, No. 4, March 1980, pp. 850–866 and *Charles A. Beard: An Intellectual Biography* (Carbondale, Southern Illinois University Press, 1983).
19 Leon Goldstein, 'Impediments to Epistemology in the Philosophy of History', *History and Theory, Beiheft* 25, 1986, p. 96.
20 Marwick, 'Two Approaches', op. cit., pp. 20–23. See also John M. Ellis, *Against Deconstruction* (Princeton, Princeton University Press, 1989), p. 138.
21 Tosh, *The Pursuit of History*, op. cit., p. 137.
22 Marwick, 'Two Approaches', op. cit., p. 21.
23 C. Behan McCullagh, 'Metaphor and Truth in History', *Clio*, Vol. 23, No. 1, Fall 1993, p. 36. See also Paul Ricoeur, *The Rule of Metaphor: Multi-disciplinary Studies of the Creation of Meaning in Language* (London, Routledge, 1994 [1975]).
24 Ibid., p. 37.
25 Ibid.
26 E.H. Carr, *What Is History?* (London, Penguin, second edition, 1987), p. 11.
27 Ibid., p. 11.
28 R.G. Collingwood, *The Idea of History* (Oxford, Oxford University Press, revised edition, 1994), p. 244.
29 Carr, *What is History?*, op. cit., pp. 12–13.
30 See Keith Jenkins' treatment of the Carr-Elton debate in *On 'What is History?'* (London, Routledge, 1995), pp. 42–96, *passim*.
31 Peter Gay, *Style in History* (New York, Norton, 1974), p. 198.
32 Ibid., pp. 199, 217; Peter Novick, *That Noble Dream: The 'Objectivity Question' and the American Historical Profession* (Cambridge, Cambridge University Press, 1988), p. 611.
33 McCullagh, 'Metaphor and Truth', op. cit., p. 43.
34 Carr, *What is History?*, op. cit., p. 14.
35 Tosh, *The Pursuit of History*, op. cit., p. 139.
36 Elton, *Return to Essentials*, op. cit., p. 19.
37 F.J. Turner, 'Social Forces in American History', in *The Frontier in American History* (New York, Holt, Rinehart & Winston, 1920, reprinted 1962), pp. 311–334. This was the speech he delivered to the American Historical Association after his election as President of the Association in 1910.
38 Elton, *Return to Essentials*, op. cit., p. 6.
39 Ibid., pp. 9–11.
40 Ibid., pp. 15, 19.
41 Gertrude Himmelfarb, 'Some Reflections on the New History', *American Historical Review*, Vol. 94, No. 3, June 1989, p. 665. *The New History and the Old* (Cambridge, Massachusetts, Harvard University Press, 1987).

42 Gertrude Himmelfarb, 'The New History', *New York Times Review of Books*, Vol. 17, August 1980, p. 3, quoted in Novick, *That Noble Dream*, op. cit., p. 610.
43 Ibid.
44 Lawrence Stone, letter to *Harper's Magazine*, Vol. 268, June 1984, pp. 4–5, quoted in ibid.
45 Lawrence Stone, 'The Revival of Narrative', *Past and Present*, No. 85, 1979, p. 4.
46 Ibid., pp. 4–8.
47 Ibid., p. 23.
48 Ibid., p. 19.
49 Lawrence Stone, 'History and Post-Modernism', *Past and Present*, No. 135, May 1992, p. 217.
50 Ibid.
51 Ibid., pp. 189–190.
52 Ibid., p. 192.
53 Ibid., pp. 193–194.
54 Gabrielle M. Spiegel, 'History and Post-Modernism', *Past and Present*, No. 135, May 1992, pp. 197–198, and *Practicing History*, op. cit.
55 Ibid., p. 203.
56 Tosh, *The Pursuit of History*, op. cit., p. 138.
57 Ibid., p. 139.
58 A.J.P. Taylor, 'Fiction in History', *Times Literary Supplement*, 23 March 1973, p. 327.
59 Ibid., p. 328.
60 Ibid.
61 Robert F. Berkhofer, *Beyond the Great Story: History as Text and Discourse* (Cambridge, Massachusetts, Harvard University Press, 1995), pp. 38–50.
62 Richard T. Vann, 'Theory and Practice in Historical Study', *Guide to Historical Literature*, Beth Norton and Pamela Gerardi (eds) (New York, American Historical Association, 1995), pp. 1–4.
63 Ibid., p. 4.
64 Collingwood, *The Idea of History*, op. cit., p. 391.
65 C. Behan McCullagh, *Justifying Historical Descriptions* (Cambridge, Cambridge University Press, 1984), pp. 8–10 and 'Metaphor and Truth', op. cit., pp. 43–44.
66 Olafson, 'Hermeneutics', op. cit., p. 40.
67 David Carroll, 'Poetics, Theory, and the Defence of History', *Clio*, Vol. 22, No. 3, 1993, pp. 273–289, a review of Philippe Carrard's *Poetics of the New History*, op. cit.
68 Ibid., p. 277.
69 Ibid., p. 289. See also William Cronon, 'A Place for Stories: Nature, History, and Narrative', *Journal of American History*, Vol. 78, March 1992, pp. 1347–1376, who very much doubts that radically different multiple interpretations using the same evidence are viable.

70 Appleby *et al.*, *Telling the Truth*, op. cit., pp. 254–257.
71 Arthur Danto, *Narration and Knowledge* (New York, Columbia University Press, 1985), p. 177.
72 Andrew P. Norman, 'Telling It Like It Was: Historical Narratives On Their Own Terms', *History and Theory*, Vol. 30, No. 2, 1991, pp. 133–134.
73 Appleby *et al.*, *Telling the Truth*, op. cit., p. 229.
74 Ibid.
75 Ibid., pp. 229–230.
76 Ibid., p. 230.
77 Eric Hobsbawm in Felix Gilbert and E.R. Graubard (eds), *Historical Studies To-Day* (New York, Norton, 1972), p. 9, quoted in Stanford, *A Companion*, op. cit., p. 106.
78 Alasdair MacIntyre, 'Epistemological Crisis, Dramatic Narrative, and the Philosophy of Science', *The Monist*, Vol. 60, 1978, p. 457, quoted in Norman, 'Telling It Like It Was', op. cit., p. 131.
79 Alex Callinicos, *Theories and Narratives: Reflections on the Philosophy of History* (Cambridge, Polity Press, 1995), p. 71. See also Hayden White, 'Historical Emplotment and the Problem of Truth', in Saul Friedlander (ed.), *Probing the Limits of Representation* (Cambridge, Massachusetts, Harvard University Press, 1992), pp. 37–53.
80 Collingwood, *The Idea of History*, op. cit., p. 32.
81 James A. Winn, 'An Old Historian Looks at the New Historicism', *Comparative Studies in Society and History*, Vol. 35, No. 4, October 1993, pp. 867–868.
82 Appleby *et al.*, *Telling the Truth*, op. cit., p. 251.

٦ - ما وجه الخطأ فى إعادة بناء التاريخ والتاريخ البنيوى ؟

1 Jerzy Topolski, 'Towards an Integrated Model of Historical Explanation', *History and Theory*, Vol. 30, No. 3, 1991, pp. 324–338; Brown, *Postmodernism*, op. cit., pp. 26–29, 96–99.
2 Joan W. Scott, 'History in Crisis? The Others' Side of the Story', *American Historical Review*, Vol. 94, No. 3, June 1989, pp. 680–692.
3 Hans Kellner, *Language and Historical Representation: Getting the Story Crooked* (Madison, University of Wisconsin Press, 1989), p. vii.
4 Gérard Genette, *Narrative Discourse*, trans. Jane E. Lewin (Oxford, Basil Blackwell, 1986 [1972]) and *Narrative Discourse Revisited*, trans. Jane E. Lewin (Ithaca, Cornell University Press, 1990 [1983]); Seymour Chatman, *Story and Discourse: Narrative Structure in Fiction and Film* (Ithaca and London, Cornell University Press, 1978); Jerome Bruner in his *Acts of Meaning* (Cambridge, Massachusetts, Harvard University Press, 1990); Paul Ricoeur, *Time and Narrative*, trans. Kathleen McLaughlin and David Pellauer (Vol. 1) (Chicago, University of Chicago Press, 1984), p. 41.
5 Perez Zagorin, 'Historiography and Postmodernism: Reconsiderations', *History and Theory*, Vol. 29, No. 3, 1990, pp. 263–274.

6 Jörn Rüsen quoting Ranke in 'Rhetoric and Aesthetics of History: Leopold Von Ranke', *History and Theory*, Vol. 29, No. 2, 1990, pp. 190–204.
7 David A. Hollinger: 'Postmodernist Theory and *Wissenschaftliche* Practice', AHR Forum, *American Historical Review*, Vol. 96, No. 3, June 1991, pp. 688–692.
8 Mark Bevir, 'Objectivity in History', *History and Theory*, Vol. 33, No. 3, 1994, pp. 328–344.
9 Gabrielle M. Spiegel, *Romancing the Past: The Rise of Vernacular Prose Historiography in Thirteenth Century France* (Berkeley, University of California Press, 1992) and Carol Douglas Sparks, 'The Land Incarnate: Navajo Women and the Dialogue of Colonialism, 1821–1870', in Nancy Shoemaker (ed.), *Negotiators of Change: Historical Perspectives on Native American Women* (New York, Routledge, 1995), pp. 135–156.
10 James R. Kincaid, *Child Loving: The Erotic Child and Victorian Culture* (New York, Routledge, 1992), p. 5.
11 Sparks, 'The Land Incarnate', op. cit., pp. 136–137.
12 Roger Chartier, *Cultural History: Between Practices and Representations* (Cambridge, Polity Press, 1988), p. 42.
13 J.G.A. Pocock, *Virtue, Commerce and History: Essays on Political Thought and History Chiefly in the Eighteenth Century* (Cambridge, Cambridge University Press, 1985), pp. 8–15.
14 Mark Bevir, 'The Errors of Linguistic Contextualism', *History and Theory*, Vol. 31, No. 3, 1992, pp. 276–298.
15 Peter Burke (ed.), *New Perspectives on Historical Writing* (Cambridge, Cambridge University Press, 1991), p. 238.
16 Gabrielle M. Spiegel, 'History and Post-Modernism', *Past and Present*, No. 135, May 1992, p. 197.
17 David Harlan, 'Intellectual History and the Return of Literature', *American Historical Review*, Vol. 94, No. 3, June 1989, pp. 581–609.
18 Bruno Latour and Steve Woolgar, *Laboratory Life: The Social Construction of Scientific Facts* (Los Angeles, Sage, 1979) and also more recently Bruno Latour, *Aramis or the Love of Technology*, trans. Catherine Porter (Harvard, Harvard University Press, 1996).
19 Harlan, loc. cit., p. 609.
20 Ibid. See also David Harlan, *The Degradation of American History* (Chicago, University Chicago Press, 1997).
21 Alex Callinicos, *Theories and Narratives: Reflections on the Philosophy of History* (Cambridge, Polity Press, 1995), pp. 95–96.
22 Paul Ricoeur, *Time and Narrative* (trans. K. McLaughlin and D. Pellauer, 1, Chicago, University of Chicago Press, 1983–84), pp. 130–31.
23 Philippe Carrard, *Poetics of the New History: French Historical Discourse from Braudel to Chartier* (Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1992), pp. 74–82, esp. p. 75.
24 Robert F. Berkhofer, *Beyond the Great Story: History as Text and Discourse* (Cambridge, Massachusetts, Harvard University Press, 1995), p. 58.
25 Callinicos, *Theories and Narratives*, op. cit., p. 76.
26 Lawrence Stone, 'History and Post-Modernism', *Past and Present*, No. 131, 1991, p. 191.

27 Ibid., p. 192.
28 Simon Schama, *Landscape and Memory* (London, HarperCollins, 1995), p. 624.
29 Marshal Sahlins, *Islands of History* (Chicago, University of Chicago Press, 1985).
30 Burke, *New Perspectives on Historical Writing*, op. cit., p. 240.
31 Ibid., pp. 240–241.
32 Ibid., p. 241.
33 Claire Sanders in interview with Natalie Zemon Davis, 'The Truth About Fiction', *Times Higher Education Supplement*, 10 November 1995, p. 21.
34 Schama, *Landscape and Memory*, op. cit., p. 7.
35 James A. Henretta, 'Social History as Lived and Written', *American Historical Review*, Vol. 84, No. 5, December 1979, pp. 1318 1319.
36 Ibid.
37 I explore the idea of history as representing cultural memory in Alun Munslow, 'Imagining the Nation: The Frontier Thesis and the Creating of America', in Philip John Davies (ed.), *Representing and Imagining America* (Keele, Keele University Press, 1996), pp. 15–23.
38 F.R. Ankersmit, 'Historiography and Postmodernism', *History and Theory*, Vol. 28, No. 2, 1989, p. 152.
39 R.G. Collingwood, *The Idea of History* (Oxford, Oxford University Press, revised edition, 1994), p. 434.
40 David Carroll, 'Poetics, Theory, and the Defence of History', *Clio*, Vol. 22, No. 3, 1993, pp. 273–289.

٧ - ميشيل فوكو والتاريخ

1 For a definitive listing of Foucault's work see James Bernauer and Thomas Keenan, 'The Works of Michel Foucault, 1954-1984', in James Bernauer and David Rasmussen (eds), *The Final Foucault* (Cambridge, Massachusetts, MIT Press, 1988). Among the most accessible commentaries on Foucault the historian are Hayden White, 'Structuralism and Popular Culture', *Journal of Popular Culture*, Vol. 7, 1974, pp. 759–775 and 'Foucault Decoded: Notes From Underground', *History and Theory*, Vol. 12, 1973, pp. 23-54, reprinted in *Tropics of Discourse: Essays in Cultural Criticism* (Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1978). See also Hubert L. Dreyfus and Paul Rabinow, *Michel Foucault: Beyond Structuralism and Hermeneutics* (Brighton, Harvester Press, second edition, 1983); Mark Poster, *Foucault, Marxism and History* (London, Polity Press, 1984); J.G. Merquior, *Foucault* (London, Fontana, 1985); Allan Megill, *Prophets of Extremity: Nietzsche, Heidegger, Foucault, Derrida* (Berkeley, University of California Press, 1985) and 'The Reception of Foucault by Historians', *Journal of the History of Ideas*, Vol. 48, 1987, pp. 117–141; Gary Gutting, *The Cambridge Companion to Foucault* (Cambridge, Cambridge University Press, 1994); Lois McNay, *Foucault, A Critical Introduction* (New York, Continuum, 1994); Alan Sheridan, *Michel Foucault, The Will to Truth*

(London, Routledge, reprinted 1994); Gerard Noiriel, 'Foucault and History: The Lessons of a Disillusion', *Journal of Modern History*, Vol. 66, September 1994, pp. 547-568 and Michael S. Roth, *The Ironist's Cage: Memory, Trauma and the Construction of History* (New York, Columbia University Press, 1995), pp. 71-136.

2 Rudy Koshar, 'Foucault and Social History: Comments on "Combined Underdevelopment"', *American Historical Review*, Vol. 98, No. 2, April 1993, p. 358.

3 Michel Foucault, *The Order of Things: An Archaeology of the Human Sciences* (New York, Random House, 1973).

4 White, 'Foucault Decoded', in *Tropics of Discourse*, op. cit.

5 Quoted in Noiriel, 'Foucault and History', op. cit., p. 551.

6 Roth, *The Ironist's Cage*, op. cit., pp. 72-78 and Clayton Roberts, *The Logic of Historical Explanation* (University Park, University of Pennsylvania Press, 1996), pp. 183-192.

7 Roth, *The Ironist's Cage*, op. cit., p. 76.

8 One of the best analyses of Foucault's epistemology is to be found in Dreyfus and Rabinow, *Michel Foucault*, op. cit., pp. 124-125. Michel Foucault, 'Nietzsche, Genealogy, History', in *Language, Counter Memory, Practice: Selected Essays and Interviews*, ed. by Donald F. Bouchard, and trans. by Donald F. Bouchard and Sherry Simon (Ithaca, Cornell University Press, 1977), pp. 139-164.

9 Ibid., p. 157.

10 Ibid., p. 158.

11 Michel Foucault, *The Archaeology of Knowledge* (New York, Harper & Row, 1972).

12 Michel Foucault, *The Birth of the Clinic: An Archaeology of Medical Perception* (New York, Vintage Books, 1975) and *Madness and Civilization: A History of Insanity in the Age of Reason* (London, Tavistock, 1973).

13 Patrick Joyce, *Democratic Subjects: The Self and the Social in Nineteenth Century England* (Cambridge, Cambridge University Press, 1994), p. 9.

14 White, 'Structuralism and Popular Culture', op. cit., p. 771.

15 Quoted in Lynn Hunt (ed.), *The New Cultural History* (Berkeley, University of California Press, 1989), p. 7.

16 Foucault, *The Archaeology of Knowledge*, op. cit., p. 191.

17 Ibid.

18 Ibid.

19 White, 'The Tropics of History' and 'Foucault Decoded' in *Tropics of Discourse*, op. cit., pp. 254, 197.

20 Ibid.

21 Louis Althusser, *Lenin and Philosophy and Other Essays* (New York, Monthly Review Press, 1971), p. 162. For a lengthier introduction see Alun Munslow, *Discourse and Culture: The Creation of America, 1870–1920* (London, Routledge, 1992), pp. 177-178.

22 Poster, *Foucault, Marxism and History*, op. cit., p. 71.

٨ - هايدن هوايت والتاريخ التفكيكي

1 John Passmore, 'Explanation in Everyday Life, in Science, and in History', *History and Theory*, Vol. 2, No. 2, 1962, pp. 122, 123, quoted by G. Roberts, 'Narrative History as a Way of Life', *Journal of Contemporary History*, Vol. 31, 1996, pp. 221–228. This issue also contains responses and replies to the Marwick–White dialogue.

2 F.R. Ankersmit, *History and Tropology: The Rise and Fall of Metaphor* (Berkeley, University of California Press, 1994), p. 3.

3 Keith Jenkins, *On 'What is History?'* (London, Routledge, 1995), pp. 134–179 and Keith Green and Jill LeBihan, *Critical Theory and Practice: A Coursebook* (London, Routledge, 1996), pp. 92–93, 100–101, 136–137. See also Raphael Samuel's empiricist dismissal of White in *Theatres of Memory* (London, Verso, 1994), pp. 8, 41–42 and Roger Chartier, *On the Edge of the Cliff: History, Language and Practice* (Baltimore and London, Johns Hopkins University Press, 1997), pp. 28–38.

4 Frederick A. Olafson, 'Hermeneutics: "Analytical" and "Dialectical" ', *History and Theory, Beiheft* 25, 1986, pp. 28–42.

5 Hayden White, 'The Politics of Historical Interpretation: Discipline and De-Sublimation', *The Content of the Form: Narrative Discourse and Historical Representation* (Baltimore and London, Johns Hopkins University Press, 1987), pp. 58–82.

6 Hayden White, 'The Historical Text as Literary Artifact', in *Tropics of Discourse: Essays in Cultural Criticism* (Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1978), p. 85.

7 Hayden White, 'Historicism, History and the Figurative Imagination', in ibid., pp. 101–120.

8 Hayden White, *The Content of the Form: Narrative Discourse and Historical Representation* (Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1987), p. 209.

9 Robert Berkhofer, *Beyond the Great Story: History as Text and Discourse* (Cambridge, Massachusetts, Harvard University Press, 1995), pp. 134–135.

10 Alun Munslow, *Discourse and Culture: The Creation of America, 1870-1920* (London, Routledge, 1992) and Dorothy Ross, 'Grand Narratives in American Historical Writing: From Romance to Uncertainty', *American Historical Review*, Vol. 100, No. 3, June 1995, pp. 651–677.

11 Hayden White, 'Interpretation in History', 'The Tropics of History: The Deep Structure of the New Science' and 'Foucault Decoded: Notes From Underground', in *Tropics of Discourse*, op. cit., pp. 51–80, 197–217, 230–260 and 'Structuralism and Popular Culture', *Journal of Popular Culture*, Vol. 7, 1974, pp. 759–775; Munslow, *Discourse and Culture*, op. cit., pp. 1–4.

12 Hayden White, 'The Fictions of Factual Representation', in *Tropics of Discourse*, op. cit., p. 134.

13 White, 'The Historical Text as Literary Artifact', op. cit., pp. 84–85.

14 Saul Friedlander, 'Introduction', in Saul Friedlander (ed.), *Probing the Limits of Representation. Nazism and the 'Final Solution'* (Cambridge and London, Harvard University Press, 1992), p. 3; Hayden White, 'Historical Emplotment and the Problem of Truth', in *Probing the Limits of Represen-*

tation. Nazism and the 'Final Solution' (Cambridge and London, Harvard University Press, 1992), pp. 37–53.

15 Friedlander, op. cit.

16 S. Monk, *The Sublime* (Ann Arbor, University of Michigan Press, 1960).

17 White, 'Interpretation in History', op. cit., p. 60.

18 Ankersmit, *History and Tropology*, op. cit., p. 41. See also Ankersmit, *Sublime, Historical Experience*, op. cit.

19 Ibid., pp. 34–36.

20 White, 'Interpretation in History', op. cit., pp. 55–56.

21 Jenkins, *On 'What is History?'*, op. cit., p. 85, quoting from White, *The Content of the Form*, op. cit., p. 1.

22 White, 'Interpretation in History', op. cit., p. 73.

23 Clayton Roberts, *The Logic of Historical Explanation* (University Park, University of Pennsylvania Press, 1996) is only one recent attempt to reinstate positivism and covering laws in historical explanation.

24 Philippe Carrard, *Poetics of the New History: French Historical Discourse From Braudel to Chartier* (Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1992), p. 75.

25 Alun Munslow, 'Imagining the Nation: The Frontier Thesis and the Creating of America', in Philip J. Davies (ed.), *Representing and Imagining America* (Keele, Keele University Press, 1996), pp. 15–23.

26 Hayden White, 'Response to Arthur Marwick', *Journal of Contemporary History*, Vol. 30, No. 2, April 1995, p. 240.

27 Ibid., p. 244.

28 Hayden White, *Metahistory: The Historical Imagination in the Nineteenth Century* (Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1973), p. 30.

29 White, 'Historicism, History and the Figurative Imagination', op. cit., pp. 101–120.

30 The best introduction to the White model is found in Jenkins, *On 'What is History?'*, op. cit., pp. 146–173.

31 White, *Metahistory*, op. cit., p. 29.

32 Ibid., pp. 29–30.

33 White, 'Interpretation in History', op. cit., p. 71.

34 Ibid., p. 72.

35 White, *Metahistory*, op. cit., p. 34.

36 Ibid.

37 Ibid., p. 30.

38 Michael S. Roth, *The Ironist's Cage: Memory, Trauma and the Construction of History* (New York, Columbia University Press, 1995), p. 144.

39 White, 'Interpretation in History', op. cit., p. 73.

40 White, *Metahistory*, op. cit., pp. 7–11.

41 Ibid., p. 11.

42 Ibid., p. 22.

43 Emmanuel Levinas, *Otherwise than Being: or, Beyond Essence*, trans. Alphonso Lingis (The Hague, Martinus Nijhoff, [1973] 1981); Frank R. Ankersmit, 'In Praise of Subjectivity', in David Carr, Thomas R. Flynn, and Rudolf A. Makkreel (eds), *The Ethics of History* (Evanston, Northwestern University Press, 2004), pp. 3–27.

44 White, *Metahistory*, op. cit., p. 24.
45 Ibid.
46 Louis Mink, 'History and Fiction as Modes of Comprehension', *New Literary History*, Vol. 1, 1970, pp. 541–558.
47 Ibid., pp. 557–558.
48 Ankersmit, *History and Tropology*, op. cit., p. 72.

٩ - خاتمة

1 Peter De Bolla, 'Disfiguring History', in Suzanne Gearhart (ed.), *The Open Boundary of History and Fiction: A Critical Approach to the French Enlightenment* (Princeton, Princeton University Press, 1984), pp. 57–64 and Alun Munslow, *Discourse and Culture: The Creation of America, 1870–1920* (London, Routledge, 1992).
2 This is a view explicitly argued by Elizabeth Deeds Ermath in *Sequel to History: Postmodernism and the Crisis of Historical Time* (Princeton, Princeton University Press, 1992).
3 George A. Reisch, 'Chaos Theory and Narrative', *History and Theory*, Vol. 30, No. 1, 1991, pp. 1–20, esp. p. 1.
4 Cushing Strout, 'Border Crossings: History, Fiction, and Dead Certainties', *History and Theory*, Vol. 31, No. 2, 1992, pp. 153–162.
5 Natalie Zemon Davis, 'On the Lame', *American Historical Review*, Vol. 93, No. 3, 1988, pp. 572–575. See also the attack on Davis's *The Return of Martin Guerre* in the same issue, Robert Finlay, 'The Refashioning of Martin Guerre', pp. 553–571, in which Finlay describes the book as failing to reach the acceptable standards of reconstructionist historical scholarship.
6 C. Behan McCullagh, *The Logic of History: Putting Postmodernism in Perspective* (London and New York, Routledge, 2004), p. 194.
7 F.R. Ankersmit, *History and Tropology: The Rise and Fall of Metaphor* (Berkeley, University of California Press, 1994), p. 44.
8 Elizabeth Tonkin, 'History and the Myth of Realism', in Raphael Samuel and Paul Thompson (eds), *The Myths We Live By* (London, Routledge, 1990), p. 27.
9 Joyce Appleby, Lynn Hunt and Margaret Jacob, *Telling the Truth About History* (New York, Norton, 1994), p. 279.
10 Hayden White, 'The Fictions of Factual Representation', in *Tropics of Discourse: Essays in Cultural Criticism* (Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1978), p. 134.
11 Philippe Carrard, *Poetics of the New History: French Historical Discourse from Braudel to Chartier* (Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1992), p. 18.
12 Quoted in Richard T. Vann, 'Louis Mink's Linguistic Turn', *History and Theory*, Vol. 26, No. 1, 1987, p. 12.
13 Hayden White, *Metahistory: The Historical Imagination in the Nineteenth Century* (Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1973), p. 31.
14 Hayden White, 'The Tropics of History: The Deep Structure of the "New Science"', in *Tropics of Discourse*, op. cit., p. 208.

15 Hayden White, 'Response to Arthur Marwick', *Journal of Contemporary History*, Vol. 30, No. 2, April 1995, p. 239.
16 John Milton Cooper, Jnr, *Pivotal Decades: The United States, 1900–1920* (New York, Norton, 1990), p. 158.
17 White, *Tropics of Discourse*, op. cit., p. 90.

مسرد بالمصطلحات الواردة فى الكتاب

الاتجاه الجمالى Aesthetic turn

هذا المصطلح يصف حساسية المؤرخين تجاه الطبيعة الجمالية (تمثيلية وشعرية وأدبية. وهو يتبع من الاتجاه بتأكيدها الجديد على طبيعة نص التاريخ بوصفه تقديما أكثر منه ببساطة بناء لغويا. وموضوعات المحاكاة (محاكاة الماضى من خلال تمثيله أو تقديمه) كما أن إحلال الكلمة محل العالم أمر مركزى فيها. وكما واصل فرانك آنكر سميث يجب على المؤرخين أن يفهموا الطبيعة الجمالية النقدية للتاريخ الذى يكمن فيه الفكر العقلانى والإمبريقية. وهو يجادل أن قرارات المؤرخ الجمالية تسبق المعرفة لأن التاريخ وليس الماضى هو الذى تبدأ منه . أحسن رد معروف على الاتجاه الجمالى قدمه، سلفا قبل استخدام الاتجاه الجمالى فعلا، فيلسوف التاريخ بيتر جاى فى كتابه Style in History المنشور ١٩٧٤م، الذى كان دراسة لبلاغة چيبون، ورانكه، وماكولى، وبوركهارت . ويتمسك جاى بأى وسائل المؤرخ الأدبية تخدم الحقيقة.

فرانك أنكر سميت Ankersmit . Frank 1945

يتبنى فرانك آنكر سميت فلسفة تاريخ ترى أن التاريخ نشاط سردى. وهو كاتب مكثر، نشر إنتاجه فى عدة لغات . وأول نص أساسى له كان :

Narrative Logic : A Semantic Analysis of the Historian's Language (1983) .

الذى تبعه مجموعة من مقالاته الكبرى فى المجلات، ومنها :

History and Tropology : The Rise and Fall of Metaphor (1994)

وفى وقت أحدث ثلاثة كتب عن طبيعة التقديم:

Historical Representation (2001), Political Representation (200), and Sublime Historical Experience (2005.

فى هذه النصوص التى قدمها أنكرسميت، عن طريق الجدل، كان أكثر تقرير مرض عن طبيعة البحث التاريخى قد رؤى على أنه شكل من التفسير السردى. ومن الأمور الجوهرية، كما يجادل، فإن وظيفة التاريخ المعرفية فى المادة السردية للنص بدلاً من عباراته الفردية للاعتقاد المبرر (تصريحات حقيقية) . ويتبع ذلك أن التاريخ (أى سردى مبنى عن الماضى) لا يمكن مقارنته بالماضى نفسه . والسرديات فقط هى التى يمكن مقارنتها بالسرديات . هذا الحكم يستلزم إعادة تقييم لماهية التاريخ، أى أن الإمبريقية ليست الوحدة الأساسية للتاريخ، ومن ثم، فإننا يمكن فقط أن «نعرف» الماضى من خلال تقديمه. ومن ثم يمكن للأوصاف فقط أن تكون حقيقية أو زائفة.

المعرفة المسبقة A priori knowledge

مصطلح شائع فى الفلسفة يفترض أن المعرفة مستقلة عن التجربة

المجادلة Argument

مجموعة من الفروض المنطقية الاستنتاج المستخرج أو مستنبط منها. ويقال إن المجادلة لكى تكون صالحة (وهو ليس الشىء نفسه مثل حقيقته) إذا ما كان الاستنتاج إما مستنبط أو مستخرج من الفروض المنطقية.

الكليوميترية Cliometrics

تطبيق الرياضيات والإحصائيات على معلومات الماضى لكى تسهِّل التفسير . وكان شائعا فى ستينيات القرن العشرين، خاصة فى التاريخ الاقتصادى ولكنه فى تدهور إلى حدٍ ما فى تسعينيات القرن العشرين.

الضم Colligation

فى التاريخ، عملية شرح حدث ما بواسطة تجميع مجموعة من الأحداث المنفصلة بشكل واضح تحت وصف أو مبدأ عام ؛ أى اختراعات من القرنين الثامن عشر

والتاسع عشر تحت وصف الثورة فى التفكير العلمى . والعملية مشابهة، ولكنها ليست مطابقة، للحبك الذى يعرِّف نموذجًا فى توالى الأحداث . وبالنسبة للمؤرخين الذين يرفضون مفهوم الحبك لصالح الضم، وحصادها يفترض عادة أنه إعادة بناء الماضى على نحو ما، بسبب تطابق الأسباب . ويتمثل الخطر فى أن المؤرخين من أنصار إعادة بناء الماضى يجادلون أن خلق المعنى خلال السياق يتجنب مثل هذه المصاعب .

البنيوية Contrctionism

متطلب المؤرخين لاقتراح وليس اكتشاف العلاقات بين الأحداث فى الماضى. فى القرن العشرين تأسست البنيوية بأكبر قدر من الوضوح فى المدرسة الماركسية التى تقدم بناء استغلال الطبقة على أنه النموذج فى الفهم التاريخى . ومدرسة «الحوليات» قدمت التاريخ البنيوى الذى يشير إلى نظريات سكانية أو سلوكية. والمؤرخون البنيويون يمكن تمييزهم بوضوح عن فئتين رئيسيتين أخريين: من أنصار إعادة بناء الماضى والتفكيكيين.

السياق Context

فى التاريخ، هو خلفية الحدث الموصوف، معرفة ما يساعد على خلق المعنى . فى الممارسة السياق هو إطار الحقائق الأخرى، والأحداث والظروف السابقة.

نظرية التواصل للحقيقة Correspondence of theory of truth

المجادلة أن الاقتراحات تكون حقيقية عندما تتواصل مع الحقائق . وعلى الرغم من أنه غالبا ما يكون أن نؤسس ما هو حقيقى، فإن فكرة الإدراك العام عن التواصل (أو الإنعكاس) بين الكلمة والعالم تبقى بالنسبة لكثير من المؤرخين فى التيار السائد بين مؤرخى إعادة مؤرخى مفهوما جذابًا، وإن كان النزاع يتزايد باستمرار بشأنه .

قوانين التغطية Covering laws

نموذج للشرح التاريخى (يتصل مباشرة بالأسباب المؤسسة) طورها الفيلسوف الأمريكى للتاريخ كارل هيميل (١٩٠٥م) وتأسست على الإصرار أن حدثًا ما يمكن شرحه عندما يمكن استنباطه من الطبيعة الإنسانية أو السلوك الإنسانى. وغالبًا ما يحدث أن يأخذ شكل الاحتمالات الإحصائية.

موت المؤلف Death of the auther

مشتق من الدراسة التفكيكية للأدب التى نشأت أصلاً مع رولاند بارثيس (١٩١٥-١٩٨٠م) واستخدمها بشكل مكثف ميشيل فوكو (١٩٢٦-١٩٨٤) يشير إلى أن جميع النصوص تسبق مؤلفيها الذين يبنون ببساطة ما لا يمكن أن يمنح امتياز المعنى. وبالنسبة للمؤرخ التفكيكى الدليل لا يشير إلى حقيقة ماضية قابلة للاكتشاف كما توجد فى قصد المؤلف ولكنه يقدم بدلاً من ذلك فقط سلاسل من الدلالات والتفسيرات.

التفكيكية Deconstructionism

مصطلح جاء أصلا مع چاك دريدا (١٩٣٠-٢٠٠٤م) يوحى بأن فهم النصوص ليس فقط ولا يعتمد حصريا على الإشارة إلى حقيقة تاريخية للإمبريقية، الرب، العقل، الأخلاقيات، الموضوعية أو قصد المؤلف (أنظر موت المؤلف) هذا المفهوم المتمركز حول الكلمة عن مصدر أصلى للمعنى المطلق يثير مجادلات لصالح افتراض أن المعنى تم إنتاجه بطريقة اعتباطية وتصويرية .

التاريخ التفكيكى Deconstructionist History

فى التاريخ، نموذج دراسة يتساءل عن الفروض التقليدية للإمبريقية توضع على أنها حقيقية، والتحليل المحايد، والموضوعية، والحقيقة، والتقسيم المستمر بين التاريخ، والإيديولوچيا، والخيال، والمنظور . وبدلاً من ذلك يقبل التاريخ التفكيكى أن اللغة تشكل محتوى التاريخ وكذلك مفاهيم وفئات مستخدمة لتنظيم وشرح الدليل التاريخى من خلال القوة اللغوية للتصويرية .

الحسم Determinsm

مفهوم أن العمليات التاريخية مبنية وفقًا لقوى وراء الاختيار / أو النفوذ الجماعى، بحيث أن جميع الأحداث فى الواقع تكون بشكل غير متوقع تأثيرات محسومة بأحداث مسبقة . وأشهر مثال فى النموذج الماركسى الذى يصر على أن التاريخ نتيجة صراع الطبقات.

الاختلاف Difference / différance

مصطلح يتم صكه على يد الفيلسوف التفكيكى جاك دريدا (١٩٣٠-٢٠٠٤م) كنوع من التلاعب بالفعل الفرنسى «différer» الذى يعنى «يختلف» و «يؤجل» والانزلاق الناتج للمعنى مؤداه أننا لا يمكن أن نميز نقطة حقيقية أو أصلية للمعنى - ليس هناك موقع أصلى للمعنى. وهذه مجادلة مركزية فيما بعد البنيوية .

الخطاب Discourse

نتيجة وضع أو إدخال نص ما (عادة ما يكون أطول من جملة بسيطة) فى سياقها بحيث يشتق منها معنى متماسك يشترك فيه كل المؤلف والقارئ) . وباعتباره أرضية مشتركة للغة، خطاب له إشارة مرجعية إلى أبعاد لغوية زائدة كما توجد فى العوالم المادية والأيديولوچية للقوى المؤسسية والاقتصادية.

التقمص Empathy

مرتبط عادة بالمنهج التاريخى زاوج بينهما المؤرخ البريطانى كولينجوود (١٨٨٩-١٩٤٣) فى كتاب The Idea of History(1963) ، وهى تعنى حالة أن تكون «على اتصال» بالأفكار وموقف الفاعل التاريخى. والطريق إلى هذه الحال العاطفية والعقلية لتفسير الدليل التاريخى بإعادة التفكير حرفيا فى أفكار الناس فى الماضى داخل سياقهم المعلوم. وبالنسبة لكثير من المؤرخين من أنصار إعادة بناء الماضى فإن رابطة التقمص فى الدليل والسياق هى التى تشكل التاريخ .

الإمبريقية Empiricism

المنهج الذى بواسطته تكتسب المعرفة من خلال استخدام الحواس ونحن نلاحظ الحياة ونمارسها، أو من خلال البيانات أو المجادلات التى تظهر على أنها حقيقية. وفى التراث الأنجلو- أمريكى فى كتابة تاريخ إعادة بناء الماضى، كانت الإمبريقية المنهج المركزى بإصرار خاص على كشف تلازم الملاحظة الموضوعية لحقيقة «الموجودة هناك» . والمشكلة التى تواجهها الإمبريقية عادة تتمثل فى أن الفكر لا يبرز من التجربة ببساطة، ولكنه بالفعل يمدنا بمفاهيم أو تصنيفات عقلية نستخدمها لكى ننظم تجربتنا ونضفى

عليها المعنى. ويؤدى هذا حتما إلى السؤال: كيف يمكننا حقا أن نعرف أن الحقيقة «هناك» مع الأخذ فى الاعتبار أن ملاحظاتنا قد تكون مجرد بنى من عقولنا أو من حدسنا ؟ معظم الإمبريقيين والمؤرخين الواقعيين العمليين المعتدلين من أنصار إعادة بناء الماضى اليوم يقبلون موقفا وسطًا، أننا نلاحظ ولكننا أيضا من الناحية العملية نرتب المعلومات، مستخدمين معرفة مسبقة بوصفها مساعدة ومناسبة . ويمكن للإمبريقية، بطبيعة الحال، أن يأخذ شكل إنكار المعرفة المسبقة.

الحبك Emplotment

معنى أى سرد تاريخى أو خيالى تقدمه الحبكة (خط قصة أو بناء حبكة) بمعنى سرد للأحداث وروابطها السببية والسياقية والتجميعية . ودور المؤرخين أن يحولوا توالى الأحداث (حدث هذا، ثم حدث ذلك) إلى قصة من نوع معين- رواية رومانسية، فكاهية، مأساوية، أو ساخره، أو مزيج بين هذا كله. وإذ يعتمد الحبك على الاتجاه الأيديولوچى للمؤرخ، فإنه يُنتج بقصد اكتشاف المعنى أو فرض معنى على الأحداث . كل التواريخ لها حبكات .

التنوير Enlightenment

حركة فكرية، وثقافية، وفنية / علمية واسعة الانتشار، كانت بذرة العصر الحديث. وقد بدأت أوائل القرن السابع عشر فى انجلترا (سبقتها أعمال رينيه ديكارت، وفرنسيس بيكونوچون لوك، وتوماس هوبس) وانتهت عند ختام القرن الثامن عشر فى فرنسا وألمانيا (بڤولتير، وديدرو، وليسينج) ولكنها كانت موجودة فى جميع أنحاء أوروبا. وكان الفكر الأوربى يتسم بما كان زمنا للتغير التكنولوچى والعلمى العظيم بقبول مفاهيم جديدة مثل الوضعية والتجريب فى العلوم، وبالملاحظة الدقيقة للظواهر الطبيعية، والعقل وتحسين التفسير العقلانى، وأفكاره جديدة تتعلق بالحكم من خلال التعاقد بدلاً من القوة (قائم على أساس ظهور مذهب الليبرالية بأسسه المركزية عن السيادة الشعبية وتكافؤ الفرص)، وبواسطة مفهوم جديد عن السوق باعتباره آلية اقتصادية عقلانية . ويرى أثره على التاريخ فى عملية خلقه نفسها بوصفه نظاما قائمًا على الاعتقاد أنه تسجيل للتقدم وإمكانية الكمال الإنسانى. وربما كان من المحتم أن

الفكرة التى تولدت عن ذلك لم تلبث أن تحولت على نفسها، بحيث طورت تساؤلا من عقائدها المركزية الخاصة فى القرون التالية، لاسيما فى الوقت الحالى (أو عصر ما بعد الحداثة).

حقبة معرفية Episteme

يستخدم ميشيل فوكو (١٩٢٦-١٩٨٤) فى كتاب The Order of Things الصادر سنة١٩٦٦م، يستخدم المصطلح للدلالة على كيف يمكن لثقافة ما أن تحوز المعرفة وتنظمها فى فترة تاريخية محددة . وتربط المعرفة جميع الخطابات المنفصلة ·دينية، علمية، تاريخية، طبية ... إلخ) فى بناء متماسك على نحو أو آخر للفكر قائم على أساس مجموعة من الفروض المشتركة عن كيف يمكن الحصول على مثل هذه المعرفة واستخدامها. والفروض المشتركة مثبتة من خلال عملية التصوير المجازى التى تحدث عند المستوى العميق فى الوعى الإنسانى، والتى هى أساسية فى الحبكات التى يولدها المؤرخ . والمعرفة بهذا منظمة داخل كل من الحقب المعرفية التاريخية الأربع المتمايزة التى يتمسك فوكو بأنها موجودة منذ القرن السادس عشر حتى القرن العشرين . وبالنسبة للمؤرخ فإن هذه الفروض أو المواقف، وهى تميز كل شكل سائد فى كل عصر من التقديم السردى، معروضة فى سردياتنا وتؤثر بكشل مباشر على وصولنا إلى «الحقيقة» فى الدليل من خلال صياغتنا عن التشابه أو عدم التشابه .

نظرية المعرفة Epistemology

نظرية المعرفة . من بين اهتماماتها كيف تكتشف / أو تُبنى من خلال مناهج أو آليات مختلفة مثل الإمبريقية، أو المعرفة المسبقة، كيف يمكن لنا أن نبرر ما نعتقد (فى مواجهة ما نعرفه) والشك فى حيازة المعرفة، وتبقى واحدة من الاهتمامات المركزية للفلاسفة، وهو اهتمام ينمو باستمرار بين المؤرخين بسبب الدور المثير للجدل للإمبريقية بوصفها منهجاً تاريخيا .

الاتجاه الخلقى Ethical turn

فكرة التاريخ باعتباره عملية أخلاقية قد اكتسبت أرضية متعاظمة. وفى مصطلحات كل من الاستخدام الذى يمكن به وضع التاريخ وكيف يتم بناؤه، تلعب

الأخلاق دورا مركزيا. ومن الناحية الجدلية التاريخ مجرد خطاب من تلك الخطابات التى تلى الأخلاق . ومن الأمور المهمة، فإن هذا يلقى الشك حول مفهوم أننا نستطيع أن نتعلم دروسا أخلاقية (أو أى دروس) من الماضى. والحاضر ليس مختلفًا فقط عن الماضى، ويكاد يكون من المؤكد أنه يختلف عن المستقبل، فإن الاتجاه الجمالى يشير إلى أن كيفية تقديمنا قد بُنيت فى قيمة خلقية. والتاريخ، مثل السرد المبنى، يلى الأخلاق، وهو ما يسميه الفيلسوف الأخلاقى إيمانويل لي ڤيناس (١٩٠٥-١٩٩٥م) فلسفة أولى. ومن الأمور المثيرة للجدل أن التاريخ «ما بعد أخلاقى» وأن جاذبية أى تاريخ تكمن فى تقديم هذه المبادئ السياسية والأخلاقية التى تروق لنا أكثر من غيرها . وهكذا، إذا كان التاريخ نشاطا أخلاقيا بالشكل الذى لا يمكن تجنبه، فعلى المؤرخين أن يعترفوا بالأفضليات الخلقية التى لدينا. ويشير الاتجاه الخلقى إلى أن الدروس الأخلاقية لا تتحول إلى مادة من الماضى؛ إنما هى توضع فى التاريخ بينما نبنيه .

الدليل Evidence

من الناحية التقليدية، فإن المصادر، الوثائقية (الأولية) أو التى كتبها المؤرخون (الثانوية) على السواء، هى التى تقوم عليها التفسيرات التاريخية التى يعتد بها . ولا يمكن اعتبار الدليل منفصلا عن عملية تفسيره من خلال الاستقراء وتكوينه على أنه حقيقة بتحقيق أولى ومقارنة تشهد بأصالته، وبأن يوضع فى سياقه .

الحقيقة Fact

مفهوم الحقيقة معقد ومثير للنزاع بين المؤرخين . ومن الناحية التقليدية، تكون الحقيقة حادثا فعليا لا نزاع حوله، عملية أو قطعة من فعل اجتماعى يتفق المؤرخون عليه- معركة واترلو التى حدثت سنة ١٨١٥ - الصلة بين الحقيقة والوصف . ووراء هذا المستوى البسيط من البيان الفعلى يدخل المؤرخون فى الحال إلى مملكة التفسير. ماذا نفعل بالحقيقة؟ كيف نجمع بين الحقائق ؟ كيف نسردها ؟ كيف نضعها فى مسار متتابع ونشرحها ؟ ووراء المشكلات المعتادة مع الدليل- ربما تكون أصالته أو حقيقته موضع شك، أو لا يمكن الاعتماد عليه (مؤلفوها كاذبون) أو هم ببساطة غائبون - يواجه المؤرخون صعوبات عديدة فى تشكيل الحقائق. ما المعايير التى ينبغى

استخدامها من جانب المؤرخ الذى يفرض أسلوبه لكى يغربل الأدلة ويلقى بالدليل الذى حكم عليه بأنه لا علاقة له بتأسيس الحقائق ؟ هل يجب على المؤرخين جميعاً أن يصيروا بنيويين «يختبرون» الدليل على خلفية فرض لتأسيس حقيقة ما ؟ وماذا عن الطبيعة التى لا يمكن الاعتماد عليها للمساواة بين - الدال- والمدلول- والعلامة ؟

التأويل Hermeneutics

حرفيا فن التفسير للنصوص (الأدلة) مهارة فنية استخدمها البروتستانت بعد حركة الإصلاح الدينى لتفسير الكتاب المقدس، وقد بدأت التأويلات الحديثة بجهود فريدريش شليدماخر (١٧٦٨-١٨٣٤م) لفهم النصوص نحويا وكان المؤلفون يقصدونه على ما يرجع عندما كتبوها (العناصر النحوية والنفسية) . والدائرة التأويلية هى العروة التى تربط ما بين النص والمؤلف. وبوصفها عملية تفسير كانت قد تمددت بواسطة فيلهلم دلتاى (١٨٣٣-١٩١١م) لكى تتضمن رسم مشابهات بين المقاصد المحتملة لكاتب الدليل وتجاربنا الخاصة. وقد شكل هذا أساساً لمفهوم كولينجوود عن التقمص . فى القرن العشرين، وسع مارتن هيدجر (١٨٨٩-١٩٧٩م) التأويلات بحيث تتضمن تفسير وجودنا نحن بوصفنا

التفسير التاريخى Historical interpretation

رواية سردية عن الأحداث، والماجريات، والنصوص والشعب فى الماضى يقدم المحتوى بصورة مفهومة أو مقبولة . وتتضمن العملية في نقطة العملية فى نقطة ما كافة الجوانب التدقيق فى الأدلة والمنهج التاريخى، كيف تم تعريفها من جانب المؤرخ - الاستقراء ربط الأحداث ببعضها، وصفها فى سياق، الحبك، المجادلة، النزعة الفرضية، التقمص ... إلخ.

الأيديولوچيا Ideology

مجموعة متماسكة من أفكار أنتجت اجتماعيا تميل إلى خلق وعى جماعى. والأيديولوچيا زمان ومكان محدد. وإذ تشكل على أنها حالة عامة من الشرح والعقلانية، فإن الأيديولوچية يجب أن تُشبع المجتمع وتنقل بواسطة آليات اجتماعية ومؤسساتية، مثل الاعلام، والكنيسة، والتعليم والقانون . وفى رأى بعض الشارحين، يمكن أن نجد

الأيديولوچيا فى جميع المهن الاجتماعية مثل بنى السردية (بما فى ذلك التاريخ المكتوب)، وقوانين السلوك، ونماذج الاعتقاد. والإيديولوچيا وفقا للنظرية الماركسية، تعكس سلطة الطبقة الاجتماعية السائدة وتحافظ عليها بالحجب المتعمد لحقيقة الاستغلال الاقتصادى، وبهذا تضمن أن تظهر العلاقات الاقتصادية فى المجتمع الرأسمالى طبيعية ومشروعة.

النزعة الفرضية Impositionalism

العملية التى بها يتدخل المؤرخون فى تشكيل الماضى على أنه تاريخ . وعلى الرغم من أن هذا مرفوض من جانب الواقعيين السذج بوصفه فساداً للعلم التاريخى، فإن الواقعيين العمليين والتفكيكيين من المؤرخين يعترفون بالطبيعة التى لا يمكن تحاشيها للحوار بين المؤرخ ومصادره . والمؤرخون التفكيكيون، على وجه الخصوص، يقبلون التفسير التاريخي على أنه يعنى ترتيب الأفكار، استخراج الأدلة، وفرض حبكة تفسيرية أى مجادلة على الماضى. ويتبع ذلك أن المعرفة التاريخية منتجة بوصفها نصا لغويا ليست له وسيلة مباشرة للوصول إلى حقيقة الماضى.

الاستقراء / الاستنباط Induction / deduction

الاستقراء شكل من الشرح قائم على أساس استنباط من الخاص إلى العام، أو ربما يوصف بشكل بديل على أنه تعميم من أمثلة تمت ملاحظتها من أمثلة مدروسة . إنه الشكل التقليدى أو العام من التفسير التاريخى. والاستنباط تفسير حيث يجب أن يتبع منطقيا من مجموعة من الفروض المنطقية. وفى الممارسة يستخدم معظم المؤرخين كلا المنهجين فى الشرح.

الاستدلال Inference

عملية الفكر للتحرك من مجموعة من المعتقدات إلى مجموعة أخرى قائمة على أساس معلومات جديدة. والشكلان الأوليان هما الاستقراء والاستنباط .

كيث چينكنز Keith (1943،Jenkins م)

كيث چينكنز هو المؤرخ البريطانى الشكاك البارز الذى، منذ أوائل تسعينيات

القرن العشرين بنصِّه الشهير (١٩٩١) Rethinking History، واجه الصدع والعيب الذى جادل بأنه يوجد فى قلب علم التاريخ . هذه هى الطريقة التى يخفى بها العلم طبيعته الحقيقية باعتباره شكل تقديم من نفسه (ومن ثم من مستهلكيه) . ولأنه يرى نفسه باعتباره غريبًا فكريًا، فإنه يرى الحكم المثير للنزاع بأن التاريخ كان، وهو الآن، نشاطا ثقافيا، وأدبيًا، وفلسفيًا ينتج المعنى بشأن الماضى بدلاً من اكتشافه فى علاماته الإمبريقية . ويتبع تحليله من خلال العواقب الناتجة عن رؤية تاريخية من خلال تصنيفات متمايزة أنطولوجيا أحدهما ما كان ذات مرة وهو الآن قد اختفى، ولا يمكن أن نستعيده ؛ والآخر خطاب عنه . ومن الناحية الجوهرية، كانت مجادلته، فى عدة كتب مهمة، أن التثبيت المعرفى للمؤرخين كانت على حساب فهم طبيعة التاريخ بوصفه نصا . وحتى كتابه Why History (1999) كان چينكنز قد اعترف به على نطاق واسع أنه مؤرخ ما بعد حداثى كان ما يزال يرغب أن يشتبك مع الماضى من خلال التاريخ . ولكنه مع كتاب «لماذا التاريخ» غير اتجاهه، مجادلاً باننا يجب الآن أن ننسى التاريخ ونعيش وفقًا للأفكار المقدمة من منظرين آخرين شكاكين معرفيا مثل رولاند بارثيس، وميشيل فوكو، وچاك دريدا، و چين فرانسيس ليوتارد، وچين بودر يللارد، وغيرهم وهو ملتزم الآن، خاصة منذ Refiguring History (2003)، لكى يوجد وينظر حول عالم بدون تاريخ. ومن هذا الموقف برز الاتجاه الجمالى.

الاتجاه اللغوى Linguistic turn

مصطلح مظلة يصف عدداً من الاتجاهات فى الفكر الغربى فى القرن العشرين ولكنه موجود بصفة خاصة فى فكر ما بعد البنيوية، مؤكدا أن الطريق إلى المعرفة يتمركز على دور الجماليات، والخطاب وأشكال التقديم فى اللغة ومن خلالها . ويتمركز الاتجاه اللغوى على السمة التصويرية للغة، والطريقة التى بها يتم خلق أوضاع الموضوع وكذلك تأثيرات الحقيقة داخل اللغة.

العقل والعقلانية Logocentrism

مصطلح يستخدم كثيرا بواسطة چاك دريدا (١٩٣٠-٢٠٠٤م) ويدافع عن التفكيكية فى التاريخ، والأدب، والفلسفة لنقد فكرة أنه يمكن أن يكون هناك أى معنى

ثابت أو مركز للمعنى تم تأسيسه بشكل مستقل للغة، وأن اللغة (خاصة الكلمة المنطوقة) يمكن أن تقدم الحقيقة بشكل صادق.

ما وراء السرد Meta- narrative

حرفيا السرد عن الحكايات، وقد استخدم المصطلح من جانب چين فرانسيس ليوتارد (١٩٢٤) فى كتابه :

The Postmodern Condition : A Report on knowledge (1984)

الذى جادل فيه أن ما وراء السرديات، أو السرديات السائدة، القصص التى حكيت عن كيف حصلنا على المعرفة وبذلك فهمنا التقدم والتاريخ الإنسانى (الهيجلية»، والماركسية، والليبرالية، وحركة التنوير)، وقد وصلت لنهاية حياتها المفيدة فيما هو الآن فترة ما بعد الحداثة . وحقيقة أننا لا نستطيع بعد الآن أن نعتمد على مثل هذه القصص الكبيرة بوصفها علامات كونية نقيس عليها أو نؤكد الحقيقة تميز حالنا فيما بعد الحداثة. وما تبقى لنا «سرديات صغيرة» كثيرة صارت مشروعا بذاتها بشكل فعال.

الحداثة / حداثى Modernism / modernist

من الناحية التاريخية، تصف الحداثة الحركة التى شهدها القرن التاسع عشر والقرن العشرون فى الفن، والثقافة والأدب التى تنتقد فى مصطلحات عامة اليقينيات الوضعية، والموضوعية، والعقلانية، والامبريقية، والمرجعية التى عرفتها حركة التنوير ومن الأمور المربكة، من منظور الفلسفة، أن الحداثة تبدأ برينيه ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠م) وبحثه عن العقلانية فى الفهم، وبذلك تعتبر مشتركة فى مصطلحاتها مع حركة التنوير فى القرنين السابع عشر والثامن عشر. ويفهم ميشيل فوكو (١٩٢٦-١٩٨٤م) الحقبة المعرفية الحديثة على أنها تتألف من تنافر معرفى للإنسانية، مع الإنسان بوصفه نتاج تجربته الاجتماعية على حين أنه أيضا مؤسس المعرفة من خلال الاستنباط .

السرد Narrative

بناء للشرح يستخدم لحكاية الحوادث التى وقعت والأفعال الإنسانية . وفى أساسه العميق يكون السرد التاريخى وسيلة للضم والتجميع لأنه يشرح كيف تحدث

الأمور، وفى أى نظام، وفقا للسبب والنتيجة حسب قاعدة «حدث هذا، ثم حدث ذلك». وعندما يكون السرد التاريخى مبنيا حول حبكة مختارة فإنه يصبح الوسيلة الأولية للنقل، وتأسيس الفهم التاريخى. وما يثور النزاع حوله غالبا هو المدى الذى يمكن أن يتصل فيه السرد التاريخى بالماضى كما كان- أن يقدر على حكاية القصة .

الإمبريقية الجديدة New empirism

هذا هو المصطلح المستخدم بشكل متزايد ليصف «العودة» إلى التأكيد على إمكانية معرفة الماضى فى عصر ما بعد التقديم. وحتميا، يأخذ النقد الأساسى للتاريخ على أنه نشاط إمبريقي وتحليلى بصفة حصرية، والأعداد المتزايدة من المؤرخين البنيويين قد حاولت قلب الأرضية المركزية للتفكير التاريخى والممارسة بمحاولة المزاوجة بين الوعى الذاتى الجمالى واللغوى مع الرغبة فى إعادة تكوين الإمبريقية فى قلب العلم التاريخى. ولم تتخل قط عن الاعتقاد فى الحقيقة الموضوعية وإمكانية معرفتها، فإن الإمبريقيين الجدد حاولوا مؤخرا استعادة قصد المؤلف باعتباره المبدأ الرئيسى الذى يمكن به العودة إلى شكل ما من الحقيقة الخالصة. وعلى أي حال، يبدو من غير المحتمل أن مثل هذه التحركات سوف ترضى الذين يقفون على الطرف الأبعد من المجادلة.

النزعة التاريخية الجديدة New historicism

إحياء الاهتمام منذ أوائل ثمانينيات القرن العشرين فى دراسة النصوص الأدبية داخل سياقها التاريخى. والنزعة التاريخية الجديدة مهمة لكتابة التاريخ لأنها تعول على كم النقد الأدبى ما بعد الحداثة الذى يشك فى قوة اللغة بوصفها وسيطا نقيًا قادرًا على تقديم العالم المادى الماضى بكفاءة . وهى تعترف أيضا أن النص التاريخى يتولد داخل السياق الاجتماعى والمؤسسى الأوسع، وأنه نتيجة لهذا، ليس هناك حقائق مطلقة أو متسامية يمكن اكتشافها، وليست هناك نظريات للتفسير يمكن التحقق منها من خلال الاختبار الإمبريقي. والتمييزات العملية بين النصوص الحقيقية والخيالية يمكن بهذا أن تكون تحت الشك.

الوضعية Positivism

نظرية للمعرفة طورها عالم الاجتماع الفرنسى أوجست كونت (١٧٩٨-١٨٥٧م)

جـزءا من نظريتـه الكبـرى عن التطور التـقـدمى للتـاريخ على ثلاث مـراحل، تبـدأ بالثيوقراطية ثم الميتافيزيقية، ثم تنتهى بالمرحلة العلمية أو الوضعية . والمرحلة النهائية . وتتسم المرحلة النهائية التى رأى أوجست كونت نفسه فيها) بالمعيار الذى يمكن قياسه أو التحقق منه أو الإمبريقي وإمكانية التنبؤ بالعلاقة بين الظواهر المنفصلة . وباعتبارها امتداداً لمفاهيم الإمبريقية، تصر الوضعية على عدم التأمل حول الظواهر الطبيعية ولأن الوضعية تفترض اتساقًا فى المنهج العلمى، فإنها تسمح بالدراسة التحليلية للسلوك البشرى– علم الاجتماع العلمى. وميراث الوضعية بالنسبة للمؤرخين يشاهد بوضوح فى الأشكال الفجة من البنيوية التى يجب على المؤرخين تجميع الأدلة التى تعمل وفقًا لقوانين السلوك الإنسانى. ويفترض فى المؤرخ أن يفعل هذا بموضوعية بدون فرض شىء من جانبه .

ما بعد الحداثة Postmodernism

مصطلح يستخدم فى سياقات مختلفة كثيرة (التاريخ، الرسم، الأدب، هندسة البناء، الموضة، الموسيقى) باعتباره وصفا لانتقادات متنوعة، وردود أفعال تجاه حركة التنوير ونتاجها الثقافى المتمثل فى الحداثة . وبحسب چين فرانسوا ليوتارد (١٩٢٤) فى The Postmoden Condition : A Report of Knowledge تتميز ما بعد الحداثة بشكل مجدد برفضها السرديات السائدة المستخدمة فى العصر التاريخى الحديث لشرح التاريخ والتقدم الإنسانى وتبريره . والنتيجة هى أن عصر ما بعد الحداثة الذى يميزه الإنكار المستلهم من ما بعد الحداثة للحقائق المتسامية والمعانى المثبتة، والحقائق ونظرية التداخل للحقيقة. وما بعد الحداثة مقاربة للفهم تنتج بهذا، من بين أشياء أخرى معتقدات ثابتة، والأسلوب والموضه، والبراجماتية الجديدة فى الفلسفة، والاتجاه اللغوى والتقديم، والنسبية، وتأثير الحقيقة ورد الفعل الذاتى فى التاريخ والأدب، والشكوك حول المرجعية، والإخفاق النهائى للسرد كحالة كافية للتقديم . وما بعد الحداثة تشجع الشك وعدم اليقين، وتتحدى الهيراركية والسلطة وتحسن قبول «الآخر» باعتباره مشروعا .

ما بعد الحداثة Post- stracturalism

يزعم، باعتبارها جزءا من ما بعد الحداثة، أنها خليفة (ورد فعل ضد) البنيوية

وإلهام ما يسمى الاتجاه اللغوى فى الكتابة التاريخية والفهم التاريخى، وتصر ما بعد البنيوية على أن اللغة، بوصفها الشكل الثقافى والفكرى، هى الوسيط لتبادل علاقات القوة (ميشيل فوكو ١٩٢٦-١٩٨٤م) والقوة / المعرفة) والمكون النهائى لـ «الحقيقة» . ويمكن لما بعد البنيوية أن تتعقب خطها من خلال أعمال مخلف الفلاسفة والمؤرخين والمفكرين مثل فردريك نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠م) وبنيدتو كروتشه (١٨٦٦-١٩٥٢) ومارتين هيدجر (١٨٨٩-١٩٧٦م)، وهانز- جورج كادامر (١٩٠٠) وجاك دريدا (١٩٣٠-٢٠٠٤م) وميشيل فوكو (١٩٢٦-١٩٨٤) وجوليا كريستيا (١٩٤١) .

تأثير الحقيقة Reality- effect

مفهوم استكشفه إلى حد ما رولاند بارثيس (١٩١٥-١٩٨٠م) فى مقالته The Dis- course of History (1967 وحجة بارثيس أن الرابطة بين اللغة والتاريخ لا تعتمد على أى اتساق حقيقى بين الأدلة وتأسيسها بوصفها حقيقة تاريخية، وهو ما يعنى أن ما يأخذه المؤرخون على أنه الماضى هو بالفعل كان تأثير الحقيقة الذى تولد عن افتراضنا أن نظرية التواصل مع الحقيقة يسمح لنا أن نعيد بناء الماضى بشكل كاف . ونتيجة لهذا، تصبح فكرة الحقيقة التاريخية أكثر إشكالية بالنسبة للمؤرخين التفكيكيين .

إعادة بناء الماضى Reconstructionism

أحد الاتجاهات الثلاثة الرئيسية فى البحث التاريخى. والمؤرخين من أنصار هذا المذهب يتدرجون من الإمبريقيين المحافظين إلى الواقعيين العمليين الذين يعتمدون بصفة أولية على موقفهم تجاه صلاحية وممارسة الإمبريقية باعتبارها المنهج التاريخى الأساسى والمزيد من التوصيف الدقيق مسألة معقدة، أخذين فى الاعتبار اعتمادها على مواقف المؤرخين تجاه استخدام الأدلة والمرجعية وما إلى ذلك، ولكن بصفة خاصة على كيف يصورون دور اللغة والسرد باعتبارها عناصر معرفية فى إعادة بناء الماضى.

المرجعية Referentiality

مصطلح استخدم للدلالة على اعتقاد عام فى التناسب المسلم به أو الكافى بين الحقيقة (الحدث، الشخص، الشىء العملية) ووصفها (التعبير اللغوى) وتعلم البنيوية أن

الكلمات ليست دلالات تتصل بأية طريقة طبيعية باشاراتها المرجعية - الأشياء التى تشير إليها من حيث أن العلاقة بين الكلمة والعالم اعتباطية - وهكذا ينتج عن ذلك أن أية مرجعية مفترضة فى اللغة تكون نتيجة تثبيتها فى اللغة بواسطة الاستخدام العرفى. هذا الموقف يعقدٍّ ترجمة الحقائق إلى تفسير بقدر ما يجعل من غير الممكن افتراض أن المرجعية يمكن أن تمتد إلى ما وراء المستوى الأساسى.

النسبية Relativism

فكرة أن معيارا مضبوطا إزاء علامة ثابتة مستحيل فى الممارسة يؤدى إلى مفهوم عدم اليقين. وفى التاريخ، استمر الجدل النسبى على مدى سنوات عديدة بين الامبريقية المحافظة ونزعة إعادة بناء الماضى المتأثرة بالوضعية، ونموذجهم عن التاريخ الثابت والموضوعى للماضى، وأولئك الذين يعتقدون أن التاريخ الذى يكتبونه نتاج لسردهم وحاضرهم، بقدر كونه حقيقة الماضى.

التقديم Representation

أى علاقة، أو كلمة، أو جملة، أو خطاب، أو صورة، أو صوت أو فعل قصد به أن يصور أو يحدد ملامح شئ آخر، هو فعل من أفعال التقديم . ونظرية تواصل الحقيقة تأخذ التقديم إلى أن يكون أقرب إلى التأمل منه إلى التشابه. وبالنسبة للمؤرخين التقديم مفهوم مهم من حيث أنه يشكل الآلية التى تسمح للإمبريقية أن تعمل . وهناك افتراض فعال يفترض أن اللغة وسيط كاف للتقديم فى عملية بناء الماضى . والأساس الإمبريقى للتاريخ يفند على هذا النحو الافتراض التفكيكى أن الحقائق مصطنعة حرفيا ومن ثم، تنفتح مثل جميع النصوص على انتقادات ما بعد البنيوية على مستوى الرابطة المسلم به بين الحقيقة وتقديمها فى اللغة.

العلاقة بين الدال والمدلول Signifier- signified- sign

وفقا للنموذج البنيوى للغة الذى اقترحه فردينانده سوسير (١٨٥٧-١٩١٣م) الكلمات «علامات» محددة فى اختلافها عن كلمات أخرى، وليس بسبب أي رابطة طبيعية بين العالم الحقيقى للأشياء والموضوعات . وتبنى العلامات من الدال والمدلول مع الكلمة أو المفهوم باعتبارها دالاو الشىء المقدم بوصفه مدلول. والطبيعة الاعتباطية

لعلاقة الدال بالمدلول تنبع من تكوينها الاجتماعى أو الثقافى . وعلى الرغم من أن المؤرخين يستخدمون باستمرار الكلمات كما لو كانت مرجعية بشكل صارم، فإنها تقوم على معانى مخترعة غالبا ومشتقة من قيم ثقافية مقبولة على نطاق واسع، حسبما يجادل ميشيل فوكو (١٩٢٦-١٩٨٤م) تتعلق بعلاقات القوى المؤسسة داخل البنى الاجتماعية. عدم اليقين الكامن هذا فى المعنى هو الذى طوره چاك دريدا (١٩٣٠-٢٠٠٤م)، لكى يجادل أنه من المستحيل أن نكتب سرديات صادقة باعتبارها تفسيرات تاريخية، لأنه ليس هناك أصل معين بالمعنى اللغوى.

البنيوية Structuralism

حركة فكرية واسعة وصلت ذروتها فى فرنسا فى ستينيات القرن العشرين وفكرتها الأساسية، مشتقة من أعمال فرديناند دى سوسير (١٨٥٧-١٩١٣م) فى اللغويات، أن العلاقة بين الخطابات، والأشكال الثقافية، ونظم الاعتقاد والسلوك يمكن فهمها باستخدام بناء اللغة نموذجًا . وفى الممارسة، يعنى هذا أن المعنى الاجتماعى يتولد وفقا للتناقض بين المتناقضات الثنائية التى تعمل فى المستوى العميق من الوعى الإنسانى وينكشف فى العالم الحقيقى فى بناء القواعد النحوية، والأساطير، والعلاقات الجنسية وما إلى ذلك. وبالنسبة للتاريخ يعنى أن معلومات تفهم بصفة أولية من خلال أبنيتنا اللغوية الذهنية بدلاً من أن توجد فى المعلومات الإمبريقية الخارجية . ومن المحتم أن هذا يلقى الشك على مفهوم التغيير الثورى، والموضوعية العلمية، والبحث المحايد عن الحقيقة، والمرجعية ونزول البنيوية إلى ما بعد البنيوية ربما كان له تأثير أعظم على كتابة التاريخ التفكيكى.

التصوير المجازى Trope / figuration

يؤخذ على أنه صور للكلام (مجاز فى المحل الأول، والكناية، والمجاز المرسل والسخرية، ولكننا سوف نضمّن أيضا المتغيرات مثل التشبيه، والصيغ البلاغية الأخرى) التى تستخدم الكلمات بطريقة لترجمة المعنى. ويعمل المجاز عند المستوى العميق فى الفكر الإنسانى بالمعنى الذى قصده سوسير بخلق المعنى من خلال التعارضات الثنائية، وكما استخدمها ميشيل فوكو بمعنى الآخر، أو الاختلاف فى أي

فترة تاريخية . وفى كتاب Metahistory فحص هايدن هوايت نظرية التخيل التاريخى فى أوربا القرن التاسع عشر. وبواسطة الاستقراء على المستوى الثقافى قد نعرِّف البنى السطحية والعميقة للتخيل التاريخى. ويمكن للعملية المجازية أن تمتد لتشمل خلق مجازات كبرى لماركس باعتبارها أساس تفسير كلى للتغير التاريخى، أو لخلق نماذج أخرى من التغير التاريخى تعتمد على العلاقات الأساسية بين الجزء والكل أو بين الكل والجزء . وهكذا يمكن للمجازات أن تعتبر فى قلب كل فترة تاريخية وفى وصفها .

هوايت هايدن (١٩٢٨) Hayden،White

أعمال هايدن هوايت الرئيسية عن التاريخ توجد فى كتابه المثير Metahistory وكتاب Tropics of Discause وكتاب The Content of the Form وكتاب Figural Realism : Studies in the Mimesus Effect

فى هذه النصوص وكثير غيرها، فحص هوايت الرابطة بين ما يشير إليه على أنه التخيل التاريخى وخلق السرد التاريخى. وهوايت معروف على أحسن وجه بمجادلته أن التاريخ نتيجة التخيل التاريخى وبنيته المكتوبة بقدر ما هو مكتشف فى السجلات ويتصل بهذا أنه يصرُّ على القول إن التاريخ لا يتماشى مع قصة موجودة سلفًا . وبعبارة أخرى، ليس هناك معنى مبنى فى الماضى . ومن ثم، فإن دور المؤرخ أن يقدم . ويصر هوايت على أننا نؤثر على قصصنا عن الماضى لأسباب معينة معرفية فى جوهرها، وسوف تكون أيضا خلقية وأيديولوچية . وعلاوة على ذلك، فإن أساس منطق التاريخ يوجد فى قوة التصوير كما هو الحال فى جميع أشكال الأدب. وهكذا فإن منطق التاريخ ليس أساسا بشأن الإمبريقية والاستدلال ؛ إنه فى الحقيقة بشأن بنائه باعتباره حرفة أدبية تنطوى على حبك الماضى بوصفه قصة من نوع معين .

المؤلف فى سطور:

* ألوان مونسلو ALUN MUNSLOW

* أستاذ التاريخ والنظرية التاريخية الزائر فى جامعة شيشستر Chichester ، والمحرر الممثل للمملكة المتحدة فى مجلة Rethinking History : The journal Of theory: and Practice.

* محرر مشارك لكتاب Experiments in Rethinking History (2004) ، وكتاب The Nature of History Leader (2004)، له إسهامات أيضا فى مجال التأليف والنشر.

المترجم فى سطور:

- د . قاسم عبده قاسم.

- أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الزقازيق.

- له عدد كبير من المؤلفات فى الفكر التاريخى : منها البحث التاريخى (٢٠٠٠ م) ، وتطور الفكر التاريخى (٢٠٠٤ م) ، وقراءة التاريخ (٢٠٠٩ م) ، وله أيضا ترجمات منها : ما التاريخ الان (٢٠٠٥م) ، ونظرات جديدة فى الكتابة التاريخية (٢٠١٠ م) .

- حصل على جائزة الدولة التشجيعية (١٩٨٣ م) ، وجائزة الدولة للتفوق (٢٠٠٠ م)، وجائزة الدولة التقديرية (٢٠٠٨ م) .

التصحيح اللغوي : أسماء الشاذلى
الإشراف الفنى : حسن كامل